
أول الرواد
إبراهيم أسعد محمد
MUSTAPHA.
HOSAM.ELD

أول الرواد

تأليف

ابراهيم أسعد محمد

١٩٨٠

الناشر

مؤسسة المصري للكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« يبدو أن ليبيا (افريقية) يحيط بها البحر من كل جانب ، فيما عدا الجزء المتصل بآسيا . وقد كان الملك نيخاو ، ملك مصر ، أول من أثبت هذه الحقيقة فى حدود علمنا ، إذ أنه حينما توقف عن حفر القنال ، التى تصل من النيل إلى الخليج العربى ، أرسل بعض الرجال الفنيقيين فى سفن آمراً إياهم أن يعودوا بحرا من بين أعمدة هرقل (جبل طارق) حتى يأتوا إلى البحر الشمالى (البحر الأبيض) وبالتالى إلى مصر ، وأبحر الفنيقيون على ذلك من البحر الأحمر إلى البحر الجنوبى (بحر العرب والمحيط الهندى) وكلما حل الخريف رسوا على الشاطىء ، كل مرة وزرعوا الأرض حيثما يكونون فى ليبيا كلما ارتحلوا ، وانتظروا وقت الحصاد . وبعد أن يحصدوا القمح ينشروا شراعاتهم حتى أنهم بعد مضى سنتين ، وصلوا إلى أعمدة هرقل . فى السنة الثالثة عادوا إلى مصر . ورووا أشياء ربما يصدقها غيرى لكننى لا أصدقها ، أعنى أنهم أثناء إبحارهم حول ليبيا أضحت الشمس عن يمينهم . وبهذا عرفت ليبيا لأول مرة »

هذه ترجمة حرفية لما ورد فى كتاب هيرودوت عن الالتفاف حول افريقيا فى أول رحلة إستكشافية فى العالم فى حدود ما أعلم . والنص كما هو واضح مبتسر ، شديد الاختصار ، لا يفى ذلك العمل العظيم الذى قام به المستكشفون حقه ، كما أن المعلومات التى يزودنا به هيرودوت لا تغنى كثيراً. فهل يمكن استخلاص شىء من هذه الفقرة القاصرة ؟

دعونى أقرر أولا أن هيرودوت أثبت أنه مؤرخ صادق ، فهو ناقل

غير محرف لما يرى ، ولما يسمع ، لكن الأمر هنا أنه ناقل من شخص آخر لأنه لم يشاهد الحادثة إنما سمعها من آخرين . فهل هؤلاء صادقون ؟

لم يقل لنا هيرودوت ممن جاءه النبأ ، وعهد نخاو الفرعون الذى نسبت إلى زمنه الواقعة ، يسبق عصره بحوالى القرن ونصف ، وربما أصاب النقل بعض التحريف كما يحدث عادة فى تناقل مثل هذه الروايات . فالى أى مدى يمكن الاعتماد على ما كتبه هيرودوت مع العلم بأنه لم يرد فى كتابات الأقدمين أو آثارهم أى نص آخر فى حدود ما أعلم ؟

لنبدأ بتحليل ما يمكن أن نستخلصه من النص .

أولا : حدثت هذه الواقعة خلال عهد نخاو فرعون مصر الذى حكم فيما بين سنتى ٦٠٩ ، ٥٩٣ قبل الميلاد .

ثانيا : تمت الرحلة بناء على أمر الفرعون نفسه .

ثالثا : إن من قام بها فنيقيون .

رابعا : إن الرحلة استغرقت ثلاثة أعوام .

خامسا : إن من قاموا بها كانوا يرسون على الشاطىء كل خريف يبذرون القمح ويحصدونه ثم يعاودون الإبحار .

سادسا : إنهم فى إبحارهم أضحت الشمس عن يمينهم ، وهذه الواقعة هى التى ينكر هيرودوت تصديقها .

سابعا : إن معنى هذا أنهم توصلوا إلى معرفة أن افريقيا يحوطها البحر من كل جانب فيما عدا الجزء المتصل بآسيا .

هذه هى كل المعلومات التى يستطيع الشخص أن يستخلصها من النص ، فهل تكفى لأن نحكم على الرواية بالصدق أو الكذب ؟

الواقع أن لدينا معلومات الآن يمكن أن نضيفها إلى ما سبق تمكننا إلى حد بعيد من صحة الحكم . فنحن نعلم مثلا أن طوال الساحل الافريقى أكثر من ١٣٤٢٥ ميلا ومعنى هذا أنه يجب أن يقطع الرحالة بين عشرين وخمسة

وعشرين ميلا فى اليــوم لكى يكملوا المسافة فى سنتين وبضعة أشهر مع احتساب توقفهم مرتين كل خريف للزراعة والحصاد . . فمدة الرحلة إذاً معقولة .

ونحن نعلم أيضا أن من يتعدى خط الاستواء تصبح الشمس عن يمينه ، وهو الذى لم يصدقه هيرودوت مع أنه دليل الصحة القاطع بالنسبة لنا .

ونحن نعلم الكثير عن أنواع السفن التى كانت مستعملة فى ذلك الوقت ، وقوة احتمالها ، وعدد الأشخاص الذين يمكن أن تقلهم ، وسرعاتها ، كما نعلم كل ما يتعلق بالتيارات المائية ، ومناطق الزوابع ، والعواصف ، ومواعيدها ومناطق الساحل الأفريقى التى يمكن أن يتم زرعهــا بالقمح فى الخريف ، ومواعيد الخريف فى كل منها .

لدينا إذاً حصيلة ضخمة من المعلومات يمكننا أن نطبقها عــلى رواية هيرودوت ، ونستطيع من خلالها أن نحكم على مدى صحة الرواية . وقد حكمنا فعلا فى نقطتين منها بالصحة . فمدة الرحلة ثلاث سنوات هى مدة معقولة ، ووضع الشمس إلى اليمين يؤكد القيام بالرحلة . وأخيرا إنهم قطعوا بأن افريقيا يحوطها الماء من كل جانب فيما عدا الجزء الملاصق لآسيا واقعة جغرافية صحيحة أيضا .

بقيت نقطة فى رواية هيردوت تحتاج إلى مناقشة ، تلك هى قوله إن الذين قاموا بالرحلة فنيقيون . لا شك أولا أن هيرودوت نفسه صادق فيما نقله ، لكن من روى له الحادث مجهول لدينا ، ومن الجائز أن يكون غير صادق . فالمعيار إذاً هو من وزن الواقعة بغض النظر عن الراوى .

أبدأ فأقول إن معظم المؤرخين يرجحون صحة ما ورد على لسان المؤرخ العظيم ، وحجتهم فى هذا أن هو نفسه شخص صادق ، وأن المصريين ، كما يدعون ، شعب غير بحرى ، شعب التصق بأرضه لا يحب الابتعاد عنها ، أو

المغامرة في حين أن الفنيقيين شعب لا شك أنه بحرى ، وأنه كذلك يحب المغامرة ، والاستكشاف .

وأخالفهم الرأى . لكن قبل أن أضع أسانيدى أود أن أوضح أن عصر هيرودوت كان لاحقا على العصر الذى نسبت إليه الرواية بأكثر من مائة وخمسين عاما ، وفى هذا القرن ونصف حدثت أشياء كثيرة ، وربما كان أهمها أن مصر أضحت مهلهلة تماما تحت نير الحكم الفارسى ، فنظرته إليها لم تكن النظرة التى كان يمكن أن ينظر بها إليها لو أنه عاصر الواقعة ، وهذا ما دفعه إلى عدم التحقيق بمن قام بالرحلة ، أو حتى فى تفصيلاتها .

وثمة نقطة أخرى يجب أن نوضحها . تلك هى استعراض سريع لتاريخ مصر المعاصر للواقعة . كانت البلاد تحت سيطرة الأشوريين بعد أن غزاها أشور بانيبال ، وظهر بسماتيك الأول ، وطردهم من شمال البـــلاد ، كما طرد الأثيوبيين من جنوبها . وبدأت مصر عهدا جديدا زاهيا تحت حكم الأسرة السادسة والعشرين . التفت الفرعون بعد ذلك إلى تقوية جيشه ، ورخـــاء البلاد ، وما حلت سنة ٦٤٠ ق . م حتى أحس بقدرته على تجديد الغزوات فى آسيا فبدأ بغزو فلسطين ، وحاصر أشدود لعدة سنوات إلا أنه اضطر أن يوقف مشروعاته ، نظراً لغزو السيثيين الذين جاءوا من الشمال بعد أن زحفوا إلى أشور ، واقتربوا من حدود مصر .

فى سنة ٦٠٩ ق . م توفى بسماتيك الأول تاركا لابنه نيخاو بلدا يعمها الرخاء وجيشا قويا . بدأ الفرعون الجديد حكمه بمحاولة تحقيق ما كان يصبو إليه والده العظيم ، فشيد أسطولا ضخما فى البحر الأبيض المتوسط ، وآخر فى البحر الأحمر وبدأ يغزو فلسطين فى السنة الأولى من حكمه فاستولى على غزة ، وعسقلون ثم زحف شمالا إلى مقاطعة يهوذا . وظن ملك يهوذا المدعو يوشيا أنه سيتمكن من التغلب على مصر فجمع جيوشه ، وهجم على القوات المصرية بسهل مجدو حيث وقعت أول معركة حربية منذ تسعمائة سنة تمكن

بها المصريون من إخضاع آسيا . وانتهت هذه المعركة بهزيمة يوشيا التامة ، وتمكن نيخاو بعد ذلك من إخضاع سوريا كلها وبلغ مدينة ربلة على نهر الأورونط خلال مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر من تاريخ المعركة .

لم تدم امبراطورية نيخاو الآسيوية أكثر من سنتين إذ هزمه البابليون تحت قيادة نبوخذ نصر سنة ٦٠٥ ق . م بجهة كوكيس ثم استولى على بيت المقدس سنة ٥٩٦ ق . م واضطر نيخاو أن يتراجع إلى حدود مصر . بعد هذا اكتفى نيخاو بترقية تجارة مملكته ، وتوسيع المشروعات فأعاد حفر القناة ، التى كانت توصل فرع النيل الشرقى بالبحر ، إلا أنه أوقفه بعد أن هلك فى سبيل تنفيذه عدد كبير من المصريين . ثم جاءت الرحلة التى نحن بصددها فى أواخر حكمه حيث توفى سنة ٥٩٣ ق . م .

على ضوء ما تقدم أعود إلى سرد أسانيدى فى مخالفة ما ورد على لسان هيرودوت أن القائمين بالرحلة كانوا من الفنيقيين .

أولا : لم تكن مصر بلدا ضعيفا ، إنما كانت دولة قوية لها أسطوليها فى البحر الأبيض والبحر الأحمر ومعنى هذا أنها لم تعدم الملاحين ، والبحارة القادرين ، اللهم إلا إذا وصلت المبالغة إلى حد الادعاء بأن البحارة فى الأسطولين كانوا من الفنيقيين ، وما نحسب أن هذا ممكنا . لم يكن نيخاو إذاً بحاجة إلى أن يعهد بمثل هذه المهمة الجليلة إلى الفنيقيين دون أهل بلده .

ثانيا : إن جزءاً كبيراً من الرحلة كان معروفا لقدماء المصريين منذ أكثر من ألفى سنة على الأقل إذ أن الفرعون بيبى الأول من ملوك الأسرة السادسة كان يرسل قائده البحرى ننخت حوالى سنة ٦٠٠ ق . م . إلى بونت ، الصومال ، وبذلك فإن الملاحة فى البحر كله ، والقرن الأفريقى وساحل الصومال ، كانت معروفة تماما للمصريين ، فى حين لم أسمع عن دور فعال للفنيقيين فى الإبحار فى هذه الناحية .

وإذا أضفنا إلى هذا أن القدماء لم يكونوا يتصورون أن الرحلة تبلغ هذا

المدى من الطول إذ أن ظنهم كان أن نهاية افريقيا كانت منابع النيل حيث يلتق بالأوقيانوس لعلمنا أن تصورهم أنهم كانوا يعرفون معظم أجزاء الرحلة وليس جزءاً يسيراً . إذا أضفنا هذا إلى ما سبق لوجدنا أنهم لم يكونوا فى حدود علمهم فى حاجة إلى طلب معونة الفنيقيين .

أما الادعاء بأن المصريين قوم فلاحة يرتبطون بأرضهم ولا يتمتعون بروح المغامرة والاستكشاف ، فهو إدعاء غير صحيح ، ويكفى هنا أن نذكر الرحلات التى قام بها حرخوف فى عهد بيبى الثانى حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م إلى أواسط القارة الإفريقية ، ورحلات سنوحى ، والرحلات التى كانت ترسلها الملكة حتشبسوت وعشرات غيرها لندلل على عدم صحة هذا الادعاء .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فإننا نعرف أن نيخاو أنشأ أسطولا فى البحر الأبيض المتوسط ، وأنه بدأ حياته الفرعونية بالهجــوم على فلسطين ، وسوريا ، ولا يتصور أن الأسطول المصرى كان مكونا من فنيقيين أيضا إذ لا يعقل أن يجندهم الفرعون لغزو بلدهم . فإذا كان بحارة الأسطول وجنوده من المصريين ، فما حاجة الفرعون إلى الالتجاء إلى الفنيقيين للقيام بالرحلة الاستكشافية وعنده جنوده ، وبحارته ؟

نقطة أخرى ... إن هيرودوث قرر أن نيخاو كلف الفنيقيين بالرحلة ولو أنه ضم إليهم مصريين ، ويونانيين ، مثلا لكان ذلك أقرب إلى المنطق أما أن يقصر البحارة على الفنيقيين فحسب فما لا نجد معه أى سبب مع وجود مبررات قوية تعزز إرسال المصريين على الأقل .

كانت الدولة البحرية التالية فى البحر الأبيض هى اليونان ، ومن المعروف فى التاريخ أن بسماتيك الأول ، وتلاه نيخاو ، كانا يميلان إلى الجنود المرتزقة اليونانيين بالذات وأنهما استخدماهم فى كثير من الحصون المصرية ، وأن جاليات يونانية كثيرة عاشت فى مدن الدلتا ، بل والوجه القبلى ، وأثرت ثراء كبيراً فى التجارة ، وما كان من المتصور أن يقبل الجنود اليونانيون ،

أو الجاليات اليونانية أن يعهد نيخاو إلى الفنيقيين ، وهم منافسوهم فى التجارة والبحر، بالرحلة دون أن يكون لهم القدح المعلى ، أما إذا كان البحارة المصريون هم الذين سيقومون بالرحلة فلم يكن يستطيع اليونانيون ، أو غيرهم المناقشة .

على هذه الأسس إذاً سوف أبنى قصتى ، أو على الأصح تصورى ، لما كان يمكن أن يحدث فى مثل هذه المغامرة الغريبة ، والتى لا يضارعها فيما اعتقد أية مغامرة أخرى فى التاريخ . ويكفى أن نتصور قيام جماعة مثل هؤلاء برحلتهم الاستكشافية إلى مناطق مجهولة تماما فى سفن ليس فيهـــا الاستعدادات الكافية لأى سبل الراحة ، بل ولا تستوعب الضروريات اللازمة للحياة ، ليكافحوا الأعاصير والأمواج ، والزوابع ، والقيظ الشديد والجوع والعطش ، والإرهاق ، وليقاتلوا وحوش البحر ، والبحر ، وربما القبائل المعادية أيضاً فى أراضى لا يعلمون عنها شيئا ولمدة غير محدودة بالنسبة لهم . إن كان هنالك ما يضارع هذه الرحلة شجاعة وإقداما فإننى لم أسمع عنه .

الفصل الأول

الاستعداد للرحلة

تقرير مرفوع إلى أعتاب جلالة فرعون مصر العظيم بسماتيك الثانى له الحياة ، والصحة ، والقوة ، من عبده المطيع كين ايم حتب نائب قائد الرحلة التى تمت بحراً حول ليبيا .

هذا تقريرى أرفعه إلى جلالة الفرعون بسماتيك الثانى(١) ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، عن أعجب رحلة قام بها بشر حتى الآن .

استقيت التقرير من مذكراتى اليومية التى كنت أسطرها باخلاص ، بعد أن استبعدت منها الوقائع غير الهامة التى لا تتعلق بموضوع الرحلة ، ولا أثر لها فى سير الحوادث . وفيما عدا هذا لم أترك صغيرة ، أو كبيرة إلا نقلتها بأمانة ، حتى أعرض على جلالتكم صورة كاملة ، حية لما رأيناه ، ولاحظناه من المخلوقات الغريبة ، والحيوانات المتوحشة ، وما لاقيناه من مخاطر ، وأهوال ، ورأيى فى احتمالات التجارة . والاستغلال لهذه المناطق الشاسعة المجهولة .

كما تعلمون جلالتكم ولا شك ، أن جلالة والدكم العظيم ، الذى أرجو أن يكون متمتعاً بما يستحقه من نعيم مع الآلهة ، كان قد كلف أمير البحر كام ـ أور ـ أن يقوم برحلة بحرية تبدأ من الخليج العربى (البحر الأحمر) على أن تنتهى فى البحر الأخضر العظيم الشمالى (البحر الأبيض) ، وترك له

---

(١) ان الذى أمر بالرحلة أصلا هو نيخاو الأول لكن الرحلة استغرقت ثلاث سنوات ولم يعد القائمون بها إلا فى عهد خلفه بسماتيك الثانى .

حرية اختيار أعوانه ، وملاحيه . ولما كان كا — لم أور هو القائد الأعلى للأسطول ، وكنت معاوناً له فى الحرب التى شنها جلالة والدكم العظيم ضد سكان كوميدى (شمال فلسطين) ورتنو ، والفنخو (السوريون) كان من البدهى أن ينتقل تفكيره إلى اختيارى معاوناً له كذلك فى هذه الرحلة العجيبة.

جاءنى رسوله عصر اليوم السادس من الشهر الأول من شهور شمنو فى السنة الثانية عشر من حكم جلالة والدكم ، فرعون مصر العظيم جلالة الفرعون نيخاو الثانى له الحياة ، والصحة ، والسعادة(١) . وكنت أكاد أفرغ من تدريبى اليومى فى المبارزة بالخناجر ، فطلبت من الرسول أن ينتظر قليلا . ولما انتهيت اتجهت إليه ، وسألته فأجابنى بأن سيده يلتمس حضورى إلى قصره فوراً .

عجبت من الطلب إذ لم أكن قد رأيت كا — لم — أور منذ أكثر من خمس سنوات لكننى لا أحسب أن شيئاً من الدهشة التى اعترتنى قد ظهر على وجهى ، وأنا أجيبه بأنى سألحق به فوراً . من البدهى أنى لم أكن أعلم شيئاً عن سبب استدعائى الفجائى ، إلا أن علاقتى بـكا كانت وطيدة بالرغم من انقطاعنا عن التزاور ، وكنت أكن له كل محبة واحترام منذ أن كان قائدى فى حملة الأسطول على بلاد رتنو .

اعتذرت عن موعدى التالى مع مدرب المصارعة ، وأسرعت بالاغتسال ، وارتداء ثيابى ، ثم توجهت إلى قصر قائدى السابق . يبدو أن الخدم كانت عندهم أوامر سابقة ، إذ أنهم أدخلونى بمجرد أن ذكرت اسمى ، دون أن

---

(١) قسم الفراعنة السنة إلى ثلاث فصول بكل منها أربعة أشهر وهى شمنو ، ويبدأ بشهر مارس لينتهى فى يونيو ، وآخت ويبدأ فى يوليو لينتهى فى أكتوبر ، وبرت ويبدأ فى نوفمبر لينتهى فى فبراير . كما حكم نيخاو الثانى مصر فى الأسرة السادسة والعشرين ابتداء من سنة ٦٠٩ ق . م حتى وفاته فى سنة ٥٩٤ ق . م وبذلك تكون السنة الثانية عشر من حكمه هى سنة ٥٩٦ ق . م ويكون التاريخ المشار إليه هو الثانى من مارس سنة ٥٩٦ ق . م .

يعتنوا بإعلانى لسيدهم . والواقع أن قائدى السابق كان فى انتظارى ، فما كدت أدخل إلى القاعة الفسيحة حتى تقدم هاشا مرحبا ليتلقانى فى أحضانه كالأب الرفيق ، ثم ابتعد عنى قليلا وأخذ يتأملنى بينما وقفت مبتسما صابرا .

— إنك تغيرت كثيراً يا كين ، يخيل إلى أنك ازددت طولا ، لكن هذا أستبعده . الذى لا شك فيه أنك ازددت عرضا ، فامتلأت أكتافك ، وصدرك . ولست أحسب أن فى هذا الامتلاء رطلا واحداً من الشحم . لابد أنك قوى كالثور .

اتسعت الابتسامة على شفتى رغما عنى .

— وأنت نفسك يا كا لا بأس بك فما زلت محتفظا بشبابك ، وقوتك ، كما أنك تبدو فى أحسن صحة .

والواقع أن كا لم يبد عليه أى تقدم فى العمر بالرغم من أنه قد أضحى فى حدود الخمسين . كان يقاربنى طولا ، ولا يقل كثيراً فى عرض كتفيه ، ولم ألحظ شعرة بيضاء واحدة فى شعر صدره الكث ، أو شعر يديه ، أما رأسه فكانت حليقا ، لم يعتن أن يضع عليه شعراً مستعاراً . وجاءنى صوته قويا .

— لكننا لن نقف وسط القاعة طوال الليل ، تعالى هنا إلى جانبى على الأريكة ، ودعنا نستعيد ذكريات الماضى ، وأسألك عن أحوالك .

أمسكنى من ذراعى يقودنى إلى أريكة خشبية ، وضعت عليها وسائد مزركشة . ولم نكد نجلس حتى دخل القاعة أحـــد العبيد يحمل شراباً ، وأقداحاً وضعها أمامنا على المائدة ، ثم انصرف . صب كا قدحين من النبيذ من الإناء الفخارى الجميل ثم اعتدل فى جلسته .

— خبرنى ماذا فعلت بنفسك طوال هذه السنين ؟ هل أنت متزوج ؟

— كلا .

— لماذا ؟

— ربما لم ألق الفتاة التى تناسبنى .

— لكنك لابد قد تخطيت الثلاثين ، متى تعتزم الزواج إذاً ؟

— حينما تشاء الآلهة .

لم أخبره أنى تزوجت ، وأن زوجتى هربت مع أحد زملائى السابقين فى البحرية ، ولم يمض على زواجنا شهران ، وانى كرهت الزواج بعد ذلك ، ربما كان يعلم ، وربما لم يكن يعلم ، على أى حال فإنه لم يستمر فى الحديث عن النساء .

— خبرنى إذا ماذا تفعل بنفسك الآن ؟

— لا شىء ، أقضى وقتى فى القراءة ، والصـيد ، والقنص ، وممارسة الرياضة ، والتدريب على السلاح عسى أن يحتاجنى جلالة الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، فى حروبه القادمة .

قطب كما ما بين حاجبيه .

— أجل إن الحال لا يبشر بخير ، فالبابليون أضحوا على أعتاب تامرى (مصر) يدقون بابها بالسيوف والدروع ... دعنا من هذا الآن وتناول بعض النبيذ ... ما رأيك فيه ؟ إنه ورد من مزارعى ، وأنا أعتقه شخصيا ..

بالرغم من الطريقة التى استدعيت بها ، والعجلة التى طلب بها حضورى بعد غياب خمس سنوات ، فإنه الآن لم يكن يبدو عليه أى استعجال لأن ينهى إلى سبب هذا الاستدعاء المفاجىء ، ولم أكن أنا فى عجلة من أمرى ، فلم يكن لدى أى ارتباط كما أنى صبور بطبعى ، وما على إن انتظرت قليلا . ولم يطل انتظارى . اعتدل قائدى السابق وتفرس فى وجهى وقال وقد ارتسمت عليه علامات الجد .

— كين ما رأيك فى مغامرة فريدة لم يسبق إليها أحد ؟

بقيت نظرتى ثابتة لا تتغير ولم أجب على السـؤال منتظراً أن يزيدنى إفصاحا .

— إنى كنت فى الصباح فى حضرة جلالة الفرعون ، له الحياة ، والصحة ،

والقوة ، وكلفنى بمهمة غريبة هى أن أقوم برحلة بحرية حول ليبيا(١) فأبدأ من بحر العرب (البحر الأحمر) لأعود إلى تامرعن طريق البحر الأخضر الشمالى(البحر الأبيض) فما رأيك أن تصحبنى ؟ .

كنت أتوقع كل شىء إلا هذه فلم تخطر لى على بال . صحيح أننا كنا نعلم بشكل ، أو آخر أن ليبيا تحوطها المياه إلا من ناحية آسيا ، لكننى لم أسمع ، أو أقرأ ، مطلقاً أن شخصاً قام بهذه الرحلة . كانت مجرد أقوال لا يدعمها أى دليل ، أو برهان . على أنه إذا كانت الدهشة قد اعترتنى فاننى لا أحسب أن قسمات وجهى أنبأت كا بشىء ، وحينما تكلمت جاء دور صديق فى الدهشة .

— لماذا ؟ :

— انظر إلى تامرى الآن . إن البابليين فى الشرق ، والشمال قد استولوا على رتنو ، وكوميدى ، وقد حالفهم الإسرائيليون . وإلى الغرب توجد قبائل الطومياح التى ما زالت تشن هجماتها المتكررة على الحدود . وإلى الجنوب توجد دولة نباتا القوية ، وفى البحر الأخضر العظيم الشمالى (الأبيض) تجوب سفن الأكوايوشيا (٢) بل وتوجد جنودهم فى تامرى نفسها فلا تستطيع أن تغضبهم ، وقد أغلقت سفن قرطاجنه بحر الشمال من ناحية الغرب . أين نستطيع أن نتوجه ؟ إننا يلزمنا جيش ، وأسطول قويان لمواجهة كل هؤلاء وهذا يحتاج إلى مال ، ومناجم الذهب لدينا نضبت أو كادت ، كما أنه ليست لدينا أشجار تنفع لصناعة السفن البحرية . هل لدينا وسيلة لفك الحصار الذى يطبق علينا يكاد أن يزهق أنفاسنا سوى محاولة إيجاد مصادر جديدة للذهب والأشجار ؟ وأين هذا إلا فى جنوب ليبيا ، وربما غربها ؟

أنهى كا محاضرته الطويلة ، وانتظر . والواقع أننى كنت أفكر فيما قاله .

---

(١) كانت افريقيا قديما تعرف باسم ليبيا .

(٢) اليونان .

إن كل ما ذكره صحيح بل إنى شخصياً طالما فكرت فيه ، وإن لم يذهب تفكيرى إلى حد محاولة الالتفاف بحريا حول ليبيا .

— إنى أوافقك من حيث المبدأ ، ربما كان فى ذلك مخرج من المأزق الذى نحن فيه ، لكن هل فكرت فى الصعوبات التى تعترض التنفيذ ؟

— إنى لم أفكر فى شىء آخر منذ أن كلفنى الفرعون بهذه المهمة فى الصباح ، وكلما فكرت تجلت لى الصعوبات والأخطار . لكن هل هذا سبب كاف لأن ننفض يدنا من المهمة ؟

— كلا .

— إذاً فأنت معى ؟!

— أجـــل .

— حسنا فلنفكر إذاً سوياً فى التنفيذ . إن الفرعون له الحياة ، والصحة والقوة ، قد ترك لى الحرية التامة فى أن أختار من أشاء من الرجال ، كما وعدنى بكل ما أطلب من إمدادات سواء لأخشاب السفن اللازمة أو المؤن أو العمال أو السلاح .

— ماذا عن السرية ؟ لا أعتقد أن مثل هذا العمل يمكن أن يبقى فى طى الكتمان .

— أنت مخطىء . إننا سنذيع أننا سوف نقوم برحلة إلى بلاد بونت (الصومال) لاستحضار بعض الأخشاب ، والبخور ، والتجارة عموما ، ولن يعلم أحد حتى من البحارة والضباط ، الغرض الحقيقى من الرحلة إلا بعد أن نبحر من بونت .

كان على حق . إن اتصالنا ببلاد بونت لم ينقطع . صحيح أن الرحلات البحرية إليها قد توقفت منذ زمن ، إلا أن القوافل البرية كانت ما تزال مستمرة عبر واوات (السودان) وإن كان عاهل نباتا يتقاضى رسوما

فاحشة ليسمح لها بالمرور فى أراضيه ، وربما بدت مثل هذه الرحلة كأنما هى محاولة لتفادى الرسوم .

طفقنا بعد ذلك نناقش الخطوط العريضة للرحلة،عدد السفن ، وأنواعها، والرجال ، وأنواع المؤن ، والأسلحة ، وكمياتها ، وعشرات التفصيلات التى كان لابد من القيام بها ... ولم أنصرف من لدنه إلا حينما بدأ خبر (شمس الصباح) يرسل أشعته الباهتةمن وراء الأفق . عاودنا اجتماعنا فى اليوم التالى، والذى يليه ، والذى يليه ، حتى أتممنا أسبوعاً كاملا فى المناقشات . ولم نكل الأمر إلى الذاكرة ، بل دونا كل ما استقر عليه الرأى .

من البدهى أن أول اهتمامنا انحصر فى السفن ، نوعها ، وحمولتها ، وصناعتها ، وعدد الرجال الذين يجدفون بها فى هذه النقطة كان اختلافنا كبيرا . ذلك أن كا كان يميل إلى التمسك بكل ما هو مصرى ، ويكره الأجنبى ، ويرى أن أحسن السفن هى المصرية القديمة فهى التى أتقن المصريون صناعتها ، وهى التى خاضت البحار ، وانتصر بها الأسطول المصرى فى كل موقعة دخلها منذ فجر التاريخ ، وهى أخف وزنا ، وأكبر حجما من غيرها ، وأخيراً فإنها التى حملت الرجال ، والبضائع عبر بحر العرب إلى البحر الجنوبى(١) وبلاد بونت وهى مسافة تكاد أن تعادل نصف الرحلة التى سوف نقوم بها(٢) .

وعارضت الرأى ، وانصبت حججى على أن الرحلات الماضية جميعها كانت فى بحار مغلقة ، عرفها أهلونا منذ آلاف السنين ، فى حين أن هذه

---

(١) كان المصريون القدماء يطلقون اسم البحر الجنوبى على المحيط الهندى والمتجمد الجنوبى ، وإن لم يكونوا يعرفونه ، وإنما ظنوا أن آخر أفريقيا لا يتجاوز الصومال كثيرا ثم البحر بعد ذلك .

(٢) للسبب المذكور فى الملاحظة السابقة كانوا يعتقدون أن الرحلة ليست طويلة فهى لا تتعدى الالتفاف حول أفريقيا بعد الصومال مباشرة ثم رحلة العودة .

الرحلة سيكون جزء منها فى البحر الجنوبى وهو كما كان يتردد بحر مفتوح تكثر فيه الرياح ، والأعاصير ، والأمواج ، والتيارات ، وبالتالى فإن مثل السفن المصرية لا يفلح بسهولة فى مقاومة كل هذه العناصر الطبيعية . أضفت أن الفنيقيين هم الوحيدون الذين اجتازوا أعمدة هرقل (جبل طارق) وأبحروا بسفنهم فى البحر الغربى (المحيط الأطلسى) وهو المتصل بالبحر الجنوبى ، وهو الذى سوف نضطر لاجتيازه فى طريق العودة .

وأخيرا ذكرته أن الفرعون العظيم ، رع مس سو الثالث ، كان قد غير من شكل السفن المصرية ، واحتذى حذو الفنيقيين فى معركته البحرية مع البليست ، والتشكر ، والشكليس ، والدتيين ، والوشش ، وأن الكثير من بناء السفن الآن فى نيوت بحح (منف) يحتذون هذا الحذو ، وتركوا النظم القديمة فاختفت الحبال الثقيلة ، واختفى نظام التحبيل برمته ، وظهرت السارية المستعرضة السفلية ، للشراع المستطيل ، وحبال حزم الشراع الرأسية .

مكثنا ساعات نناقش هذه النقط ، ولم أمل من المناقشة فعلى قوة السفن تتوقف سلامة الركاب ، وإمكان إتمام الرحلة . كان الفارق بين السفينة المصرية والفنيقية كبيرا . فالاولى بنيت أصلا لتمخر عباب ايكر — عا (النهر العظيم — النيل) وحينما بدأت الرحلات البحرية لم يزد الأمر على أن أضحت السفن أكبر حجما مما كانت . لم يكن هنالك بأس فى هذا إذ أن الرحلات حتى الآن تمت فى بحار مغلقة ، سواء البحر الأخضر الشمالى أو بحر العرب ، ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من أن ترفع جوانب السفينة قليلا حتى تحمى السطح نسبياً من الأمواج . لكن هذا النوع لا أتصور أن يفلح فى البحار المفتوحة كالبحر الجنوبى ، أو الغربى . صحيح أن هذا النوع كان أخف وزناً لقلة الأخشاب الثقيلة فيه ، وبالتالى فهو أيسر على المجدفين إذا لم تكن الرياح تكفى لتسيير السفينة بالشراع ، لكن هذه الميزة كان يقابلها الشك فى سلامة السفينة نفسها .

ربما كان من المستحسن أن أذكر شيئاً عن تاريخ بناء السفن فى تامرى

(حصر) ، كانت السفن أصلا مجرد مراكب نهرية ، وحينما استقر الرأى على اقتحام عباب البحر الأخضر الشمالى منـــذ أكثر من ألفى عام(١) عقد المهندسون كبلا (جبل ضخم كبير) حول أحد طرفى السفينة ثم اتجهوا به عبر خط المنتصف ، فوق ظهر السفينة وعقدوه حول طرفها الآخر ، ثم مرروا وتدا متيناً خلال جدائل هذا الكبل عند منتصف السفينة ولووه عدة مرات ، وبذلك أمكن أن يحكموا الطاقم كله فيتوثق تماما. هذا الكبل هو البديل الذى استعاضوا به عن سهم القاعدة ، والروافد الموجودة فى السفن الفنيقية . كان الكبل يلوى حتى يبلغ القدر المناسب من قوة الجذب فيحفظ طرفى السفينة من التصدع عندما تضطر أن تشق طريقها فى المياه المضطربة . وأخيرا أضاف المهندسون شبكة محكمة تحاذى أفقيا الجزء الأعلى من السفينة كإجراء مساعد لتقويتها .

ولما لم يكن هنالك سهم للقاعدة يمكن أن يثبت فيه الشراع بأمان إذ أن قاعدة الشراع تتطلب من جلبتها فعلا رافعاً كبيرا ، فقد صمم المهندسون دعامتين لتوزيع الضغط ، وثبتوهما بعناية عن طريق حبال من مقدم السفينة ومؤخرتها ، وعليها أقاموا شراعاً طويلا قائم الزوايا على الساريتين . كان الشراع ينتشر بواسطة ساريتين مستعرضتين إحداهما هى المعتادة عند أعلى الشراع ، والأخرى عند أسفله .

لم تتغير السفن المصرية كثيرا ، وإن كانت قد أدخلت عليها بعض التحسينات فى عهد الفرعون حتشبسوت ، فاستبدل الشراع بآخر أكبر منه ، لم يكن أطول ، وإنما أعرض كثيرا ، وإن كان لا يزال ينشر بالطريقة القديمة بواسطة سارية مستعرضة عند قمة الشراع ، وأخرى عند أسفله . لكن لما كان الشراع عريضاً لدرجة كبيرة فقد صنعت كل سارية من

---

(١) أذكر القارىء أن المتكلم كان فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد .

عمودين مستدقين ثبتا بالتداخل معا ، بدلا من عمود واحد ، فسمح ذلك باستعمال صار أقصر كثيرا . وبالتالى فهو يتطلب فعلا رافعاً أقل ، وعلى ذلك استغنى المهندسون عن طريقة الدعامتين ، واستعاضوا عنها بعمود واحد . أما حجم السفن فقد وصل إلى مساحة كبيرة إذ بلغ طولها ١٢٠ محا (١) وعرضها أربعون (١٨٠ قدما وستون عرضا)(٢) .

بعد مناقشات طويلة استقر رأينا أن تتكون ا من أربع سفن إثنتان كبيرتان تبنيان على الأسس الحديثة ، والأخيرتان أصغر حجما تبنيان طبقاً للنظام القديم . لكن كا أثار نقطة لها وجاهتها ، إذ قرر أن مجرد بناء سفن قوية ، سوف يثير الشكوك فى أهداف الرحلة ، وأنها ليست حقاً كما سيذاع مجرد رحلة تجارية إلى بلاد بونت ، وإنما هى تهدف إلى أبعـــد من هذا .

وجدت الحل . طلبت أن لا يكون بناء السفن فى نيوت نحح (منف) ، حيث توجد جميع مصانع السفن ، وإنما كان علينا أن نأخذ الصناع والبحارة ، والجنود ، رحلة طويلة إلى كست (القوصية) أو شابت (قنا) أو كيتو (قفط) ومنها إلى ثا — عاو (القصير) حيث تبنى السفن ، ولن يعود شخص واحد من هذه الرحلة إذ سوف نأخذهم جميعاً معنا فى رحلتنا الطويلة ، وبهذا يستحيل معرفة ما سوف نقوم به .

استقر رأينا على ذلك ، وعلى أن نأخذ طريق الآلهة (وادى الحمامات) من كيتو (قفط) إلى ثا — عاو (القصير) ومعنا جميع ما يلزمنا ، ليس للرحلة فحسب ، وإنما أيضا لبناء السفن . كانت عملية ضخمة إذ أنه كان علينا أن ننقل كل هذه الأشياء ، والمؤن ، والرجال عبر قرابة ١٥ ييترو (اليترو

---

(١) المح قياس طولى كان يساوى ١ ونصف قدما تقريبا .

(٢) هذا الوصف استقيته من كتاب رواد البحار تأليف ليونيل كارسون وترجمة الأستاذ جلال مظهر .

حوالى د ر ١٠ كم) فى وادى الآلهة ، لكن لم تكن هنالك طريقة أخرى إذ أن ثا — عاو ليس بها من المؤن ، أو المواد الأولية ، أو الرجال ما يكفى لتغطية احتياجاتنا ، أو حتى جزء منها .

دارت مناقشاتنا التالية حول أشق نقطة ألا وهى اختيار الرجال . بدأ كا بأن شرفنى أن أكون نائبه . وبالتالى قبطان سفينة القيادة التى سيكون هو فيها . اقترحت أن تسند قيادة سفينة إلى صديقى سا — حو ووافق كا عليه إذ كان يعمل أيضا تحت إمرته ، وإن شك فى مقدرته كقبطان ، ولم يوافق إلا على إسناد قيادة إحدى السفينتين الصغيرتين إليه . وعرض كا أن يتولى قيادة السفينة الكبيرة الثانية نجم آب ، وأردت أن أعترض على أساس أنه ، وإن كان ملاحا ماهرا إلا أننى أعرف أنه قاسى القلب لا يرحم من تحت يده ، إلا أن كا أسكتنى بأن قال إن الرحلة جميعها سوف تكون تحت قيادته الشخصية ، وأنه لن يسمح بسوء معاملة أحد فيها .

عرضنا بعد ذلك أسماء عديدة ممن نعرفهم واستبعدنا بعضهم ، سواء لأحوالهم الشخصية ، أو لأمور تتعلق بكفاءتهم ، وعدم درايتهم الكافية بتولى قيادة سفينة فى مثل هذه المهمة الخطيرة ، وبالتالى سطرنا أسماء بعضهم فى مراكز أقل أهمية من تولى قيادة سفينة ، كضابط أول ، أو رئيس بحارة أو قائد بجدفين . وتوالت الأسماء ، والوظائف التى اتفقنا عليها ، وتضخمت الكشوف من مهندس إنشاء سفن ، وأطباء إلى نجارين ، وحائكى قلوع ، وصانعى حبال ، وغير أولئك من الفنيين اللازمين بينما تركنا مهمة انتقاء البحارة ، ومساعديهم ، ومن إليهم من طباخين وغيرهم ، لكل قائد سيفنة ينتقيهم حسبما يرى ، وقد اتضح خطأ هذا الترتيب فيما بعد . وبقى قائد السفينة الصغيرة الرابعة .

ذات يوم ، وكانت قد مضت عشرة أيام منذ استدعانى كا ، ذهبت كعادتى كل صباح إلى قصر صديق فأخبرنى وكيل القصر أن الفرعون العظيم قد أرسل

يستدعى سيده، وأنه ذهب، ولا يتوقع أن يتأخر كثيراً وطلب أن أنتظر أوبته. لم أعر الأمر أهمية فلا بد أن الفرعون قد أقلقه مرور الوقت دون أن يسمع شيئا من كا، كما لا بد أن صديق سوف يقنعه أن الأمر يجب أن يسير ببطء فى البداية، وأن يحسب لكل خطوة حسابها حتى يمكن الاطمئنان إلى سلامة الرحلة ونجاحها.

لم أشأ أن أضيع الوقت هباء فجلست إلى المنضدة أراجع حساباتى. كانت الرحلة فى تقديرنا تحتاج إلى ألف وخمسمائة رجل تقريبا ومن اللازم أن تكون المياه الصالحة للشرب كافية. كما يلزم أن توجد مؤن تكفيهم لمدة سنة على الأقل ولم تكن هذه عملية بسيطة بل إن مجرد نقلها على الحمير من كبيتو إلى ثا — عا مهمة شاقة.

يبدو أنى استغرقت فى حساباتى لدرجة لم ألحظ معها أن كا قد دخل، وأنه وقف خلفى تماما يرقب ما أفعل حتى وضع يده برفق على كتفى. إلتفت ثم ابتسمت معتذراً لما رأيته، إلا أنه طلب منى أن أترك ما فى يدى لحظات. قمت معه من مكانى، وجلسنا على الأريكة. كان وجهه متجهما لا يبشر بخير، وجاء صوته غريبا وهو يسأل:

— كين هل فكرت فى القبطان الرابع؟

— ما رأيك فى نى ما رع؟

— كلا لا داعى له ... ... هل أخطرت أحدا من القبطانه الآخرين؟

نظرت إليه دهشاً.

— لا ... ألم نتفق على ألا نخطو أية خطوة تنفيذية إلا بعد أن نفرغ من خطة العمل كاملة؟! لماذا السؤال؟

— إن الفرعون، له الحياة والصحة، والقوة استدعانى اليوم، ولما ذهبت إليه سألنى عن مدى التقدم الذى أحرزته بصدد الرحلة، فأخبرته أنى

لم أفعل شيئا بعد سوى التخطيط المبدئى ، فطلب منى أن يعين شخصاً فى وظيفة قبطان ...

شعرت بشىء يقبض على قلبى بقوة ... إن هنالك خبراً سيئاً لا يريد كما أن يبوح به دفعة واحدة فأعطانى جرعة جرعة . لم أتكلم وبقيت فى مكانى دون أن يختلج لى جفن .

— إن هذا الرجل هو أيوف عنخ .

أحسب أنى كنت قد توقعت ذلك بشكل ما ، ومع هذا فإن صدرى كاد أن يتمزق . تسمرت حيث أنا لا أتكلم ، وحتى مقلتاى لم تتحركا من محجريهما . لاح لى خلال ظلمات الماضى وجه آرى رن الجميل ، زوجتى لشهرين ، تلك التى فرت منى إلى إيوف عنخ ، وفضلت أن تكون خليلته على أن تكون زوجتى . كنت ، ولعلى مازلت ، أهواها ، بكل ما فى جسدى من قوة تهوى فجاءت الصدمة شديدة أذهلتنى ، وهزت كيانى ، مرضت شهورا عديدة حتى ظنوا أنى ملاق حتفى ، لكن جسمى القوى تغلب ، ولما عدت إلى الحياة كانت لدى الفرصة الكافية لأن أقلب الأمور على وجهها .

قررت ألا أقدمها للمحاكمة ، وألا أفعل شيئاً حيال الخائن الذى كان صديقى ، ورفيق قتال . علمت أن فى عملها ذاته جزاء كافيا سوف تفصح عنه السنون جاءتنى أخبارها بعد ذلك بأشهر قليلة . لقد أنكرها أهلوها فأضحت لا ناصر لها ، ولا معين إلا خليلها ، وحينما تنكر لها ، ولما تمض سنة ، تماما كما يتوقع من كل خؤن لم تجد من تلجأ إليه فانتحرت ، لو أنها جاءتنى أو لو أنى عرفت قبل أن تقضى على نفسها لآويتها ، لكنها لم تأت ، ولعلها ظنت أنى سأنتهز الفرصة لأتشفى فيها .

كان ذلك منذ عشرة سنوات تزيد ، ومع هذا فلم أتمالك الدموع تترقرق فى مقلتى . بجهد تماسكت ، ورفعت رأسى إلى صديقى . لقد كان يعلم الحادثه لكنه لم يكن يعلم مقدار حبي لزوجتى . ظهرت على وجهه علامات الأسف والرحمة ، وتلعثم لسانه وهو يقول بصوت متهدج .

ـــ كين إنى آسف ... إن طلب الفرعون كما تعلم أمر ، ولم أستطع أن أفعل شيئاً .

حاولت الابتسام .

ـــ لا عليك ... إن الحادث مرت عليه سنوات عشرة ... وكنت أظن أنى نسيته تماما .

ـــ كين ... إن الأمر لا يقتصر على هذا ... إن هنالك ما هو أسوأ .

لم أكن أتصور أن هنالك ما هو أسوأ ... وظل شبح الابتسامه يتأرجح على شفتى .

ـــ كين إن الفرعون له الحياة ، والصحة والقوة أمر أن يكون إيوف عنخ هو نائبى .

إنتظر كا ليرى أثر كلامه فى ، إلا أنى كنت قد إمتصصت الصدمة الأولى وما كان هنالك شيء بعدها يؤثر . بقيت على صمتى أنظر إليه ، وتلعثم للمره الثانية

ـــ هل مازلت عند وعدك أن تصحبنى فى الرحلة ؟ إنك فى حل من هذا الوعد الآن إن شئت ، وإنى مقدر أسبابك .

ـــ كا ... لقد تخليت عن زوجتى مرة وتركتها فى يد هذا الخؤون وأنا أعلم مصيرها ... لم أحاول أن أحميها وأحذرها ، ولن أفعل هذا ثانية مع صديقى ... كلا يا كا ... إنى مازلت معك فى أى منصب شئت ، هذا طبعا إلا إذا فضلت أنت أن أتنحى

بان البشر فى وجهه وهو يهتف

ـــ كلا ... كلا .. إستمع ... إن شيئاً لم يتغير فى الواقع سيتولى هو بداهه قيادة سفينة القيادة وستتولى أنت قيادة السفينة الكبرى الثانية ، وبهذا تكونان بعيدين عن بعضكما لا تراه إلا فى النادر سيكون له اللقب فقط

أما أنت فسوف تكون لك النيابة الفعلية ... لن أفعل شيئاً إلا بعـــد استشارتك

— هل يعلم إيوف عن حقيقة الرحلة ؟

— كلا ، وقد استوثقت من هذه النقطة من جلالة الفرعون ، له الحياة والصحة ، والقوة ... إن الوحيد الذى يعلم بها غيرى هو أنت ... أما هو فلا يعلم سوى أنها رحلة تجارية إلى بونت

— لكن الفرعون ؟ ألم يقل لأحد ؟

— لا ... لعلك تذكر أنه هو الذى طلب منذ البداية أن تكون الرحلة سرية حتى لا تتسرب أنباؤها إلى أعدائنا وهم عديدون كما تعلم .

— هل تزمع أنت أن تخبر أيوف بهذا ؟

— كلا

— إذاً فلعل من المصلحة أن تأخذ أمرا كتابيا بالرحلة من الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة ، وتحتفظ به لنفسك دون أن تخطر أحدا .

— سأفعل ... إنك أحسنت الاختيار يا كين ... أحسنت بقرارك ألا تتخلى عنى ، ولن أتخلى عنك ... إننى أعدك بهذا ... لن أتخلى عنك ولن تندم .

الفصل الثانى

طريق الآلهـة

مضت الأيام التالية مليئة بالحركة . كنا نقطن بطبيعة الحال بالقرب من المقر الفرعونى فى تزان (صان الحجر) ، ولم يكن كذلك جميع الرجال الذين احتوى عليهم الكشف الطويل الذى استقر رأينا عليه .

اضطررت إلى السفر إلى أكثر من بلدة ، وإلى مقابلة كثير من الرجال ، وإقناع من لا يريد مصاحبتنا ، أو استبداله بآخر إذ وضعنا ، كا وأنا ، قاعدة عدم إجبار أحد على مرافقتنا . على أننى أستطيع أن أقول إنهم جميعاً ، فيما عدا قلائل لم تسمح لهم ظروفهم الخاصة ، رحبوا أن يعملوا ثانية تحت إمرة كا ، فقد كان قائداً رحيما ، بالإضـافة إلى حنكته ، ودرايته التامة بمهنته .

بر كا بوعده إذ ظل اعتماده المطلق على ، بل أننى لم أر ايوف مطلقا ، ولم أسمع إسمه سوى مرات قلائل كانت إحداهما حينما جاء إلى القصر أثناء اجتماعنا ، وأعلن أحد الخدم حضوره لسيده فاستأذن منى وعاد بعد دقائق ، دون أن ينبس بكلمة عن إيوف ، واستنتجت أنه لابد قد اعتذر عن المقابلة. أثناء هذا الاجتماع قال فجأة :

ــ على فكرة لقد أخذت بنصيحتك ، والتمست من الفرعون له الحياة ، والصحة والقوة ، أن يكتب لى تكليفاً بالمهمة .

قام من مجلسه ، وسار إلى باب القاعة ليختفى ويعود بعد دقائق ، وهو يحمل لفافة من البردى مطوية لم تفض أختامها ، ثم تناول قلما سطر على ظهر اللفافة كلمات وناولنى إياها .

ـ هذه هى ، إحفظها لديك ، ولا تخبر أحداً بها . إننى كتبت عليها ألا يفض ختمها إلا فى حالة وفاتى . ومن البدهى إذا احتجت إليها أيضا .

ـ لماذا لا تحفظها أنت ؟

ـ ربما تكون معك فى أمان أكثر .

لم يزد على هذا ، وتناسينا اللفافة بعد ذلك ، واستغرقنا فى أعمالنا . تباحثنا فى أن نجعل مقر رئاستنا فى نيوت نحح (منف) تسهيلا للحركة ، ولأن بها كل مصانع السفن (الترسانات) تقريبا . رفض كا فى مبدأ الأمر بحجة أن الفرعون مقيم فى تزان (صا الحجر) وأنه يهمه أن يبلغ أولا بأول عن مدى التقدم فى الاستعداد للرحلة ، إلا أنى تمكنت من إقناعه أخيراً بأن يستأذن جلالة الفرعون تسهيلا لمأموريتنا ، وتعجيلا لها ، وفعلا تم ذلك .

بمجرد أن انتقلنا إلى نيوت نحح سار العمل بسرعة أكبر . أضحى من اليسير الاتفاق مع النجارين وسائر الفنيين ، كما سهل الاتصال بالربابنة ، والضباط ، والمهندسين ، والأطباء . ولم يتوقف سير العمل بعد ذلك . كلفت ساحورع ، صديقى ، بعملية شراء المؤن ، ودهش لكمية العسل ، والنبيذ المطلوبة ، وازدادت دهشته حينما طلبت منه أن يشتري القمح ، وتساءل عما إذا كنا سنذهب للاتجار أم الفلاحة . قال إن الكميات المطلوبة من المؤن تكفى لأكثر من سنة ، وأنه كان أولى بنا أن نشحن المراكب بالبضائع التجارية التى تنفع . والواقع أن كا لم ينس أن يأمر بشراء بعض البضائع من ناحية لتغطى السبب الحقيقى للرحلة ، ومن ناحية أخرى لاعتقاده بأننا قد نحتاجها كهدايا لرؤساء القبائل التى لا شك سنرسو على شواطئها .

توالت الأيام والأسابيع ونحن فى حركة دائبة لا تنقطع ولم يتراجع

عن وعده الذى قطعه فكنت دائماً معه يستشيرنى فى كل صغيرة أو كبيرة ، وإذا كان ايوف قد لاحظ ذلك فإننى لم أسمع عنه ، أو منه ، بل إنى نسيته تماما فى غمرة العمل . قام المهندسون بإعداد الرسومات طبقاً للمواصفات التى طلبناها ، وناقشناها معهم ، وأجرينا بعض التعديلات . وإن كانوا قد دهشوا من الارتفاع غير العادى لسور سطح السفن ، أو للقمرات الزائدة فإنهم لم يعارضوا . وقام النجارون بعد ذلك بتقطيع الأخشاب اللازمة ، كما قام الحائكون بإعداد قماش الشراعات ، والحبالون بصناعة الحبال ، ووضعنا علامات مميزة على كل جزء من السفن حتى يمكن بسهولة إعادة تركيبها عندما تبلغ تا — عاو (القصير) ، حتى المجاديف ، وملابس البحارة ، لم يهملها كما ألصقنا بمؤخرة كل سروال للمجدفين قطعة سميكة من الجلد حتى لا تتآكل الملابس بسرعة(١) .

أخيراً حل اليوم الذى تمت فيه كل استعدادات الرحلة ، وأضحى الأمر متوقفاً على ما يقرره كا ، وفى الواقع أنه لم يتوان عن دعوتنا إلى قصره فى نيوت نحح . ولأول مرة بعد عشرة سنوات جمعنا سقف واحد . إيوف وأنا . كنت أعرف أن هذه اللحظة آتية لا ريب فيها ، وكنت أخشاها إذ أننى لم أكن واثقاً فى أننى لن أحاول قتله . ويبدو أن كا كذلك كان يخشى أن أفعل هذا إذ أننى لاحظت أننى حينما دخلت الحجرة تعمد دائماً أن يقف بينى وبينه .

على أن شيئاً من هذا لم يحدث . بصفاقة غريبة تقدم إلى ايوف ماداً يده يريد أن يقبض على ذراعى ، إلا أن نظرة واحدة ألقاها على وجهى كانت كفيلة أن تجعل ذراعه تسقط إلى جانبه ، ثم هز كتفيه باستخفاف وجلس .

---

(١) كانت طريقة التجديف هى أن يقوم المجدف من مكانه ، ويجلس عند كل ضربة ، ولذلك كانت مؤخرة الملابس تتآكل بسرعة فوضعوا بها قطعة من الجلد .

حياني ساحورع ، فرددت التحية شاداً على ذراعه بحرارة(١) ثم تحرك نجم آب بجسده الضخم ووجهه البشع ، وعينيه الضيقتين ، ولحيته الكثة المعفرة . كان وحشاً ضخماً لا يعتز بشيء سوى القوة المجردة ، ولا يعرف قلبه معنى الرحمة .

أحسست بأصابعه الفولاذية تطبق على ذراعي فى عنف متعمد ، كأنما يريد أن يشعرني بتفوقه البدني . لم أحاول من جانبي أن ارد عليه ، وإنما تركته يستنفذ قوته دون أن يبدو على وجهي شيء من الألم الذى كنت أعانيه . كانت قبضتي على ذراعه عادية لا عنف فيها ، وثبتت عيناى عل عينيه لا تتحولان تتفرسان فيه بصبر هادىء . ويبدو أنه قد وصل بضغطه إلى منتهى قوته ، أو أنه لاحظ أنه أطال السلام حتى أن الموجودين بدأوا يتطلعون إلينا إذ أنه لم يلبث أن دلى ذراعه إلى جانبه ، وقال وهو يتصنع الضحك .

ـــ أهلا ياكين ... هذه فرصة طيبة لأن نعمل سويا

لم أرد ، واكتفيت بابتسامة خفيفة . اتضحت لى حقيقة الموقف منذ البداية ، ستكون الرحلة منقسمه إلى حزبين إيوف ، ونجم آب فى ناحية وساحورع ، وأنا فى الأخرى ، وهكذا جلسنا يتوسطنا كا الذى طاف بناظريه فينا وقال :

ـــ الآن يا سادة أضحى كل شيء مهيئاً هل اختار كل ربان رجاله ؟

تتالت الايماءات من كل منا ، وفرك كا يديه سرورا ثم تابع خطابه :

ـــ هذا حسن لن نضيع وقتنا ، وعليكم أن تبدأوا بجمع الرجال كل طاقم على حدة حتى يمكننا استعراضهم بعد باكر أما أنت ياكين فعليك

---

(١) كانت التحية بالشد على الذراع وليس بالقبضة .

مراجعة رجالك ومؤنك ، وحيوانات الحمل ، واعدادها جميعاً لكى تنقلنا الى كيفتو (قفط) عن طريق إيترعا (النيل) هل لدى أحدكم أسئلة ؟

تساءل ايوف بلهجة ناعمة :

— أجل ... إنى لا أفهم أن تكون كل هذه الاستعدادات لمجرد رحلة الى بونت ، ومع هذا فإن البضائع التى حملت على السفن لا تستحق شيئاً مذكورا إلى جانب التكاليف ، وكأنما نحن فى الواقع سوف نعطيها هدايا ؟

كان ايوف يتساءل وهو ينتقل بناظريه بين كا وبينى كأنما يبحث عن اجابة فى ملامحنا . استشاط كا غضبا وهب من مكانه وصاح :

— ايوف يجب أن تفهم أنك مجرد قبطان ، ومهمتك هى تسيير السفينة ومراعاتها ... حتى إن كنت نائباً لى بأمر الفرعون ، له الصحة ، والعافية والحياة ، والقوة ، فهذا لا يعطيك حقا فى مناقشة ما لا أستشيرك فيه . إن الرحلة أعدت بأمر الفرعون نفسه ، وكل شىء فيها ملكه ، كما أنه على علم بكل خطوة ، فإذا كان لك اعتراض وجه اليه .

لم يتحرك ايوف ، ولا أنزل ناظريه عن وجه كا . انتظر بصبر حتى انتهى ثم قال بهدوء :

— إنى فقط كنت أبدى ملاحظاتى بناء على طلبك .

— إنى لم أطلب ملاحظات ، وإنما أسئلة تتعلق بعملك فاقصر كلامك على هذا .

— حسنا ... سوف أحتفظ بملاحظاتى بعد ذلك لنفسى .

هنا تدخل ساحورع .

— هل لى أن أسأل ... ؟ إننا مقبلون على فصل برت (الشتاء) ألا تعتقدون أن من المستحسن أن نبدأ رحلتنا بعد ذلك ، حين يكون بحر الغرب فى أحسن أوقاته .

كان هذا سؤالا وجيهاً . والواقع أننا ، كا وأنا ، كنا قد ناقشنا موعد

الرحلة وحددناه على أن يبدأ فى أول شهور برت (شهر نوفمبر) نظراً لعلمنا أن هنالك رياحا فى المحيط الجنوبى يبدأ اتجاهها إلى الجنوب فى الشهر الأخير من شهور آخت (هى سبتمبر وأكتوبر) وهذا يترك لنا مدة تكفى لكى نقطع المسافة من تا — عاو (القصير) إلى بلاد بونت (الصومال) وعندئذ يسهل علينا أن نستغل الرياح فى البحر الجنوبى لتحملنا المسافة الباقية من ليبيا (أفريقيا) قبل أن نتجه غربا ثم شمالا إلى أعمدة هرقل (جبل طارق) ولولا هذا لكان أنسب وقت للرحلة فى أوائل شهور شمنو (مارس) . عجبت كيف سيجيب كا على هذا السؤال ، إلا أننى سرعان ما تبينت أنه سريع البديهة بدرجة كافية .

— هناك سببان . الأول أن الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة ، أمرنى أن أقوم بها ، وما على إلا التنفيذ الفورى فلا أستطيع أن أرجوه التأجيل لموعد يناسبنى ، والثانى أننى فى الواقع أريد أن أتفادى قراصنة العرب ما أمكن ، ولعل أنسب وقت هو شهور برت فنادراً ما تغامر سفنهم فى البحار فيها .

كانتا حجتين مقنعتين لا مجال معهما للمناقشة ، وانفض المجلس إثرها على أن يجتمع بعد يومين لاستعراض البحارة . إستعرضنا البحارة فى الموعد المحدد ولاحظت أن كثيراً منهم ممن كانوا يعملون معنا قبل ذلك فى الأسطول لكننى اشتبهت فى أن هناك من كان جديداً علينا ، بل ولعله جديد أيضاً على البحر كما خيل إلى أن بعضهم ليس من تامرى أصلا .

خاطبت كا فى ذلك فأفاد بأنه قد لاحظ ذلك ، بل وأنه تعرف على بعضهم ، من قبائل الطومياح ، وهم لا شك من البحارة الذين اختارهم إيوف من رجاله حيث أن والدته كانت إحدى الأسيرات قبل أن يتزوجها والده .

— كيف يقبل الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة أن يجعل نائب الرحلة من أصل غير تامرى خالص .

— إن والد إيوف رجل قوى له مكانته فى الجيش . وهم متذمرون لما يمنحه الفرعون من عطف للمرتزقة الاكواشيين (الأغريق) ولعله أراد أن يرضيه بهذا التعيين .

— لكن ألا ترى خطورة ذلك على الرحلة ومن فيها ؟ إن قبائل الطومياح رجال صحراء وليسوا رجال بحر . وهم أيضا رجال حرب ، وقتال ، طالما شنوا الغارات على تامرى ، فكيف يأمن لهم فى مثل هذه الرحلة.

أجاب كا باقتضاب :

— هذه إرادة الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة ، ولا مجال لمناقشتها . ومن الطبيعى أن يكون بين رجال إيوف بعض من الطومياح . أواثق أنت ياكين أن بغضك لإيوف لا يحملك بعيدا فى أوهامك واتهاماتك ؟

كانت هذه بمثابة لطمة من كا لست أعتقد أنى استحقها ، ولعله لاحظ هذا فبادر بالاعتذار .

— إنى أعتذر ياكين إن أعصابى أضحت متوترة فى الأيام الأخيرة ، وهى تزداد توترا كلما اقترب موعد الرحلة .

الواقع أن معك بعض الحق ، وإن كنت أظن أنك تبالغ قليلا فى مخاوفك .

— لا عليك ياكا ... لكن هذا لا يمنع أن تأخذ معك بعض رجالك المخلصين ، وتذكر أنك ستكون على ظهر السفينة بمفردك وليس ما يمنع من الاحتياط . وبهذه المناسبة لقد تعرفت أنا أيضا على بعض رجال نجم آب وهم من قطاع الطرق.

رفع كا نظره إلى يتفرسنى بتمعن ثم تنهد وقال :

— أحسب ألا ضرر من الإحتياط على كل حال .

إنتهت مناقشتنا على هذا الوضع ، وانتقل بنا الحديث إلى مسائل أخرى تتعلق بالرحلة .

خلال أسبوع كانت المؤن ، وجميع الأدوات ، وأخشاب السفن ، وحبالها وشراعاتها قد حطت على المراكب النيلية التى إكترنياها لهذا الغرض . ذهب كا ليستأذن من الفرعون فى الرحيل ، ثم عاد بعد يومين ، وأعطى الأمر بالإقلاع .

أبحرنا من نيوت نحو فى الشهر الثالث من شهور آخت (سبتمبر) وكان الفيضان قد خفت حدته واستطاعت المراكب أن تتجه ، وإن يكن ببطء ، إلى وجهتها بواسطة الشراع فى معظم الوقت ، ولم تحتج للتجديف إلا فى فترات صغيرة حينما كانت الرياح لا تساعد .

وصلنا إلى كبتو (قفط) وبدأت عملية تفريغ المراكب ، والصنادل ، وتحميل البضائع ، والمؤن على الحمير ، والبغال المكتراة . لم أشأ أن أشترى دواب الحمل ، وذلك حتى لا نضطر إلى تركها للاهالى فى تا — عاو فلم تكن لها فائدة لنا بمجرد وصولنا إلى الميناء بل إنها تصبح حملا ، إذ يجب إطعامها وسقيها ، كما أن الرجال لم يكونوا يرضون أن يأكلوا لحومها ، ولهذا رأيت أن أكتريها . واتفقت مع أصحابها على تركها فى تا — عاو لدى بعض الأهالى الذين ذكروهم ، كما أترك أيضا لديهم تعويضا عما قد ينفق فى الرحلة .

كان كا إداريا من الدرجة الأولى ، وقد اعتاد فى حياته على القيادة ، وسرعان ما اتضحت عبقريته فى سرعة تنظيم الرجال ، والمؤن ، وحمير الأحمال . لم يدع شيئا دون تنظيم ، ولم يهمل صغيرة ، أو كبيرة . كان كأنما يعرف كل شخص فى الرحلة معرفة شخصية ، ويعرف قدرة احتماله ، وأحسن وسائل إستغلال مواهبه . أصدر أوامره بحزم ، دون تردد . قسم الرجال بحيث يتبادلون الأحمال مع الحمير ، كما يتبادلون قيادتها . وضع فرقة من مائتى رجل

بكامل أسلحتهم فى المقدمة، والمؤخرة ، وعلى جانبي القافلة بحيث يأمن مباغتة أى عدو، أوهجوم البدو. وضع كل قبطان منا فى قيادة جناح. إيوف فى المقدمة وساحورع فى الميسرة ، ونجم آب فى المؤخرة ، وأنا فى الميمنة ، أما هو فكان لا يهدأ طوال يومه ، يطير بفرسه من مكان إلى آخر . ما من مشكلة صادفتنا إلا وكان موجودا قبل أن نلجأ إليه .

أمر أن يكون توزيع المياه فى الصباح المبكر حتى تهبط درجة البخر إلى أدنى مستوى ، كما أمر أن يعطى كل رجل فى القافلة زجاجة واحدة من الماء كل يوم رفض أن يحمل أى شخص أوانى فخارية ، مقررا أن الماء ينضح منها بسهولة، كما رفض أيضا الأوانى المعدنية لأن الماء تزداد درجة حرارته فيها مما يقلل من ريه . لم يقبل أن يأخذ رجل أيا كانت درجته ، أو صفته ، قطرة واحدة من الماء أكثر من غيره ، ولا قضمة واحدة من المؤن أزيد .

قبل أن نبدأ الرحلة أمر كا أن يجتمع كل الرجال عند معبد الإله مين، رب الصحراء الشرقية، وصاحب اللازورد، والكحل، والخضاب وسيد البلاد الأجنبية طرا ، كان المعبد عند أول الطريق الموصل إلى طريق الآلهة ووراء الجبال ، ولهذا ترك كا التعبد للإله إلى ما قبل قيامنا بالرحلة مباشرة.

فى اليوم الثانى من تركنا كيتو قبضوا على شخص يسرق بعض المؤن فأمر بقتله ، ونفذ فيه الحكم رغم محاولة نجم آب التدخل إذ كان من رجاله . تذمر بعض أصحاب الرجل، فوقف كا بينهم آمراً إياهم بالإذعان لحكمه ، أو العودة إلى كيتو دون ماء ، أو طعام . سرنى أن لاحظت أنه قد استمع إلى نصيحتى وحاط بستة من رجالاته الذين يثق فيهم . لم يكن يتحرك إلا وهم وراءه ، كان منهم سمسو ، عبد أسمر لم يتركه فى جميع مراحل حياته ، وطالما رأيته معه ، يتبعه كظله فى كل حركة ، ويكاد أن يعبد الأرض التى يسير عليها سيده .

وفيما عدا هذا الإخلاص العجيب ، لم يكن فى سمسو أية ميزة سوى قوته الهائلة . رأيته ذات مرة يرفع صاريا طويلا من الخشب ، لم يستطع ثمانية

رجال أن يقيموه : كان بعد هذا غبياً لا يفكر ، ولعله قد ترك التفكير لسيده ، بليداً لا يتحرك إلا حينما يأمره كا ، وحينئذ يبدى نشاطا وخفة يندر أن تصدر من مثل من كان فى حجم جسده الضخم .

كان منهم عنخو ، عبد آخر ، أقل حجما من زميله لكنه لا يقل عنه كثيرا فى القوة ، ويتميز بذكاء ودهاء . لا يفارق سمسو ، فحينما تجد أحدهما تجد الآخر ، إلا إذا كان أحدهما أو كلاهما ينفذان أمرا أصدره كا . وكنت أعرف أيضا واحدا من الأربعة الآخرين ، أونى ، البحار الذى سمعت عنه أنه أحسن من رمى السهام فى الأسطول . ضئيل الجسم إذا ما قورن بالعبدين ، إلا أنه خفيف الحركة ، قلق النظرات ، حذر فى تصرفاته ، لا يختلط كثيراً بأترابه .

سارت القافلة بطيئة فى الصحراء الشرقية ، كنا لا نستطيع أن نقطع أكثر من يترو واحد فى اليوم ، بل كثيرا ما قلت المسافة عن ذلك ، إذ أننا كنا نضطر إلى عدم الانتقال بعد أن يرتفع خبر ، شمس الصباح ، فى كبد السماء ، كما كانت تقيدنا الحمير المثقلة بالأحمال ، وهى تسير ببطء تنتزع أرجلها من الرمال انتزاعا .

على أن النصف الأول من الرحلة لم يكن من الواقع عسيرا جدا إذ أن المياه كانت متوفرة لوجود الآبار التى اعتنى الفراعنة العظام بحفرها على طول الخط فى الطريق إلى المناجم ، ، كما أن الأرض كانت مستوية نسبيا ، ولم يكن يضايقنا سوى شدة الحرارة بالرغم من أننا كنا قد قاربنا شهور برت (الشتاء) . بعد ثلاثة أيام منذ أن تركنا كبيتو كنا قد قطعنا نصف المسافة ، لكن النصف الآخر كان أشق ما فى الرحلة ، إذ أن الطريق فيه يزداد وعورة وارتفاعا ، ويمر أحيانا بوديان بين الجبال . ليس هذا فحسب بل إنه لم يكن به آبار مطلقا ، فأضحت المياه العذبة مشكلة إضطرتنا إلى مزيد من الشدة .

فى اليوم الخامس حدثت حادثة لم أعرها اهتماما كافيا إلا أنها كانت ذات أثر كبير فيما بعد . كنا فيما يشبه الممر بين جبلين حينما حل المساء . وقرر كا أن نقضى الليلة فيه ، كما قرر أن تكون المسافة بين كل جماعة وأخرى متباعدة

تسيا بحيث إذا حدث إنهيار صخرى يسهل على الرجال الابتعاد كما تكون الخسارة فى العتاد أقل ما يمكن .

لاشك أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل حينما استيقظت فجأة وقد تنبهت جميع حواسى . كان الظلام شديدا داخل الخيمة ، لم يخفف منه الضوء الباهت المنبعث من الباب الضيق فلم تستطع عيناى أن تميز الأشياء ، ومع هذا فقد داهمنى شعور قوى بوجود شخص قريبا منى . بقيت مكانى ساكنا لا أتحرك ولم تمض لحظات حتى سمعت أذناى صوتا خفيفا إلى جوارى ثم أطبقت قبضتان من حديد على رقبتى تزهقان أنفاسى .

تحركت ذراعى فى اللحظة نفسها . لم أحاول أن أبعد القبضتين عن عنقى، وإنما اتجهت قبضتى إلى حيث تصورت وجه القاتل المرتقب . لا ريب أنه كان يتوقع المقاومة ، لكننى لا أعتقد أنه كان يتوقعها بهذه السرعة ، ولا بهذه الوسيلة . أصابت اللكمة جانب وجهه ، وكانت من القوة بحيث أنى شعرت بآلام شديدة فى عظام أصابعى .

صدرت منه أنة ألم مكتومة ، وارتفعت القبضتان عن عنقى ولعل اللكمة قد أذهلته . لم أمهله . فى اللحظة التالية كانت قبضتى ترتطم بقوة فى جسده ، وجاءت الضربة هذه المرة فى الصدر العريض ليرتد خصمى بعيدا إلى الوراء ، وانهالت عليه الضربات .

يبدو أنى فقدت بعض إحساساتى أثناء ثورتى فلست أدرى كيف اعتدلت من رقدتى ، ولا كيف امتطيت خصمى أكيل له اللكمات فى كل جزء من جسمه ، ولم أستعد حواسى ثانية إلا بعد أن لاحظت أن الجسد المسجى تحتى لا يبدى مقاومة أو حراكا . هنا فقط توقفت ، وبدأت أحاول أن أستعيد أنفاسى الضائعة التى كانت تتردد سريعة من عنف الشعور .

مضت حوالى دقيقة حتى عاد تنفسى إلى حالته الطبيعية ... ومن ثم بدأت

أتحرك . لم أكن قد تبينت ملامح عدوى حتى هذه اللحظة ، ولهذا قررت أن أسحبه إلى الخارج حيث يكون الضوء أقوى . نهضت من مكانى ، وأمسكت إحدى ذراعيه وأخذت أجرجره عبر الخيمة .

هنا وصلت إلى سمعى الأصوات ، ولم تكن الأذن لتخطئها ، أو تخطىء تفسيرها . كانت أصوات انهيار جبلى . لم أتردد ثانية واحدة ، رفعت الجسد المسجى عن الأرض لألقيه على كتفى ، وأعدو به مبتعداً عن الصخور المنهارة التى كانت تنحدر بسرعة مخيفة . كان الرجل ضخم الجثة ثقيلا فأضحت حركاتى بطيئة نسبيا . تلفت حولى وأنا أعدو بحملى الثقيل ، وبالرغم من الظلام السائد أمكننى أن أميز مكانا اشتدت فيه الظلمة ، لا يبعد أكثر من عشرين نبيو (١) لم أتردد فى الاتجاه إليه . إذا كان هنالك أمل فى النجاة فربما يكون تحت ما تصورته تجويفا فى الصخور القريبة .

كانت الصخور تتهاوى بسرعة عجيبة ، بل إن بعض الأحجار الصغيرة بدأت تتناثر حولنا لترتطم بالأرض ، وتقفز ثانية فى الهواء ، ومع هذا فلم أبال واندفعت فى عدوى . وبدت المسافة أطول مما قدرت كما أضحى الجسد الملقى على كتفى يزداد ثقلا ، ويشكل عائقا حقيقيا يبطىء سرعتى فى حين تكاثرت الأحجار الصغيرة المتطايرة حولى .

بشكل ما لم تصبنا الأحجار إلى أن وصلت إلى التجويف الصخرى ، وألقيت بحملى فى حماه ، وفى اللحظة التالية أصابتنى ضربة قوية فى مؤخرة رأسى كفتنى على وجهى ، وغشيتنى سحابة سوداء ، ولم أشعر بشىء .

---

(١) النبيو مقياس طولى يساوى ١٫٢٥ ذراعا تقريبا .

الفصل الثالث

قراصنة البحار

حينما أفقت لم يكن خبز (شمس الصباح) قد لاح فى الأفق بعد . كان أول وجه وقع عليه نظرى هو وجه كا الذى بدا قلقا مهموما ، ثم لاحظت وجود شخص آخر اتضح أنه الكاهن حكا نخت أحد الكهنة الأطباء الذين يصحبوننا . لم أدر فى مبدأ الأمر علة وجودى طريحا فى خيمة كا ، أو سبب الآلام التى شعرت بها فى مؤخرة رأسى ، لكن حينما بدأ كا يتكلم كنت قد استعدت الحادثة .

— حمدا للاله أنك بخير

إبتسمت له مطمئنا

— يلزم أكثر من إنهيار جبلى لكى أصاب بضرر حقيقى ، ماذا حدث بعد الإنهيار ؟ أعنى كيف عثرتم على ؟

— لقد جزمت أولا بأنك لا يمكن أن تكون قد نجوت فقد اختفت خيمتك بما فيها تحت كميات كبيرة من الصخور والحجارة ، حتى حينما بحثنا وبحثنا حولها لم نعثر عليك فأيقنا أنك قد دفنت تحت الصخور لكن بعد أن مضت أكثر من ساعة أتانا صوت يقول إنه عثر عليك عند التجويف الصخرى ، ومن هناك نقلناك إلى هنا

— من كان ذلك الذى قال إنه عثر على ؟

— هذا شىء غريب لأننا حينما توجهنا نحو مصدر الصوت لم نجد أحدا ونظرا لأن الظلام كان دامساً لم نحاول ، أو نفكر فى البحث عنه

— هل وجدتم فى التجويف شخصاً آخر ؟

— ماذا تعني؟ هل كان معك شخص آخر ؟ إننا لم نعثر على أحد سواك .

أغمضت عيناى بحركة ظاهرها الاستجمام من التعب ، وحقيقتها أنى كنت أريد أن أعطى نفسى فسحة من التفكير . هل أخبر كا أن عدواً حاول قتلى ، أم ليس هناك ما يدعو لأن أزيد مشاكله ؟ إن القاتل المزعوم كانت لديه فرصة فريدة للتخلص منى إذ يبدو أنه إسترد وعيه ، وماكان أيسر عليه من أن يدق رأسى بحجر ويبدو مصرعى كأنما هو حادث عرضى من الإنهيار ، لكنه لم يحاول ، بل نبه كا ورجاله إلى وجودى تحت التجويف الصخرى ، وكأن هذا اعترافاً منه بالجميل لإنقاذ حياته ... هل هذا تصوره فعلا أم أنه خشى إن تركنى أن يعثر على شخص آخر وينهى ما بدأه ؟ .

جرنى هذا التفكير إلى سلسلة أخرى من الأسئلة . هل كان القاتل عدوا لى أم أنه شخص مأجور ؟ وإذا كان مأجورا فهل كان الإنهيار الجبلى بمجرد مصادفة أم بفعل فاعل ؟ هل أراد عدوى التخلص منى ومن القاتل المأجور معاً فاصطنع الإنهيار ؟ ألم يكن يكفى إصطناع الإنهيار فحسب للتخلص منى؟ أم أن عدوى أراد الإستيثاق من موتى فأرسل أجيره حتى لا يكون لدى فرصة الجرى ، والإبتعاد عن الصخور المندفعة ؟ لكن اذا كان هذا الفرض صحيحاً بالنسبة لى ، فإنه غير صحيح بالنسبة لقاتلى المزعوم إذ أنه لا شك كان يمكن أن يعدو مبتعدا عن الإنهيار بعد قتلى . فهل كان عدوى يريد التخلص منى فحسب أم أنه كان واثقاً أن الأجير الذى أرسله لقتلى لن يستطيع الهرب فى وقت مناسب لعله فيه العرج مثلا ؟ كيف يمكن أن يستخدم أعرج فى مثل رحلتنـــا ؟ .

يبدو أن كا قد تركنى لأنام حينما لاحظ أنى أغمضت عينى ، ويبدو أنى نمت فعلا إذ أنى حينما فتحتهما ثانية كان ضوء النهار قد سطع ، وكانت أيدى رقيقة تنقلنى من مكانى . حاولت أن أحتج بأنى أستطيع القيام بمفردى إلا أن كا سرعان ما جاء راجيا أن أتركهم ينقلونى إلى محفة أعدها خصيصاً لحلى .

— إن الكاهن يخشى أن يكون قد حدث لك ارتجاج فى المخ ، وقد نصح ألا تتحرك كثيراً فى اليومين التاليين .

ضم سا حورع صوته إلى كا فلم يسعنى إلا النزول عند رأيهما ، وإن كنت قررت أن من السخف أن أحمل على محفة ، وأنا فى كامل قواى . ليومين متتالين أصر كا على ألا أتحرك ، وبقيت فى المحفة مكرها . إلا أن هذين اليومين أفادانى فى الواقع فى أن استرد كامل قواى ، كما أعطيانى فرصة فريدة فى التفكير . قررت نهائياً ألا أخبر أحدا ، حتى ساحور ، عما حدث فى الخيمة من محاولة قتلى ، كما أننى أمضيت أوقات طويلة وأنا أراقب جيداً كل شخص وقع عليه بصرى عسى أن أكتشف شخصا أعرج . لكننى أخفقت تماما فلم أستطع أن أرى أى شخص به مجرد عرج خفيف . لابد أن هنالك تعليلا آخر لما حدث .

أثناء اعتكافى قام نائبى منتوسين بالمهام الموكولة إلى ، وقد سرنى هذا إذ أنه أظهر كفاءة نادرة ، وحزما شديداً خاصة حينما تذمر بعض الرجال لقلة المياه مع الإرهاق الذى كانوا يعانونه من الحرارة ، والسير المستمر . فى اليوم الثالث استلمت قيادتى ثانية ، وقد عادت إلى حيويتى ، وقوتى ، كأكمل ما يكونان .

بالرغم من أن هذا الجزء من الرحلة كان من أشق الأجزاء نظراً لما تحملناه من حر شديد نهاراً ، وبرد قارص ليلا ، وإرهاق متواصل فى السير ، أو صعود الجبل أو هبوط المنحدرات ، بل إن بعض الأعراب هاجمونا محاولين الظفر ببعض المؤن أو حيوانات الأحمال ، إلا أننا قطعناه فى اربعة أيام ولم يحل فجر اليوم التاسع منذ بدأنا الرحلة إلا وكنا نطل من أعلى الجبل على السهل الساحلى الضيق الذى تربض فيه تا — عاو ومن ورائها البحر الضخم ، فى زرقة صافية ، ليلتقى بالسماء فى الأفق البعيد .

هلل الرجال وتصايحوا فرحين فقد كان معظمهم من البحارة الذين لا قبل لهم كثيراً على السير . حتى حيوانات الأحمال بدت منتعشة حينما

وصلها النسيم الرطب ، مشبعا برائحة البحر ، يجدد نشاطها . ولم تمض ساعات بعد هذا إلا كنا نعسكر خارج المدينة .

ليست ثا – عاو فى الحقيقة مدينة بالمعنى المعروف . لا بل من المبالغة أن نطلق عليها حتى قرية . ربما كانت في وقت سحيق فى القدم قرية ، أو مدينة ، فإن هنالك آثار المنازل المهدمة ، أما الآن فهى لا تزيد عن تجمع به ما لا يزيد عن ثلاثين أو أربعين أسرة يعيشون فى أكواخ بعضها من الحجر ، والأخشاب ؛ يأكلون من صيد الأسماك الوفيرة فى البحر ، وتشرب القرية جميعها من بئر واحد . وقد أخبرنا أحد شيوخ البلدة أنه كانت هنالك فى وقت ما أربعة آبار أخرى مياهها أكثر عذوبة من البئر الحالى ، لكن الإهمال أدى إلى أن الرمال طمستها . وتعيش القرية فى عزلة ، تكاد أن تكون تامة ؛ عن سائر القطر ، لا يزورها إلا بعض جند جلالة الفرعون كل ثلاثة أشهر ، أو أربعة ليطمئنوا على الأمن . أو بعض الأعراب الذين يأتون بين الفينة ، والأخرى . حتى قراصنة البحر تركوا أهل القرية وحالهم إذ لم يكن يوجد لديهم ما يستحق السلب . وإذا ما أتوا ، فى القليل النادر ، فإنما ليتمونوا ببعض الماء العذب ، أو ليختطفوا إحدى الفتيات التى يكون من سوء حظها أنها لم تهرب مع باقى النساء اللائى يلجأن إلى الجبال .

بدأ كا عمله بعبقريته الإدارية الفذة بأن رافق بعض المشايخ فى جولة باحثا عن الآبار القديمة . قرر أننا سنمكث فى القرية مدة قد تتجاوز الشهر ، ولم تكن بئر واحدة لتكفى جميع أهل القرية بالإضافة إلى عددنا ، لهذا ركز مجهوده فى البحث عن بئر أخرى وسرعان ما أثمر البحث أمر الرجال بإعادة حفر البئر ، ومضى يبحث عن أخرى .

خلال أسبوع كنا قد استخرجنا المياه العذبة من بئرين آخرين ، ولم تعد هنالك حاجة مؤقتا لأن نقتر فى استخدام المياه . والواقع أن أهل القرية شاهدوا انتعاشا مدة وجودنا لا أحسب أنهم رأوا مثله طوال حياتهم ، بل لا أعتقد أن أجدادهم رأوه منذ مئات السنين . ازدادوا فرحا حين أمر كا

أن نحفر بئر إضافية ، استعمل مياهها فى زرع مساحة صغيرة من الخضروات سريعة النمو التى كنا نحمل بذورها .

حل أول شهور برت (الشتاء أى شهر نوفمبر) ولم يكن المهندسون قد انتهوا بعد من تجميع السفن الأربعة مع أن العمل كان لا يكاد أن ينقطع إلا فى المساء . على أنه لم يحل منتصف الشهر إلا وكانت السفن جاهزة للاقلاع ، إلا أن كا رفض أن يشحن عليها المؤن والبضائع ، إلا بعد أن قام بتجارب عديدة بأن أبحرنا بها فى عرض البحر ، رحلات متعاقبة ، ثم أبدى كل ربان ملاحظاته والتعديلات التى رأى إدخالها .

كان من نتيجة هذا أننا لم نبحر نهائياً من ثا — عاو إلا فى أواخر الشهر الأول من برت . بمجرد أن تركنا حمى الشاطىء ظهرت حكمة سا حو رع حينما قال إنه كان يجب أن نرحل فى شهور أخت (يوليو — اكتوبر) إذ أن الأمواج كانت عالية راحت تتلاعب بالسفن ، كما أننا كنا نسير ضد اتجاه الريح ، فلم يكن هنالك مجال كبير لنشر الشراع ، مما اضطرنا فى أغلب الأوقات لاستعمال المجاديف ، فكان تقدمنا بطيئا جداً ولا أحسبنا كنا نقطع أكثر من يترو أو يترو ونصف فى اليوم(١) .

منذ اللحظة الأولى وضع كا خطة الإبحار . فكانت سفينته ، سفينة القيادة تتقدم الأسطول الصغير ، تليها سفينة سا حو رع الخفيفة ، ثم سفينة نجم آب ، ثم سفينتى . كان سا حو رع يعمل للارشاد ، فحينما يحل المساء كان عليه أن يتوجه بسفينته إلى أقرب نقطة من الشاطىء ليبحث عن بقعة تستطيع السفن أن ترسو فيها بأمان حتى يحل الصباح .

توالت الأيام والجو يزداد سوءا . لم يبلغ حد العاصفة ، لكنه لم يكن أبداً فى حالة هدوء ، ولهذا كنا نضطر إلى تغيير وردية المجدفين كل ساعتين

---

(١) اليترو قياس طولى يساوى ٠ر١٠ كم تقريبا .

على أكثر تقدير، كما أجبرتنا الأمواج على الدقة فى اختيار الخلجان التى نأوى إليها مساء وذلك حتى لا تقذف سفننا إلى الشاطىء الرملى، أو الصخور.

فى اليوم الرابع نبهنى مساعدى منتو حقا سين إلى ظهور سفينتين فى الأفق لا تكادان تبينان نظراً لارتفاع الأمواج، وبعد المسافة. وقفنا فى مؤخرة السفينة نراقبهما مدة قبل أن يتكلم منتو.

— أتظن ياسيدى أنهما قراصنة؟

— لا شك فى ذلك فهم دائما يخرجون أزواجا.

— وهل تعتقد أنهما سوف يهاجماننا؟

— لا ... ليس الآن على الأقل، فالقراصنة فى الغالب يدرسون قوتنا ويخططون للمستقبل ... ولا أظن أنهم بسفينتين فقط سوف يجرؤون على الهجوم إلا إذا رأوا منا ضعفا غير متوقع .. الغالب أن إحدى السفينتين سوف تذهب لتجمع سفنا أخرى حتى يعتقدوا أنهم أصبحوا قوة تكفى للهجوم.

— وهل لديهم قوة كافية؟

— إن سفنهم عادة صغيرة لا تحمل الواحدة أكثر من ستين رجلا، لكنها أيضا خفيفة، سريعة الحركة، ويمكن أن يجمعوا عشرة سفن، أو حتى عشرين، فيكونوا قوة لا يستهان بها فى حين أن سفننا ثقيلة خاصة ونحن نسير ضد الرياح.

فى المساء اجتمعنا مع كا فيما يشبه مجلس حرب، واتضح أن جميع الربابنة رأوا السفينتين. بدا لى أن أول ما يجب أن نفعله هو مراجعة نظام الإشارات، فليس من اليسير أن نقاتل عدونا دون تنظيم أنفسنا طبقا لخطة موضوعة، وطبقا لما قد يعترى الموقف من تغيرات. كان كا قد وضع نظاما مطابقا لنظام الأسطول فى الإشارات، لكننا رأينا تعديله ليلائم الظروف الحالية، ثم اتفقنا على خطة الهجوم والدفاع.

فى الصباح لاحظنا أن سفينة واحدة تتبعنا ولم نعر الأمر التفاتا . مضت ثلاثة أيام على هذا الحال ، والسفينة فى أثرنا تحتفظ بمسافتها لا تحاول أن تقترب منا أو أن تخفى نيتها فى متابعتنا . وجاء اليوم الذى استيقظنا فيه ونحن فى أحد الخلجان على أصوات المراقبين وهم يصيحون أنهم شاهدوا سفنا كثيرة تسد تماما عرض البحر ، وحينما سألنا عن عددها تبين أنها حوالى عشرون سفينة .

خرجنا إلى عرض البحر فى خط مستقيم لنرى أن سفن القراصنة قد كونت نصف دائرة تغلق بها أى طريق نسلكه . كانت سفنهم متقاربة من بعضها إلى درجة لا يمكن معها لأى من سفننا أن تنفذ بينها ، كما أن الرياح كانت من الشدة بحيث أضحى التجديف معها مرهقا للرجال .

كان اتجاهنا إلى عرض البحر شرقا ، وكان المفروض أن نأخذ سبيلنا بعد ذلك جنوباً ، لكن طبقا لتعليمات كا استمر اتجاهنا إلى عرض البحر ، فى خط مستقيم ، وإذا كان القراصنة قد تعجبوا من أننا لم نحاول اختراق الحصار إلى الجنوب ، وهو خط سيرنا الطبيعى ، فلم يبد منهم ذلك إذ أن سفنهم استمرت فى التقدم نحونا . وبدأ الحصار يزداد ضيقا .

إقتربت سفن القراصنة إلى درجة أضحى من اليسير على أن أراها ، وأتعرف على تفصيلاتها . كانت سفنا صغيرة نسبيا تحمل الواحدة عشرين مجدافا لكنها كانت خفيفة ، سريعة المناورة ، كما أنه لم يكن هنالك أدنى شك فى مهارة المجدفين .

تزايدت قوة الرياح فلم يكن فى إستطاعة الذين يحاصروننا من الشمال أن يستعملوا الشراع كما خشى الذين يهاجمون فى الجنوب ألا يستطيعوا التحكم السريع فى الشراع مع شدة الرياح فترتطم سفنهم الضعيفة فى بنائها بسفننا الضخمة ، ولهذا كان الجميع يستعملون المجاديف .

إستمر تقدمنا شرقا حتى أن القراصنة غالباً ما ظنوا أننا نود إختراق

الحصار متجهين إلى أواسط البحر، وتقاربت السفن إلى حد كبير حتى أن القلق بدأ يعتريني، وأنا أردد النظر إلى سفينة القائد عمى أن أرى إشارة منه. أخيراً صدر الأمر المتفق عليه ارتفعت الراية الحمراء على سارية القيادة.

لم أتوان لحظة، وبدأت أوامرى تنهال سريعة لنائبي، ورئيس البحارة والجنود. توقف المجدفون عن العمل، وارتفعت المجاديف من المياه لتنزلق إلى الداخل وأضحى سطح السفينة شعلة من الحركة، فى الدقائق القليلة التالية كانت الشراعات جميعها قد أفردت، ومالت السفينة بشكل مخيف، وهى تغير اتجاهها من الشرق إلى الشمال، مع اتجاه الرياح الجنوبية.

تطلعت من مركز المراقبة الى الموقف عموما. كانت سفننا الثلاثة الأخرى قد غيرت اتجاهها بدورها، ونشرت شراعاتها حتى اننا أخذنا خطا مستقيما بعرض البحر نواجه خط سفن القراصنة المتجه إلى الجنوب.

هنا فقط تنبهوا، ولاشك أن الهرج والرعب قد عمهم وهم يرون أربع سفن عملاقة تندفع نحو سفنهم الصغيرة بكل قوة الرياح تقطع المسافة الضئيلة الباقية بسرعة مخيفة تتناقص معها النيبوات (١) فى كل ثانية. تبينت مدى الهلع الذى ساد القراصنة حينما رأيت مجاديف السفن تتوقف فجأة وترتطم بعضها ببعض، وكلما ازدادت السفن اقترابا ازداد الهلع حتى أنى شاهدت بعض الأشخاص يلقون بأنفسهم بين براثن الأمواج المتلاطمة، مفضلين مصارعتها على لقاء الموت المندفع نحوهم.

ركزت نظرى، وتفكيرى بعد ذلك على قيادة سفينتى. كنا نندفع نحو سفينتين للقراصنة تفصل بينهما مسافة غير كافية للمرور. وبدا جليا أن الربانين يحاولان جهدهما أن يغيرا من اتجاههما ليبتعدا عن طريق الموت المندفع نحوهما، إلا أن ترك المجدفين للمجاديف؛ وتلاطم الأمواج، جعل من المستحيل عليهما التحكم التام فى دفتيهما.

---

(١) النيبو يساوى ١٫٢٥ ذراع تقريبا.

ازداد إعجابي بتوقيت كا. لقد لاحظ أن شدة حرص القراصنة على ألا تفلت منهم سفينة جعلهم يتقاربون بسفنهم إلى درجة حرمتهم من أهم ميزاتهم، سهولة المناورة. استمر إندفاعى بالسفينة، لم أتوقف، وما كان في استطاعتى أن أتوقف حتى لو أردت فإن الرياح كانت من الشدة بحيث حملت السفينة، تكاد أن ترفعها من سطح المياه. اقتصر تفكيرى على حفظ توازن السفينة، وضبط اتجاهها لأقرب دجب (١) مستطاع. أمسكت بالدفة أوجهها بكل ما أوتيت من قوة، واحتاج الأمر منى إلى مجهود جبار، وأنا أقاوم الأمواج وهى تتقاذف السفينة التى بدت وكأنما أصابها مس من الجن.

لا بد أن الذعر قد بلغ منتهاه بالقراصنة وهم يرون السفينة تندفع نحوهم تتقاذفها سرعة الرياح، وهى تعلو وتهبط بين الأمواج: شاهدت أثر هـــذا الذعر فى التزايد المستمر فى عدد الرجال الذين فقدوا أعصابهم وأخذوا يلقون بأنفسهم من الجانبين البعيدين كلما إزداد اقتراب السفينة.

مرقت مقدمة سفينتى بين المقدمتين، وشددت بقبضتى كلتيهما على الدفة إنتظارا لمحظة الإرتطام. بدأ الأمر بصوت ضعيف لا يكاد يبين مع أصوات الأمواج، كان صوت مجاديف تتكسر وهى ترتطم بجانبي السفينة القوية. ثم ازداد الصوت ارتفاعا مع كل ثانية تمر. تعالى صراخ موت من داخل السفينتين. ويبدو أن بعض المجدفين لم يكونوا قد تركوا أماكنهم فى الداخل، إما لأنهم كانوا لم يقدروا الخطر المحيط بهم تقديرا حقيقيا، أولأنهم كانوا أسرى مكبلين إلى مقاعدهم، فلما ارتطمت السفينة بالمجاديف لا شك أنها دفعت قبضاتها بشدة تكفى لتهشيم صدورهم.

حلت اللحظة الحاسمة بعد ثوان معدودات، ارتطم جانبي وسط سفينتى بجانبي السفينتين الأخرتين بقوة كادت أن تقذفنى من مكانى لولا شدة

---

(١) الدجب عرض الأصبع

تمسكي بقاعدة الدفة كان الارتطام شديدا لدرجة أنني عرفت بعد هذا أن ثلاثة من رجالى قتلوا فيه وقذف .. ابع فى المياه ، وأصيب أكثر من ثلاثين شخصا بجراح بعضها خطيرة ، رغما عن أنى كنت قد حذرتهم ، بل وقيدت بعض من يلزم منهم البقاء فى موقعه .

ارتفع صوت ارتطام الأخشاب ببعضها وتهشمها ، وللحظات توقفت سفينتى ، وهى تتأرجح بين السفينتين ، وارتفعت صرخات الجرحى وزمجرت الرياح تلطم الشراعات المنشورة بعنف حتى خشيت أن تمزقها ، واستمر الحال على هذا دقائق سيطر فيها ملاك الموت ، ثم اندفعت السفينة مرة ثانية تشق طريقها ، وتقذف بالسفينتين بعيدا عنها بعد أن تهشم جانباهما تماما .

لم أقدر مدى قسوة الخطة حق قدرها إلا بعد أن أحصيت الخسائر ، وشاهدت ما حدث لجانبى سفينتى . بالرغم من أن السفينة شيدت من خشب فينيقيا المتين إلا أن أجزاء كثيرة تهشمت ، بل إن بعض الألواح أضحى لا يصلح ، وكان لزاما أن نعدله . لم تبق قطعة من أثاث إلا تغير مكانها ، أو قذفت أو تهشمت وعلمت أن الأمر يحتاج إلى أيام حتى أتمكن من إعادة كل شىء إلى أصله .

على أن هذه الملاحظات وغيرها لم تأت إلا فيما بعد أما وقت الارتطام وبعـــده ، فكان لدى أهم بكثير من مجرد حصر الخسائر أو تقدير الإصلاحات . حينما اندفعت سفينتى تمرق بين السفينتين القيت نظرة خلفى لأراهما وقد تهشمتا إلى منتصفهما وبدأت فعلا المياه تطغى عليهما . أمرت برفع الراية البيضاء على الصارى الأكبر ، ورأيت أن سفينة أخرى قد فعلت ذلك فى حين أن سفينتى القيادة وساحورع ، رفعتا الراية الصفراء . إذاً فهما فى احتياج إلى معونة .

كانت أوامرنا صريحة فى ألا نتقدم لمعونة أحد قبل تنفيذ الخطة كاملة ، ولم نكن نفذنا منها سوى الجـــزء الأول . أمرت بإنزال الشراعات وبدأ

المصفوفين عليهم، وبعد. شديد تحول مسار السفينة مرة أخرى نحو الجنوب. كان أمامي دقائق طويلة قبل أن أساهم في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة، لهذا تركت مساعدي متوحا سين الدفة، واتجهت إلى السفينة، والرجال لألقى نظرة سريعة على الخسائر، وأقدر مدى قدرة السفينة على القتال.

لم يفتني أن أنظر إلى سفن الأعداء. كانت خمسة منها تغرق فعلا، ولاحت سارية سادسة تتخبطها الأمواج، بدت السفينتان المصابتان تتخبطان في الماء، وكأنما فقد قائداهما السيطرة عليهما تماما. قدرت المسافة بيننا وبينهم بحوالي عشرين حقا⁽¹⁾ تزيد قليلا، ولاحظت أنهم ما زالوا متقاربين في اتجاههم نحونا بل أن بعضهم نشر شراعاته، وكأنما يبغى ملاحقتنا ظنا منهم أننا نحاول الفرار. كانت هذه علامة طيبة عرفت منها أن القراصنة لم يكن يقودهم واحد يوجههم، وإنما عدة قادة لكل منهم رأيه الخاص، وربما يتحكم في عدد محدود من السفن. لعلهم اعتقدوا أنه كان في استطاعتهم هزيمتنا بمجرد تفوق القوة، فلم يكن هناك داع لوضع خطة أخرى بديلة، وكانت النتيجة أنه حينما فشلت الخطة بدأ كل واحد منهم يتصرف حسبما يحلو له.

أوليت كل اهتمامي في العشرة دقائق التالية إلى تفقد حال السفينة والرجال. حاولت جاهدا أن أعيد ما استطعت إلى موضعه وأنقل الجرحى إلى مكان أمين، ثم ألقيت أوامري لتنفيذ المرحلة التالية من الخطة، وعدت إلى المقعد المخصص للربان لأراقب سير السفينة.

رأيت أن سفينتي دنت من سفينة نجم آب حتى لم يكن في استطاعة أكثر من سفينة أن تمر بنا.

واستدارت السفينتان تماما نحو الجنوب تواجهان سفن الأعداء. لكن القراصنة كانوا قد انقسموا قسمين. خمس سفن ما تزال تندفع بشراعاتها نحو سفينتي كا، وساحورع العاجزتين، بينما استمرت عشرة أخريات تعمل بالمجاديف متجهة نحونا.

---

(١) الحق = ١٠٠ ذراع

لم نكن نكاد أن نتحرك ضد التيار والرياح ، فقد كانت الأوامر أن نريح الرجال فلا يجدفون إلا بمقدار ما يبق السفينتين فى مكانهما أو يكاد ، ولهذا كان اقترابنا من سفن الأعداء بطيئا لا تنقص المسافة إلا بمقدار ما يجدفون ، فى حين اندفعت السفن الخمسة ناشرة الشراع ، فقطعت أكثر من نصف المسافة نحو بغيتها .

تناولت الدفة من منتو ، وأمرته أن يتأكد من تنفيذ تعليماتى ، وسرعان ما وصلت إلى سمعى أصوات أدوات النجارين تعمل بلا هوادة . سرحت بنظرى إلى حيث ستكون المعركة التالية بين خمس سفن القراصنة فى كامل عدتها وقوتها ، وسفينتين خرجتا لتوهما من تصادم ويبدو أنهما لاتستطيعان حتى بمجرد الثبات فوق الماء . رأيتهما يحملهما التيار إلى الشمال يحاول قائدهما التحكم فيهما ليدنو من بعضهما ، ويجابهان العدو المشترك .

حملهما التيار إلى الشمال الشرقى من سفينتنا ، ويبدو أن إصابتهما كانت من الشدة بحيث لم يكن فى استطاعتهما استعمال الشراع فراح المجدفون يعملون جهدهم ليبتعدوا عن السفن الخمس المندفعة تحملها سرعة الرياح . رأيت القراصنة وقد تعدوا مواقعنا إلى الشرق وهم متجهين بأقصى سرعة نحو هدفهم المتثاقل ، وبدأ القلق ينتابنى مرة أخرى ، وداخلنى الريب فى خطة كا .

انتقلت بنظرى إلى السفن الأخرى ، ورأيتها لا تزال على بعد يزيد على عشرة حتات منا ، فرددت الطرف لأرى الراية الحمراء ترتفع على سفينتى كا ، وساحو . كادت أن تنطلق منى ضحكة . لقد نجحت خطة كا أكثر مما تصور . أعطى القراصنة طعما سفينتين بما حملتا من رجال ومال ، فلم يستطيعوا مقاومة الإغراء ، ودفعهم جشعهم إلى أن يلقوا بأنفسهم فى مصيدة الموت . لقد آن أوان العمل . للمرة الثانية رفعت الراية الحمراء واندفع الرجال يعملون بأقصى ما لديهم من سرعة فى نشر الشراعات ، وشاهدت أن نجم آب قد فعل بالمثل . وللمرة الثانية استدارت سفينتانا

تصحب الرياح شمالا تتعقبان سفن القراصنة الخمس ، وتبتعدان عن السفن التى تواجهنا .

تبين القراصنة أنهم وقعوا فى فخ ، فقد جابهتهما سفينتان ، لم تكونا فى شكل العجز الذى تظاهرتا به ، بينما تعقبتهما سفينتان أخريان . حاولت إحدى سفنهم الإفلات من الحصار فإنحرف بها ربانها فجأة متجها إلى عرض البحر لكن الرياح كانت من الشدة بحيث مزقت الشراع ، وتركته يحاول أن يعدل من سيره عن طريق المجاديف ، فأضحى غنيمة سهلة كأنما استقر راكدا فى مياه قلقة .

بسرعة مذهلة اقتربنا منهم ، وأطبق عليهم كا ، وساحو ، من الناحية الأخرى لم تكن السفن الصغيرة لتحتمل القتال كثيراً مع سفن كبيرة تفوقها عددا وما كان القراصنة أندادا لجنود الفرعون وبحارته . كان عدد الرجال فى السفن أكثر من ضعف عدد القراصنة فما كدنا ندنو حتى قذفناهم بوابل من السهام حتى لكأن السماء أمطرتها .

اقتربت بسفينتى من إحدى السفن حتى كدت ألامسها ، وألقى الرجال الخطاطيف تشد السفينة الصغيرة إلى أحد الجوانب ، ثم اندفعوا يقفزون على القراصنة برماحهم ، وسيوفهم يعملون فيهم القتل والجرح . اشتركت فى القتال فى بادىء الأمر تاركا قيادة السفينة لمنتو إلا أننى سرعان ما تبينت أن الرجال المقاتلين من القراصنة لا يزيدون على ثلاثين ، وأن بعضهم بدأ يقفز قتلا فى المياه حينما هبط عليهم رجالنا واستسلم بعض آخر . لهذا أشرت إلى بعض الرجال وهبطت معهم الدرج المؤدى إلى حيث كان المجدفون . فاشتممت رائحة نتنة حتى خيل إلى أننى سوف أغشو ورأيت منظرا بشعا .

كان المجدفون من الأسرى ، وقد قيدوا بسلاسل من حديد إلى مقاعدهم ، وبدا عليهم سوء التغذية واضحاً فى حين ظهرت على ظهورهم العارية آثار ضربات السياط : جلسوا أربعون شخصاً ، لا بل أربعون هيكلا عظمياً .

مقيدين إلى عشرين مجدافا كل اثنين يعملان على مجداف . وقد زاغت عيونهم وتقوست ظهورهم ، وبرزت عظام الصدور . نظروا إلينا بعيون باهتة لا تكاد أن تبصر ، أو تهتم ، لم يكن لديهم أمل فى الحياة ، وربما كان الموت أهون .

مضت دقائق قليلة وصوت القتال يصلنى من أعلى السطح ، ثم سكتت الأصوات . صرخت على الرجال أن يحلوا وثاق الأسرى ويطلقوهم ، ولم يصدق المساكين . ظلوا فى أماكنهم حتى بعد أن استعادوا حريتهم . أمرتهم بمرافقتى على سطح السفينة ، وشاهدت مدى ما يعانونه من مجرد النهوض من أماكنهم . تحاملوا ، وساروا يجرجرون أرجلا لم تعتمد على حمل الجسد أياما طويلة ، وكان مجرد تأرجح المركب من الأمواج كافياً لأن ينكفىء بعضهم فى سيره ، ويترنح الآخرون .

حينما رأوا الشمس أغمضوا عيونهم ، وغطوها بأيديهم . لم أتعجلهم تركتهم يتماسكون حتى يعتادوا على الضوء ، والهواء ، وحركة المركب بين الأمواج ، وطفت بنظارى أشاهد سير المعركة . رأيت إحدى مراكب القرصان تتخبط فى المياه ، وقد اشتعلت فيها النيران ، وغرقت واحدة حتى لم يكن يبدو منها إلا جزء من سطحها والصارى ، وأسرت سفينة كا ثالثة ، وهربت الأخيرة مبتعدة نحو الشمال ، وهى تنشر شراعاتها تكاد أن تختفى فى الأفق .

حولت بصرى إلى ناحية باقى أسطول القراصنة . كانوا قد توقفوا تماماً على بعد يزيد على خمسين حتما ، ويبدو أنهم حينما رأوا القتال قد انتهى بهذه السرعة ترددوا فى الهجوم . كانوا ما يزالون حوالى عشرة سفن لكننا كنا أصبحنا نمتلك أربعا ، ولعلهم علموا أنه من اليسير علينا جداً أن نعبىء السفينتين اللتين أسرناهما . لنضيفهما إلى قوتنا . لم يدم ترددهم كثيراً فاستداروا وابتدأت مجاديفهم تعمل بسرعة مبتعدين عنا .

ألقيت نظرى على سارية سفينة القيادة . لأرى العلم الأبيض مرفوعا والسفينتان تسير متجهة الى الجنوب وهى تشد وراءها السفينة الأسيرة . فعلت ذلك بعد أن تحققت أن القراصنة الأسرى ، ولم يكونوا يزيدون على عشرة ، قد قيدوا إلى بعضهم وبعد أن تركت بعض رجالى ليتولوا قيادة السفينة الصغيرة .

* * *

فى المساء اجتمعنا فى حمى الخليج الذى بدأنا منه رحلتنا فى الصباح فكأننا لم نتحرك من مكاننا . أجرينا مسحا للخسائر فى الأرواح ، والأعطاب التى أصابت السفن . لم نفقد كثيراً من الرجال اذ اتضح ان كل من فقدناهم لا يزيدون على ستة وثلاثين شخصاً ، لكن الأضرار التى أصابت السفن من جراء التصادم كانت كثيرة بل إن سفينة ساحورع كان من الخطر عليها أن تبحر بحالتها ، لهذا قرر كا أن نبقى فى حماية الخليج حتى يتم المهندسون إصلاح الأعطاب تماماً . التفت إلى كا يسألنى عن السفينة التى أسرتها ، وعدد القراصنة الأسرى والمجدفين ، وحينما أخبرته أخبرنى أن حالة السفينة التى أسرها لم تكن تختلف عنها كثيراً .

تشاورنا فيما نفعل بالسفينتين ومن عليها ، وأخيراً استقر رأينا على أن نسلم السفينتين إلى المجدفين على أن يتعهدوا لنا بعدم استعمالها فى القرصنة ، كما اتضح أن سبعة منهم كانوا مصريي الجنسية ، فتركنالهم الخيار أن يصحبونا ، فقبلوا . أمرنا الباقين بالإرتحال بالسفينتين بعيدا عنا إلى حيث يريدون ، ومعهم القراصنة الأسرى يفعلون بهم ما يشاؤن ، وكانت آخر معلوماتنا عنهم أنهم رحلوا بعد أن قيدوا القراصنة السابقين إلى المجاديف .

الفصل الرابع

بلاد بونت

استغرق إصلاح الأعطاب بالسفن أكثر من أسبوع بالرغم من أن كا لم يعط النجارين، والعمال أية راحة. كان يسوقهم إلى وقت متأخر بعد الغروب. وأبدى القباطنة الثلاثة، نجم آب، وساحو رع، وايوف عنخ، دهشتهم لتعجل قائد الحملة الذى لم يعرفوا له داع، فلم يكن يهم من وجهة نظرهم أى تاريخ نصل فيه إلى نهاية الرحلة حسبما كانوا يعتقدون.

فى فجر اليوم الثامن أقلعت السفن الاربعة ميممة نحو الجنوب. للمرة الثانية ظهر قلق كا وتعجله إذ أصدر أوامره بالاستمرار فى السفر ليلا طالما كان هنالك ضـــوء كاف فى القمر بالرغم مما فى ذلك من مخاطر الارتطام بالصخور، أوالشعب المرجانية حتى أننا اضطررنا أن نبتعد أكثر من المعتاد عن الشواطىء. إلا أننا من ناحية ثانية كانت لدينا المعلومات الكافية من البردى الذى خلفه لنا الأقدمون عن مسالك البحر، وتياراته، والملاحة فيه، حتى بونت، ولهذا لم يكن يتهددنا خطر حقيق.

وصلنا إلى مضيق توسان(١) فى منتصف الشهر الثالث من شهور برت (منتصف يناير) ومع هذا فإن الجو كان شديد الحرارة حتى أنى سمحت للمجدفين بأن يخففوا من ثيابهم، كما قصرت، بناء على أوامر كا، دورة

---

(١) كانت تسمى توسان هى التى تقع عندها باب المندب ولما كنت لم أستطع التعرف على الاسم الحقيقى الذى كان يطلق على المضيق اخترت هذا الاسم.

التجديف إلى ساعة ونصف ، وكانت النتيجة أن احتفظنا بسرعتنا دون أي تخفيض .

ما أن اجتزنا مضيق توسان حتى تغير الحال تماما . تلقفتنا رياح شمالية(١) دفعتنا نحو الجنوب بسرعه حتى أننا لم نعد فى حاجة إلى التجديف . كنت قد قرأت عن هذه الرياح فى كتب الأقدمين ، إذ تركوا لنا ذخراً من المعلومات عن كل منطقة زاروها ، جوها ، ورياحها ، وأمطارها ، وجزرها ، وحالة شواطئها ، ونباتاتها ، وصخورها وحيواناتها ، وأهم من هذا جميعه قاطنوها ، وصفاتهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، ومقدار ترحيبهم ، أو عداوتهم للغريب . لم ينسوا شيئاً لم يذكروه . ذكروا ما يلبسون ، وما يأكلون ويشربون ، وأهم محصولاتهم ، والبضائع التى تغريهم بالشراء ، بل حتى بعض كلمات من لغتهم عن الأشياء الهامة التى تلزم أن يدور حولها الحديث .

كانت هذه المعلومات هى التى مكنت كا من قيادة السفن عبر بحر العرب ، وهى التى مكنته من معرفة جزره العديدة المتناثرة على طول الشاطىء ، وطرق الملاحة فيه ، وكيف يتفادى الشعب المرجانية ، وهى التى قادته عبر مضيق أوسان وجزره الكثيرة ، وأخيراً هى التى جعلتنا نتوقع الرياح الشمالية تدفعنا فى البحر الجنوبى إلى مقصدنا الأول ، بلاد بونت .

استمر تقدمنا جنوباً بانحراف خفيف نحو الغرب مدة عشرة أيام متوالية . لم تحدث فى هذه المرة أية حوادث غير عادية ، وقضاها البحارة فى كسل نسبى ، إذ كانت الرياح ، والتيارات المائية تقوم بمعظم العمل . حتى على كربان السفينة بال ، قضيت أغلب أوقات اليوم أكتب مذكراتى وأدون ملاحظاتى على ما نمر به ، وما نرسو عليه من شواطىء ، جاهداً أن أرسم خريطة جديدة ، أو أن أطابق بين ما قرأته من كتابات الأقدمين ، وبين ما شاهدته .

---

(١) هى الرياح الموسمية الشمالية الشرقية .

تعلمت فى هذه المدة بعض كلمات عثرت عليها من لغة أهل بونت ، وإن اتضح لى بعد ذلك أن نطقها ، بل ومعناها ، قد تغير تماما بحيث أضحى من العسير على أن أفهم ما يقولون ، أو أن يفهموا ما أنطق به ، ولعل طريقة النطق ، أو بعد الزمن ، أو الاثنين معاً ، كان لهما أثر مباشر فى هذا .

كنا فى اليوم السابع قد غيرنا اتجاهنا من الشرق إلى الجنوب الغربى ، وتلقفتنا الرياح تزداد شدة حتى أننا فى اليوم الحادى عشر اضطررنا إلى ضم الشراعات وبدا لنا أن السفينتين الصغيرتين تلقيان الكثير من لطم الأمواج ، كما وضح أن من العسير على ربانيهما أن يحتفظا بحيزومهما(١) فى الاتجاه الصحيح .

زاد الطين بلة أن الأمطار هطلت بشدة حتى أن المجدفين ، وكنا قد اضطررنا لإعادة استعمالهم ، أضحى من العسير عليهم البقاء فى أماكنهم مع عصف الرياح ، بالرغم من حواجز السفن العالية عن المعتاد . كانت الرياح تلطمهم من ناحية ، والأمطار تهطل كأنما فتحت السماء أبوابها ، والأمواج تتلاعب بالسفن حتى تغطيها أحيانا . فى وسط هذا الجو الغاضب ، جاهد المجدفون فى محاولات ضعيفة للاحتفاظ بالتحكم فى سير السفن كما جاهدنا نحن فى محاولات يائسة للتشبث بالسكان (الدفة) . ومع هذا فإننى كنت أعلم أن البحر الكبير لم يقارب منتهاه من الشدة ، وإنما هو يتلاعب فقط بنا وأن ما يحدث أبعد ما يكون من قوة العواصف الحقيقية .

فى صباح الخامس والعشرين من الشهر الثالث من شهور برت (شهر يناير) دخلنا إلى حماية خليج كبير جنوب رأس التوابل (رأس جواردافى). لم أشك فى أنه الخليج الذى أطلق عليه الأقدمون باربايا ، وبدأ المجدفون يستريحون قليلا من مقاومة الأمواج العاتية . أحسب أننا مررنا بقرية ،

---

(١) حيزوم السفينة : مقدمتها .

حسب معلوماتى ، فهى قرية بانو ، إلا أن كالم يشأ أن يتوقف عندها فاستمرت سفينتنا على بعد منها ، وإن كنا رأينا بعض الزوارق الصغيرة بل ومراكب مختلفة .

قبل أن تغيب الشمس ، كنا قد تعمقنا فى الخليج ، وانحرفنا معه قليلا فبدت لنا مدينة أوبونى(١) . كان أول ما شاهدته هو ميناؤها ، وهو عبارة عن خليج رملى متسع برز منه لسانان من الرمال يحميانه تماماً من أمواج البحر (المحيط) فبدت مياهه هادئة ، لا أثر فيها لتيارات مائية أو أنواء .

لاحظت أن هنالك عدداً كبيراً من الزوارق التى يستعملها الأهالى . وهى كثيرها مجرد جذوع أشجار ضخمة جوفت ، كما أننى رأيت خمس مراكب كتلك التى كان يقودها القراصنة الذين هاجمونا فى بحر العرب (الأحمر) . من البديهى أنى لم أكن أستطيع القطع بأنها كانت هى نفسها مراكب القراصنة إذ من الأرجح أن جميع مراكب النبط (العرب) كانت تصنع على منوال واحد تقريبا ، حتى ربما يكون من العسير على غير أصحابها التعرف عليها ، ولعل هذه مجرد سفن تجارة بريئة ، إلا أننى مع هذا داخلنى شك كبير ، وتوجست خيفة من وجودها فى الميناء .

انتقلت عيناى إلى المدينة ذاتها . كانت كبيرة نسبياً إذا قورنت بالقرى التى شاهدنا بعضها على الشاطىء ، ومع هذا فلم تكن تقارب أية مدينة صغيرة فى الشرق . مجرد أكواخ تناثرت فى نصف دائرة تبدأ بعد مسافة يسيرة من الشاطىء لتنتهى عند أطراف أشجار باسقة . أما منتصف الدائرة تماما فقد كان خالياً من المبانى . عبارة عن أرض فسيحة جرداء لم أشك فى أنها تستعمل كسوق لتبادل السلع .

---

(١) سميت جميع أسماء البلاد والخلجان والقرى من البردية الشهيرة ببردية البحر الأريترى وإن كانت قد كتبت فى القرن الأول بعد الميلاد أى بعد حوالى ستمائة سنة من تاريخ القصة إلا أننى لم أستطع أن أعثر على أسماء للبلاد زمن أقرب .

اختار كا لمرسانا مكانا يبعد ما يقرب من ثلاثة حتات (الحت ١٠٠ ذراع) فى أقصى الطرف الجنوبى للمدينة ، وأمرنا أن نلقى المراسى بحيث تكاد السفن أن تتلاصق ، على أن تكون السفينتان الصغيرتان فى الوسط ، كما أمر بأن تستمر الحراسة فى السفن ، بالتناوب ، وأن يتولاها عشرة أشخاص فى كل سفينة .

كان الظلام قد حل تماما حينما انتهينا من الرسو ، وجاءتنا الأوامر أن لا يسمح لأى قائد ، أو ضابط ، أو بحار . أو غيره بالنزول إلى الشاطىء فى المساء دون إذن شخصى من كا . بدأت أستعد لتناول العشاء مع نائى منتو حينما سمعت لغطا عند السطح فابتدرت بالذهاب ، وهناك سمعت ما يشبه المشادة الكلامية بين بعض الجنود ، وشخص أو أشخاص آخرين يبدو أنهم كانوا قد وصلوا إلى السفينة فى زورق ، وأرادوا أن يصعدوا إلى السطح ، فمنعهم الجنود حتى يتلقوا أوامرى .

لم يرنى الجنود حتى كنت بينهم فتوقفوا عن الكلام ، وأفسحوا لى مجالا لألقى نظرة على الرجال الذين أتوا بالزورق . لم يكن القمر قد بزغ ، وكان الضوء الوحيد الذى مكننى من رؤية الزورق هو أضواء المشاعل التى حملها بعض الجنود ، ومع أنها لم تكن كافية بحيث أتبين ملامح الرجال إلا أنه كان من اليسير أن أقطع بأن اثنين منهم لم يكونا من الأهالى ، وإنما من الأعراب .

فى اللحظة التالية اعترتنى الدهشة حينما سمعت أحد الرجلين يسأل بالديموطيقية(١) عن قائد السفن ، حينما أجبته أنه فى السفينة الرابعة لم يعتن بالرد ، ووجه بعض كلمات بلغة لم أفهمها إلى الأهالى الذين سرعان ما راحوا يجدفون بهمة متوجهين نحو سفينة القيادة .

---

(١) اللغة المصرية الشعبية القديمة . وهو تطوير للهيراطيقية التى كانت بدورها تطويرا للهيروغليفية . ومن الديموطيقية ظهرت اللغة القبطية .

استيقظت فى الصباح المبكر ، ولم أكد أنتهى من صلاتى ، وإفطارى حتى أتانى كتاب من كا . أمرنى بأن أضع السقالات للنزول إلى البر ، وأن أترك بقى مترو سين فى السفينة ، وأن أصطحب معى عشرة فقط من الجنود فى كامل ملابسهم الرسمية ، ومعداتهم ، وأنه سوف يلقانى على الشاطىء . ألقيت أوامرى تنفيذاً لتعليماته ، ولم تمض ساعة إلا وكانت السقالات تصل السفينة بالشاطىء .

حينما وصلت الشاطىء مع جنودى كان كا منتظراً فعلا ، ولم يكن بصحبته سوى عشيه سمسو ، وعنخو وجنديين أحدهما أونى ، البحار الذى نال شهرة ذائعة كأحسن رام للسهام . تلقانى كا باسماً ، وذكر أننا سوف ننتظر قليلا حتى يحضر رسوله الذى كان قد بعثه لإخطار الملك بحضورنا .

لاحظت ، ونحن واقفان ، أن بعض الأهالى قد تجمعوا ، ووقفوا من بعيد يحجمون عن الاقتراب ، وينظرون إلينا بتعجب دون أن يخفوا دهشتهم وفضولهم . لم يكونوا ، نساء ورجالا ، يرتدون شيئا سوى مجرد ما يستر عوراتهم ، أما الأطفال فقد كانوا عراة تماما . لم تكن سمرة معظمهم داكنة، على إن بعضهم كان يميل إلى البياض ، واسترسلت شعور البعض تكشف أن أصلهم ليس زنجيا خالصاً ، وإنما خالطه دم آخر ، ولا شك أنهم من نتاج تزاوج الأعراب بالزنجيات ولا بد أنه قد مضت قرون على هذا الاختلاط إذ أن عدد المولدين لم يكن ضئيلا ، ومن اليسير التعرف عليهم بأنوفهم المستقيمة ، وألوانهم الفاتحة نسبياً ، وشعورهم المسترسلة ، وشفاههم الرقيقة .

سألت كا إن كنا نحن فقط الذين سوف نتقابل مع ملك المدينة ، ولما أجاب بالايجاب قلت :

— أترى ذلك من الحكمة ؟ أليس فيه خطراً ؟

— لم ؟ إننا فى رحلة سلمية تجارية ، ويجب أن نظهر حسن نوايانا . على أنى من ناحية أخرى قد تركت أوامرى أن يهاجم إيوف عنخ المدينة عند

أول بادرة عداء . ولست أحسب أن الملك من الجنون لدرجة أن يجرؤ على القيام بأى عمل عدائى .

— والقراصنة ؟

— آه . إذاً فقد لاحظتهم . أجل هنا مكمن الخطر ... كم كنت أود لو أن معنا من يتكلم الحميرية أو لغة البانتو (١) .

— إن لدى اثنين من الجنود أحدهما يتكلم اللغتين، والآخر يتكلم الحميرية .

التفت كا إلى دهشا .

— وأين وجدتهما ؟

— إنهما اثنان من الرجال الذين كانوا أسرى القراصنة ،واختاروا صحبتنا.

— آه ... لماذا لم أفكر فى هذا ؟ هل هما معك الآن ؟

— طبعا.

— حسناً ... مرهما ألا يظهرا معرفتهما لأية لغة سوى الديموطيقية ، على أن يستوعبا كل كلمة تقال فى المجلس . ترى هل سوف يتعرف عليهما القراصنه ؟

— لا أعتقد . إنهما كانا فى إحدى السفن التى أسرناها ، وثانيا أننى لا أتصور أن يعرفهما أحد من خاصة رفاقهما فى المركب ، فقد تغيرت هيئتاهما تماما .

لم أشأ أن أقول لـكا إننى أمرت الرجلين فعلا ألا يبوحا لأحد بمعرفتهما للغات القوم، وأن يكونا دائمين يقظين ، منتبهين لجميع ما يدور من أحاديث، فاتجهت إليهما كأنما لأنقل إليهما تعليمات القائد، وكررت تأكيداتى السابقة، وزدت عليها بأن أمرتهما أن يكونا دائما على مقربة منا ، وكأنما هما من أخص الحرس .

---

(١) الحميرية هى لغة جنوب الجزيرة العربية قديما والبانتو إحدى لغات أفريقيا الاستوائية .

عاد رسول كا إلى الملك وبصحبته أحد الأعراب ، يتبعهما حوالى العشرون رجلا من الزنوج حاملين رماحا . وتكلم الأعرابي بالديموطيقية .

— إنى يشجب بن سدد تاجر من سبأ . هل فيكم من يتكلم الحميرية أو لغة البانتو ؟

رد عليه القائد :

— أنا كا — لم أور رسول فرعون تامرى العظيم نيخاو الأول له الحياة ، والصحة ، والقوة ، وقائد الرحلة . جئنا لنقدم هدايا الفرعون العظيم إلى ملك أوبونى الجليل ، رمزاً للصداقة والمحبة . حتى يسمح لنا بتبادل السلع مع شعبه . ويؤسفنى أن ليس منا من يتكلم أى اللغتين ، ونأمل أن تكرمنا بمعونتك .

لاحت الراحة على وجه السبئى حينما سمع أن ليس منا من يفهم لغته ، أو لغة أهالى البلاد ثم تحول نظره إلى :

— من هذا ؟ ومن هذان الزنجيان ؟

— هوكين إيم حتب ربان إحدى السفينتين الكبيرتين وموضع ثقتى ، أما هذان فهما حاملا الهدايا وحرس الشرف . والزنجيان من خاصتى ، ولا يتكلمان سوى الديموطيقية .

— حسناً اتبعونى فإن الملك سوف يستقبلكم فوراً .

استدار السبئى وتبعناه . لاحظت أن الرجال قد انقسموا إلى فريقين فأحاطوا بنا ، وبالجنود من الجانبين . سرنا نتبع دليلنا بينما تبعنا الأهالى ، وهم ما يزالون ينظرون إلينا وإلى ملابسنا بتعجب .

اتجهنا إلى الأرض الفضاء وسط الأكواخ ثم أخذنا نخترقها ميممين نحو الغابة . فى صدر الأرض الفسيحة ، رأيت مبنى أضخم بكثير من الأكواخ المتناثرة على الجانبين ، وبدا أن هذا هو المقر الملكى . لم يكن مثل سائر الأكواخ المبنية بفروع الأشجار ، والأعشاب ، وإنما كان أقرب ما يكون

إلى منزل حقيق بنى من الخشب ، وصنع سقفه من الأخشاب ، والطين الممزوج بالأعشاب ، حتى تعطيه حماية أقوى ضد الأمطار .

أمام المنزل امتد ما يشبه الشرفة ، أو المظلة الضخمة ، وتحتها جلس الملك على مقعد خشبي ، وإلى جواره جلست شريكته فى العرش ، وعلى اليمين وقف أعرابى آخر ، فى حين وقف إلى الخلف رجلان يروحان على الملكين بمروحتين من ريش النعام . على الجانبين اصطف حاملو الرماح الخشبية ، لاحظت أن بينهم بعض حاملى السهام كما أن الكثيرين من الواقفين كانوا من الأعراب . خلف كل هؤلاء كانت جموع الأهالى تتطلع مشرئبة الأعناق .

على أن كل هذا كان متوقعاً ، أما الشيء الذى جلب أنظارنا وجعلنا ، أعنى جعل المصريين ، يترددون فى خطاهم فهما ذانك الفهدان اللذان قبعا عند قدمى الملك ، واللذان ثبتت أعينهما الحمراء علينا تشع منها الوحشية ، والقسوة . كانا حيوانين ضخمين تجلت عضلاتهما ، وقوتهما فى كل جزء من جسدهما ، وزاد من رهبتنا لهما أننا لم نر حول عنقهما أية قيود .

ظل الحيوانان يراقبان ونحن نتقدم ، وحينما أصبحنا على بعد عشرة خطوات ، أو نحوها ، هبا واقفين فجأة ، وبدا عليهما أنهما يستعدان للهجوم . وتسمرنا فى مكاننا . تحركت شفتا الملك بكلمات لم تصل إلينا . تردد بعدها الوحشان ثم عادا إلى مكانهما ، وإن لم تتحول عيونهما عنا .

عندئذ فقط تحولت عيناى نحو الملكين . كانت ملامح الملك جميعها تكاد أن تكون عربية . لم يكن فى وجهه الجميل أية سمة من سمات الزنوج ، ولولا شعره الخشن ، ولونه الأسمر لما أمكن التفرقة بينه وبين الأعراب . بدا رجلا فى نحو الأربعين من عمره ، عريض المنكبين إلى درجة كبيرة ، ممتلىء الجسم دون بدانة ، فلم يظهر على أى جزء من جسده قطعة واحدة من الشحم .

كان يضع على رأسه تاجاً من الأعشاب ثبتت فى وسطه ريشات نعام بيضاء ، كما تدلى من رقبته بضعة عقود من الخرز ، وفيما عدا هذا ظهر صدره

الصخر عاريا فى حين كسا جزؤه الأسفل قطعة من قماش حريرى التفت حوله حتى ركبتين . راحت نظراته تنتقلان فينا ونحن نتقدم . كان يقوم كل شخص منا بعينين ذكيتين ، فيهما قوة ، وفيهما دعابة وأحسب أنه لم يفته أى رد فعل لأى منا حينما هب الفهدان واقفين .

على النقيض منه تماما كانت ملكته . امرأة فى الخامسة والعشرين ، أو نحوها داكنة السواد مترهلة الجسم ، ملامحها زنجية خالصة . لم تكن ، مثل زوجها ، تتدثر بأكثر من قطعة من الحرير تغطى نصفها الأسفل حتى القدمين ، بينما ظهر جزؤها الأعلى عاريا وقد اكتنز لحما ، وشحما ، وأثقل جيدها بعدد كبير من العقود ، كما طوقت يداها بأساور ذهبية متعددة .

قال الملك ، وترجم السبئى إلى جواره :

— إن جلالة الملك يحييكم ويرحب بكم فى أرضه السعيد ، ويسألكم من أنتم ومن أين جئتم ؟ وما هدفكم من هذه الزيارة ؟

رد عليه يشجب بن سدد ، دليلنا يوضح له ما سبق أن قررناه ، وتكلم الملك وترجم السبئى .

— إن جلالته يأذن لكم أن تعرضوا عليه الهدايا القيمة التى أرسلها إليه الفرعون [illegible] تامرى .

* * *

مضت ثمانية أيام ونحن نتبادل السلع مع ممثلى الملك ، وأغلبهم من الكهول . انتهزنا الفرصة فزودنا السفن بالمياه العذبة ، والفواكه ، والأسماك المجففة واللحوم . سمح كا فى هذه المدة بأن ينزل الجنود ، والبحارة إلى البر على أن يتناوبوا فى ذلك ، وعلى أن يبقى نصف العدد على الأقل بصفة دائمة ، بحيث لا تخلو أية سفينة فى أى وقت من قائدها أو نائبه .

وقد خصص لنا الملك أربع حجرات فى جناح منزله ، لكل ربان أو نائبه ،

حجرة ، كما أفرد حجرة خاصة لسكا ، وكانت معاملته عموما سمحة كريمة ، كما اتضح لنا أن الأهالى ودودون ظرفاء ، فيهم بساطة ، ودعة .

فى اليوم الأول قادنى أحد خدم الملك إلى حجرتى ، وحينما دلفت من بابها وجدتها غرفة رحبة ، سويت أرضها ، وغطيت ببعض الرمال الناعمة من الشاطىء ، ولم يزد أثاثها على سرير خشبى ، وثلاثة قطع من الخشب اقتطعت من جذوع الأشجار لتكون منضدة ، ومقعدين ، ووضع على المنضدة طست من الخشب ، وإناء من الفخار المصنوع من الطين المجفف ، وأريكة دون أى مسند ، أو حشية . لكنها كانت حجرة نظيفة كما كان على الفراش حشية رفيعة من القطن المحشو فيما يبدو ببعض الأعشاب الخاصة .

ما كدت أن أستقر فى الحجرة حتى فتح الباب ودخل السبتى يشجب وهو يقبض بيده على ذراع فتاة يجبرها على الدخول . كانت فتاة لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها طويلة القامة ، ذات شعر أسود فاحم متهدل على كتفيها ، مستقيمة الأنف ، واسعة العينين ، دقيقة الفم ، والواقع أنها كانت أجمل من رأيت فى المدينة حتى الآن . أما لونها فكان بعيداً عن السمرة ، ولم يكن من شك فى أن دماءها قد اختلطت بأكثر من جيل من الأعراب .

تنقلت عينا الفتاة بينى وبين الأعرابى فى حركات زائغة ، كحيوان حبيس يكره آسريه ، ويتحين الفرص للإفلات إلى الحرية . لم تكف لحظة عن محاولة التملص من قبضة آسرها إلا أنه دفعها بعنف إلى داخل الحجرة حتى ارتطمت بالجدار الخشبى بقوة . لا بد أن الارتطام آلمها ، ومع هذا فلم يبد عليها أنها أحست بالألم إذ لم تكد تتمالك نفسها حتى اندفعت إلى الأعرابى مادة ذراعيها تريد أن تخمش وجهه ، إلا أن لطمة قوية منه أعادتها إلى مكانها . لم يلتفت إليها بعد ذلك ، ووجه إلى خطابه .

— إليك هذه القطة المتوحشة . إن اسمها باكا ، وهى أخت الملك ، وقد أرسلها لخدمتك ، والتسرية عنك .

قال هذا وغمز بعينيه ثم أردف :

ــ إنك لذو حظ فهذه القطة أجمل من رأت عيني في هذه البلاد ، إن ينعم ، مترجم الملك الذي رأيته ، يكاد أن يجن بها هياما ، ويريد أن يتزوجها إلا أن هذه النمرة ترفض ، وربما أرسلها إليك الملك لعلك تستطيع ترويضها لينعم ، فقد كادت تسلب عينيه .

انفجر يشجب ضاحكا ، واستدار ليخرج إلا أنني استوقفته :

ــ هل لك أن تخبر الفتاة أنني قد أحتاجها للخدمة لكنني لن أطلب منها التسرية .

علقت عيناه بوجهي لحظات وبدت عليه دهشة حقيقية ثم هز كتفيه كأنما يطرح عنهما شيئا لا يعنيه ، وخاطب الفتاة . لأول مرة منذ دخلت الحجرة ، رأيت أن نظرتها قد تغيرت ، وثبتت على تتفحص مقدار ما في كلام الأعرابي من صدق ثم انسابت الكلمات من شفتيها . وقال يشجب ضاحكا :

ــ إن الفتاة تقول إنها سوف تخدمك ، وتأتي بطعامك ، وتنظف حجرتك ، وتغسل ملابسك ، وتنفذ أوامرك ، أما إذا حاولت لمسها فسوف تفقأ عينيك .

لاحظت أنه تردد قليلا قبل أن يقول .

ــ أرجو أن أحذرك من ينعم ... إنه ... إنه ليس منا .

استدار بسرعة وخرج كأنما أسف على ماقاله . لم تخفض الفتاة عينيها عن وجهي ، وكأنما تنتظر ما سوف أفعله ، ولما لم أكن محتاجا إلا إلى بعض الراحة ، أشرت إليها بالخروج ، ولم تتردد لحظة ، وهي تهرع إلى الباب كأنما تفر مني .

• • •

تتالت الأيام بعد ذلك عادية ، نتبادل فيها البضائع ، ونشتري تموين السفن . إزدادت باكا في أثنائها ثقة في أن لاغرض لي فيها سوى مجرد الخدمة العادية ،

فتفانت فيها حتى أنى كثيرا ماكنت أجد على المنضدة بعض الزهور البرية ، والفواكه الطازجة ، ولم يخل الإناء من المياه .

حاولت أن أتكلم بضعة كلمات من لغة القوم فاتضح لى أن ما قرأته من كتابات الأقدمين لا يكاد أن يكون له علاقة باللغة التى يتكلم بها الأهالى ، ولهذا تناسيتها تماما ، وبدأت ألتقط الكلمات متناثرة ، فى حين وجدت باكا سروراً عظيما فى تعليمى ، وأن تتعلم بدورها كلمات متناثرة من الديموطيقية . لم يحدث فى هذه الأيام ما يستحق الذكر سوى مسألتين : الأولى أن نفرومى وهو أحد الجنديين الذين يتكلمان الحميرية ، أخبرنى بأن بعض النبط كانوا قطعا من القراصنة ، والبعض الآخر من التجار الأمناء الأشراف ، وأن الملك لا يسأل عن مصدر السلع التى يوردها أى من الطرفين، وإن كان يعلم شيئا ، فهو لم يجهر به .

أما المسألة الثانية فحدثت فى اليوم الثالث من تواجدنا فى المدينة ، إذ بينما أنا واقف بمفردى عند أطراف المدينة أرقب بعض جنودنا وهم يتعجلون حمالين من الأهالى فى نقل كميات من الفاكهة إلى السفن ، شعرت بحركة ورائى بين الأشجار ، ولما التفت رأيت ينعم مترجم الملك ، يتقدم نحوى .

حولت نظرى عنه ، وعدت إلى مراقبة الجنود ، والأهالى ، وفى اللحظة التالية شعرت بيده تقبض على ذراعى ، وجاءنى صوته كريها متهدجا من الغضب .

— أنا ينعم بن زرعه ولا أحد يحول وجهه عنى .

لم أحاول أن أنزع ذراعى وقلت بهدوء .

— دع ذراعى .

بقيت القبضة ثوان ثم تراخت أصابعه ، وهبط ذراعه إلى جانبه . حينما تكلم جاء صوته ناعما لا أثر فيه لانفعاله الأول .

— إنى آسف لم أقصد أن أولمك لكن لا تنكر أنك بدأت بالإهانة ، والواقع أنى أردت محادثتك .

لم أر داعياً أن أكتسب عداوة الرجل ، لهذا قابلته فى منتصف الطريق والتفت إليه .

— لم أكن أدرى أنك تقصدنى ، وكنت أرقب رجالى .

لأول مرة تحققت من ملامح الرجل . كان طويلا يكاد أن يقاربنى إلا أن ما ينقصه فى الطول ، عوضه فى العرض . كان عريضا إلى درجة أنه كاد أن يكون مربعا ، أعطاه ضخامة غير عادية . ظهرت القوة فى كل جزء من جسده . الوجه وعيناه ، فقد كانا بشعين ، تتمثل فيهما الوحشية ، والقسوة بأجلى معانيها ، وزاد من بشاعته ذلك الندب العرضى الذى وصل من أذنه اليسرى تقريبا حتى أنفه ، وتلك اللحية السوداء القذرة التى تركت شعثه دون تهذيب . تحول صوته إلى الانفعال وهو يقول :

— إنها باكا ... أريد أن أحدثك عنها ... إننى أحبها ، وأريدها لنفسى .

لم أتصور أن هذا الوحش يمكن أن يحب أى شىء ، أو أى شخص سوى نفسه . يريد الفتاة ... نعم ، أما يحبها فلا ... على أن هذا لم يكن من شأنى ، وأخبرته بذلك ، ولم يتركه الغضب وهو يتكلم .

— لقد طلبتها من أخيها الملك ، ووافق إلا أن الفتاة كالنمرة المتوحشة . شكوتها إلى أخيها فضحك ورفض أن آخذها بالقوة ، ثم أرسلها إليك ويبدو أنها معجبة بك ...

صمت ... ولم أتكلم ... أخيراً لم يطق صبراً .

— إنى أحذرك ألا تلمسها ، وإلا فإننى سوف أقتلك .

إن كان هنالك شىء لا أقبله ، ولا أحسب أن أحداً من ضباط ، أو جنود جيش وبحرية جلالة الفرعون له الحياة ، والصحة والقوة ، يقبله ، فهو التهديد ،

واجهت الرجل بجسدى كاملا ، وثبت عينى على عينيه بصرامة وغضب دون أن أفوه بكلمة . للحظات قابل النظرة بالنظرة، ثم اعتذار وتركنى متوجها إلى القرية . وعدت أرقب جنودى .

° ° °

جمعنا كا ، نحن قواد السفن الأربعة ، فى حجرته فى مساء اليوم الثامن وأنبأنا أنه قرر أن نبحر فى صباح اليوم العاشر . وسأل إيوف عنخ .

— لماذا ؟ إنه ما زالت لدينا بعض البضائع القليلة فلم لا نتخلص منها ؟ وهذا القمح الفائض عن الحاجة لست أدرى سبباً لعدم التصرف فيه ؟

أجابه كا بهدوء :

— أنى قلت إننا سنبحر يا إيوف ولم أقل إننا سنعود إلى الوطن .

رفع إيوف عينيه متعجبا :

— هل تعنى بهذا أننا سوف نتجه جنوباً ؟

— أجل .

— لماذا ؟ إن ما بقى معنا من بضائع لا يستحق عناء الانتقال . والواقع أن جميع ما بعناه لا أعتقد أنه سيغطى تكاليف الرحلة . لماذا لا نتخلص من كل السلع هنا ونعود ؟

— هل يلزم أن أذكرك دائما أنى القائد ؟ على أى الأحوال أظن أنه قد حان الوقت الذى أخبركم فيه بالغرض الحقيقى من الرحلة . لقد أمرنى جلالة الفرعون ، له الحياة ، والصحه ، والقوة ، أن أعود إلى الوطن عن طريق الغرب ، أعنى بعد الالتفاف حول ليبيا .

ساد صمت رهيب ، ودارت عيناى فى الموجودين لأرى وقع النبأ عليهم . ارتسمت الدهشة التامة على وجه صديقى ساحورع . وبانت البلاهة على وجه نجم آب فكأنما لا يصدق ما سمعت أذناه ، وعلا الغضب وجه إيوف عنخ وتدفقت الكلمات من فمه :

ـ إنك خدعتنا ... إن أحداً لم يقل لي إنني سوف اذهب إلى رحلة الموت هذه ، وإلا لرفضت ... إن رجالي أيضا لا يعلمون ، وإنني أرفض أن أقوم بهذه المخاطرة المجنونة ... إننا لم نسمع أن أحداً قام بها ، وهي نهاية العالم حيث الشياطين والمردة ... لا ... لن يرغمني كائن من كان على ركوبها ... إن شئت أن تذهب فقم بها بمفردك .

استمع إليه كا حتى انتهى من حديثه ثم قال بهدوء .

ـ استمع أولا إلى رأي كل قائد ... لكني لست أحسب أنني بحاجة إلى ذلك ... ما رأيك يا ساحو ؟

بلع صديقي ريقه ... لم يكن قد أفاق بعد من دهشته .

ـ الواقع أنها رحلة خطرة ... إننا لا نعلم شيئا عن البحار ، وتياراتها وعواصفها ، وأنوائها . ولا عن الخلجان والشعاب المرجانية ... بل إننا لا نعلم أي نوع من الأهالي سوف نصادف حينما نضطر إلى الرسو على الشاطيء ... أجل لا شك أنها رحلة خطرة . لكن من ناحية أخرى البحار هي الخطر ، والناس هم الناس ، والمخاطر هي المخاطر ، ثم أحسب أنني كربان في رعية الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، لا أستطيع أن أعصي له أمراً ... أجل إنني معكما .

تحولت أنظارنا جميعاً إلى نجم آب . وهنا كانت المفاجأة ... اعتقدت بادئ الأمر أنه سينضم إلى إيوف عنخ إلا أن اللحظات التالية أثبتت مدى خطئي إذ انفجر ضاحكا :

ـ هذا هو الجنون بعينه ... ومع هذا فلن يقول أحد إن نجم آب نكص على عقبيه ... مردة وشياطين ... لا بأس ، عليك أن تقودنا وسأكون أول رجل بغر .

تنفس كا الصعداء وقد انزاح عنه عبء ثقيل . وجه نظرة ثانية إلى إيوف عنخ الذي صاح :

ـــ انكم جميعا مجانين . إنى لن أوافق على هذه الرحلة بأية حال وسوف أعود برجالى إلى الوطن ، ولكم أن تفعلوا ما تشاءون .

جاء صوت كا هادئا ناعما .

ـــ أنت مخطىء يا إيوف ... إن شئت ألا تصاحبنا فلك مطلق الحرية ، وسوف نتركك فى القرية .

ـــ ماذا تعنى ؟ إنى سأبحر بسفينتى مع رجالى .

ـــ ليست سفينتك ... إنها سفينة الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة وأنا ممثله هنا ، أما أنت فمجرد ربان . ولا تنس هذا ، أما الرجال فهم ليسوا رجالك إنهم جنود فى بحرية تامرى يأتمرون بأمرى ، وإذا استدعى الحال فسوف أقتل من يرفض تنفيذ تعليماتى .

أسقط فى يد إيوف ودارت عيناه زائغتين بيننا ، فلم يدر ما يقول ، ولم تمهله كا نخاطبه بلهجة حازمة .

ـــ عليك أن تستقر على رأى الآن فلن ننتظرك حتى الصباح .

بصعوبة شديدة ابتلع كرامته ونكس رأسه ، ولم يرد كا أن يزيد من مهانته فاتجه إلى الجميع :

ـــ حسناً ... على كل منكم أن يبدأ فى اعداد نفسه ، وسفينته للرحلة القادمة ، وأرجو أن تتسقط أية معلومات ، مهما ضؤلت ، عن البلاد والبحار التى قد يعرفها الأهالى ... لكن فى حذر فنحن لا نعلم شيئا عن مصالح القوم ، خاصة الأعراب ، فربما تتضارب مع ما نحن مقدمون عليه ، ولا داعى لأن يعرف الجميع وجهتنا الحقيقية .

وتكلمت :

ـــ إن عائق اللغة مانع كبير من استقصاء الأنباء .

ـــ أجل .. إنى أعلم هذا يا كين لكن علينا أن نبذل قصارى جهدنا فأية معلومات قد تفيد .

انصرفنا إلى شئوننا بعد قليل . اتجهت من فورى إلى البحث عن حكوبتاح
وحورمس ، الجديين الذين كانا من أسرى القراصنة ، واللذين يتكلمان لغة
... والباتو . كانا دائما سويا إذ يبدو أن ذل الأمر وعذابه قد جمع بينهما
بأقوى . حينما عثرت عليهما أخبرتهما أننا سنبحر إلى الجنوب . وأن
يحصلا التقاط أية معلومات قد تصل اليهما عن الملاحة ، أو البلاد وأهلها .

وهنا قال حكوبتاح :

— إن الأعراب يبحرون جنوبا حتى بلدة اسمها رهابتا ، وهم يقولون إن
الذهب يأتى من مكان آخر جنوبها إلا أنهم لا يعلمون من أين ... وكل
ما يعلمونه أنهم يقايضون عليه مع ملك هذه المدينة .

— هل ذكروا المسافة من هنا الى هناك ؟

— كلا ... وان كنت أعتقد من سياق الأحاديث أنها على مسافة ابحار
أيام كثيرة الى الجنوب .

— حسنا حاول أن تجمع معلومات أكثر، وأن تتأكد بما سمعت وأرجو
أن لا تخبرا أحداً بما أخبرتمانى .

كان الرجلان قد ألحقا نفسيهما بى ، وأعتقد أنهما ظنا أننى أنقذتهما من
أيدى القراصنة ، وبالتالى فإنهما أضحيا يدينان لى بحياتيهما ؛ وكنت واثقاً
أنهما لن يتفوها بكلمة .

تركتهما وأنا أفكر . على ضآلة هذه المعلومات فقد غيرت وجهة نظرنا
تماما . إنه يقول إن هذه المدينة على مسافة إبحار أيام كثيرة إلى الجنوب
ثم إن الذهب يأتيها أيضا من جنوبها .

إن هذا يقلب معلوماتنا رأساً على عقب ، فإننا كنا نظن أننا سنتجه إلى
الغرب بعد أيام قليلة من تركنا بلاد بونت ويبدو أن الأمر ليس كذلك .

اتضح لى فجأة أن مخاطر الرحلة أكبر كثيراً مما قدرنا ، إلى الجنوب دائما
وليس إلى الغرب . هل معنى هذا أن ليبيا لا نهاية لهـــا ؟ أم أن نهايتها هى

نهاية العالم حيث الشياطين والمردة ؟ دائماً إلى الجنوب ! هل معناه أن البحر لا يحيط بليبيا كما وصل إلينا من الأقدمين ! لقد أخطأوا حينما قالوا إن ليبيا تنحرف الى الشمال بعد بلاد بونت فهل أخطأوا حينما ذكروا أنهـــا محاطة بالمياه من كل جانب ؟

أى أنواع الأجواء سوف نقابل ؟ هل هذه الأماكن الى أقصى الجنوب مأهولة ؟ وأى أنواع الناس سوف نرى ؟ وأى أشــكال الوحوش الغريبة ستصادفنا ؟ هل يتجلد البحارة ، والجنود أم سوف يثورون علينا ؟ دائما إلى الجنوب . متى سوف نعود إلى وطننا الحبيب تامرى ؟ هذا إذا قدرت لنا العودة .

الفصل الخامس

أمة للفرعون

يبدو أن كا أخطأ الملك بأننا ننتوى الإبحار بعد يومين ، إذ أنه فى صباح اليوم التاسع ، وهو اليوم السابق على الرحيل دخلت باكا الحجرة المخصصة لى ، وهى واجمة على غير عادتها . كانت تحمل طعام الإفطار ، فوضعته على المنضدة ولم تخرج ، وإنما تلكأت تتظاهر ، بترتيب الحجرة ، وهو ما لم تكن تفعله إلا بعد أن أخرج .

تغابيت عما لاحظته وبدأت من فورى أتناول الطعام . حينما فرغت تقدمت تصب الماء حتى اغتسلت فحملت بقايا الطعام ، وأخذت معها إناء الماء تعيد ملأه . عادت بعد دقائق ووضعت الإناء على المنضدة ، ثم راحت تتلكأ ثانية ، وهى متجهة نحو الباب كأنما تستجمع شجاعتها .

استدارت فجأة ، وقالت جملة بلغة البانتو ، ووقفت أنظر إليها باسما إذ كان من البدهى أننى لم أفهم شيئا . حركت يديها بحركات عصبية متتالية ، وأضحى من اليسير فهم ما تقصده . خذنى معك .. لا تتركنى هنا .

تولتنى الدهشة ، فلم أفهم معنى لطلبها الغريب . هززت رأسى نفيا ، وعادت يداها إلى حركاتها العصبية ، فى حين انسابت من شفتيها كلمات لم أفهم لها معنى ، وإن كان من الواضح أنها تخشى خطرا ، وأنها مصرة على المجىء معى .

احترت كيف أشرح لها أنه لا يجوز لنا أن نأخذ نساء على السفن ، وأنه حتى إن قبلنا فإن فى هذه الرحلة بالذات ، لا يمكن تنفيذ رغبتها حيث أنها رحلة موت لا ندرى لها نهاية ، ولا ندرى ما سوف يلقانا من أخطار ، ولا المدة التى سوف نمكثها . كيف أشرح لها كل هذا بمجرد الإشارات .

اكتفيت بأن كررت إشارات النفى . ولما رأت إصرارى ألقت بنفسها على الأرض عند قدمى . كان من العسير على أن أرفض مطلبها ، وإن كان لا حيلة لى فى الأمر . قبضت على ذراعها بقوة وإن يكن بعطف ، ورفعتها عن الأرض أوقفها. رأيت الدموع تنساب من عينيها كأنما هما جدولان تترقرق مياههما استعطافا . وما كنت أستطيع أن أفعل شيئا . راقبت عيناها وجهى للحظات تحاول أن تستطلع أية علامة على ضعف أو تردد ، وحينما أيقنت ألا فائدة استدارت كسيرة لتختفى وراء الباب . وقفت حيث تركتنى ، وأنا أشعر باحتقار شديد لنفسى ، دون سبب أدريه أو ذنب جنيته .

استغرقت أعمالى بعد ذلك طوال النهار فلم أر باكا . ولعلنى استرحت لهذا إذ أننى كنت ما زلت أشعر بأننى خذلتها . كانت الأيام التى قضيتها فى المدينة قد أنشأت بيننا نوعا من الألفة ، خاصة حينما كنا نتبادل تعليم اللغات ، حتى أننى أحسست بفراغ لعدم رؤيتها ، ولتوقع ألا أراها بعد ذلك مطلقا ، إذ تقرر أن نرتحل فى الفجر ، مع أول موجة للمد .

قبل المساء بدأ نشاط غير عادى فى المساحة الكبيرة أمام القصر الملكى . رأيت كثيرين من الأهالى يرتبون المناضد إلى جوار بعضها ، فى حين قام آخرون باستحضار كميات كبيرة من الفواكه ، والأكواب ، والأطباق الخشبية . كان من الجلى أنهم يستعدون لإقامة حفل ضخم يشمل الأهالى جميعا .

ما أن حل الليل إلا وكانت الساحة قد امتلأت بالجموع ، وتناثرت أضواء المشاعل ، بل وبعض المصابيح ، حول الأرض تحيل ليلها نهارا . امتلأت الموائد بالفواكه ، واللحوم ، وشتى أنواع الخمور والأنبذة التى يبدو أن بعض الأعراب استوردوها معهم ، بالإضافة إلى خمر البلح ، وغيره مما يصنع محليا فى البلاد . جلس الملك ، والملكة على مقعديهما المرتفعين نسبيا ومدت أمامهما مائدة خاصة . وعند قدمى الملك قبع الفهدان .

بدأت الوليمة ، ودارت الراح ، ودقت الطبول بأنواع مختلفة من الموسيقى ،

وتملكت النشوة بعض الأهالى فقاموا يرقصون على نغماتها . جلسنا ثلاثة متجاورين ، نتناول الطعام ، ونرتشف بعض النبيذ . كا ، وساحورع ، وأنا أما إيوف عنخ ، ونجم آب نقد فضلا أن ينأيا عنا . تربع كل منهما على الأرض أمام المائدة الطويلة وقد جلس إلى جوار كل منهما فتاتان . كان من الجلى أن الرجلين يستمتعان بوقتهما .

على بعد أيضا جلس حكوبتاح ، ونفروسى . بدا أنهما أيضاً يستمتعان . كانا جالسين وسط جماعة من الأعراب ، والفتيات من الأهالى يتخاطف الجميع كئوس الشراب ، ويترنحون فى جلساتهم بنشوة ظاهرة ، تعلو ضحكاتهم وصيحاتهم مختلطة بصرخات النساء ، والفتيات .

مضت مدة ، ربما ونوت (ساعة) ، أو اثنتان ، وصلت فيهما الأصوات إلى مداها . حتى الملك ، كان قد أسرف فى الشراب ، وزاغت عيناه وبدأ متململا فى جلسته ، قلقا كأنما يبحث عن شىء للتسلية . فجأة هب واقفا على قدميه هرقلا فى طوله ، وصاح بأعلا صوته ، بكلمات لم نفهمها ، لكننا لاحظنا أن السكون أطبق على الموجودين ، وراحوا ينظرون إلى بعضهم البعض كأنما يتوقعون شيئاً .

تحركت رأس الملك ودارت عيناه فى الجالسين . واستمر السكون ثم أشاح بيده ، وارتمى على مقعده كأنما يئس من بلوغ هدفه ، وعاد الصمت من جديد وكأن شيئاً لم يحدث . نظرت إلى رفيقاى متسائلا إن كان أحدهما قد فهم ما قاله الملك ، إلا أنهما أخبرانى أنهما فى حيرة مثلى ، وتكلم ساحورع :

— كين أظن أن أحد حارسيك يريد أن يخاطبك لقد لاحظت أنه فى الدقائق الأخيرة يحاول أن يلفت نظرك إليه .

إلتفت نحو الحارسين ، وفعلا ما أن رأى حكو بتاح أن نظرى متجه إليه حتى قام من مجلسه يترنح ، مصطحبا معه إحدى الفتيات نحو أطراف الغابة ،

عجبت لإصطحابه الفتاة إلا أننى سرعان ما أدركت أنه إنما اتخذها ذريعة ، لترك المجلس فما كاد أن يقوم حتى تلفت إليه الأعرابى ، والأهالى وراحوا يتغامزون ويتضاحكون ، ثم عادوا إلى شرابهم ، وطعامهم بعد لحظات ، وعندئذ دفع حكو الفتاة بعيداً عنه ، فعادت تترنح إلى الجماعة ، فى حين استمر هو فى سيره نحو الغابة .

وتكلم كا :

— إذا ذهبت وراء حارسك فلا تتأخر كثيرا إذ أننى أود العودة إلى السفن فى أسرع وقت مستطاع .

انسحبت ببطء وسرت بخطوات غير ثابتة أصطنع الترنح . حين شارفت أشجار الغابة ، وابتدأ الظلام يطوينى ، اعتدلت فى مشيتى ، وتلفت أتطلع باحثا عن حكو . وصل إلى أذنى صوته خفيضا محاذراً .

— هنا ياسيدى الربان .

كان ينتابى فضول غريب فابتدرته :

— ماذا قال الملك ؟

ضحك حكو وأشاح بيده :

— آه هذا ... إن الرجل ثمل ... لقد قال إنه مستعد لأن يلبى أى طلب لأى شخص يصارع أحد فهديه ، هذا طبعا سوى التنازل له على العرش ... ومن البدهى أن أحداً لم يتقدم كما رأيت ، لكن هناك ما هو أهم من هذا ، لقد سمعت الأعراب يتكلمون عن مدن ، وقرى كثيرة إلى الجنوب منها نيكون (درفورد) ومنوتيا (بمبا) ودايسينا ، وتونيكى ، وجبل فالانجى ، ورهابتا . وهم يقولون إن هذه الأخيرة هى آخر البلاد المعمورة فى حدود علمهم ، وأن هنالك تياراً بحرياً خطيراً يدفع السفن بعدها إلى الجنوب ، وأن أحداً لم يغامر بالإبحار جنوباً سوى رجلين ولم يسمع عن أى من السفينتين ، بعد ذلك فلا بد أنهما هلكتا بمن فيهما .

ـ هل تستطيع أن نعرف كم يوما يقضيها المسافر إلى كل من هذه البلاد ؟ وهل هناك خلجان أو جزر أو شعاب مرجانية على الشواطىء ؟

ـ سأحاول ، وإن كنت أعتقد أنه من العسير جداً على ذلك .

ـ شـــكراً .

تركنى حكو ، وعاد متظاهراً بأنه يترنح إلى رفاقه . انتظرت قليلا ، ودرت دورة صغيرة حتى لا أظهر من المكان نفسه الذى دلف منه حكو ، ثم تركت حماية الأشجار بدورى ، واتجهت إلى الوليمة مترنحاً . منذ اللحظة الأولى علمت أن شيئاً غير عادى قد حدث . كنت مازلت فى حمى الظلام ، فوقفت مكانى أشاهد ، وأرقب . خيم السكون على الجماعة ، وصمتت الطبول ، وتوقف الراقصون والراقصات ، وتوجهت أنظار الجميع إلى حيث مجلس الملك .

كان الضوء خافتاً نسبياً ، ومع هذا فقد استطعت ، وأنا على هذا البعد ، أن أرى الملك يشيح بحركة عصبية غاضبة . إلى جانبه وقف ينعم وهو يقبض بيده على ذراع فتاة تحاول جاهدة التخلص منه . على بعد المسافة ، وخفوت الضوء . لم أشك لحظة فى أن الفتاة هى باكا ، كما لم أشك فى معنى مايحدث .

لسبب لا أدريه ، ودون وعى منى ، كدت أتحرك مندفعاً نحو الفتاة لإنقاذها من يد الشخص الكريه ، إلا أنها لم تكن فى حاجة إلى المساعدة . لست أدرى ما حدث ، سمعت صرخة غاضبة أصدرها ينعم ترك بعدها ذراع الفتاة التى اندفعت كغزال شارد تقفز فوق الموائد ، والجالسين لتنطلق عدواً فى خفة فريدة فى الساحة المظلمة نسبياً متجهة إلى حيث أقف .

وراءها قفز السبقى ، وهو مازال يتلفظ بكلام غاضب ، ويدفع من يعترض طريقه ، وهب الملك واقفاً ، وهب معه نهداه وبدا أنه للحظات كان يفكر فى إطلاقهما وراء الفتاة ، إلا أنه وقف يربت عليهما ، ولعله خشى أن يفتكا بالعربى أيضا .

راح عقلي يعمل بسرعة . إن السبتي ، على ضخامة جسمه ، كان خفيف الحركة بدرجة كبيرة ، ولم يكن هنالك شك في أنه سيلحق بالفتاة ، سواء قبل أن تبلغ الغابة ، أو بعدها . حتى لو لم يستطع اللحاق بها فإن الملك سوف يرسل وراءها فهديه المدربين ، وفي هذا نهايتها .

استقر رأيي . كانت الفتاة تندفع إلى مكان لا يبعد أكثر من بضعة محات(١) مني . قطعت المسافة في ثوان لألتقي بها قبل أن تصل الغابة . لم تكن باكا قد رأتني ، ويبدو أنها ذعرت من ظهوري المفاجيء أمامها فأطلقت صرخة رعب ثم ارتطمت بي . أمسكتها من ذراعها بقوة أمنعها من الحركة ، وصدرت صيحة ظفر وانتصار من العربي الذي لم يكن يبعد عنا بأكثر من ثلاثة محات أو أربعة .

ألقت نظرة واحدة إلى وجهي كأنما تتعجب ، ثم حاولت أن تتملص من قبضتي دون جدوى ، وفي اللحظة التالية وصل العربي ، وقبض على ذراعها الأخرى . توقفت عندئذ عن المقاومة ، ونظرت إلي بمقت شديد ، ثم بصقت على الأرض . لم تكن هنالك وسيلة أتفاهم بها معها ، أو أشرح لها هدفي ، وبالتالي حاولت جاهداً أن أطمئنها بنظراتي ، إلا أنها أشاحت عني . وتكلم الأعرابي .

— دعها فإني أستطيع أن أقودها بمفردي .

— بل اتركها أنت .

أجابني غاضباً .

— إن الملك وهبها لي ، ولن يستطيع أحد أن يسلبني إياها .

— سوف نرى .

كنا في هذه الأثناء قد اقتربنا من الموائد ، وكان الكثيرون من الأهالي والأعراب ، قد قاموا من أماكنهم ، وراحوا يراقبون الأحداث بأحاسيس

---

(١) المح — مقياس طولي يقابل الذراع تقريباً .

متفاوتة . لاح أن معظم الأهالى كانوا يعطفون على الفتاة ، ولهذا كانت نظراتهم إلى عدائية . لجأة ترك الأعرابى ذراع الفتاة ، وسدد إلى وجهى لكمة قوية إضطرتنى أن أترك ذراعها بدورى ، وأتراجع بضعة خطوات إلى الوراء . فى اللحظة التالية كنت أتلقى هجومه ، عنيفا ضاريا ، وقد شهر فى إحدى يديه خنجرا يريد به أن ينهى المعركة قبل أن تبدأ .

ربما ما أنقذنى هو أن القرصان كان قد أفرط فى الشراب ، لم أكن قد تمالكت نفسى بدرجة تكفى لأن أتقى الطعنة أو أحيد عنها . كان سريع الحركة ، لكنه لم يكن فى كامل اتزانه لهذا كانت حركتى الغريزية كافية لتفادى الطعنة ، ومع هذا فلن أتفاداها تماما . هبط الخنجر يمزق الملابس عند كتفى ، وذراعى إلا أنه لم يمسنى شخصيا ، ابتعدت عن طريق خصمى هادفا أن أكتسب بعض الوقت لأستعيد التوازن الذى فقدته من أثر اللكمة ، وتقدم الأعرابى يتعقبنى .

لأول مرة وصلت إلى أذنى صيحات النظارة . يبدو أن منهم من كان يشجع العربى ، إلا أنه خيل إلى أن من الأهالى من وجه هتافاته لصالحى . على أننى لم أعر الأمر اهتماما إلا لثوان قليلة فقد تركزت عينى على الرجل يتقدم منى ، يطوح الخنجر فى حركات سريعة يلاحقنى بها .

قتال القراصنة . لا تعطى عدوك فرصة ، ولا تنتظر أن يهبك إياها . خذ ما تريد ، وقاتل بقوة ، ووحشية ، وضراوة ، فإما قتلت عدوك ، أو قتلك . ليست هنالك خدعة تنحط إلى درجة الغدر ، ولا مكرمة ترتفع إلى درجة الشهامة . ليس لمثل هاتين الكلمتين وجود فى قاموس القراصنة . لو استطاع أن يطعنك فى ظهرك فسوف يفعل ، إلا أنه لا ينتظر منك ألا تفعل غير ذلك إذا تمكنت منه . لا تعط مكرمة ، ولا تنتظرها ، هذا هو أسلوب القتال .

فى الثوانى التالية استعدت اتزانى كاملا ، وسللت خنجرى ووقفت أنتظر الهجوم ، ولم يتأخر . بالوحشية التى بدأ بها اندفع نحوى ، إلا أن خنجره

توقف فى هبوطه إذ قابله نصل خنجرى . لم يحاول أن يضغط بالخنجر ، وإنمـــا امتدت يده الأخرى فى لكمة سريعة إلى وجهى . وقابلتها يدى الأخرى تصدها ، فى حين انثنت رجلى فى حركة سريعة لترتطم ركبتى به بقوة.

صدرت منه صرخة مكتومة ، وتراجع متألما ، ولاحقته أطوح بالخنجر. راح يدافع عن نفسه فقط يريد أن يكتسب بعض الوقت لتزول آلامه ، تماما كما فعلت منذ دقائق . تقابل نصلا الخنجرين فى حركات سريعة لا تكاد العين أن تلاحظها ، وحاذر كل منا أن يقترب من الآخر بدرجة تسمح للارجل أن تستعمل . كان الرجل ماهراً فى القتال خبيراً به ، فلم تكن زعامته للقراصنة بلا أساس ، إلا أن الساعات التى قضيتها يوميا فى المران لم تضع بلا فائدة .

قاتل بوحشية ، وخبرة ، وقاتلت بفن وعقل . كان قتالا متكافئا . زايلته الآلام فعاد إلى هجومه ، ولم أتراجع هذه المرة . تركته يقترب ، وفتحت عامداً ثغرة فى دفاعى ، ولم يتوان عن أن ينتهز الفرصة فأهوى بخنجره فى صدرى . تحركت حركة خفيفة لا تكاد تكفى أن تحيد الطعنة عن مقصدها وهوى سلاحى على كتفه الأيسر يشق الملابس ويسيل أول الدماء .

على غير ما توقعت لم يتراجع ، وإنما بسرعة غريبة استعاد توازنه ، ودار خنجره فى حركة شبه دائرية يستهدف بطنى ، واضطررت أن أقفز الى الوراء مبتعدا عن النصل القاتل . تابع فرصته ، وقفز ورائى مخترقا دفاعى ، وحينما أهوى خنجرى عليه قبض على معصمى بقوة يمنع النصل أن يصل الى هدفه وقابلته بالمثل .

وقفنا شبه ملتصقين ، يقبض كل منا على معصم الآخر ، وكادت أرجلنا أن تلتصق حتى لا يعطى أى منا فرصة لغريمه أن يركله . وبدأ تصارع قوتين كل منهما تحاول أن تسيطر على الأخرى . فجأة غيرت من خطتى . تركت خنجرى يسقط من يدى ، وقبضت بها على معصم خصمى الآخر ثم بحركة سريعة طوحته بكلتا ذراعى .

جاءت الحركات سريعة متتالية حتى أنها لم تدع السبتى فرصة للتفكير . طار فى الهواء ، وارتطم جسده بشدة بالموائد فتناثر ما عليها من طعام. لابد أن السقطة أذهلته لأنه بقى لثوانى لا يقوم من سقطته وفى هذه الثوانى تابعت انتصارى . فى قفزتين كنت فوقه ، ولاحظت أن كلتا يديه خاليتان ، فلا بد أنه فقد خنجره أثناء سقطته .

أهوت قبضتى على وجهه فى لكمة جعلت الدماء تنبثق من فمه . وتتابعت أثرها اللكمات .

حاول فى مبدأ الأمر أن يتفادى الضربات المنهالة على وجهه ، ولما لم يفلح ترك المحاولة ، والتف ذراعاه حول وسطى يشدنى إليه . كان من أثر هذا أنى لم أستطع أن أتابع ضرباتى بالقوة نفسها ، فأضحت دون أثر فعال، وبدأت أشعر أن سلسلتى الفقرية تكاد أن تتحطم ، وأن أنفاسى تحتبس فى صدرى فلا أستطيع التنفس بسهولة .

للمرة الثانية تحركت ركبتى لترتطم به. صرخ الرجل ، ودفعنى بقوة ألقتنى على الأرض بعيدا عنه . مكثت ثوانى على الأرض أستعيد فيها أنفاسى إلا أن هذه الثوانى كانت كافية أيضا لأن يعتدل غريمى مبتعدا عن الموائد . لا ريب أن لكماتى أثرت فيه تأثيرا شديدا ، فقد انتفخ وجهه فى أكثر من موضع ، وسالت الدماء من فمه ، وبدا جرح فى وجنته اليمنى ، لهذا لم يستعد حواسه بدرجة كافية لأن يهاجمنى . ومع هذا فقد لاحظت بهلع أنه يمسك بخنجره .

كان كلانا يلهث من أثر المجهود الذى بذلناه ، وكنت ما أزال أشعر بآلام شديدة فى ظهرى ، ووسطى فلم يتعجل أينا الالتحام. وقفنا على بعد خطوتين أو ثلاث ، ينظر كل منا إلى الآخر بحذر .

مضت ثوانى ثم رأيته يندفع نحوى رافعا ذراعه يريد أن يهوى بخنجره على صدرى . تركته فى اندفاعه ، وتنحيت بعيدا عن النصل القاتل، ثم مددت

يدى كلتيهما أقبض على ذراعه الآخر . وللمرة الثانية طوحته على حين غرة . فى هذه المرة لم يسقط على الموائد، وإنما اتجه فى اندفاعه إلى الأرض الفضاء . تعثرت قدماه فسقط على الأرض، ومع هذا فلم أنج تماما من الطعنة. لم أشعر بآلام الجرح فى بادىء الأمر إنما شعرت بالدماء ساخنة تنساب على صدرى ويبدو أن الخنجر أخطأ هدفه إلا أنه شق طريقه فى الكتف.

خشيت أن أتابع انتصارى كما فعلت فى المرة الأولى ، فقد حذرتنى الآلام فى ظهرى أن أبتعد عن الذراعين المفتولين، وحذرتنى آلام فى كتفى أن أتفادى الخنجر الحاد ؛ اكتفيت مؤقتا أن أنظر اليه منتظرا أن يقف . ببطء بدأ يتحامل على نفسه ، ولم أعطه الفرصة ليتم نهوضه ، تقدمت منه ، والتقت قبضتى بفكه فى لكمة أودعت فيها كل ما أستطيع من قوة .

شعرت بآلام شديدة فى أصابعى من أثر اللكمة ؛ وارتد ذراعى من عنف الصدمة حتى أننى أحسست كأنما هو ينخلع من كتفى ، لكن اللكمة من ناحية أخرى رفعت غريمى ثم ألقته على الأرض. سقط على ظهره ، وحاول أن يقوم بحركات متثاقلة إلا أنه لم يستطع فانكفأ على وجهه يغالب الغشاوة التى أحاطت به .

لم أدعه يلتقط أنفاسه فقد كنت أبغى أن أحطم كل مقاومته . قفزت عاليا لأسقط بقدمى كلتيهما على ظهره ؛ صدرت منه صرخة ألم ، والتصق وجهه بالرمال ، وسكن غير محاول أن يبدى أية حركة ، ولولا اختلاج يسير فى بدنه لظننت أنه فارق الحياة .

وقفت إلى جواره أدير نظرى فى الموجودين ، كانت عيناى كالمحمومتين ، ولم تتبين لى الأشياء بوضوح كامل ، كما شعرت بأن ساقاى تنوءان عن حملى. رأيت باكا تقف صامتة وهى تنظر إلى نظرة غريبة فلم أعرها التفاتا ، واستمرت عيناى تدوران حتى استقرتا على يشجب فأشرت اليه. تقدم نحوى مترددا إلا أننى بادرته :

ـــ أريدك أن تسمع ما سيقوله ينعم وتترجمه للملك .

هز رأسه موافقا ، ووجهت خطابى إلى الرجل الملقى عند قدمى .

ـــ أخبره أنك متنازل عن باكا ، وأنك لا تريدها ، وأنها حرة تتخذ من تشاء زوجا .

لم يبد عليه أنه سمع شيئا فوضعت أحد قدمى على ظهره ، ودفعتها بقوة ، واختلج الجسد وصدرت أنة ألم .

ببطء شديد تحرك الرأس جانبا لم يكن يستطيع الكلام لحرك رأسه بالإيجاب كان السكون قد عم الجميع ، ووقفوا ينظرون ، وينتظرون. ارتفع صوت يشجب يترجم ما قلته للملك ويقول إن ينعم هز رأسه موافقا. وجاء رد الملك واضحا جليا فى كلمات سريعة . التفت إلى المترجم متساءلا وجاءنى الرد :

ـــ إن الملك يقول إن وعده لا يرد ، هو لا يقبل تنازل ينعم الذى أخذ منه بالقوة .

صدمتنى المفاجأة ، فلم أتوقع أن يتمسك الملك بوعده ، حتى إن تنازل عنه صاحبه . إذاً فقد كان القتال مع الأعرابى دون فائدة ، وما زالت الفتاة تحت رحمته .

ـــ حسنا . إن كلام الملك لا يرد ، ماذا لو قبلت مصارعة أحد فهوده ، هل يطلق سراح الفتاة أيا كانت نتيجة الصراع ؟

نظر إلى يشجب بذهول ، ودهشة .

ـــ هل تريد حقاً أن أترجم هذا؟

ـــ أجل .

ارتفع صوت العربى يترجم سؤالى ، وكان له وقع الصاعقة . صرخت باكا ، وهب الملك من مكانه واقفا ، وعم السكون لحظات على الجموع ، ثم ارتفعت هتافاتهم بقوة تشق عنان السماء حتى الأعراب رأيتهم يصيحون، ويلوحون بأيديهم. إزدادت طمأنينتى الى إجابة الملك . حتى لو أراد الرفض فلن يستطيع مع هذا الشعور الجارف .

إلا أن الملك لم يكن قد خطر فى باله أن يتراجع فى وعده ، وإنما أدهشه العرض ، فألجم لسانه إلى حين . رفع يديه كلتيهما يأمر بالسكون ، ثم تدفقت الكلمات من شفتيه . وترجم يشجب .

— إن الملك عند وعده ، وسوف يطلق سراح الفتاة ، ولا يرغمها على الزواج من ينعم ، إذا قاتلت الفهد ، لكنه يقول إن عليك أن تقاتل بلا خنجر ، أو سيف ، أو حراب أو سهام ، فهل تقبل ؟

— أجـــل .

ترجم يشجب الكلمة الوحيدة التى قلتها . تراجع الملك يجلس على كرسيه ، وارتفعت صيحات الأهالى ، وهتافاتهم أشد من ذى قبل .

صرخت باكا ، ثم اندفعت نحو الملك وهى تقول كلمات لم أفهمها ، وإن كان واضحا أنها تتوسل إليه ، إلا أنه دفعها بيده بعيدا .

أصدر الملك أوامر سريعة ، ويبدو أنها كانت تهدف إلى بعض الترتيبات للاعداد للمعركة . لاحظت أن الأهالى بدأوا فى رفع الموائد ، وحمل جسد ينعم الذى ما يزال ملقى على الأرض . انسحبت بدورى لأجلس مع رفاقى ، وقابلنى كا بثورة عارمة .

— ماذا فعلت أيها المعتوه ؟ هل صحيح ما أفهمونى أنك سوف تقاتل فهدا بلا أسلحة ؟

حركت رأسى إيجاباً .

— من تظن نفسك ؟ إنك مجرد ضابط فى بحرية جلالة الفرعون ، ولا يحق لك المجازفة بحياتك فى غير خدمته ؟ ثم من هى الفتاة ؟ هل تحبها ؟

كان هجومه قاسياً ، شديداً ، حتى أننى جلست صامتاً لا أستطيع دفاعا . وحينما ألقى سؤاله الأخير انتابتنى دهشة . كيف يهبط تفكير كا إلى هذه الدرجة ؟ إن الفتاة تكاد أن تكون فى عمر ابنتى . مع هذا اكتفيت ، بأن هززت رأسى نفياً . لست أدرى لماذا انتابته الدهشة بدوره إذ رفع يديه إلى السماء هاتفاً .

— يارب الأرباب ألا تحبها أيضا ؟ إذاً ماذا ؟

— لقد لجأت إلى !

— لجأت إليك !! هل تحسب نفسك أحد الآلهة فلا يجوز لك أن تخيب أمل اللاجئين إليك ؟

كنت قد نلت كفايتى . صحيح أنى تبينت مدى خطئى ، وصحيح أن كا قدى ، إلا أن للأمر حدوداً . كما أنه لا عودة الآن لما فات . بالإضافة إلى هـذا لاحظت أن الأهالى كادوا أن ينتهوا من إعداد الساحة ، بل وأحضروا مشاعل إضافية حتى أن الضوء أضحى وهاجا . قلت فى تبرم :

— كفى باكا ! إنى أريد أن أفكر فى القتال .

بهت كا من لهجتى إلا أنه سرعان ما تبين ما فى قولى من صحـة فتراجع عن هجومه .

— حمداً للرب إنك ما زلت عملياً على الأقل .

وجهت حديثى إلى نجم آب .

— نجم هل تستطيع أن تعيرنى ملابسك ؟

— ماذا تفعل بها ؟ إنى أضخم منك كثيراً .

— لهذا أريدها .

فهم أن ما أرمى إليـه هو مزيد من الدثار ، ليقينى ولو قليلا ، المخالب الحادة . سرعان ماهب واقفاً وقال وهو يكاد يعدو :

— لحظات وسآتيك بما هو أحسن .

استوقفه كا ، وأشار إليـه ، ولما دنا منـه ، همس فى أذنه كلمات اختفى بعدها .

جاءنا يشجب بعد لحظات يسأل ، إن كنت مستعداً للقاء الفهد . قال إن الملك يفهم أنك لابد مازلت متأثراً من أثر عراكك مع ينعم ، ولهذا فلا مانع عنـده إذا أردت فسحة من الوقت تسترد فيها قواك كاملة . وأضـاف بعد تردد :

ـــ ... هل لازلت مصمما على هذا النزال غير المتكافىء ؟ . إنى أستطيع أن أقنع الملك باعفائك منه خاصة بعد أن ابتعد عنه ينعم .

ـــ شكراً يا يشجب لكنى لاأعتقد أنك تستطيع ذلك ، خاصة أن الملك قد شرب كثيراً ، وهو يتلهف لأن يرى هذا القتال .

ـــ دعنى أحاول على الأقل .

ـــ لا أرى داعياً . ولن يقال إن أحد ضباط الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة ، قد نكص وعده ، أو فر من موت . هلا استأذنت الملك فى بعض الوقت .

ـــ سأفعل . حينما تكون مستعداً ما عليك إلا أن ترفع يدك .

تركتنا السبئى متجها إلى الملك . وتساءل ساحو رع بقلق .

ـــ كين ! هل يلزم أن تقاتل ؟ لماذا لا تنسحب ؟

رد عليه إيوف عنخ .

ـــ انه لا يستطيع أن ينسحب الآن . إذا فعل اتهمنا جميعاً بالجبن ، لقد وضع نفسه فى مأزق وعليه أن يدفع حياته ثمناً .

وقال ساحو غاضباً :

ـــ إنك تستعجل موته يا إيوف ، ماذا لو تغلب على الفهد ؟

لاحت شبه ابتسامة على وجه إيوف .

ـــ هل هنالك أمل حقيقة فى ذلك ؟

تدخل كا فى المناقشة .

ـــ كيف ستقاتل يا كين ؟

ـــ أولا سأعزز دفاعى ...

ـــ لكن الدفاع لن ينجيك ، ربما تطول المعركة قليلا لكنك لن تتغلب على الوحش لحيويته هائلة ، ولا شك أنها أضعاف حيويتك ؟

— إنى لا أفكر فى أن أستنفد حيوية إنما كلما طال القتال ، كانت هناك فرص أكثر أستفيد منها . ترى هل يسمح لى الملك بهراوة ؟

— لا أعتقد . إنى لاحظت أن الأهالى قد مسحوا ساحة القتال . حتى الحصى ، والأخشاب الصغيرة المتناثرة التقطوها .. ستكون أمامك ساحة نظيفة تماما .

— المشاعل . إنهم أحاطوا المساحة بها ، وإنى أعلم أن الوحوش تخاف النيران .

حركت رأسى نفيا .

— لا أحسب أنهم سيسمحون لى يا ساحو باستعمالها ؟

صرخ محتجا .

— لكنك لن تستطيع قتل الحيوان بمجرد يديك العاريتين ؟!

— هذا ما الملك موقن منه .

نظر إلى إيوف عنخ متعجبا

— هل عندك شك ؟

— لست أدرى . هلا أحضرت عباءتك ياساحو ؟ !

— إنها هناك فى حجرتى ، فى منزل الملك ، ومن حسن الحظ أنى تركت نقل أمتعتى حتى اللحظة الأخيرة .

قفز ساحو واقفا ، واستدار متجها إلى منزل الملك . وإن هى إلا لحظات حتى غاب ، ثم عاد حاملا دثارا أرجوانيا من الصوف السميك ... لكنه لم يكن بمفرده ، وإنما كان يصحبه يشجب والفتاة .

لم أكن قد رأيتها منذ صرخت بتوسلاتها غير المجدية للملك ، وحينما تقدمت كان الحياء ، والتردد باديين على محياها . ألق ساحو المعطف أمامى ، وهو يقول :

— لست أدرى لماذا أتيت به إلا أنى فى الواقع لم أكن أعلم أن الجو سيكون بمثل هذا الدفء .

وتكلم يشجب :

- إن باكا جاءت بي لأترجم لك . هي تقول إنها دعت أرواح أسلافها أن يساعدوك ، ووعدتهم بتقديم القرابين ، والهدايا ، وأخبروها أنك ستنتصر على الفهد

إبتسمت لها مطمئناً

- شكراً يا باكا

- هي تستأذن أن تجلس معكم !

نظرت إلى كا الذي هز رأسه موافقا ، وجلست الفتاة ، وإنسحب يشجب . كانت قد مضت نصف ساعة على ذهاب نجم آب ، وبدأت أقلق إنه لن يأتي . إن الرجل يكرهني ، لكن ترى هل وصل البغض به إلى الحد الذي يحرمني من تلك الحماية البسيطة التي يضفيها الرداء علي ؟ اعتزمت أن أرفع يدي علامة على استعدادي للقتال ، إلا أن كا أمسك بذراعي ، وأشار بوجهه . كان نجم آب يخترق الصفوف ، متجهاً إلينا يحمل رداء ، ووراءه أتى شخص آخر ، حكا تخت الكاهن الطبيب . قال نجم آب لاهثاً :

- خشيت أن تظن أنني لن أعود ، ولا أعتذر عن تأخري إلا بأنني كبير الحجم ، لا أحسن العدو ، وكان علي أن أذهب إلى السفينة لآتي بهذه . كيف حال كتفك ؟

- لا بأس ... هو مجرد خدش لا أثر له

ألقى أمامي بالرداء ، وألقى معه قطعة أسطوانية من الحديد الرقيق كنت قد رأيت مثل هذه القطعة الحديدية أثناء قتالي مع رجال رتنو ، بل إنني احتفظت بواحدة منها للذكرى بين مجموعة من الأسلحة غنمتها ، ولم يخطر في بالي مطلقاً انني سوف أستعملها . كان المفروض أن تلتف هذه القطعة حول الذراع من المعصم الى الكوع لتحميه من ضربات الخناجر ، والسيوف . كانت تعمل كدرع اضافي في بعض الأحوال ولست ادري كيف أتى بها نجم آب ، ولا كيف يدفعها إلي ، وهو الذي يكن لي كرها عميقاً .

ارتديت الملابس التى جاء بها فوق ملابسى ، وشعرت ببعض الضيق إلا أنه لم يكن يمنعنى من الحركة بسهولة . مددت ذراعى الأيسر ووضع نجم آب عليها الحديدة الإسطوانية .

لما انتهت الترتيبات جميعها ، تناولت معطف ساحورع ، سلاحى الوحيد فى الحركة القادمة . لم يبق هنالك داع للانتظار بعد هذا . نظرت ناحية الملك حيث وقف وإلى جانبه يشجب ، ورفعت يدى أخبره أنى مستعد . مال العربى على الملك يسر إليه كلمات ، التفت الملك بعدها إلى ناحيتى ، ثم وضع يده على الفهد ، وهب الحيوان واقفاً وبدأت المعركة .

تقدم الملك ، وبقى الفهدان فى مكانهما . لم يكن هنالك شك فى أنهما قد أحسن تدريبهما . وقفت بدورى وبدأت أخطو ببطء وسط الحلبة . عم النظارة سكون غريب ، فلم يكن أى شخص منهم إلا وهو متأكد من أنه ينظر إلى شخص لم تبق له سوى دقائق قليلة فى الحياة .

من مكان ما ظهر يشجب ، ووقفنا نحن الثلاثة فى الوسط تماما . تكلم الملك وترجم يشجب .

ــ هذه قواعد القتال . سوف أقوم بتفتيشك عسى أن تكون قد أخفيت سلاحاً ، وإن ظهر بعد ذلك أنك تخفى شيئاً فسوف يهاجمك الفهدان معاً . عليك ألا تحاول إستعمال المشاعل ، وألا تقترب منها لمسافة تقل عن مترين . لقد وضعت علامات توضح لك حدود المساحة المسموح بها . لك أن تحتمى فى المساحة غير المسموح بها لمدة دقيقة ، فإن زدت ، فإن حرس الملك سوف يرمونك بالرماح . سيبدأ القتال وسط الحلبة ولك بعد ذلك مطلق الحرية فى الحركة . هذه هى القواعد . لقد تكلم الملك .

فجأة إرتفع صوت كا . لم يبرح مكانه ، بل ولم يقف .

ــ لكن إذا تدخل أحد . أو إذا نقضت القواعد ، فإن رجالى سوف يقتلون . أنظر فى الأشجار ، وعلى الأرض ستراهم بسهامهم ينتظرون . ترجم هذا للملك . لقد تكلم كا .

عم الصمت بعد أن ترجم يشجب . ارتفعت الأعين إلى الأشجار ، والتفت الجموع وراءها تتطلع . لم يكن تهديد كا عبثا ؛ إذاً فهذا ما همس به فى إذن آب. ياللرجل الوفى ! هز الملك رأسه بالموافقة ، ثم انسحب الاثنان ، وبقيت بمفردى أنتظر .

راقبت الملك وهو يتجه نحو مقعده ، ثم وهو يربت بيده على كتف أحد الفهدين . وهب الفهد واقفاً . تحركت ذراع الملك يشير إلى وسط الحلبة ، إلى. ولم ينتظر الحيوان أكثر من هذا . رأيته يتقدم بخطى بطيئة ، لكنها خفيفة حتى أن المرء لايكاد يصدق أن أقدامه تلمس الرمال الناعمة . لم يكن فى عجلة من أمره إذ يبدو أنه لم يكن جائعاً ، فهو إذاً سوف يقتل فقط . توقف قبل أن يصل إلى نصف المسافة ، ودارت عيناه فى النظارة .

أعطانى هذا فرصة لأراه عن كثب . رأيت جسده الضخم الذى يزيد على مترين طولا . لم يكن فيه جزء إلا واكتسى بالعضلات البارزة ، والقوة الوحشية لاحظت العينين الشرستين ، والفم الواسع ، الذى يخفى أنياباً فى حدتها الموت . رأيت العنق الضخم الذى لم يخل من العضلات ، وتتبع بصرى المنكبين العريضين ، والأرجل الضخمة تنتهى بالأخفاف اختفت فيها مخالب تمزق فريستها فى لحظات .

ثوان لاتزيد ، اندفع بعدها الفهد نحوى وقد ثبت بنظراته المروعة على لم يكن فى اندفاعه متعجلا ، فلم تكن المسافة بينى وبينه تسمح له أن يأخذ كامل سرعته ، ومع هذا فإنى شعرت كأن ريحا غاضباً يهب ليقتلع قلبى من موضعه . كدت أفقد شجاعتى أمام هذه القوة العارمة تندفع ، إلا أنى كنت أعلم أن ثانية واحدة من الاضطراب تكفى للقضاء على .

عالياً فى الهواء قفز الوحش ، وبتوقيت محكم تنحيت . كنت أهدف أن أقترب قدر ما أستطيع من المشاعل حتى أستطيع أن ألوذ بها فى الوقت المناسب ، ولم أجسر على الجرى . كان يلزمنى أن أناور وأحاور حتى أصل

إلى بغيتى . بخفة غريبة على مثل هذا الجسد ، ما كاد الفهد أن يلمس الأرض حتى إستدار جسده فى نصف دائرة وعاود القفز .

لم تكن قفزته عالية فى المرة الأولى ، كما لم تكن يداه ممدودتين إلى الأمام ، وإنما فردهما جانبا . وعلى ضوء المشاعل ، وفى لحظة خاطفة رأيت المخالب الحادة تبرز من مكانها . تنحيت بعيداً للمرة الثانية . لكن ليس بسرعة كافية إلتقى الكف القوى ، والمخالب الحادة بكتفى . كانت بمجرد لمسة لم تحمل معها كامل قوة الضربة ، ومع ذلك فقد تمزق الرداء ، وشعرت كأنما كتفى قد انخلع من مكانه .

فقدت توازنى ، وكدت أن أسقط على الأرض ، لكننى تراجعت إلى الوراء محاولا أن أستعيد التوازن . أنقذنى تراجعى من موت محقق . بسرعة البرق تابع الفهد فرصته ، وهجم حيث كنت منذ لحظات ، وحينما لم يرنى انثنى الجسد المرن للمرة الثالثة لينالنى حيث أنا . يبدو أن ثلاثة إنثناءات كانت أكثر من مقدرة الحيوان . لهذا لم يستطع إتمام الحركة الثالثة ، وسقط على الأرض فى منتصفها .

إذا كانت هنالك فرصة لى فلن تأتى أحسن من هذه . بسرعة تكاد أن تضاهيه ، قفزت لأسقط على ظهر الوحش ، والتف ذراعاى حول رقبته ، أريد أن أمنع عنه نسمة الحياة . فيما يشبه الحلم سمعت هتافات القوم ، ولاحت لى أضواء المشاعل كأنما تأتى من مكان سحيق . كان عقلى يعمل بسرعة هائلة . إن هذه فرصتى ، ولن أدع رقبة الحيوان تفلت من ذراعى مهما تحملت فى سبيل ذلك .

على أننى فى الواقع لم أكن قد قدرت قوة الفهد ، وخفة حركته ، تقديراً كافياً . نهض من كبوته ، ورفعنى معه بشدة ، ولم أدعه . جرى بى خطوات وكدت أن أسقط من ظهره إلا أننى ألقيت بجسمى كاملا عليه ، والتفت ساقاى حوله ، هب واقفاً على خلفيته ، ثم ألقى بنفسه إلى الوراء على الأرض

وتدحرج عدة مرات. ربما أنقذنى من الغيبوبة أن الأرض كانت رملية ناعمة فامتصت بعض الصدمة ، ومع هذا فقد شعرت كأن أضلاعى قد تهشمت ، وخرج الهواء من صدرى إلى غير عودة .

لابد أن ذراعاى قد تراختا من أثر الصدمة العنيفة التى تلقيتها إذ أنه لم تمض لحظات حتى كان الفهد قد انتزع نفسه منى ، وابتعد ، ثم وقف على قيد خطوات ينظر إلى بوحشية ، ويزمجر . كنت مازلت ملقى على ظهرى ، وتوقعت الموت فى ثوان ، ومع هذا فقد بقى الحيوان حيث هو يزمجر ولا يقترب . ظننت للوهلة الأولى أنه يسترد أنفاسه ، ثم مالبثت أن أدركت مدى خطئى . كان الحيوان فى جريه ، وتدحرجه ، قد اقترب أكثر من اللازم نحو المشاعل حتى أنه حينما أفلت من ذراعاى تركنى تحتهما تماما .

كدت أن أضحك إن ما كنت أحاول أن أعمله قام به الوحش. أحسست بثقة لم أشعر بها من قبل . ترى كم مضى على ، وأنا ملقى تحت المشاعل ؟ نصف دقيقة أو أكثر ؟ ! تحاملت على نفسى وقمت ببطء . كنت أشعر بكثير من الآلام فى أنحاء جسدى ، وكنت ما أزال غير متمالك لشعورى تماما ، ومع هذا فإنى شعرت أننى فى موقف أحسن كثيراً مما كنت . وقفت عند الحد الفاصل ، وبقيت خطوات بينى ، وبين الوحش كان يخاف النيران بغريزته ، وازداد رعبه حينما اقترب منها ، دون وعى ، أكثر مما اعتاد ، فوقف بعيداً يزمجر ، ويكشر دون أن يجرؤ على الاقتراب .

أثناء وقوفى لاحظت شيئين : أولا أن الفهد لم يكن يركز نظره على تركيزاً كاملا ، وإنما توزعت نظراته زائغة بينى ، وبين النيران . وثانياً أن الحيوان لم يكن على استعداد لأن يجازف بإحدى قفزاته القاتلة . كان يخشى أن تحمله القفزة إلى المشاعل . لقد كفتنى النيران ، مئونة أخطر ما وهبته الطبيعة للحيوان ، مرونة العضلات ، وثقل الجسم ، وهما عاملان هامان فى تفوق الفهـــد . على أننى من ناحية أخرى لم يكن فى الإمكان أن أظل

واقفاً هكذا طبقاً لشروط القتال كان على أن أتحرك ، ومع هذا فإن أية حركة تفقدنى ميزة حماية النار .

تقدمت ببطء شديد ، ووقف الوحش فاغراً فاه ، وقد برزت أنيابه الرهيبة ، يصدر زمجرات غاضبة ، بينما أخذت إحدى ساقيـــه الأماميين تضرب فى الهواء ، كأنما تتحدانى أن أتقدم . استمرت خطواتى حذرة بطيئة وأنا منحنى حتى أن يداى كادتا أن تلمسا الأرض . كنت أريد أن أعرف إلى أى مدى يمكننى أن أبتعد عن النيران دون خشية من هجوم الفهد ، وسرعان ماعرفت . كنت قد ابتعدت عن حد ساحة النضال أربع خطوات حينما جاء الهجوم . لكنه لم يكن قفزاً .

لست أدرى ماحدث تماما . فى لحظة كنت أبعد عن الوحش أكثر من ثلاث خطوات ، وكان ما يزال واقفاً يزمجر ، وفى اللحظة التالية كان فكاه قد انطبقا على ذراعى الأيسر ، وشعرت بنفسى أندفع نحوه . أنقذنى الدرع الحديدى على ذراعى أن تخترقها الأنياب الحادة ، لكن الفكان القويان كانا قد أطبقا على الذراع تماما ، وراح الحيوان ينفضنى ويطوح بى فى كل اتجاه دون أن أستطيع أن أفعل شيئاً .

أحسست أن ذراعى يكاد أن ينفصل عن كتفى ، ولم أشك أنه لو استمر الوحش فى الإطاحة بى فلن تمضى لحظات حتى ينفصل فعـــلا . إلا أنه لم يفعل ذلك . اندفع إلى وسط الحلبة بعيداً عن النيران وهو يجرنى معه .

رغما عن درع الساعد فإننى شعرت أن الأنياب تخترق جلدى ، ولابد أن أنيابه قد ضغطت بقوة هائلة على الأسطوانة الحديدية حتى أن الحديد نفسه قد انثنى إلى الداخل ، ولولا صلابته الشديدة لاخترقته ...

كان لابد لى أن أفعل شيئاً بسرعة . كنت أعلم أن حياتى معلقة بتصرف

فى الثوانى القليلة التالية ، وأنه بمجرد أن يبتعد الفهد ، بدرجة كافية سوف يستعمل مخالبه لتمزيق جسدى ، ولن تكون هنالك قوة تستطيع أن تنقذنى. لست أدرى كيف واتتنى الفكرة ، كما لست أدرى كيف نفذتها ، إذ أن من المستحيل أن أقول صدقا إن فى ذهنى كان أكثر من خليط مشوش من الصور والأفكار ، والرعب . كان الوجه قريباً منى وكانت أنفاس الحيوان الحارة تلفح وجهى ، رأيت العينين المتوحشتين تنظران إلى الأمام حيث يريد أن يستقر ليبدأ وليمته التى لاحول لها ولا قوة .

أحسست بيدى تلمس الرمال الناعمة على الأرض ، وبحركة آلية أطبقت أصابعى عليها تغترف منها ماوسعها . كان الفهد قد وصل تقريباً إلى بغيته ، وبدأت خطواته تتمهل ، وعلمت أننى لم يبق لى فى الحياة أكثر من ثانيـة ، أو اثنتين . رفعت ذراعى حتى كاد أن يصل إلى وجهه ، ثم قذفت بالرمال فى عينيه .

ارتفعت صيحة عالية مرعبة تدوى فى المكان ، وسقطت على الأرض على بعـد خطوة من الكف القوى . لم أنتظر حتى أستوى عـلى قدمى ، وتدحرجت على الرمال بعيداً عن المخالب ، وعن الكفين القاتلين . فى الثوانى التالية ، ولسبب لاأدريه ، تملكنى رعب هائل ، استحوذ على عقلى تفكير واحد هو أن أهرب بعيداً عن الوحش ، وأن أقبع فى حمى النيران .

انتفضت واقفاً ، وأطلقت ساقى للريح نحو المشاعل ، دون أن ألقى بمجرد نظرة لأرى مايفعله الفهد . ما أن وصلت حتى ألقيت بنفسى على الأرض ، وانتابنى برد شديد حتى أن أسنانى أخذت تصطك بصوت مرتفع ، فى حين تحركت عضلات جسمى جميعها تنتفض . مع هـذا كان جسمى جميعه مبتلا بالعرق . لا لم يكن عرقا فقط ذلك الذى يتصبب وإنما شاهدت سائلا لزجا دافئاً ينساب من ساعدى تحت الدرع . لقـد اخترقت أنياب الفهد الحديد .

مضت دقيقة ، وربما أكثر ، وأنا فى مكانى عند خط الدائرة المرسومة لى قبل أن أستجمع أعصابى المنهارة ثانية . لم أر ما حولى ، ولم أسمع أية هتافات من الجمهور ، بل ولست أدرى إن كانوا قد صخبوا أم لا .

كانت كل إرادتى مركزة فى استرداد أعصابى ، وتمالك نفسى ، وأنا ألق نظرة بين الحين ، والآخر تجاه الفهد . رأيته ما يزال واقفاً مكانه يحاول أن يمسح عينيه بقدميه الأماميتين ، لكننى رأيت أيضاً أن رداء ساحو ملق فى وسط المسافة بينى وبينه .

كان الرداء ، والرمال يمثلان كل مالدى من أسلحة ، ولم أكن فى موقف يسمح لى أن أتنازل عن نصف سلاحى . نظرة سريعة ألقيتها على الفهد ، عدت بعدها بأقصى سرعتى نحو الرداء .

إلتقطه من الأرض ، وهرعت عودا إلى حيث الأمان . لكن الحيوان رآنى ، واندفع كالسهم المارق يجرى ورائى . فى قفزة واسعة كنت لا أبعد عن النيران بأكثر من ثلاثة أمتار حينما أصابتنى ضربة فى كتفى قذفت بى إلى المشاعل ذاتها .

أحسب أننى غبت عن وعى لثوان ، لأنى حينما أفقت كان هنالك من يحملنى ، ويضعنى على حد ساحة القتال . كان كتفى الأيسر يؤلمنى بشدة إلا أننى لم أشعر بدماء تنساب منه ، ويبدو أن الفهد فى قفزته الأخيرة نالنى بكفه دون أن يتمكن من إبراز مخالبه . انتابنى دوار ، فلم تسعفنى الرؤيا ، وإن رأيت فيما يشبه الغمامة شبح الفهد يقف على بعد خطوات .

بقيت ملقى على الأرض أستجمع نفسى . لم أتعجل القيام . انتظرت حتى صفا نظرى تماماً ، وخفت آلام كتفى نسبياً . لم أشعر بأى ألم من الجرح فى ذراعى الأيسر ، وإن كان به بعض تصلب . أيقنت أنه لا بد لى أن أنهى القتال بسرعة ، فكلما طالت المدة ستنالنى ضربات طائشة مثل ما مضى ،وقد تصيبنى إحداها بقوة كافية لأن تنهى حياتى .

وقفت شبه منتصب ، ورحت أرقب الحيوان .

يبدو أنه كانت ما تزال هنالك بقية من الرمال فى عينى الوحش إذ أنه كان دائماً يغمض عينيه ، ويفتحها ، يحاول حكها بإحدى قدميه الأماميتين . تركت مكانى ، وتقدمت ووقف الفهد ساكناً . انحنيت على الأرض ببطء لألتقط بعض الرمال ، ولم تهبط عيناى عن مراقبته . هنا حدث شيء غريب . حينما رآنى الحيوان ألتقط الرمال تراجع قليلا إلى الوراء . لقد تلقن درسه . درجة من الإدراك لم أكن أتوقعها منه .

تقدمت ببطء وحذر ، وتقهقر الفهد قدر تقدمى . عجبت لذكائه ، ولم أدر فى الواقع أكان هذا راجعاً إلى ذكاء فطرى ، أم إلى تدريبه ، وكثرة اختلاطه بالإنسان . إلا أنى كان مقدراً لى أن أكتشف أكثر من هذا ، وكدت أن أفقد حياتى ثمناً لهذا الاكتشاف .

ازددت جرأة ، وثقة ، وتقدمت خطوات ، وتقهقر الفهد . لم ألحظ أنى ابتعدت عن حماية النيران بمسافة كبيرة ، وأن تزايد ثقتى أفقدنى بعض الحذر . فجأة ، ودون أية مقدمات ، قفز الحيوان بخفة متناهية عاليا فى الهواء ليهبط على جسدى . لقد استدرجنى إلى حيث يستطيع أن يقفز دون أن تكون هنالك فاعلية حقيقية للرمال . بسرعة أكبر كان تفكيرى ، وبخفة تضاهيه استجاب جسدى لعقلى . لم أحاول أن أقذف الرمال فى وجهه فإن الحبات الخفيفة لن يكون لها تأثير يذكر ، وستضيع فى الهواء .

هبط الجسد الثقيل فى المكان الذى كنت فيه تماما منذ لحظة ، إلا أنه هبط على الأرض ، إذ كنت قد ابتعدت . برشاقة انثنى الوحش ، وكنت أتوقع هذه الحركة . فى إنثنائه لم يكن ارتفاعه كافياً لأن يبعد وجهه عن يدى . أكملت المسافة القصيرة التى تفصلنى عنه ، محاذراً من الكف ، والمخالب ، ودفعت الرمال فى عينيه .

حاول أن يلوى عنقه ليلتقط يدى بفمه ، غير أن حركاته كانت كثيرة متتابعة حتى أنه لم يستطع أن يلاحقنى ، وانطبقت الأنياب الرهيبة على

الهواء ، وسمعت اصطدام الفكين . صرخ مزمجراً حينما تخللت حبات الرمال عينيه . ولم أدعه . بحذر شديد التقطت رمالا ، وانتهزت فرصة أخرى لأقذفها فى عينيه ، بل اننى وضعتها وضعا .

راح يتخبط فى جنون ، ويخمش وجهه بمخالبه ، حتى أدماها ، لقد أعمته الرمال تماما . ومع هذا فلم يكن قتل الوحش يسيرا ، بل لم يكن من السهل مجرد الاقتراب منه : ضربة واحدة طائشة تصيبنى تكون فيها نهايتى . بتؤدة ، بعيداً عنه بقدر كاف يمنحنى الأمان ، بدأت أفرد رداء ساحورع ، وأعده للغاية التى أهدف لها .

كانت الخطوات القادمة هى أخطر ما اعتزمت فعله . اعتزمت أن ألف الثوب حول عنق الوحش لأقتله خنقاً . كان ما يزال يدور حول نفسه صارخا ، ويخفى وجهه ، وحينما تقدمت محاذراً هنا حمدت رب الأرباب أننى لم أرتكب خطأ زيادة الثقة فى النفس أكثر مما يجب ، ومع هذا فقد نجوت من الموت بأعجوبة .

مما لا شك فيه أن الحيوان لم يكن يرى ، كما أنه من المستحيل أن يكون قد سمع وقع خطواتى الخفيفة على الرمال ، إلا أن رائحتى ، أنذرته بقربى منه . فى لحظة كان يخفى وجهه ، وفى الثانية انثنى ليوجه ضربة شديدة ، حيث كنت أقف . لو أننى تخليت عن الحذر ثانية لأصابتنى اللطمة ، ولو فعلت لانتهت المعركة .

تعالت صرخاته . لم يحاول أن يقف هذه المرة ، إنما أخذ يتدحرج على الأرض ، كأنما من الألم . لاحقته بسرعة حتى توقف فى دحرجته ، ودفعت الرمال فى وجهه . قفز واقفاً يهاجم عدواً لا يراه ، وراح يتخبط فى دورانه إلى غير اتجاه . تابعته عن كثب ، محاذراً دائماً ، غير تياه بما أحرزته من انتصار . كنت أعلم أنه ما زال هنالك الكثير قبل أن يتسنى لى أن أقتله ، بل قبل أن أستطيع أن ألف الرداء حول رقبته .

واتتنى الفرصة أخيراً . يبدو أنه فقد الكثير من حيويته فى حركاته الضائعة فقبع على الأرض يلهث . وافيته عكس اتجاه الرياح ، ومع هذا فقد تلصصت الخطى محاذراً . راح عقلى يعمل ، ويفكر ويقدر ردود فعله إزاء حركاتى القادمة . كان لابد أن أعمل بسرعة قبل أن تتاح له الفرصة أو أن يدخل بصيصاً من الضوء فى عينيه . كان ما يزال قابعاً حينما ألقيت بنفسى فوق ظهره ، لكن رقبته كانت تمتد بين قدميه الأماميتين فى محاولات لأن يمسح عينيه .

حينما أحس بجسدى عليه ، هب واقفاً فى حركة فجائية . إلا أننى كنت أتوقعها . فى أقل من ثانية التف الرداء حول رقبته ، وركزت قدماى فى الأرض بكل ما أستطيع من قوة تحمل . ظل واقفاً على خلفيته لثوان ، وتحملت ضغط الجسد الضخم . شعرت أن ظهرى ينفصم، وأننى لن أستطيع أن أستمر فى الاحتفاظ بالوضع لأكثر من ثوان أخرى . راحت يداى تعملان بسرعة فى إحكام الرباط حول عنقه ، وتجذبانه إلى الخلف فى الوقت نفسه ، ليتحمله جسدى ، ولأمنعه من الهبوط على قوائمه الأربعة .

لم يكن لمثل هذا الموقف أن يدوم ، فما كان جسدى يتحمل ثقل جسد الفهد لمدة تزيد على ثوان معدودات ، وما كان لقوتى أن تمنعه من الحركة لأى أمد . فى لحظة كنت أقف محاولا إحكام الرباط وفى التالية ارتطمت بالأرض بشدة هزت كيانى ، وجرى الفهد بعيداً . ثوان أخرى قضيتها طريحاً أسترد رشدى ، وأنفاسى ، ثم انتصبت واقفاً لأرى ان الحيوان قد توقف يلهث دون أن يقوم بحركة وكأنما قد احتار بأيها يبدأ ، بالرمال فى عينيه ، أم الرداء حول رقبته .

لابد أن الرمال فى عينيه كانت تضايقه فلم يكن لدى الوقت الكافى لأحكم رباط الرداء ، بحيث يعوق تنفسه بشكل مستديم ، بل إننى داخلنى الشك للحظات أن العقدة السريعة التى عقدتها فى طريقها إلى الحل لم أكن مستعداً

لأن أدخل هذه التجربة مرة أخرى ، فما كدت أرى أن الرداء مازال فى مكانه حتى اندفعت غير عابىء بالخطر لألقى بنفسى فوق ظهر الفهد ، وأمسك بكلتا يدى بطرفى الرداء .

لن يصدق أحد ماعاينته فى الثوانى التالية . كان الحيوان قابعاً ولم يحاول الوقوف . تدحرج على الأرض ، وأحسست بأن أنفاسى تخرج من صدرى إلى غير عودة ، وأن عظامى تكاد أن تهشم من ثقل الجسد . مع هذا فإننى كنت أعلم أن هذه آخر فرصة لى، وإن فقدتها فقدت حياتى . لم أبال بالآلام ، والتفت ساقاى حول خصر الحيوان النحيل ، فى حين لم تتوقف قبضتاى عن الضغط عل الرداء .

بشكل ما اعتدل الحيوان واقفاً على قوائمه الأربع ، واندفع يعدو كالمجنون ، وهو لا يرى شيئا. بدأ تنفسه يضيق حتى كنت أسمعه ثقيلا متقطعا. تتالت قفزاته فى الهواء ، وألقيت بجسدى برمته على طول ظهره ، ولم تفلت ساقاى خصره ، ولا أفلتت قبضتاى طرفى الرداء . إنى روضت خيلا كثيرة أثناء فترة مكوثى فى تامرى ، وكان بعضها شرساً قوياً ، إلا أن هذا كان شيئا آخر .

إنثنى جسده ، وتلوى ، وتقوس ظهره ، وتدحرج على الأرض ، وقفز فى الهواء ، ولم أدعه . أضحت عضلاتى جميعها متصلبة تنتابها الآلام كالسهام ، حتى أصابعى تصلبت من الألم ، إلا أننى لم أدعه . ازداد جنوناً وهياجا . كان الهواء يدخل إلى رئتيه بصعوبة فلا يستطيع أن يعوض ما يفقده فى زفيره أو فى حيويته الضائعة .

اندفع يعدو دون أن يرى ، ولم ألحظ أنا نفسى أنه تخطى المشاعل ، حتى سمعت الصرخات تدوى حولى ، وشاهدت فيما يشبه الحلم أشخاصا يتواثبون فوق بعضهم ، يعدون بعيدا عن المخالب القاتلة ، والجسد الضخم المندفع . ربما لم تمض دقيقة ، إلا أن كل ثانية فيها كانت دهرا . لم يبق جزء

فى جسمى إلا وصرخ من الألم . أما رأسى فقد إنتابه تبلد عجيب ، فلم يفكر فى شىء إلا التمسك بالمعناف ، والبقاء فوق ظهر الوحش الهائج .

ثوان أخريات بذل فيها الفهد مجهوداً جباراً للتخلص منى ، ثم بدأ يفقد حيويته . سقط على الأرض يخبط بقدميه فى الهواء ، وبدأت حركاته تضعف وتقل كلما بدأ الصدر يلتقط آخر ما قدر له من أنفاس ، لجأة زالت عنى البلاهة . لم أكن أريد للحيوان النبيل أن يموت ، فما كان بينى وبينه عداء . تركت طرف الرداء ، والتفت ناحية يشجب . من حلق جاف ، خرجت كلمات متحشرجة ، لكنه فهم أنى أريد أن أقول شيئا . استجمع شجاعته ، واقترب منى ، وأعدت كلماتى بصوت واضح .

— قل للملك إننى لا أريد قتل الحيوان ، فهل اقتنع بأنى ربحت المعركة ؟

ارتفع صوت يشجب يترجم ، وجاءت كلمات الملك بالموافقة . امتدت يداى بسرعة ترتعشان وتحلان العقدة الخانقة . كانت أصابعى كأنما تصلبت فلم يكن من اليسير على أن أتعجل ، إلا أنى أفلحت أخيراً . حاولت أن أقف فلم أستطع ، كانت ساق قد تسمرتا تحت الجسد الثقيل . لم أبذل أية محاولة فلم تكن لدى القوة الكافية . شعرت بالظلام يطبق على ، واختلطت أحاسيس الرؤيا ، والسمع . جاءت الصور متراكبة ، والأصوات متداخلة ثم داخلنى شعور غريب من الراحة ، ثم لم أعد أشعر بشىء .

كان أول وجه طالعنى حينما أفقت هو وجه مرت سجر والكاهن الطبيب . تلفت حوالى لأرى كا ، وساحورع ونجم آب ، وأيوف عنخ . كنت ممدداً على فراش فى حجرة أضاءتها المشاعل . حاولت الحركة إلا أن الكاهن أسرع ووضع يده على صدرى برفق .

— ليس الآن إن بك جروحا عديدة كما أنك بذلت مجهوداً جباراً ، وعليك أن تستريح لبضعة أيام .

أحاطنى باقى الرجال وتكلم كا .

— لقد أفقت ... حسنا عليكم الآن أن تعدوا محفة لننقله إلى سفينته. يبدو لى يا كين أننا يلزمنا نقالة مستديمة لحملك .

ارتفعت ضحكات الرجال ، وانصرف نجم آب وساحورع ، ليقوما على تنفيذ أوامر كا .

— إننا سوف نبحر خلال ساعتين على الأكثر .. وشكرا لك فلم ينل أى منا أى قسط من الراحة ... على أى حال كان القتال يستحق ما سوف نلاقيه من تعب جسمانى أثناء النهار .

فتح الباب ودخل يشجب ووجه كلامه إلى :

— إن الملك يريد أن يراك .

أحنيت رأسى موافقا فخرج وعاد بعد لحظات بصحبته الملك والفتاة باكا. تكلم الملك ، وترجم يشجب .

— إن الملك مسرور لانتصارك ، ومسرور لأن الفهد لم يمت ، وهو يقول إنه يعتبرك صديقه ، وأنه على استعداد دائما لأن يتلقاك ، ومن محك بترحاب فى مملكته .

شكرت الملك ، وأخبرته أننى اعتبر نفسى سعيدا بهذه الصداقة التى تشرفنى. وترجم يشجب .

— إن الملك قد حمل سفينتك بالهدايا إعرابا منه عن إعجابه بك ، وهو يقول إن الفتاة باكا أضحت لك تتصرف فيها كيفما تشاء .

إنتابنى الذهول . لم أكن أريد الفتاة . وكل ما أردت هو أن أنقذها من وحشية ينعم ، وأن أضمن لها أن تختار من ترغب . رددت أقوالى ليشجب ، وحينما ترجمها رأيت الدهشة مرتسمة بأجلى معانيها على وجه الملك. وجه كلامه أولا إلى الفتاة ثم انطلقت الكلمات سريعة من فمه وقال يشجب:

— إن الملك مندهش لما قلت ، وهو لا يفهم لماذا إذاً قاتلت ينعم والفهد.

هل فعلت هذا دون أن ترغب فى الفتاه ؟ ثم هو سألها فأجابت بأنها تريد أن تذهب معك حينما ذهبت وبهذا يكون قد نفذ وعده لك .

ـ لكننى لا أريدها ومن المستحيل أن تأتى معى .

هنا تدخل كا

ـ أخبر الملك إننى كقائد الرحلة أمنع أن تصعد أية فتاة على ظهر أية سفينة ، وأن كين ، حتى إن أراد ، فلن يستطيع أن يأخذها .

لاحت الحيرة على وجه الملك ثم قال :

ـ لكن الفتاة لا يمكن أن تبقى هنا . إذا بقيت فعليها أن تكون أمة لينعم ، وإلا فإن الأعراب سوف يقتلون الأهالى ، ويحرقون المدن ، وربما قتلونى أيضا . لا بد أن تذهب الفتاة معكم وإلا اضطررت إلى الخلف بوعدى ، وتسليمها لينعم ، أو قتلها .

ترددت . إن الملك على حق ، ولدى ينعم من الوسائل ، والقوة ما ينفذ بها ما يخشاه الملك . لكن كا لم يتردد .

ـ هذه ليست مشكلتنا إنها مشكلتك .

وقف الملك والفتاة واجمين ، وتحرك كا ليبدأ فى إجراءات نقلى ، وقد انتهى الحديث بالنسبة له . ظللت أرقب ، ودهشت حينما لاحظت أن وجه الملك قد تهلل ، وخاطب الفتاة التى بدا أنها الأخرى سعيدة بما قال إذ سرعان ما هزت رأسها موافقة ، فى حين صدرت من يشجب ضحكة لم يستطع أن يكتمها . وجه الملك الكلام اليه مدة طويلة ثم خاطبنا العربى :

ـ إن الملك يسأل إن كان فرعونكم مقدس !

انتابت الحية كا فأجاب دون تردد :

ـ لاشك . انه ابن الإله له الحياة ، والصحة ، والقوة ، وينضم إلى آبائه وأجداده حينما يرحل الى الغرب (كناية عن الموت) .

ـ اذاً فكل ما يملكه مقدس كذلك !

دون أن ينتبه كا رد بحماس وقوة

— بلا شك .

— حسنا ... إن الملك يهب أخته باكا أمة للفرعون

لأول مرة فى حياتى رأيت الغباء يرتسم على وجه كا . بقى لحظة ينظر إلى الملك دون أن يجد كلاما ، ثم تحركت شفتاه دون أن يخرج منهما صوتا . رغم أنى روعت فإنى كدت أضحك . كانت تبتسم سعيدة ، والملك يبتسم براحة ، ومرت سجر، يبتسم بهدوء ، ويشجب يهتز جسده من ضحك مكتوم، وكا ينقل نظره بين الجميع فى بلاهة . أخيراً واته الكلمات :

— لكنه لا يستطيع ذلك .

— ولم لا ؟ إنه ملك ، ويريد أن يهب لأخيه الفرعون هدية ، وليس أثمن عنده من أن يهبه أخته كأمة . وهى كما ترى هدية تليق بالفرعون .

فجأة انفجرت مراجل الغضب ، وانصبت لعنات كا على :

— إنك أنت السبب فى كل هذا ... شهامتك السخيفة الرعناء هى التى أوقعتنى فى هذا المأزق ... حسنا ... إنها لك ... هى مسئوليتك طوال الرحلة ... عليك أن تأخـــذها إلى سفينتك ، وأن تحافظ عليهـا إلى أن تسلمها للفرعون .

نسى حتى الدعوات الواجبة للفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة . ودون كلمة أخرى خرج وصفق الباب وراءه . وجاء دورى فى الهلع . ماذا أفعل بها؟ حاولت أن أتذرع باللين .

— إن الرحلة خطرة !

— لقد قبلت الفتاة ، وقبل الملك فلا بأس عليك .

— لا توجد إمرأة أخرى فى السفينة ، وجميع من فيها رجال .

— لا بأس فعليك أن تحافظ عليها كما أمرك رئيسك ، وكما هو واضح أنه واجبك .

— ليس هنا لك مكان فى السفينة .

— يمكنها أن تنام معك فى القمرة .

— لا ، سوف أنام أنا خارجا .

— كلا إن الملك لديه نجارون كثيرون ، وأنتم لن ترحلوا قبل ساعتين وفى خلال هذه المدة سيأمرهم ببناء قمرة صغيره لها إلى جوار قمرتك ، والواقع أن العمل سيكون خفيفاً إذ سوف يأمر الملك بنقل إحدى حجرات القصر بما فيها إلى السفينة .

سقط فى يدى . لم تعد هنالك حجة واحدة أستطيع أن أبديها . كان على طوال رحله لا أعلم مدتها ، ولا أخطارها ، أن أرافق ، وأحافظ على فتاة صغيرة لأقدمها أمة للفرعون .

الفصل السادس

وفاء الميت

أبحرنا مع أول موجات المد ، ومن الغريب أن الملك وفى بوعده . فى المدة البسيطة التى انقضت بين حضوره إلى إبحارنا ، كان بحاروه ، ونجارو السفن قد أقاموا قمرة صغيرة إلى جوار قمرتى . ومع ضآلة حجمها ، إلا أنها كانت تحتوى على فراش صغير عليه حشية واحدة ، وصندوق الملابس ، بل ومنضدة ، ومقعد .

وضعونى فى فراشى ، وتولى إدارة السفينة نائبى منتوسين وتولى حقا نخت ، الكاهن الطبيب ، أمر نقلى وإعادة تضميد الجراح . لم ترد باكا أن تتركنى وظلت إلى جانب حقا ، إلا أنى أمرتها أن تذهب إلى قمرتها لتحيك لنفسها بعض الثياب التى تستر جسدها كاملا ، وطلبت من نائبى أن يعطيها بعض الأقمشة ، ويشير عليها بكيفية حياكتها . والواقع أن منتو فعل أحسن من هذا إذ اتضح أن بعض حائكى الشراعات فى السفينة كان يعمل حائكا عاديا ، وله إلمام بملابس السيدات ، فأوكل إليه صناعة ملابس باكا .

مكثت فى فراشى أربعة أيام لم أر أثناءها باكا . ظل البحر طوال هذه المدة عاصفا، وكنت أشعر بالسفينة تتلاعب بها الأمواج ، وتتقاذفها لاهية ، وربما كان هذا هو السبب فى أن الفتاة ، التى لم تعتد ركوب البحر ، كانت تكمن فى قمرتها . تحسنت حالتى الصحية أثناء ذلك تحت رعاية حقا نخت ، الكاهن الذى لازمنى ، لم يكد يفارقنى إلا لقضاء حاجة . لم نجرؤ على الاقتراب من الشاطىء حيث أن أحداً لم يكن يعلم طبيعته فرؤى من الحكمة الابتعاد عنه حتى لا يعرض السفن للارتطام بشعب مرجانية أو صخور ، أو غيرها .

فى صباح اليوم الخامس جاءنى منتو ليخطرنى أن كا أصدر أوامره بأن ترسو السفن عند مصب نهر ، وقبل أن يحل الظهر كانت السفن قد استقرت . جاءنى كا ، وأيوف عنخ ، وساحو رع يستفسرون عن حالتى . والواقع أنه لم يكن هنالك داع لهذا ، إذ أننى كنت قد قمت من فراشى فعلا ، وارتديت ملابسى . كان كل ماشعرت به هو بعض تصلب فى عضلاتى ، وعدم اتزان خفيف ، ما لبث أن زال بعد دقائق .

كنا جلوسا نتبادل الحديث على مائدة الإفطار حينما دخلت باكا . لكن أية باكا ؟! لم تكن هى الفتاة نصف العارية التى اعتدنا على رؤيتها فى القرية ، ولم تكن هى الفتاة نصف المتوحشة شعثاء الشعر . تغيرت تماما حتى أننا دون أن نشعر وقفنا لنستقبلها . لم يكن الحائك من الحائكين الممتازين فى تفصيل ثياب السيدات فلم يزد مافعله على مجرد رداء أبيض غير متقن الصناعة يرتفع عند أحد الكتفين ويترك الآخر عارياً . كان شعرها منسدلا لم يزد ما فعلته فيه على أن مشطته إلى الخلف ، وضمته عند مؤخرة الرأس ، ومع هذا فما كانت فى حاجة إلى أكثر . كانت تتفجر أنوثة .

وقفت عند مدخل القمرة الضيقة هيابة مترددة ، وحينما شاهدتنا نقف اندفعت حمرة خجل إلى وجنتيها . مر فى عقلى خاطر سريع كاد يدفعنى إلى الابتسام . هذه الفتاة ، نصف المتوحشة ، لم تكن خجلة وصدرها عار تماما أما حينما تدثرت فقد انتابها الخجل . جاءتنا مفاجأة ثانية ولم نكد نفيق من الأولى سمعنا صوتها وهى تخاطبنا بالديموطيقية . ألقت تحية الصباح لا أكثر ، ولم يكن نطقها سليما مما أعطاه لكنة محببة . أما الصوت فلم يكن يمت بعلاقة لذلك الذى لم يكن يصدر إلا متحديا . كان صوتا متردداً خافتاً يقطر أنغاما .

لست أدرى تماما ما الذى دفعنى إلى أن أحول نظرتى إلى أيوف عنخ . ومنذ هذه اللحظة قفزت العداوة القديمة كما برزت عداوة جديدة . رأيته يكاد أن يلتهم الفتاة بعينيه ، وخيل إلى أنه لا يمنعه عنها إلا وجودنا . كان واجبى أن أحميها ، ليس لنفسى هذه المرة ، وإنما للفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة .

دعاها كا إلى الجلوس معنا ، ولما بدا عليها أنها لم تفهم أشار إليها . انتقل نظرها إلى ، ولعلها رأت فى وجهى شيئا فهزت رأسها نفياً ، واستدارت ، وجرت خارج القمرة كغزال شارد . أطلق أيوف ضحكة غريبة وقال :

ـــ لم أكن أتصور أن الفتاة المتوحشة بهذا الجمال !

التفت إليه كا ، وثبت نظره عليه لحظات ثم قال بهدوء :

ـــ أجل ... إنها جميلة جداً . لكن علينا أن نتذكر دائما أنها أمة للفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة وأحسب ياكين أن لديك مهمة شاقة فى الحفاظ عليها طوال الرحلة . وعليك أيضاً أن تحاول تأديبها ، وتثقيفها على نهج حياتنا حتى تكون هدية لائقة . والآن هيا بنا لنرى ما يوجد على الساحل . هل تستطيع ذلك ياكين .

أحنيت رأسى بالإيجاب ، وتقدمنا كا إلى الخارج . هبطنا إلى الساحل نحن الأربعة فقط إذ أن كا أخبرنى أنه أمر قوة صغيرة من سفينة القيادة أن تسبقنا ، وأنه يرى أن لا داعى مؤقتا لاتخاذ أى إجراء آخر حتى نستكشف الأرض .

كان أول ما رأته عيناى منظر جبل أشم ، ذى ثلاث قمم يتدرج إلى الشاطىء الرملى بعده ، ويندفع مصب النهر فى منتهاه ناحية البحر . تدرجت مع الجبل غابات خضراء تطاول أشجارها السماء ، حتى تهبط مع الانحدار إلى معتدل الشاطىء . كان الشاطىء رمليا مليئاً بالأحجار والحصى ، يمتد إلى مسافة صغيرة إلى الداخل لا تجاوز حتاً واحداً (١٠٠ ذراع) ، ثم أغلق المنظر تماما بسياج طويل من الأشجار الباسقة . إلى الشمال منا رأينا النهر يصب فى البحر متدفقاً بشدة ، وقد اندفعت مياهه الحمراء لتختلط بالمياه المالحة ، وتنتشر إلى مسافة طويلة داخل البحر .

إلتقينا بالقوة التى أرسلها كا ، ولم تكن تزيد على ثلاثين جندياً بالإضافة إلى العبدين سمسو ، وعنخو ، وكذلك أونى ، رامى السهام . أمر كا القوة

أن يقيموا معسكراً مؤقتاً من الخيام ، وقسم مجموعتنا الصغيرة ، أعنى نحن الأربعة ، فصاحب أيوف إلى الشمال ليستكشف النهر ، وأمرنى وساحورع أن نتوغل رأسا إلى الداخل ، كما أمر العبدين أن يتجها جنوبا . طلب منا ألا نزداد فى التوغل بحيث يمكن لأصواتنا أن تصل إلى القوة المرابطة على الشاطىء فى حالة وجود أية طوارىء .

أبديت ملاحظة لكا أن اوامره يمكن أن تنفذ بالنسبة لنا ، والعبدين ، إلا أنها لا يمكن تنفيذها بالنسبة له شخصيا ، وايوف حيث أن النهر يبعد عن المعسكر بأكثر من ثلاث حتات (٢٠٠ ذراع) وهذا يجعلهما بعيدين حتما عن سمع من بالمعسكر . استبعد رأيى قائلا إنهما سوف يراعيان فى سيرهما الا يغيبا كثيرا عن ناظر القوة إذ أنهما سوف يسيران معظم الوقت حذاء الساحل ، ولن يغيبا عن الأنظار إلا حينما يقتربان من النهر ويرتقيان الجبل . أشرت عليه بأن نتجه جميعا إلى كل من الجهات الثلاث التى يريدها فيكون ذلك أكثر أمنا ، فاستبعد الرأى قائلا إنه يبغى السرعة فى العمل ، واستكشاف المنطقة حتى يضع تقريره عنها ، وعن إمكانية تموين السفن فيها .

جاء رفضه رأيى المرة الثانية جافا يحمل معنى التضرر من المعارضة ، فلم أر مناصا من تنفيذ أوامره . توجهت مع صديقى ساحورع إلى وجهتنا لتستقبلنا بعض القردة على الأشجار بالصياح ، وسرعان ما غبنا داخل الأحراش . كانت الغابة عذراء تشابكت فيها النباتات الطفيلية مع جذوع الأشجار الضخمة ، وكلما توغلنا كانت تزداد كثافة النباتات حتى أننا كنا نضطر إلى استعمال سيفينا لشق الطريق .

كانت النباتات جديدة علينا لم نر فيها أى نفع لتموين السفن ، إلا أن الأشجار من ناحية أخرى كان يمكن أن تمدنا بالأخشاب اللازمة لأية إصلاحات . بالإضافة إلى هذا سمعت أذناى أصوات حركات خفيفة بين النباتات تنم عن وجود حياة حيوانية صغيرة ، ربما جرذان أو زواحف . سمعت أصوات الطيور عالية على أفنان الأشجار ، وشاهدنا بعضا منها يتنقل

على الأفرع الواطئة ، ولم نتمالك من الإعجاب بألوانها الرائعة - كما رأينا عدداً وفيراً من القردة تصخب ، ويتطلع بعضها إلينا فى فضول ، بينما يقفز البعض مرحا بين الأشجار .

سجلت كل هذا فى عقلى لأعيده على مسامع كا عساه يستفيد منه عند كتابة تقريره كما اعتنيت أن أجمع عينات متباينة لبعض أنواع النباتات عسى أن يكون فيها نفع للتغذية فى حالة الضرورة ، أو كأعشاب طبية . لم نشعر بمضى الوقت ، وأحسب أننا مكثنا أكثر من ساعة قبل أن أقرر العودة .

كانت العودة أيسر كثيرا لأننا أخذنا الطريق الذى سبق أن شققناه ، ومع هذا فقد دهشت حينما لاحظت أن بعض أفرع النباتات قد حل ليتخذ مكان أخريات قطعناها . قطعنا المسافة فى اقل من ربع ونوت (ساعة) بعدها ظهر فجأة الشاطىء ، والبحر . بمجرد أن رأينا القوة علمنا أن شيئا قد حدث . كان هنالك قتال . لم نتبين فى مبدأ الأمر المتعاركين فاندفعت مع ساحوورع نجرى نحوهم بأقصى سرعتنا .

كان أول ما جال فى خاطرى أن جماعة من قبائل متوحشة هاجمت القوة ، إلا أننى سرعان ما استبعدت الخاطر حينما اقتربت قليلا ولاحظت أن القتال يدور بين القوة التى تركناها على الشاطىء وبين زنجيين فقط ، عبدا كا .

حينما وصلت إلى مكان المعركة كان الزنجيان الباسلان يقفان بمفردهما يقاومان بفاعلية ثلاثين جنديا فى حين رأيت ايوف عنخ يقف بعيداً وراء الجنود يرقب سير القتال ولم أر أثراً لكا . انقبض قلبى إلا انى سرعان ما وقفت إلى جوار العبدين آمراً الجنود ان يكفوا عن القتال . تردد الجنود والتفتوا خلفهم إلى ايوف الذى أشار إليهم بالتوقف . امرت العبدين بدورهما أن يغمدا سيفيهما ، ففعلا بعد تردد يسير . إلتفت بغضب إلى ايوف عنخ .

— كيف تترك الجنود يتقاتلون وأنت واقف ؟

جاء الرد باردا لا حياة فيه .

— إن الزنجيين أرادا قتلى ، إنهما يظنان أننى قتلت سيدهما .

مع أنى كنت أتوقع لا شعوريا أن شيئا من ذلك قد حدث إلا أن موجة باردة هبت على كل جسدى ثم تركزت حول قلبى تعصره ، ولم يستطع لسانى أن يتكلم إلا متلعثما

— ماذا ؟ ... ماذا قلت ؟

لعل الملعون رأى ما حل بى وأن ركبتاى قد انسحبت منهما الدماء حتى لا تكادان أن تحملانى لجاءت اجابته فيها نبرة من التحدى ، ومن التشفى :

— إنهما يظنان أنى قتلت سيدهما ... كا

ابتلعت ريقى بصعوبة وأنا أسأل :

— كا ... قتل؟... أتعنى انه مات ؟ ... خبرنى عما حدث ؟

هز كتفيه استخفافا .

— لا شىء ... لقد انزلقت قدماه فى الجبل ، وأهوى إلى النهر ، وهو ملىء بالتماسيح ، لم يكن هنالك شىء أستطيع أن أفعله فعدت أدراجى . حينما رآنى هذان المجنونان أعود بمفردى هجما على يدعيان أنى قتلت سيدهما ، ويريدان الفتك بى لخال جنودى دون ذلك .

طرقت أذنى كلمة « جنودى » التى فاه بها ايوف كما لو كانت سوطا ألهبنى . تذكرت أن القوة الموجودة على اليابسة كلها من سفينة القيادة ، وأننا تركنا القباطنة ينتقون رجالهم ، وأن جميع القوة بالتالى من رجال ايوف

— هل رأيت كا وهو يموت ؛

— كلا لكن النهر ملىء بالتماسيح ، وتياره شديد يندفع نحو البحر

— إذاً فهنالك أمل فى أنه ما زال حيا

— لا

ـ تعال معى لنرى أين وقع الحادث .

ـ إن هذا جنون لقد مضى على الحادث الآن أكثر من ساعة وإن كان قد نجا فلا بد أن يكون قد أتى

ـ ربما كان جريحا ، أو محصورا فى الجبل فى منطقة لا يستطيع الإفلات منها ، ويحتاج إلى معونه عاجلة

ـ إذا كان ولا بد إذاً فلتذهب معنا القوة كلها حتى يمكن أن نبحث عنه ، وأن نساعده إذا استدعى الأمر .

فهمت غرضه ، أنه لا يريد أن يأتى بمفرده حتى لا تكون هنالك فرصة لقتله ، أو ارغامه على شيء . والواقع أنه لم يكن يعنينى فى الوقت الحاضر إلا البحث عن كا ، ومد يد المعونة اليه إن كان ما يزال حيا ، فلم أشأ أن أناقش . استدرت ، وأسرعت الخطا نحو النهر ، وفى لحظات كان ساحورع إلى جانبى وتبعتنا سائر القوة .

اعتلى رع (شمس الظهيرة) كبد نوت (السماء) حينما بدأنا نغذى السير نحو الجبل ، كان الجو رطبا حارا حتى أننا كنا نتنفس بصعوبة ، وتصببت أجسادنا عرقا بالرغم من وجودنا على الساحل ، لم نكد نسير بضعة دقائق حتى لاحظت أن الأرض آخذة فى الارتفاع ، وكثرت الحصى ، والحجارة . بعد دقائق أخرى من السير أضحى الشاطىء صخريا ، والبحر فى مستوى أدنى من مستوانا .

سار أيوف أمامنا ينتقى خطواته ، ولم نلبث أن اضطررنا أن نقتفى أثره فرادا . استمر صعودنا لأكثر من عشرة دقائق اخرى ثم بدأ يأتينا صوت هدير البحر ليغطى على أصوات الأمواج . شاهدت أثناء سيرنا بعض الماعز الجبلى وأرنبا يختفى بين الصخور ، كما خيل إلى أننى رأيت فهدا متربصاً ، إلا أن الحيوانات عموما كانت تهرب إذا شاهدتنا .

وصلنا إلى البقعة التى يدعى أيوف ان كا إنزلق فيها . والواقع أنها كانت

منطقة خطرة تعلو عن سطح النهر بأكثر من خمسين ليتسو (الليتو ذراع) لكنني لاحظت أنها لم تكن من الضيق بحيث لا يستطيع الوقوف فيها فيها أكثر من شخص ، وبالتالى لم تكن خطرة حقاً إلا على شخص غير حذر ، وهذا ما لم يكنه كا .

— لقد أراد أن يتأكد من أن مجرى النهر يصلح للملاحة فاقترب من الحافة أكثر من اللازم، واختل توازنه فسقط .

لأول مرة تكلم ساحو رع .

— إننى لا أرى تماسيح فى النهر .

كنت قد لاحظت هذا ، وما كان يمكن أن توجد تماسيح إذ أن مجرى النهر كان سريعا ، كما أنه لم توجد شواطىء حيث أن الجبل يحف من الناحيتين بالنهر .

أجاب أيوف باستخفاف .

— لقد رأيتها بعينى، وربما تكون قد اختفت ، أولعلنا كنا على مسافة أبعد من هذا فإن المسالك تتشابه على فى هذا الجبل .

— ربما .

— أرأيتم أنه لا يمكن أن يبقى كا حياً ... هيا بنا نعود .

— أعتقد أننا يجب أن نبقى ونحاول البحث عن كا .

احتد أيوف وخاطب ساحو بغضب :

— إنى نائب القائد ، وأنا القائد الآن وعليك أن تطيع أوامرى .

تدخلت فى الحديث .

— إننا لم نزل غير قاطعين بموت كا .

ازداد غضبه .

— إنى واثق أنه مات .

— كيف ؟

— لقد رأيته يرتطم بالصخور قبل أن يصل إلى النهر .

ـ حسبتك رأيت التماسيح تلتهمه !.

ــ إنى لم أقل هذا .

ــ أجل لكنك أوحيت إلينا بالرأى .

ضاق ذرعا بأسئلتى فاتجه إلى الهجوم :

ــ إنى لست هنا فى مجال دفاع . إنى القائد ، وعليك وصاحبك أن تفهما هذا ، وسنعود دون انتظار ، وأكثر من هذا فإننى أخبركما منذ الآن أننا سنعود أدراجنا إلى تامرى (مصر) .

قابلت ثورته بهدوء :

ــ إنك مخطىء فى كل ماقلت . حتى الآن لست القائد ، وبالتالى لن نعود قبل أن ننتشر للبحث عن كا . ثم أننا على أى الأحوال ، حتى إن تأكدنا من وفاته ، فلن نعود إلى تامرى قبل أن ننهى مأموريتنا أو نموت دونها .

فجأة هدأ وتمالك أعصابه .

ــ حسنا . سوف ننتظر لنتأكد ، لكن بعد ذلك سأتولى القيادة .

ــ سوف نرى .

انتشرنا فى الجبل ، وتعالت الأصوات منادية عن كا دون جدوى . مكثنا حتى اختفى أتوم (شمس الغروب) ، وأوقدنا نيرانا من الحطب ، وتناولنا الوجبة الوحيدة التى أحضرها الرجال معهم ، ثم اختار كل منا مكانا ليضطجع فيه . بصورة آلية انضم إلينا العبدان ، وتناوبنا الحراسة بناء على أمرى فلم أكن أثق فى أن أيوف لن يقتلنا أثناء نومنا .

حينما أرسل خبر (شمس الصباح) ضوءه من وراء إيوم (البحر) بدأنا البحث ثانية دون جدوى ، أخيرا كان علينا أن نعترف أن كا قد مات ، وأن لا فائدة من مواصلة البحث . عدنا أدراجنا مرهقين ، وحينما وصلنا إلى الساحل الرملى ألقى الرجال بأنفسهم على الرمال يلتقطون أنفاسهم . وقفت إلى جانب ساحو رع ووقف العبدان على بعد يسير منا .

هنا تقدم أيوف .

ــ أريد أن أوضح أمراً ، إننى أنا الآن القائد .

التفت إلى ساحو ليرى ما أقول، أومأت برأسي موافقاً فإن كان هنالك شيء أكرهه فهو مخالفة النظم العسكرية أو تحدى سلطة قائد.

— أجل، إنك القائد.

بان عليه الارتياح وبدا أنه لم يكن يتصور أن تصدر موافقتى بهذه السهولة. التفت إلى ساحو الذى أومأ برأسه موافقا بدوره.

— هذا حسن .. إنك ستبقى نفو (قبطان) لكنك ستتولى سفينة القيادة معى وسأعين غيرك مكانك أما أنت يا ساحو فستظل حيث أنت ...

فهمت ما يعنى ... إنه قصد إبعادى عن رجالى حتى أكون سجينا فى سفينته بين رجاله، وربما تخلص منى أنا الآخر، لكن حتى هذا لم يكن يعفينى من الطاعة. للمرة الثانية أومأت موافقا وبدت الدهشة جلية على وجه ساحو ووجهه ... لعل هذا أغراه، أو لعله ظن أننى وافقت خائفا من رجاله، أو لعله أراد إثارتى عمدا، أياً كان فقد أردف فى صيغة آمرة قاطعة ..

— إننا سوف نعود أدراجنا إلى تامرى، فقد وصلنا جنوباً إلى أبعد مما وصلت إليه سفننا من قبل.

— كلا ...

— ماذا؟ هل تعصى أوامرى؟

— كلا، إلا إذا تعارضت مع أوامر الفرعون له الحياة، والصحة، والقوة.

— إننى أنا القائد، وعليك طاعتى فى كل الأحوال. ثم أين لك أن تعلم أوامر الفرعون؟ أن بدعة الرحلة هذه كانت من اختراع كا، إنى شخصياً أعلم أنها كانت لمجرد التجارة، وعلى هذا الأساس حضرت، وحضرنا جميعاً إلا أن كا خدعنا...

بالهدوء نفسه أجبته:

— إنك مخطىء. هذه أوامر تلقاها وليست من وحى خياله.

— وأنى لك المعرفة ؟ هل كنت حاضرا مقابلته للفرعون ؟

— كلا ، لكن عندى خطابا بهذه الأوامر .

— أين هو ؟

— فى قمرتى بالسفينة .

— إننى لا أصدقك . كيف يكون مثل هذا الخطاب موجودا ، ولا علم لى به وأنا نائب القائد ؟

— بالرغم من هذا هو موجود ، وإذا سمحت لى أن أذهب إلى قمرتى فسوف أحضره .

— كلا إنك ستذهب رأسا إلى مركب القيادة ، وسأرسل من يتولى نقل حاجياتك .

— إذاً فلن يحضر الخطاب .

— ماذا ؟ ألم تقل إنه فى قمرتك ؟

— أجل لكن ليس ضمن حاجياتى .

— إذاً فأين هو ؟ سأرسل من يحضره .

— كلا . إنه وديعة لدى ولن يمسه غيرى .

— هذه ثانى مرة تعصى فيها أوامرى فى دقائق معدودة ، وإنى أحذرك ألا تستنفذ حلمى . أين الخطاب ؟

— سأحضره إن شئت .

— إذاً فأنت ترفض أن تخبرنى .

كان صوته قد ارتفع ، ووقف الجنود يستمعون للحوار بيننا . دون تردد أصدر إليهم أمره .

— اقبضوا عليه .

كنت أتوقع هذه النتيجة منذ البداية لهذا لم أفقد أعصابى . قبل أن يتحرك الجنود وجهت إليه كلماتى بهدوء .

— إنى أنصحك ألا تفعل هذا فليس هنالك داع لإراقة الدماء.

تراجع خطوات بعيدا عنى مقتربا من جنوده ، وكرر أمره.

— اقبضوا عليه.

فى لحظة كان حسامى فى يد ، وخنجرى فى الثانية ، وفى لحظة أخرى كان ساحو رع يقف إلى جانبي ، وقد فعل مثلما فعلت إلى جانبنا تقدم الميدان ووقفنا سدا منيعا من الأجساد البشرية. صرخ ايوف فى جنوده :

— اقبضوا عليهم جميعا وإن قاوموا اقتلوهم. إنهم أربعة وانتم أكثر من ثلاثين.

جاء صوت من صفوف الجند.

— خمسة.

بخفة متناهية انطلق من وسط الجند شخص لينضم إلينا وقد أمسك بيديه قوسا وسهما. أونى رامى السهام المخيف. اندفع الجنود يقطعون المسافة القصيرة بيننا وبينهم. هنا علمت لماذا أعطوا أونى لقب أحسن من رمى السهام فى الجيش. فى الثوانى التى تلت اندفاع الجند كانت ثلاثة سهام قد مرقت فى الهواء وكأنها خط واحد ليقع ثلاثة جنود مضرجين بدمائهم. بعد ذلك التحمت السيوف.

لم ننتظر حتى يهجم الجند علينا إنما اندفعنا نلقاهم فى منتصف المسافة. بالرغم من أن انتباهى جميعه بعد هذا انصب على القتال إلا أننى لم أملك أن ألاحظ أن الهرقلين الأسودين كانا يمعنان القتل يمنة ، ويسرة ، ويثيران الذعر حولهما ، لم أر أونى فى القتال إلا أننى علمت أنه احتمى وراءنا حينما رأيت سهامه القاتلة تمرق بيننا. ذات مرة مرق سهم قريبا من كتفى حتى أننى أحسست بلفحة خفيفة سريعة من الهواء سقط على أثرها أحد الجنود أمامى وقد اخترق السهم عنقه.

لم تمض دقائق معدودة إلا كان الذعر قد أخذ منهم فولوا الأدبار ،

تاركين نصف عددهم بين قتيل وجريح ، وكان ايوف يعدو معهم نحو السقالات فى البحر . صرخت فيهم أن يقفوا ، وإلا فلن يصل إلى السفن أحد منهم . تأكيدا لكلامى أرسل أونى أحد سهامه ليستقر فى كتف جندى منهم. حينما صرخ الجندى من الألم توقف الجميع .

أمرتهم بإلقاء أسلحتهم على الأرض ، وبأن يبتعدوا عنها . وفعلوا . كانوا ينظرون برعب إلى رامى السهام وقد وقف مسترخيا،وقوسه وسهمه متجهان إلى الأرض . لاح كمن لا يعنيه فى الأمر شيئا ، وكأنما بلغت به الثقة فى قدرته حد الاستهتار ، والاستهانة . ومع ذلك فقد أظهر من مرونة جسمه ، وسرعة حركته ، ودقة إصابته ، ما جعلنا جميعا نثق فى استطاعته القضاء على معظم الجند قبل أن يتحركوا .

ناديت على ايوف عنخ فتقدم . لم يكن جبانا إذ أننى شاهدته يبلى بلاء حسنا فى أكثر من موقعة ، ومع هذا فإن سهام أونى كانت ترسل الذعر فى أكثر القلوب شجاعة . أخبرته أنه ما زال القائد ، وأن عصيانى له لم يكن إلا لعصيانه لأمر الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة وأنه إن عدل عن رأيه فله أن يسترد قيادته ، بشرط واحد هو أن أبقى ربانا على سفينتى . لم يصدق أن يفلت بهذه السهولة فأجاب بالموافقة .

استأذنته أن يصحبنى إلى قمرتى حتى أطلعه على أوامر الفرعون له الحياة والصحة ، والقوة ، وطلبت من ساحو رع أن يصحبنا ، وكذلك أونى ، والعبدين . انتقلنا نحن الخمسة الى سفينتى بعد أن أصدر ايوف أوامره الى جنوده بأن يدفنوا من مات ، وأن ينقلوا الجرحى إلى سفينته ليعالجوا .

حينما وصلنا إلى القمرة استخرجت الخطاب من مخبئه ، وأطلعت أيوف وساحو عليه قبل أن أفضه ليتأكدا أن أختامه لم تفض . أطلعتهما كذلك على الخطاب الذى تركه لى كا ، واقنعتهما بأنه لم يفتح بدوره ، قبل أن أفض أى الوثيقتين قال ساحو :

— ألا تظن أنه من المستحسن أن نرسل فى طلب نجم آب أيضا فربما كانت هناك أوامر ، أو معلومات جديدة يجب أن يعرفها معنا .

وافقت على الرأى ، وطلبت من منتوسين نائبي أن يرسل فى طلب نجم آب ، وجلسنا نحن الثلاثة نتبادل المعلومات عما رأينا على الساحل . بدا إيوف عنخ فى مبدأ الأمر واجما ، كسيرا إلا أنه سرعان ما استعاد صفاقته وراح يتكلم بلهجة القائد الذى يملى إرادته . لم أعترض ، وما كان لى أن أناقش طريقته طالما اعترفت بالقيادة .

حضر نجم آب وجلس معنا منتوسين . أخبرتهما باختصار بموت كا دون أن أشير إلى ما حدث من إيوف عنخ وجنوده ، ثم أطلعتهما على الخطابين ليتأكدا من عدم فض أختامهما ، أخيرا طلبت من ساحو رع أن يقرأها .

كانت الوثيقة الأولى تحتوى على أوامر الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة ، ومهورة بخاتمه الفرعونى ، سيد الواديين . حينما تلاها ساحو كانت مفاجأة لنا جميعا إذ لم تقتصر الأوامر على مجرد القيام بالرحلة ، وهو ما كنت أعلمه ، وإنما أضيفت اليها أوامر أخرى لم يكن كا قد أطلعنى عليها . كانت الأوامر الجديدة ، أنه فى حالة وفاة كا أو غيابه ، أو عجزه ، توكل قيادة الرحلة إلى كين إيم حتب ، أى إلى أنا شخصيا ، وليس إلى إيوف عنخ .

إن كانت صدمة هزيمة إيوف عند الساحل شديدة عليه لم يتوقعها ، فإن اللطمة التى أصابته بعد قراءة الأوامر كانت أشد . إمتقع لونه ، وزاغت عيناه تستقران علىّ فى كرملم يحاول أن يخفيه ، لم يتمالك غضبه وصاح واقفا :

— هذا كذب إننى أنا النائب ، وأنا الذى أتولى القيادة .

رد ساحو عليه بهدوء :

— إن أوامر الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، واضحة صريحة لا تحتمل خلافا أو تأويلا .

نظرت إلى نجم آب فضحك .

ـ أجل إن الأوامر صريحة .

لم يجد إيوف مناصا من القبول فارتمى على مقعده دون كلمة . أشرت إلى ساحو أن يقرأ خطاب كا ، ففعل ؛ لم يكن يزيد على وصيته ، لقد ترك لكل من رجاله الستة ما يكفيهم ليعيشوا عيشة كريمة ، وترك للعبدين ممسو وعنخو حرية أن يختارا الإلتحاق بخدمتى ، أو أن يكونا جنديين حرين ، أما باقى ممتلكاته فقد تركها لى .

على أن ما كاد يرسل الدموع فى عينى هو ما جاء فى ذيل الوصية ، قال يخاطبنى إنه كان قد وعدنى حينما قبلت الإلتحاق بالرحلة أننى لن أندم ؛ وبحسب أنه بتعيينى قائداً للرحلة بعد وفاته وفى بوعده .

الفصل السابع

الأعرج

كان أول عمل لى أن أرسلت إلى سفينة القيادة لأسترد متاع كا ، وبالذات مذكراته عن الرحلة ، والمعلومات الملاحية التى دونها . استدعيت عبيد كا الآخرين الذين كانوا مايزالون على السفينة ، وحينما اجتمع الستة عندى أخبرتهم عن وصية كا ، وخيرتهم بين أن يستمروا فى خدمتى ، أو أن يستردوا حريتهم يفعلون بها مايشاءون .

جاء رد أونى عملياً ، ووافق عليه الآخرون .

— ماذا سنفعل بحريتنا هنا ؟ من الواضح أن سيدنا كان يريد لنا أن تتم الرحلة معه ، وإلا لما جلبنا . دعونا نؤجل الكلام عن الحرية حتى تنتهى الرحلة ، إن انتهت .

وافق الباقون على ذلك ، وأقفلت المناقشة فى الموضوع . لم أغير سفينتى ، وجعلتها هى سفينة القيادة ، كما تركت لإيوف قيادة سفينته إذ كان تقديرى أن رجاله فى السفينة لن يقبلوا قائداً آخر . لم تكن هنالك خشية أن يحاول العودة بها ، فإن سفينة واحدة من العسير جداً أن تهرب من قراصنة بحر العرب (الأحمر) أو أن تلقاهم فى قتال .

اتجه الساحل بعد إبحار يوم إلى الغرب ، فخامرنى الأمل أننا قد انتهينا من رحلتنا إلى الجنوب ، مع أن المعلومات التى استقاها حكو بتاح ، ونفر وسى من الأعراب، ورجال بونت ، كانت تخالف ذلك ، لكن ربما كانوا مخطئين. سرعان ماخاب أملى إذ أن الساحل بدأ يميل ثانية نحو الشرق مما جعلنى أقطع بأنى فى خليج كبير فحسب .

فى اليوم الثالث كنت جالسا فى قمرتى حينما جاء إلى منتوسين وطلب أن أصحبه إلى سطح السفينة . لم ألحظ شيئاً غريباً يستحق استدعائى فى مبدأ الأمر، وإن كنت شعرت بأن هنالك شيئاً غير طبيعى . حينما أشار منتو إلى الشمس عرفت السبب . إن الشمس قد انتقلت من مكانها . بدلا من أن تكون كما هى دائما، على يسار السفينة أضحت عن يمينها . كان الرجال ، والبحارة قد لاحظوا هذا أيضاً ، واعتبروه ولاشك نذير شؤم إذ أن بوادر التململ وضحت عليهم ، إلا أننى سرت بينهم بهدوء وكأن شيئاً لم يحدث ، فهدأوا نسبياً .

جاءتنى من السفن الأخرى أنباء تحمل المعنى نفسه ، وتتساءل عن مؤدى هذه الظاهرة الخارقة للطبيعة ، وفهمت أن رجال السفن الأخرى ليسوا أحسن حالا ممن معى . كان على أن أجيب بسرعة فأرسلت اليهم أن هذه ظاهرة طبيعية ، وأن كا وأنا كنا نتوقعها . كنت كاذبا فى ادعائى هذا إلا أننى كنت محتاجا إلى وقت أفكر فيه كما كان يلزم تهدئة الرجال فى السفن الأخرى .

أمرت منتوسين أن يستمر فى ملاحظة الشمس ، وأن يخطرنى اذا حدث أى تغيير ، ودخلت قمرتى أراجع حساباتى ، والمعلومات التى دونتها عسى أن أجد تعليلا لهذه الظاهرة . راجعت للمسافات التى قطعناها منذ ابحارنا ، والخريطه التى رسمها كا ، والتى رسمتها ، وهما تكادان أن تتطابقا . ملاحظاتنا عن التيارات المائية ، وموقع الشمس ، والجو من حيث حرارته ، ورطوبته ، والرياح قوتها ، واتجاهها . وضعت علامة على الخريطة على المكان التقريبى الذى بدأت فيه هذه الظاهرة ، وأخذت أقارن المعلومات المتجمعة أمامى ، وأدرسها محاولا استشفاف تعليل معقول لكن دون جدوى .

كان على أن انتظر الأمر . هل ستستمر هذه الظاهرة أو تزول ؟ كان على أن أدرس ، وأدون ملاحظاتى فى كل خطوة قادمة عن الأنواء ، والجو والتيارات، ومايحدث فى كل هذا من تغيير ، بالإضافة إلى النجوم وأوضاعها .

شيء واحد مقطوع به . إذا استمرت هذه الظاهرة فلا بد أنها شيء طبيعى له تعليل معقول . وليست كما أخطرنى منتوسين ، وكما يعتقد الرجال ، غضب من رب الأرباب آمون لاعتدائنا على مملكة الجن ، والأرواح . هل هى كذلك حقيقة ؟

لابد أننى قضيت وقتاً طويلا مستغرقا فى دراساتى حتى أننى لم أفق إلا حينما لاحظت أن الضوء فى القمرة بدأ يخفت ، ومع هذا فإننى تركت البرديات جانبا ، ورجعت أفكر فيما درسته ، وما يمكن أن أصل إليه من نتائج . عندما بدأ الليل يرخى سدوله سمعت طرقات خفيفة على الباب . أذنت للطارق بالدخول ، ففتح الباب ، وظهرت باكا حاملة مصباحا ، ومن ورائها منتوسين :

كنت قد نسيت الفتاة تماما ، وحينما رأيتها خيل إلى كأنما أراها لأول مرة كانت ترتدى فستانا لبنى اللون على شاكلة سابقه عارى أحد الكتفين إلا أنه كان أكثر اتقاناً ، أو خيل إلى كذلك . برزت مفاتن جسمها بدقة جعلتنى أنظر مشدوها . الكتف الأملس ، والصدر الناهض ، والخصر النحيل الذى ينحدر فى استدارة تكاد أن تكون كاملة ثم ينزلق الرداء لينتهى عند القدمين الصغيرتين ، بالإضافة إلى هذا الشعر الأسود الفاحم وقد انسدل متهدلا كإكليل يتوج الرأس ، ويعطى خلفيه جميلة الوجه البديع .

أحسبنى أطلت النظر أكثر مما ينبغى ، لأن ضوء المصباح الباهت لم يستطع أن يخفى حمرة الخجل التى صبغت الوجنتين ، ولا الابتسامة السعيدة التى انفرجت عن أسنان لؤلؤية . سمعت صوت منتوسين ، وكأنى كنت نسيت وجوده .

— إن سيدى القائد لم يتناول طعاما منذ الصباح . وقد طرقت الباب عدة مرات دون أن ألقى إجابة حتى أصرت باكا على دخول الحجرة ، واحضار الطعـــام .

— لا بأس يا منتو ، وشكرا يا باكا .

انتحى منتو جانبا مشيراً إلى أحد البحارة الذى ظهر خلفه حاملا صينية عليها الطعام ، ووضعها على المنضدة أمامى ، ثم انسحب :

ـ انى جائع جدا ، هلا شاركتمانى ؟

تردد منتو قليلا ثم تناول مقعداً وجلس فى حين لم يبد على باكا أنها فهمت ما أقول ، حينما أعدت كلامى مصاحبا إياه بالإشارة اتسعت الابتسامة على شفتيها وجلست بدورها قائلة :

ـ شـــكراً .

نظرت إليها بدهشة إلا أن منتو ابتسم ، وأخبرنى أنها قضت كل أوقاتها تلتقط الـكلمات الديموطيقية وتحفظها ، وأنهـا أبدت ذكاء غير عادى وذاكرة قوية .

ـ لعلها تستطيع أن تبادلنا الحديث .

ـ لا أظن ذلك ، وإنما لاتدهش يا سيدى إذا ما استطاعت فهم كلماتك أو مبادلتك الحديث خلال أسابيع قليلة .

ـ علينا أن نعطيها إسماً يليق بأمة الفرعون، له الحياة ، والصحة ،والقوة.

ـ أخشى أنى لا أستطيع أن أفيدك فى هذا يا سيدى .

تنقلت عيناها الذكيتين بيننا وبدا عليها أنهـا علمت أن الحديث يدور حولها ، وأنها سعيدة بذلك . فى الدقائق التالية تناولنا الطعام فى سكون نسبى لم يقطعه إلا محاولتين للفتاة أن تطعمنى بيدها، مما سبب لى حرجا ، وبذلت جهداً كبيراً حتى أفهمتها أنها لا يجوز لها أن تطعم شخصا . ضحك منتو من محاولاتها وقال :

ـ إن الفتاة تحبك يا سيدى .

أظهرت الامتعاض ، وأنا أرد على ملاحظته فى خشونة مفتعلة .

ـ لا تحبنى يا سيد منتو فأنا أكاد أن أكون فى عمر والدها ، وإنما هى تعتقد أننى أنقذتها من القرصان ينعم فهو كما ترى مجرد شـــعور بالاعتراف بالجميل .

تجاهلت الفتاة بعد هذا تماما ، وتبادلت الحديث مع منتو أسأله عن أحوال الشمس ، وهل تغير مركزها ، أوهل لاحظ فى الجو أو الرياح تبديلا. جاءتنى إجاباته بالنفى ، فالشمس استمرت إلى يمين السفينة طوال النهار حتى المغيب ، والجو شديد الحرارة ، والرطوبة ، والتيار جنوبى ، والرياح هادئة. كان المجدفون فى الواقع ينعمون بأيام من الراحة قلما نعموا بها ، وإن كانت ظاهرة الشمس ما زالت ترعبهم ويتوجسون خيفة من جراء غضب الآلهة .

عندما انتهينا من تناول الطعام كان الليل قد ساد . أردت أن أخرج إلى سطح السفينة عسى أن أرى شيئا جديداً فى النجوم ، وأخبرت منتو بذلك لأخرج . أشرت إلى باكا ويبدو أنها قد فهمت خطأ أننى أريد أن أصحبها إذ سارت إلى جوارى . كنت محرجا إذ لم أرد أن أطردها فتركتها تسير دون أن أتكلم واثقاً أنها حينما ترانى منهكا فى مراقبة النجوم ، والكواكب سوف تمل ، وتعود من نفسها إلى حجرتها .

لم يحدث شىء مما توقعت . وقفت باكا إلى جانبى دون أن تنبس بكلمة أو تأتى بحركة ، ولعلها لاحظت مدى استغراقى فى مراقبة الأفلاك فوجهت نظرها بدورها اليها يبدو أنها تصورت أن رصدى لم يكن إلا لمجرد التمتع بالجمال فأرادت أن تشاركنى فيه . ظللت أكثر من ساعة دون أن أتحرك ، وظلت صامتة دون كلمة . اتجهت بعدئذ إلى قمرتى لأدون ملاحظاتى ، وتحولت إلى جوارى . حينما وصلت الى القمرة رجوت لها ليلة سعيدة . ورجت لى احلاما هنية . قبل ان تفارقنى فاهت بكلمة « احب » ، وسألتها عما تعنى ، ولم تدر كيف تجيب فأشارت إلى أنها تحب الصمت الذى شاركته معى .

وأجبتها قائلا :

– حسناً إذاً فأنت مرت سجر ، محبة السكون هذا هو اسمك .

كررت الكلمتين بصوت ناعم .

ـ مرت سنجر ...

أطلقت ضحكة مرحة ، وهرعت إلى قرتها .

ما أن ظهر خبر (شمس الصباح) على المياه حتى كنت أقف على سطح السفينة . كان خبر على يمينها . بعد دقائق لحقنى منتو سين ، وسمعنا صوت مراقب الصارى ينبئنا عن وجود قرية على الساحل ، وأن هنالك قوارب تتجه نحونا . فكرت أن نقضى بضعة أيام فى شدو (القرية) ربما نستطيع أن نلتقط معلومات تفيدنا عن ظاهرة (أتون) الشمس حتى نتمكن من إقناع الرجال ، وإزالة أى أثر لخوفهم . أمرت منتو أن يرسل إشارات إلى السفن بإلقاء المراسى ، وأن يستعد ربابنتها بمصاحبتى على الشاطئ . كما أمرته أن ينتقى مجموعة من الحرس على أن يكون بينهم حكوبتاح ، ونفروسى الجنديان اللذان يتكلمان لغة البانتو ، والنبط .

اقترح منتوسين أن يصاحب الفتاة معنا ، فهى من هذه المناطق ، أو قريبة منها ، وغالبا ما تكون ذات نفع كبير . وافقت على الرأى وان كنت لم أستطع أن أشرح للفتاة ماذا أريد تماما . حاولت أن أفسر لها بالكلام فهزت رأسها نفياً بأنها لم تفهم . كررت ، المحاولة بالإشارة وبعد لأى قالت إنها فهمت ، وإن كنت شككت كثيراً فى ذلك . أخيراً سألت حكوبتاح أن يترجم لها ، وأن يتنبه هو الآخر لما اقول ، وحينما ترجم بصعوبة نظراً لادعائه أن اللغة ليس فيها بعض الكلمات أو هو لا يعلمها ، دهشت حين أنبأنى أن الفتاة أخبرته أنها فهمت منى ما أريد ؛ وأنها فى الواقع كانت قد علمت من الأعراب ، ومن أهلها عن هذه الظاهرة وهى أن الشمس تبدل مكانها فى نقطة معينة ، وتبق على هذه الحال حتى يعودوا أدراجهم ، وعند النقطة نفسها تقريباً تعود إلى ما كانت عليه ، وأنها لا تدرى تعليلا لهذا ، كما تعتقد أن الأهالى لا يعلمون .

علمت أن اسم القرية نيسكون (درفورد الآن) وهى ثانى بلدة نمر عليها بعد أوبونى ، إذ يبدو أننا كنا قد مررنا على مدينة أخرى اسمها يدنا (سرابيون)

دون أن نلحظها ، ولابد أن تصادف أن المرور فى المساء . تلقانا ملك المدينة ، وكل مدينة لها ملكها الخاص ، بترحاب ، وحينما رأى الفتاة عرض على أن يشتريها فرفضت قائلا إنها ليست ملكى .

انتهزت فرصة وجودنا وأمرت بإعادة تموين السفن بالمياه العذبة ، والفواكه، كما طلبت من الملك تنظيم رحلة صيد للحصول على لحم طازج حيث أنه أخبرنى بوجود أنواع من الجاموس الوحشى على مسافة قريبة فوعدنى بذلك خلال يومين حيث أن الأدلاء ، والحمالين كانوا فى رحلة ، وينتظر عودتهم فى أية لحظة .

أفرد الملك مكانا يبيت فيه الربابنة الثلاثة ومرت سجر ، وأنا ، بينما أمرت رجالى أن يقيموا بعض المخيمات لهم على الشاطىء . لم أر الفتاة فى اليوم الأول إذ أننى كنت مشغولا مع الرجال فى تموين السفن ، وعندما حل المساء سألت عنها فأخبرنى ساحورع أنها فى مكان ما بصحبة إيوف عنخ . لعل القلق بدا على وجهى لأن ساحورع سرعان ما أردف .

— إن الفتاة التى قاومت ينحم من اليسير عليها جدا أن تقاوم إيوف . فضلا عن هذا فهنالك ثلاثة تعلقوا بها حتى أضحوا من عبيدها حكو ، ونفرو ، وأونى ، ولا أظن أن هنالك داع للقلق .

تنفست الصعداء ثم عاودنى القلق .

— إن إيوف خبيث وهو يعلم الكثير عن النساء ، وستكون الفتاة كألعوبة بين يديه .

— ربما كان لك بعض الحق من هذه الناحية .

كنا جالسين ، ساحورع ، ونجم آب ، وأنا فيما يشبه الشرفة فى البيت الخشبى الذى أفرده لنا الملك ، وبينما نحن نتحدث نما إلى سمعنا صوت ضحكة جذلة أطلقتها الفتاة تلتها ضحكات رنانة من إيوف . بعد لحظات ظهر

الاثنان من بين الأشجار القريبة وهما يسيران جنبا إلى جنب فى مودة ظاهرة ، ظللت أرقبها حتى اقتربتا ثم ابتدرته .

— إيوف ليست الفتاة مالا مشاعا لا تخرج معها ثانية .

بان عليه الغضب وأجاب بحدة :

— إننى لم أفعل شيئا .

— إنى لم أقل إنك فعلت ، إنى أحذرك فقط ألا تصحبها ثانية .

رد على بقحة .

— لماذا ؟ كنت أنعم بصحبتها فقط .

أشرت للفتاة بالدخول إلى حجرتها ، وأوليته ظهرى وأنا أكرر بصيغة تقطع المناقشة .

— لا تفعل ..

قبل أن أخطو خطوتين جاءنى صوت ملىء بالغضب والقحة .

— أواثق أنت أن هذا من أجل الفرعون ، وليس لنفسك ؟

لم أتردد . فى ثوان كنت قد استدرت وقطعت المسافة الصغيرة التى تفصلنى عنه ، ثم ارتفع ذراعى ليهوى ظاهر يدى على فمه فى ضربة شقت شفته ، وأسالت الدماء . لعله لم يتوقع أن يكون رد فعلى بهذه السرعة ، أو بهذا العنف . فقد وقف شبه مذهول لحظات ثم هجم على يريد أن يكيل لى الضربات .

كان بالنسبة إلى مجرد طفل يجب أن يؤدب ، أيا كانت مهارته فى استعمال الأسلحة فإن قوته البدنية لم تكن حتى تقاربنى ، لهذا لم أحاول إيذاءه حقا . لم أبتعد عن لكماته ، وإنما تلقيت قبضته بيدى وأمسكت به ، حينما أرسل الأخرى إلى وجهى أوقفتها باليد الثانية ، ثم طوحته بعيداً .

ارتفع عن الأرض ثم طار ليسقط على وجهه فى الرمال . لم يتحرك

لحظات ، ولعله أدرك الفارق الجسمانى الكبير بينه وبينى ، وأدرك بالتالى عقم محاولة قتالى قام ببطء ولم ينظر ناحيتى واتجه رأساً إلى الأحراش .

إستدرت لأرى أن الفتاة مازالت واقفة تنظر وقد اعتلى وجهها الوجوم. حينما رأتنى أثبت نظرى عليها خفضت عينيها ثم ولت تعدو نحو حجرتها ، جاءنى صوت نجم آب .

— لقد إكتسبت عدواً لن يتردد فى قتلك .

— لو استطاع لفعل ذلك منذ زمن طويل .

— ربما كان قبلا يتحين الفرص ، أما منذ الآن فإنه سيختلقها ..

— ربما .. شكراً للتحذير على أى حال .

كان الجو رطبا شديد الحرارة ولم يشعر أى منا بميل إلى النوم . مكثنا نحن الثلاثة نتبادل الحديث فترة طويلة قبل أن نقرر أن الوقت حان للنوم . دلفت من باب حجرتى ، ولم أر داعياً لأن أوقد الشعلة حيث أن ضوء القمر كان ساطعاً . قبل أن أخلع سترتى شعرت بحركة خفيفة عند الفراش فالتفت مستعداً لأى طارىء إلا أننى سرعان ما تبينت أنها الفتاة .

تعجبت من وجودها ، وأشرت إليها أن تخرج إلا أنها تقدمت منى ثم ألقت بنفسها عند قدمى ، وأحاطت إحدى رجلى بذراعيها . دهشت للتصرف إلا أنى إنحنيت ، وأمسكت ذراعها بقوة لأنهضها فوضعت خدها على قبضتى ، شعرت بوجنتها دافئة تبللها الدموع ، وكدت أن أسحب يدى كأنما مست جمرة إلا أننى تمالكت نفسى ، وأقمتها من جلستها بقوة ، وإن يكن برفق .

لم تحاول المقاومة ، قامت لتقف على بعد لا يزيد على شبر (عرض الكف) منى . سقطت أشعة القمر على وجهها لتبدو لى الدموع تنساب رقراقة تزيد من جمال الوجه ، وتعطيه مسحة من حزن وندم . فهمت أنها ظنت أنى قد غضبت عليها لإصطحاب إيوف إياها وهى تظهر ندمها . برفق مسحت دموعها وأحسست بجلدها أملس ناعما تحت أصابعى . قلقت عيناها

تتفحصان عينى ، ويبدو أنها اقتنعت أنى لم أكن غاضباً عليها إذ تراءى شبح الابتسام على شفتيها ، وانصاعت إلى يدى وهى تقودها خارج الحجرة .

فى ظهيرة اليوم التالى سمعنا لجبا فى القرية ، وشاهدنا جماعة كبيرة تدخل حاملين معهم جثة ثورين وحشيين ، وعلمت أنهم قناصة القرية المتعهدون بتموينها باللحوم . ذهبت إلى الملك أسأله أن يوفى بوعده فأرسل لاستدعاء شخص يبدو أنه رئيس القناصة . بعد فترة حضر شاب شديد السمرة طويل القامة نحيل البنية حتى أن العظام تكاد أن تبرز من جسده .

أجاب رداً على أسئلة الملك بأنه يوجد قطيع كبير من الجاموس الوحشى على مسافة نصف يوم من القرية يرعى فى مســـاحة واسعة من الحشائش . طلبت من حكوبتاح ، أن يسأله إن كان يستطيع أن يأخذنا اليه فى الصباح المبكر ، فرد بأنه يستطيع ذلك إلا أن المنطقة ملأى بالوحوش المفترسة التى تتغذى على أفراد القطيع ، وأن الرحلة بذلك خطيرة . أخطرته أن يكون على استعداد للرحيل ، واصطحبت ساحورع ، ونجم آب معى إلى المخيمات .

قررت أن أصطحب معى فى رحلة الصيد نجم آب ، وحكوبتاح المترجم ، وأونى ، رامى السهام تاركا سمسو ، وعنخو العبدين الأسودين فى رعاية الفتاة ، كما انتقيت ستة من الجنود ، ووعدنى الملك أن يضع فى خدمتى ثلاثين حمالا ، حينما أخبرته اننى اود أن أصيد اربعاً من هـذه الجواميس ، واحدة لكل سفينة .

أقيم فى القرية مساء حفلا جريا على العادة ليشترك الجميع فى أكل لحم الثورين ، ويبدو أن الملك قد شرب كثيراً حتى أنه عاد وكرر عرضه السابق أن يشترى منى مرت سجرة حينما رفضت عرضه على أن أنتقى من بين أهل قريته خمس فتيات بدلا منها . ولما رأى إصرارى عاد ليعرض على أن أنتقى من أشاء من نسائه ، وزوجاته . رفضت معتذراً فقال كلمات من بين أضراسه لم أكن محتاجا إلى مترجم لأعرف معناها ، إلا أنها دفعتنى أن أتخذ قرارا .

اعتذرت عن مواصلة الحفل متعللا بالنهوض مبكراً ، واصطحبت معى الفتاة ، ونجم آب ، وساحورع تاركا إيوف .

بمجرد أن توارينا فى الظلام طلبت من زميلى أن يرافق الفتاة إلى سفينتى واطمأن قلبي حينما رأيت أن سمسو ، وعنخو يقفان على مسافة قريبة ، وإنهما سارا خلف صديق والفتاة . إلى جوارى تكلم نجم آب .

— إن الفتاة تسبب لك بعض المتاعب وسوف تسبب لك الكثير ، وأنى أرى أن تتركها للملك ولدينا مايكفينا .

— إنها ملك للفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، ولن أتنازل عنها بمثل هذه السهولة . على أى الأحوال أمسيت بخير إن أمامنا يوما شاقا غدا .

استيقظت فى الصباح المبكر ، وحينما خرجت إلى الشرفة لم أجد أحدا من الأهالى فى انتظارى لا رئيس الصائدين ، ولا الحمالين . كان يوجد رجالى فقط . بعد دقائق انضم إلينا نجم آب ، وحينما رأى الساحة خالية من الأهالى . تبسم قائلا :

— لاتعتقد أن الملك سوف يساعدك بعد أن رفضت منحه باكا .

— أتظن ذلك ؟

توجهت من فورى إلى مساكن الملك مصطحباً نجم آب ، وحكو بتاح ، ورجالى السبعة . كان هنالك حارس واحد ، سرعان ماجردناه من سلاحه . أمرت أن يتفادى الرجال القتل ، أو حتى الجرح ، إلا فى حالة الضرورة القصوى . خرج الملك يستطلع سبب الجلبة ، وحينما رآنا حاول الدخول ثانية ، إلا أن سهم اونى كان اسرع منه فأصاب الباب على قيد انامل . كان تهديدا واضحا جعله يستمر فى مكانه ، ثم يلتفت الينا ببطء . سألت ، وترجم حكو بتاح .

— أين الدليل ؟ وأين الحمالين الذين وعدت بهم ؟

— لا أدرى . لقد أمرتهم أن يكونوا موجودين ولعلهم خافوا من الرحلة فهى خطرة كما علمت .

— حسنا إذاً فتعال معنا ، ستكون أنت الدليل .

بان الخبث فى عينيه وقال بصوت ناعم :

— أنظر خلفك ستجد أن رجالى يحيطون بكم . ارم سلاحك ، وأمر رجالك أن يفعلوا ، وسوف أدعكم ترحلون بسلام .

إنى شخص أكره الجدال . أومأت إلى أونى آمراً بأن يعطيه انذارا آخر . لست أحسب أن أحدنا رأى السهم وهو يمرق فوق كتف الملك قريباً من العنق ، ويلتصق بالباب خلفه . ويبدو أن أونى أراد أن يكون مقنعاً ، أو لعله أخطأ نتيجة فرط ثقته بنفسه ، لكن السهم ترك خدشاً خفيفاً فى الكتف ، وآخرا بالعنق . صرخ الملك من الرعب ، وقفز خطوة إلى الوراء واضعاً يده عند عنقه ، وردها لينظر بهلع إلى قطرات خفيفة من الدماء . أصدرت أمرى ، وترجم حكو بتاح .

— أمرهم أن ينسحبوا .

وأصدر الملك الأمر .

— عليك أن تصحبنا لتكون دليلنا . لاشك إنك قمت برحلات صيد قبل هـذا .

— إن الرحلة خطرة وأنا لا أعرف دروب الغابة .

— هذا من سوء حظنا وحظك .

— انتظروا سآمر الأدلاء والحاملين أن يرافقوكم .

صرخ بصوت عال ، وظهر الدليل والحاملين .

— إنك سوف تصحبنا .

— دعه لى .

كان المتكلم هو ساحورع ، إذ حضر ومعه رجاله حينما شاهد تجمهر الأهالى . والتفت إليه ، وكرر ساحو :

— دعه لى، إنه سينعم طوال النهار بجو البحر المنعش على سفينتى حتى تعودون.

أومأت برأسى موافقا ، وترجم حكو للملك الذى وافق بدوره ، ثم تكلم بصوت عال لرجاله قبل أن يرافق جنود ساحو . أخطرنى حكو أنه أمرهم بالمحافظة على حياتنا ، وهددهم بأقصى أنواع العذاب إن مس أحدنا سوء .

أنبأنا الدليل أننا قد تأخرنا ، وأنه يستحسن أن ننتظر إلى الصباح التالى ، فإن المبيت فى الغابة أمر مرعب إلا أننى صممت أن تبدأ الرحلة فورا. طلب منا أن نغذى السير إن كان هنالك أمل فى الرجوع قبل أن يحل المساء وفعلنا ذلك . سار أمامنا يقطع فروع الأشجار ، والنباتات الكثيفة ، بسكين طويلة معقوفه ، وأمرت ثلاثة من رجالى أن يساعدوه بسيوفهم ، وبهذا أمكننا أن نسير بسرعة لا بأس بها .

كانت الأرض رطبة ، والجو خانق ، وتصببنا جميعاً عرقا ، حتى أننى تغاضيت عن جنودى وهم يتحررون قليلا من ملابسهم . رأينا القردة ، والطيور ، والزواحف ، وسمعنا أصوات الوحوش تتحدى من بعد ، وترسل الرعب فى قلوب أكثر الناس شجاعة . شاهدنا تنوعا هائلا من الأشجار ، والنباتات . سرنا دقائق خلناها ساعات ، وساعات حسبناها أياما .

قبل أن يعتلى رع (شمس الظهر) كبد السماء (نوت) ، إستوقفنا الدليل قال إن المرعى الذى يقصده ، يبعد عنا مسيرة دقائق ، وأنه يستحسن بنا أن نأتيه من حيث لا تأتى الرياح . وحذرنا أن نخفض أصواتنا قدر جهدنا ، وأن نكون مستعدين لأى طارىء . قال إن بعض الوحوش يتسلق فروع الأشجار القريبة من الأرض ، ويقبع منتظراً فريسته ، وأن علينا أن نتطلع دائما حولنا .

دار بنا الدليل دورة صغيرة ، ثم عاد إلى التقدم نحو الغرب. أمر الحمالين أن يسكنوا حيث هم ، وأشار إلى جماعتنا بالتقدم . بعد أمتار قليلة انتهت الأشجار الكثيفة فجأة ، وامتد بساط أخضر من الأعشاب. على مسافة تزيد

على خمس حتات (الحت ١٠٠ ذراع) شاهدنا قطيع الجاموس الوحشى . كان يرعى فى هدوء وقد تفرق أفراده يغطون مساحة كبيرة ، ولاشك فى أنه كان يضم مجموعة ضخمة من الحيوانات تعد بالمئات .

أخطرنا الدليل أن علينا أن نتقدم بحذر شديد ، وأن نراقب الوحوش التى تتسلل خفية بين الحشائش الطويلة حتى تقترب من الحيوانات اللاهية . قال إن الجاموس الوحشى قوى جداً ، وأنه شديد الخطورة إذا أثير ، أما إذا فزع القطيع فلا شىء يقف فى طريقه ، حتى الأسود تفر أمامه إذ ينطلق دون أن يبالى . تقدمنا متلصصين حتى صرنا على مسافة لاتزيد على عشرين نيبو (النيبو ذراع وربع) من أقرب الحيوانات . هنا استوقفنا الدليل . تطلعت إلى الحيوان القريب ، وكان يرعى فى هدوء دون أن يبدو عليه أنه رآنا. عجبت لضخامة جثته ، والقوة الهائلة البادية فى كل جزء من أجزاء جسمه . استعد كل منا بحربة طويلة ، واستعد أونى بسهامه . فجأة رفع الوحش رأسه عن الكلأ ، ونظر إلينا متفرسا وأعطى الدليل الإشارة .

انطلق سهم أونى ليصيب الحيوان فى رقبته ، وانطلقت وراءه ثلاثة سهام أخريات لتصيب ثلاثة حيونات .

الآن كان كل القطيع قد تنبه . رفعت الحيوانات جميعا رؤوسها برهة ثم تحركت بخفة غريبة لتبتعد عنا قليلا . خر الحيوان الأول على إحدى ركبتيه الأماميتين وبدا أنه يقاوم الموت . انضم آخر إلى القطيع ، ويلوح أن إصابته لم تكن شيئا يذكر . ثالث لاحقته سهام أونى حتى كبا فى عدوه .

إلتفت الحيوانان الجريحان الآخران نحونا . بدلا من أن يجريا خلف القطيع أناخا رأسيهما واندفعا نحونا . لم أشعر بضخامة الحيوانات حتى رأيت الحيوانين يندفعان . كان جسماهما من الضخامة بحيث تصورتهما حائطين ضخمين . شعرت بالأرض تتزلزل تحت قدمى ، والموت الأسود يهجم على .

انطلق الدليل يعدو بعيداً ، واستمر أونى فى إلقاء سهامه لكن شيئا لم يكن ليوقف الاندفاع المرعب .

تقدم أحد الجنود بشجاعة ليغرس رمحه فى جسد أحد الثورين ، وفى اللحظة التالية رأيته يطير فى الهواء كأنما قذفه مارد جبار ، واستمر الثور فى اندفاعه رغما عن الرمح الذى أصابه فى كتفه . فى أقل من ثانية كان قد قطع المسافة بينه وبينى ، وتخليت عن مكانى حتى يمرق من جانبى. بأقصى ما أستطيع من قوة دفعت الرمح فى صدره . ولم يتوقف الحيوان . رمح ثالث من جندى آخر ، وطار الرجل إلى يسار الوحش . لعل أحد القرون مسته ، أو لعل كتف الحيوان احتك به فقذفه بعيداً .

انطلق الحيوان فى عدوه فترة قصيرة ثم خر صريعاً .

إلتفت لأرى أن الوحش الآخر كان واقفاً يحوطه باقى الجنود . كان نجم آب قد أمسكه من قرنيه ، بينما تكالبت عليه الرجال يطعنون بالسيوف . ثلاثة رماح برزت من أجزاء مختلفة من جسمه ، ومع هذا فإنه كان يطوح نجم آب برأسه وكأنه ألعوبة لا ثقل له ، ولولا شدة تمسك الرجل بالقرون لطار فى الهواء . حاول الحيوان أن يعدو بعيداً ، ولعله رأى عقم المقاومة لحمل نجم آب مسافة ثم خر على الأرض .

عدوت ناحية الجندى الذى قذف به الوحش . رأيته ملقى بين الحشائش وسط بركة من الدماء وقد بقرت بطنه . لم يكن هنالك مجال لإسعافه ، كان قد مات . اتجهت نحو الآخر إلا أنى رأيت زملاءه يعاونونه على النهوض . لم تكن جراحة خطيرة فأمرت اثنين أن يعاوناه حتى السفينة حيث يعالجه أحد أطبائنا .

نادى حكو على الدليل ، والحمالين الذين حضروا ومعهم أفرع طويلة قوية من فروع الأشجار . حمل ثمانية منهم أول الثيران ، وبعد دقائق اختفوا به بين الأشجار فى طريق عودتهم . فعل آخرون مثلما فعل سابقوهم .

ووقفت ، مع نجم آب ، نرقب القطيع وهو يرعى بعيداً عنا فى هدوء ، وكأنما لا يعينه من أمرنا شيئاً . تم تحميل الحيوان الثالث دون حادث ، واختفى الرجال بين الأشجار . حمل الرجال الحيوان الرابع ، وعاونهم الجنديان الباقيان ، بينما وقفت مع نجم آب ، وأونى ، وحكو ، والدليل لنقوم بدفن الجندى المقتول .

كاد الحفر أن ينتهى حينما أحسست بأن شيئاً غريباً قد حدث ، وإن كنت لم أدركه . أحس به الدليل كذلك إذ توقف عن الحفر ، ثم رفع رأسه فوق الحشائش . بان الذعر فى عينيه ، وتكلم بسرعة مشيراً إلى ناحية القطيع ، ثم تركنا وفر هارباً نحو الأشجار . قال لنا حكو إنه يقول إن السباع فى المنطقة ، وانها سوف تهاجم القطيع ، وأن علينا أن نعدو إلى الأشجار . أخيراً أدركت سبب إحساسى . كان الصمت مطبقاً تماماً على الغابة . رأيت القطيع جميعه قد رفع رؤوسه عن الكلأ ووقف متصلبا .

أمرت نجم آب ، وأونى ، وحكو ، أن يضعوا جثة الجندى فى الحفرة وأن يهربوا إلى حمى الأشجار . وضعوا الجثة ثم استدار أونى ، وحكو وأخذا يعدوان فى حين تردد نجم آب ، ثم وقف يساعدنى فى إتمام الدفن . لم نكد نبدأ بأن نهيل التراب حتى فتحت جهنم أبوابها .

فجأة بدأ القطيع يعدو نحونا كأن كل شيء ما قد أرعبه . شيء فى الناحية الأخرى من الأحراش . فى ثوان معدودات كانت الأرض تهتز تحت أقدامنا . مئات من الحوافر ، تحمل مئات الأطنان من اللحم ، والعظام ، تضرب الأرض بعنف . كانت المسافة بيننا وبينه تزيد على أربعة دجات (٤٠٠ ذراع) والمسافة بيننا وبين الأشجار حيث الأمان أقل من النصف . صرخت أحذر نجم آب أن علينا أن نهرب ، وضاع صوتى وسط صخب وقع الحوافر ، وأشرت إليه .

بدأت الجرى متلكئاً عن عمد ، ، وجرى أمامى نجم بجسده الضخم كان

يبذل مجهودا كبيرا كمن نامت قدماه بحملهما . نظرت خلفى ، وانتابنى فزع حقيق . رأيت سداً أسود يندفع نحوى بسرعة مذهلة وقد ثار التراب وراؤه . تناقصت المسافة بيننا إلى النصف فى حين لم نكن ، نجم آب وأنا ، قد قطعنا ربع المسافة إلى الأشجار . فى خطوة كنت قد لحقت برفيقى وأشرت إليه أن ينظر خلفه عسى أن يحثه ذلك على بذل مجهود أكبر فى العدو. حينما نظر انتابه الفزع هو الآخر وضاعف من سرعته . لم يكد يجرى بضعة خطوات حتى وقعت الواقعة . كنا نجرى حذاء بعضنا . عندما إلتوت ساقه ، ووقع على الأرض .

لم يكن هنالك وقت أضيعه فى السؤال . انحنيت ، ورغما عن مقاومته ، رفعت جسمه الضخم ، وطرحته على كتفى،وعدت إلى الجرى بأقصى ما أستطيع من سرعة . لم تمض ثوان إلا وأحسست بالثقل الرهيب يكاد أن يفصم سلسلتى الفقرية . ترددت أنفاسى عسيرة لاأستطيع إلتقاطها ، وتناهت إلى أذنى دقات تعلو حتى على أصوات الحوافر ، دقات قلبى . أضحى كل جزء فى جسمى يؤلمنى ، وأنذرتنى ركبتاى أنهما سوف تتخليان عن الحملين معا ، ومع هذا لست أدرى أية قوة تلك التى دفعتنى إلى الإستمرار فى الجرى .

تزايد إرتفاع أصوات الحوافر مع مرور كل ثانية . أعنى كل برهـه ، وبدأت الأتربة تملأ الجو لتزيد من ضيق تنفسى . نظرت إلى الأشجار بعينين زائغتين لا تكادان أن تبصرا ، وتراقصت الأشباح عن بعد ولم أجرؤ على الالتفاف خلفى ، لم يكن هنالك وقت أضيعه للمعرفة . إذا متنا فسوف تكون على الأقل ميتة مفاجئة ، وإن تكن مرعبة . هل كنت مازلت أجرى ؟ لاأستطيع الإجابة على هذا السؤال بصفة قاطعة . ربما كنت أسير الهوينا ، والآلام تصور لى أننى أعدو .

خيل إلى أن أونى قابع على الأرض يلقى سهامه تباعا على الحيوانات المندفعة، إلا أنه ، إن كان قد فعل ، فما هى سوى وخزات إبر بالنسبة لهذه الوحوش.

ـت أنني لم أعد أحتمل هذه الآلام المتزايدة سوى ثوان معدودات ، وأن
على أن أترك نفسي بعدها فريسة للحوافر القاتلة . توهمت رؤوس الحيوانات
تدفعني من الخلف ، وأحسست بأنفاسها الحارة تلهب ظهري . وضاعفت
مجهودي . وكان هذا آخر ما استطعت أن أفعل فقد استنفذت حتى فائض
الحيوية المدخر . غشيتني سحابة سوداء ، وتهاويت بحملي على الأرض .
ولم أعد أشعر بشيء .

طالعني وجه نجم آب الدميم ، وقد ازدادت دمامته بتلوثه بالعرق المختلط
بالتراب . وأغمضت عيني ثانية . لابد أنني قد انتقلت إلى الغرب (كناية
عن الموت) . مالبث أن جاءني صوت أوني .

ـ حمداً لرب الأرباب !!

إذاً فأنا لم أمت . أكدت لى الآلام التى شعرت بها فى ساق ، وكتفى ،
وصدرى أننى مازلت حيا . فتحت عينى ثانيـة ، ورأيت وجوه المصريين
الثلاثة والدليل .

ـ ماذا حدث ؟

رد على حكو :

ـ حينما وصل القطيع إليك كنت قد وصلت إلى حمى الأشجار ، لكن
الذى أنقذك أيضاً أن القطيع انحرف منطلقاً فى اتجاه آخر لسبب لا ندريه .
ربما كانت سهام أونى ، أو مجرد نزوة قائد القطيع يريد أن ينطلق فى عدوه
دون أن تعيقه الأشجار .

سألنى نجم آب :

ـ هل تستطيع النهوض ؟

لم أجبه . تحاملت على نفسى وقت . للحظات دارت بى الأرض . وشعرت
بخور شديد فى ساقى كأنما قد حملتا أكثر مما تطيقان لمدة أطول مما تتحملان ،
وهما الآن ترفضان حتى مجرد حملها العادي . لاحظ نجم ضعفى فتقدم ليساعدنى
ترفضت ، وبدأنا رحلة العودة .

كان المساء قد حل حينما وصلنا القرية . أمرت ساحورع أن يتولى العناية بالذبائح ، وأتانى نجم آب يطلب الإذن فى الذهاب إلى سفينته .

ـ لحظة . ما الذى جعلك تسقط متهاويا على الأرض ونحن نعدو ؟

ـ لقد التوى كاحلى

ـ كلا لم يكن كاحلك ... إنك أعرج أليس كذلك ؟

أطرق برأسه إلى الأرض . لقد علم أننى فهمت أنه هو الذى كان قد حاول قتلى فى طريق الآلهة .

ـ إن ركبتى اليمنى فيها مياه ، منذ أن أصبت فيها فى أحد المعارك .

ـ من الذى حرضك ؟ لقد أراد قتلى وقتلك فى الوقت نفسه .

ثبت نظره على . أيا كانت أخطاء نجم آب فليس منها النميمة ، وليس منها الجبن . بصوت لا اختلال فيه سأل :

ـ هل أذهب إلى سفينتى ؟

لعله توقع أن أعفيه من منصبه ، أو أن أحاكمه على محاولة قتلى ، ومع هذا ... !

ـ أجل لك أن تذهب .

الفصل الثامن

متاعب الفتيات

ان (الشمس) دائماً إلى اليمين ، والجو دائماً حار ، رطب مع أننا فى شهور برت (الشتاء). منذ يومين لم تكد الأمطار تنقطع . أحاجى ، وألغاز غير مفهومة . من حسن حظنا أنه يبدو أن البحارة ، والجنود قد اعتادوا على هذا الوضع ، وأنه لم يحدث شىء يمكن تأويله على أنه غضب من رب الارباب.

تغيرت حياتى فى هذين اليومين ، وإن كنت لم أشعر بأثر هذا التغير إلا فيما بعد . لم يسمح الجو أن أتريض كثيراً على ظهر السفينة ، ولم يكن أمامى ما أفعله حقيقة إلا المرور للتفتيش على البحارة ، والرجال ، وتلقى تقارير مراقب الصارى ، ومحاولة رؤية الشواطىء من حين إلى آخر ، ورسم بعض الخرائط لها ، وما صادفناه من تيارات ، وكتابة ملاحظات عما رأيت .

انتهزت فرصة هـــذا الفراغ لأتعلم بعضاً من لغة البانتو ، ولألقن مرت سجر آداب الجلوس ، والسير ، واللغة الديموطيقية . كانت سريعة الالتقاط ، والحفظ لدرجة أذهلتنى ، فكان يكفى أن أذكر الكلمة حتى تعيها. فى نهاية اليومين كان التفاهم بيننا أيسر ، وأسرع ، وإن كان من البدهى أننا كنا لازلنا نستعمل الإشارات إلى جانب اللغتين . بدت كالطفلة فى سرعة إظهار أحاسيسها ، خاصة السرور عند التقريظ .

بدأ صباح اليوم الثالث ، ولاحظت أننا بدأنا نتجه غرباً مرة ثانية مع الشاطىء . لم أتعجل الاستنتاج هذه المرة ، فإن صح ما سمعت من الأعراب فإنه كان لا يزال أمامنا تسعة أيام من الإبحار جنوباً قبل أن نصل إلى هـذه

المدينة التى هى آخر ما وصلوا اليه ، والتى يطلقون عليها رهاباتا ، وبذلك لا يعنى اتجاهنا غربا سوى مجرد أننا دخلنا فى خليج .

تأكد لى هذا الظن فى منتصف النهار حينما تغير اتجاه السفن إلى الجنوب ثانية ، ثم ما لبث قبل الغروب أن اعتدل شرقاً مع الصباح كنا داخل خليج ثالث ، واقترح على منتو سين أن نلق المراسى ، ليوم أو يومين حتى يستريح الرجال ، ونجرى تفتيشاً على حالة السفن الأربعة ، ولم أر ما يمنع من ذلك خاصة وأنى أردت أن أعلم مدى تغير طبيعة الأرض ، والنباتات والأشجار ، كما اعتزمت إعادة تموين السفن ببعض الفواكه الطازجة ، واللحوم السلاحف إن أمكن (كانت السلاحف تستعمل للأكل) .

ألقينا المراسى ومددنا السقالات . كانت البقعة من أجمل المناطق التى رأيتها : بحر ساكن لازوردى ، ورمال ناصعة البياض تمتد على طول الشاطىء وإلى مسافة «حت» ونصف تقريبا (١٥٠ ذراعا) تناثرت عليه أشجار النخيل تتمايل مع نسمات الهواء ، ووراء هذا كانت الغابة ، بخضرتها القاتمة ، وأشجارها الباسقة . إلى الجنوب قليلا ارتفعت الأرض حاملة أشجارها ونبا انها منحدرة من جبل أشم يبدو متطاولا على بعد فى الداخل .

لست أظن أنى رأيت طيوراً أزهى ألواناً من طيور هذه المنطقة ، ولا أعذب تغريداً ، أو أجمل ألحاناً . لم أشك ، حتى قبل أن نقتحم الغابة ، أنها مليئة بالثمار البرية الطازجة ، استنتجت هذا من كثرة عدد القردة ، والنسانيس التى قابلتنا بصياحها المعتاد ، وفضولها الغريزى . كانت الغابة بكراً ليس فيها ما يدل على أن إنسانا قد قطنها ، أو حتى مر بها . ومع ذلك فإنى لم أكن أشعر باطمئنان . داخلنى إحساس غريب بأن هنالك من يترصد خطواتنا ، ويتربص بنا .

على بعد يسير داخل الغابة بدأنا نشعر بأن الأرض آخذة فى الارتفاع ، ولم تمض فترة طويلة بعدئذ إلا وأيقنا أننا عند سفح الجبل . واصلنا التقدم

نقتطع النباتات ونهيء لأنفسنا دربا . مضت حوالى نصف الساعة منذ أن بدأنا رحلتنا داخل الغابة ، وبدأت أفكر فى العودة حينما تناهى إلى سمعى صوت خرير مياه . اتجهنا نحو الصوت لنرى منظراً رائعاً لجدول ينساب من الجبل ليكون عند سفحه بركة صغيرة ذات شواطىء صخرية مرتفعة .

بدت المياه صافية ، رقراقة ، حتى القاع العميق كاد أن يبين . ووددت لو خلعت ثيابى لآخذ حماما إلا أن الوقت قد تأخر بنا فأصدرت أوامرى بالعودة . كانت الشمس تميل نحو الغروب حينما وصلنا إلى الشاطىء ، وألقيت أوامرى عن أعمال الغد ثم انصرف كل منا إلى سفينته .

استقبلتنى مرت سجر ، وطرحت على عشرات الأسئلة عن المكان ، وإنى واثق أنه لولا عائق اللغة لتحولت العشرات إلى مئات . حينما عرفت أن هناك بركة مياه صافية صفقت بيديها ، وطلبت منى أن تذهب إليها حتى تستحم مقررة أنها سباحة ماهرة وأنها تود أن تنعش جسدها بالمياه العذبة ، ولم أر مندوحة من إجابتها إلى طلبها .

مع تباشير الصباح كان الشاطىء شعلة من نشاط . أقام الجنود وبعض البحارة مستعمرة صغيرة من الخيام ، وانتشرت جماعات منهم داخل الغابة تبحث عن الثمار الطازجة التى يمكن أن نجمعها ، فى حين قاد أونى فريقاً من رماة السهام ، وذهبوا بحثاً عن صيد . ما أن اعتلى رع ، شمس الظهيرة ، حتى كان بعض الرجال عائدين بأحمال من الثمار يضعونها عند الشاطىء ، وتولى فريق آخر شحنها على السفن .

عاد أونى وجماعته يحملون ثلاث غزالات ، وقرر أنه كان يستطيع أن يصيد أكثر إلا أن الرجال لم يكونوا يستطيعون حمل ما يصاد ، لهذا اكتفى مؤقتا على أن يعيد الكرة ومعه عدد أكبر من الحمالين . أمرت بتوزيع اللحم الطازج على الرجال جميعا ، إلا أن ايوف عنخ قال إنه سوف يصطحب معه بعض جنوده ، ويذهب للصيد . لم أر مانعاً من ذلك ، ودله أونى على الاتجاه ، وما لبث أن غاب ورجاله بين الأشجار .

بعد القيلولة جاءتنى مرت سجر مطالبة بأن أبر بوعدى ، وأصطحبها إلى الغدير ، والبركة . كان الجو صحوا يميل إلى الحرارة ولم أر بدآ أن أقوم معها . سرنا فى الغابة حتى وصلنا ، وما أن رأت المياه الصافية حتى هتفت فرحا ، ولم تنتظر بل اندفعت وهى تنضو عنها ثيابها .

إنتحيت بعيداً حتى لا أراها ، لكننى لم أجرؤ أن أتركها بمفردها فى هذه المنطقة المتوحشه . أمضيت وقتى أبحث بين النباتات عما قد يصلح للحساء ، أو الأكل . كانت تصلنى أصوات الفتاة وهى تعبث فى المياه ، وتترنم بأغنية لطيفة . مضت حوالى ساعة ، وبدأت الشمس تميل نحو الغروب ومع هذا لم يكن يبدو على مرت سجر أنها تريد أن تترك البركة . بدأ الملل ينتابنى ، وكنت على وشك أن أنادى عليها حينما وصلتنى صرختها المرتعبة .

فى ثوان كنت قد تركت ما فى يدى واندفعت تجاهها . ما أن تخطيت الأشجار حتى رأيتها تتصارع بوحشية مع ثلاثة من الأعراب . رأونى فى اللحظة التى رأيتهم فيها . ظل أحدهم قابضا على الفتاة ، وتقدم اثنان للقائى . لم يكن عربيان ، ولا حتى ثلاثة أكفاء لمقابلة أحد ضباط بحرية الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة . ظهر ذلك جليا فى اللحظة الأولى التى بدأ فيها الالتحام .

تحرك سيفى بسرعة يلاقى هجوم العربيين . لست أحسبهما تصورا أن سيفا واحداً فقط يمكن أن يلاقيهما بمثل هذه السهوله . كانا قرصانين مهنتهما القتال ، ولم يكونا خصمين هينين ، ومع هذا فسرعان ما طوح حسامى بسيف أحدهما ، واستدرت للآخر . جرى العربى ليلتقط السيف ، وسمعت صوته يصرخ مستنجداً . إذاً فهناك آخرون ، وعلى أن أنهى القتال قبل أن يصلوا .

هاجمت بشدة وعنف . ولم تمض ثوان حتى كنت قد تخلصت من عربى . استدرت لأواجه الرجل الآخر الذى كان يهرع نحوى مطوحا بسيفه ، ولاحظت أيضاً أن الأعرابى الذى كان يقبض على الفتاة قد تركها ، واندفع مستلا سيفه .

لم يكن وجهه غريبا وسرعان ماتبينته . كان ينعم بن زرعه . صرخت فى الفتاة أن تهرب ، ورأيتها تتردد لحظات ، فكررت النداء ثانية ، ولمحتها من طرف عينى وهى تجرى صوب الغابة قبل أن يأخذ القتال الدائر ، كل إهتمامى .

تقدما نحوى بحذر، متفرقين ، كل من ناحية وقفت مكانى مرخياً ذراعى وأنا أرقبهما مدخرا جهدى وحيويتى استمر تقدمهما الحذر حتى أضحيا على مسافة ثلاث نبيوات تقريباً (النبيو ذراع وربع) ، ثم بإشارة ، هجم الإثنان معا : كنت أعلم أن ينعم هو أخطر الاثنين لهذا قفزت جانبا بعيدا عن حسام الآخر وواجهته . انضم إليه زميله بسرعة لكنهما كان قريبين من بعضهما فلم أضطر إلى توزيع اهتمامى .

توالت ضربات ينعم بشدة ساعدته عليها قوته البدنية الهائلة . تراجعت أمام عنف الهجوم ، ولم أحاول أن أفعل شيئاً سوى مجرد الدفاع . كانت ضربات سيف الأعرابى الآخر لاتزيد على مجرد عبث أطفال إلى جانب ضربات ينعم ، لهذا لم أعره التفاتا كبيرا ... أو هذا ما ظن . فى الواقع أنى طوال الوقت الذى كنت أدفع عن نفسى فيه هجوم ينعم ، كنت أرقب فرصة تسنح لى لأقضى على زميله ووقع فى الفخ .

ظن أنى لا أوليه اهتماما ، وأن كل تفكيرى مركز على رئيسه فأهمل تغطية نفسه ، وهجم يريد القضاء على . بسرعة حولت سيف ينعم بعيدا عنى ، وقبل أن يرجعه إلى موضعه كنت قفزت جانباً متفاديا طعنة الأعرابى ودافعا بنصل حسامى فى صدره .

توقف مكانه فجأة ، ونظر إلى ببلاهة من لايصدق ، وتراخت يده بالسيف ليسقط منه ، ثم كأنما نامت ساقاه بحمله ، تهاوى حيث هو . لم يعطنى ينعم فرصة . رأيت سيفه يندفع نحو صدرى فى ضربة قاتلة مصوبة نحو القلب . على قدر سرعته ، كنت أسرع . لم أحاول أن أتحرك بكل جسمى ، حركت

صدرى فقط ، ومرق النصل يلامسنى ، حتى أنه مزق من سترتى ، لكنه لم يصبنى بأذى ،

وراءه اندفع ينعم وقد فقد توازنه ، لم أكن قد اعتدلت تماما أنا الآخر ، وبذلك لم أستطع أن أطعنه ، وإن كنت ساعدته فى اندفاعه بضربة قوية من قبضتى الخالية ، استعدت ثبات وقفتى فى اللحظة الثانية ، واعتدلت لأوجه إليه ضربتى القاتلة ، هنا سمعت صرخة الفتاة ، جمدت فى مكانى لحظة ثم التفت ناحيتها ، وسقط قلبى بين ضلوعى .

يبدو أن الفتاة لم تشأ أن تتركنى ، ووقفت عن بعد ترقب القتال ، أيا كان سبب تلكؤها فإننى رأيتها تقاتل أعرابيين يقبضان عليها فى حين اندفعت مجموعة أخرى ، لا أحسبها تقل عن ثمانية ، تعدو فى اتجاهنا ، أيقنت أننى فقدت كل شىء ، ليس حياتى فحسب ، بل وشرفى إذ لم أستطع أن أحفظ للفرعون أمته .

بهدوء استدرت أناور ينعم حتى لا يكون خلفى حينما يصل زملاؤه ، وثقت إنى سوف أنتقل إلى الغرب (كناية عن الموت) فى الدقائق القليلة القادمة ، فلم يكن فى استطاعة فرد ، مهما بلغت مهارته ، أن ينتصر فى مثل هذا القتال غير المتكافىء ، لكننى كنت واثقا أننى لن أذهب إلا ومعى نصفهم على الأقل . ما أحزننى حقا هو أن الفتاة قد وقعت فى قبضتهم .

كأنما لم يشأ رب الأرباب أن أموت مكللا بالخزى والعار . كنت أقاتل ينعم ، وأرقب من طرف عينى مايحدث وراءه . كان الأعراب يتقدمون بسرعة ، وكانت الفتاة ما زالت تقاوم آسريها الذين كانوا يحاولون إرغامها على الاتجاه ناحية البحر إلى الجنوب . رأيت شيئاً آخر : من بين أشجار الغابة ظهر هرقلان أسودان ، اندفعا ناحية الفتاة وآسريها ، ولم أستطع بعد هذا أن أتابع ماحدث إذ كان الأعراب قد وصلوا وبدأت معركتى معهم ...

كنت قد عقدت النية على أن أقاتل لأقتل أكبر عدد وأموت بسرعة ،

إلا أن ظهور الزنجيين ، وكنت فى قرارة نفسى واثقا أنهما سمسو وعنخو عبدا كا ، غير من خطتى ، وأضحى على أن أقاتل لأطول مدة ممكنة لأشغل الأعداء عن مطاردة الفتاة ومنقذيها . بضربة قوية أطحت السيف من يد ينعسم ، وانتهزت فرصة تقهقره إلى الخلف بعيدا عن حسامى ، واصطدامه ببعض زملائه لأترك الساحة ، وأعدو بعيدا عن القراصنة ، وبعيداً عن الفتاة .

تصايحوا وهم يجرورن خلفى . لم أتوقف ، ودارت عيناى تدرسان طبيعة الأرض الصخرية ، كنت أبغى منطقة أستطيع أن أحمى فيها ظهرى من هجوم غادر حتى أقف أطول مدة فى موقف المدافع . التقطت عيناى تفاصيل المكان . درسوا لنا فى صغرنا أن الأرض تسهم فى الدفاع عنك ، إذا استطعت استغلالها ، ولعلى لم أكن أحوج إلى تطبيق هذا المبدأ من الآن .

رأيتها: صخرة عالية على ضفة البركة الصخرية ، كانت أعلى من أن يتسلقها الشخص العادى ، حتى إن فعل ، فإنه لن يكون ذا فاعلية فى القتال ..كان فيها الحماية الكافية لظهرى ، على أن جانبها كان الشاطىء الصخرى للبركة ، يعلو عن سطحها بأكثر من قامة رجل ، ولن يتمكن أحد أن يهاجمنى من جهتها . وبقيت نصف دائرة أعتقد أننى أستطيع أن أغطيها لفترة طويلة ، على الأقل حتى تكل ذراعاى .

عندها توقفت أواجه أعدائى . وصل اثنان يبدو أنهما كانا الأسرع عدوا . وإن لم يكونا الأغزر حكمة ، أو الأرجح عقلا ، ظنا أننى غنيمة سهلة ، ذلك الجبان الذى يفر أمام أعدائه ، أو ربما أرادا أن يسبقا زملاءهما ، وينالا شرف قتلى . لم يحسنا تغطية نفسيهما ، وهجما يطعنان كأنما أمامهما تمثال لا يرد الإيذاء عن نفسه . حركتين سريعتين ، ربما لم يرياهما ، كان سيف أحدهما قد طار فى الهواء ، واخترق النصل كتف الآخر ليخرجه تماما من القتال . لم تمض لحظة بعد هذا إلا وكان القراصنة يحيطون بي ويتدافعون لقتلى .

كان من اليسير على أن أصمد فى الثوانى الأولى . كان فى كثرتهم ، وتدافعهم سبب كاف لإعاقتهم . تحرك سيفى بسرعة فى كل اتجاه ، يصد الهجوم ، لكننى لا أحسب أن أكثر من دقيقة مضت قبل أن عرفت أننى لن يمكننى أن أستمر على هذا المنوال ما يزيد على دقائق معدودة . بدأت فعلا أشعر بكلال فى ذراعى ، ولاحت لى السيوف تلمع فى ضوء الشمس الغاربة كأنما هى أضعاف عددها ، وشعرت بالعرق البارد يتصبب من كل أجزاء جسمى .

تملكتنى رغبة غريبة أن أنهى القتال بأن أترك مكمنى ، وأكر عليهم عسى أن أقتل فوراً . بدأت أنفذ خطتى عندما سمعت صيحة حرب هائلة تأتى من وراء الأعراب تلتها صيحات خوف . وفى لحظات كان الأعراب يفرون دون وعى أو نظام ، وظهر أمامى مارد أسود يحمل سيفاً يقطر دما ... سمسو .

عاودنى الأمل ، وانتهزت فرصة ابتعاد الأعراب لأسأله :

— أين مرت سجر ؟

— إنها فى أمان . لقد رافقها عنخو إلى المخيمات حتى لا تصادف خطراً آخر . اهرب ياسيدى القائد وسوف أغطى فرارك . اهرب قبل أن يتبينوا أننى مجرد فرد .

ابتسمت للعبد المخلص ، متى فر قائد من تامرى ، وترك أحد جنوده فى الميدان ؟ فهم سمسو ما أرمى اليه بابتسامتى فلم يزد على أن قال :

— إذاً فسوف نموت سويا .

كنا نتكلم ، ونحن نراقب القراصنة . لم يبتعدوا كثيراً حينما تبينوا أن النجدة التى وافتنى لم تزد على فرد واحد ، تجمعوا على بعد نصف نيو (٥٠ ذراعا) ووقفوا يتشاورون . كانوا يعلمون أننا لن نستطيع ترك مكاننا الحصين ، وأننا لو فعلنا فسنكون غنيمة سهلة لهم ، كان عددهم قد تناقص إلى ست ،

إذ قتل سمسو أحدهم ، وأخرجت الآخر من القتال . وبدأت أفكر أن نبادر بالهجوم .

— سمسو هل تحسن السباحة ؟ إننا نستطيع أن نقفز إلى البركة ونحاول السباحة إلى الشاطىء الآخر ونختفى حتى يحل الظلام ، أو تأتينا النجدة من جنودنا .

— أجل يا سيدى القائد .

— إذاً هيا بنا .

كان بيننا وبين المياه ما لا يزيد على عشر خطوات ، إلا أن الأرض كانت نتوءا بارزاً يرتفع ، ولا يسهل ارتقاؤه . قدت السير وانزلقت قدمى وكنت أكاد أن أقع لولا أن يد العبد القوية سندتنى . سمعت صيحات الأعراب ، وفى اللحظة التالية سقط سهم على قيد خطوة منى .

هنا فعل سمسو شيئاً لست أظن أنى سوف أنساه ما حييت . فجأة أحسست بذراعين من حديد تطوقانى من الخلف ، وتلصقان ذراعى إلى جسدى تشلان حركتى تماما . ضمنى العبد بقوة إلى صدره ثم رفعنى من الأرض ، وابتدأ ببطء شديد يعتلى النتوء . فهمت مقصده . علم أننا لن نتمكن من اجتياز الخطوات العشر نحو البحيرة قبل أن تصيبنا السهام ، فأراد أن يجعل من جسده ستراً لى .

حاولت أن أتخلص ، لكن العبد الأمين كان قد شل حركتى ، كما أن قوته لا شك كانت تفوق قوتى كثيرا . رغما عن مقاومتى كان يحملنى ، ويسير بى كأنى طفل . فجأة سمعت صوتا مكتوماً ، واهتز جسده الضخم ، وعلمت أن سهما أصابه فى ظهره . توقف لحظة ، وتلقى سهما آخر . لم يتوقف بعد هذ . لست أدرى كم سهما اخترق ظهره فى الثوانى التى أخذت لقطع المسافة الباقية ، إلا أنه لم يبال . ببطء شديد ، لكن بثقة أشد تحركت ساقاه فوق الصخور . لابد أن جسمه وهو يصعد المرتفع بدا هدفا رائعا للقراصنة لأنى كنت أسمع فى كل لحظة تقريبا الصوت المكتوم لارتطام السهم بجسد رفيق .

لابد أن هذه الحوادث جميعها لم تستغرق أكثر من دقيقة ، أو اثنتين ، لكنني خلتها دهورا . وصلت إلى أذني صيحات الأعراب ، ثم لاحظت أن السهام قد توقفت . لعلهم ذهلوا وهم يرون الزنجي يحملني كطفل ، ويتلق السهام تمزق ظهره ، ومع هذا يستمر في تقدمه غير عابيء . وصلنا إلى حافة البركة ، ورأيت المياه تحتي تماما على بعد يزيد قليلا عن قامة الرجل . هنا فقط تراخت ذراعا سمسو . لم أقفز إلى المياه إنما استدرت لأنظر إليه . كان وجهه جامدآ لا أثر فيه لألم . لم يبد عليه أي تعبير إلا أن الجفنين انسدلا قليلا على العينين . كان شبح الموت يطل منهما . اغرورقت عيناي بالدموع ولم أستطع سوى أن أهمس .

— سمسو ... ؟ !

— اقفز يا سمسو ، وسأساعدك على السباحة .

ارتسمت ابتسامة باهتة على الشفتين الغليظتين ولم يزد على أن دفعني إلى المياه دفعة قوية ربما كانت آخر ما تبقى لديه من حياة .

* * *

استقبلتني المياه باردة ترطب جسدي الحار . تركت نفسي أغوص إلى الأعماق غير محاول الصعود إلى سطح البركة ، ودهشت حينما استمر هبوطي فترة طويلة . كان قاع البركة أعمق كثيرآ مما قدرت . خفت أن أختنق فلا أتمكن من الصعود ثانية إلى الهواء . فسبحت بعيدا متجها إلى الشاطئ الآخر . أحسست بحاجتي الشديدة للتنفس ، ومع هذا فإنني كنت أعلم أنه كلما ابتعدت كانت فرصتي في النجاة من سهام القراصنة أكبر .

قاربت الدقيقة تحت سطح الماء ، وكان علي إما أن أصعد لأتنفس ، أو أبقى وأختنق . صرخت رئتاي تطلبان الهواء ، وتسارعت دقات قلبي ، وكاد رأسي أن ينفجر ، وما زال الماء يعلوني . لم أعد أفكر في خطر القراصنة ، وسهامهم ، بل لعلني لم أكن أفكر حتى في الحياة . انحصر تفكيري في الهواء

النقى يخفف عنى تلك الآلام التى أعانيها فى رأسى وصدرى . لم أعد أشعر بباقى أعضاء جسمى ، لا بيدى اللتين تضربان بعنف فى المياه حولى ، ولا بقدمى تحاولان جاهدتين رفعى إلى أعلى . كانت تلك حركات آلية لا إحساس لى بها . صدرى ، وقلبى ، ورأسى أصبحت فقط هى كل أعضاء جسمى .

حينما بدأت تغشانى سحابة سوداء ، وحينما أخذت أضرب فى المياه بجنون دون هدف حقيقى ، ارتفع رأسى عن سطح البحيرة ، وفتحت فمى أستنشق الهواء النقى لاهثا ، مضت ثوان لم أفكر فيها إلا فى التنفس ، وفى مزيد من الهواء . لم ترجع إلى ذاكرتى حوادث الدقائق السابقة على سقوطى فى البركة إلا حينما مرق شىء على بعد دجات قلائل (الدجت عرض الأصبع)

عندئذ فقط تنبهت إلى السهام المتتالية التى تتساقط حولى . عندئذ فقط عادت إلى الذاكرة كاملة ، وعندئذ فقط سمعت أصوات القراصنة يتصايحون. أخذت نفساً عميقاً دون أن أعير السهام اهتماما حقيقيا ، ثم غطست فى المياه: لم أجرؤ فى هذه المرة أن أنزل إلى عمق كبير . أمتار قلائل ابتدأت بعدها أسبح مبتعداً ، ومرقت سهام حولى ، بل إن أحدها لمسنى ، لكنه كان قد فقد قوته إثر إصطدامه بالماء ولا أحسبه حتى خدشنى .

بعيداً سبحت ، وابتدأ يقل تساقط السهام حولى . فى دقائق أخرى كنت قد وصلت إلى الشاطىء البعيد. أمسكت بالصخور ولبثت أسترد أنفاسى اللاهثة ، وأستعيد قواى . رأيت القراصنة على الناحية الأخرى يتشاورون . كان يمكنهم أن يصلوا إلى حيث اختبأت ، سواء عن طريق السباحة أو بالإلتفاف حول البركة . وبدأ جماعة منهم فعلا فى التحرك صوب الجدول المنساب بين الصخور . تردد آخرون وهم ينظرون إلى المياه ، ثم يبدو أن رأيهم استقر على الإنتظار حيث هم ، خشية أن أرتد .

كانت الشمس قد بدأت تغرب لكن كان بيننا وبين الظلام وقت طويل.

ألقيت بنظرى على الشاطىء . وسرعان ما تبينت أن أعلى مكان فى الصخور هو الجهة الشرقية ، نحو البحر ، أخذت أتنقل ببطء دون أن أحاول السباحة حتى وصلت إليها : وأخفيت نفسى قدر مايسمح به المكان . كان القراصنة على الشاطىء الآخر مايزالون ، واقفين تبدو أشباحهم من بعيد ،ويلوح أنهم فقدوا أثرى إذ كانوا يلوحون لزملائهم باشارات غير مفهومة .

قبعت حيث أنا لا أتحرك ، وإنتقل تفكيرى إلى عنخو ، والفتاة . لابد أنه انقضت أكثر من نصف ساعة منذ أن رأيتهما يختفيان بين أشجار الغابة ، ولاشك أنهما سيعودان بأقصى سرعتهما ، ومعهما النجده . إن مامضى من زمن يكفى لقطع المسافة إلى المخيمات ، ومما لا ريب فيه أنهما كانا يقدران خطورة الموقف ، وأنهما بالتالى كانا يسرعان فى سيرهما ، أو ربما يعودان . معنى هذا أنه لم تمض دقائق إلا وتكون النجدة قد وصلتنى . هل لم يقدر الاعراب هذا ؟ أم هل قدروه ونصبوا كمينا ؟ إن الإحتمال الأخير أرجح ، ترى هل يتنبه عنخو ، ومن معه إلى هذا ؟ ؟

دفعنى هذا التفكير إلى الحركة . نظرت إلى الإتجاهين حيث كان القراصنة فى الشمال حيث دارت المعركة أولا . كان يقف ثلاثة رجال . لم يبد عليهم أنهم يبحثون عنى حقيقة ، كانوا يقفون كأنما ينتظرون شيئاً . أما الثلاثة الآخرون ، ومعهم ينعم ، فكانوا فعلا يفتشون الشاطىء الجنوبى للبركة تفتيشاً دقيقا . كانت أحسن خطة ، وأسرعها أن أغوص قليلا حيث أنا ، وأصبح تحت الماء ، ثم أفاجىء الرجال الثلاثة ، وربما إذا أحسنت التوقيت، أستطيع أن أتغلب عليهم .

أخذت نفساً عميقاً وزفرته ، ثم آخر ، وغصت فى المياه . ما أن هبطت مترين حتى حدث شىء لم يكن فى حسبانى . وجدتنى أجذب إلى أسفل رغما عنى ، حاولت المقاومة دون فائدة . كان هنالك تيار مائى يجذبنى بقوة إلى قاع البحيرة كنت قد أحسست بشىء من هذا وأنا واقف أمسك الصخر،

إلا أنه كان من الضآلة بحيث لم أعره انتباها . جاهدت فى المياه ، واستمر التيار يزداد قوة كلما جذبنى إلى أسفل ، وباءت محاولاتى بالفشل .

فجأة أظلمت الدنيا ، وكأن الشمس قد غربت منذ ساعات ، ليس هذا فحسب بل أننى شعرت أننى أندفع مع التيار ، ليس إلى أسفل ، وإنما نحو الشرق ، نحو الصخرة ، كان المفروض أن أصطدم بالصخرة لحظة أن تغير إتجاه التيار ، لكن هذا لم يحدث ، استمر إندفاع الماء دون أى عائق . لبرهات فقدت عقلى ، ورحت أضرب فى المياه بلا هدف محاولا التخلص من ذلك الوحش الذى يدفعنى إلى حيث لا أدرى ، إلى حتفى حتما .

سرعان ماعاد إلى رشدى . إن فرصتى الضئيلة فى النجاة ، إن كانت ثمة فرصة ، هى الاحتفاظ بتفكيرى ، وقوتى إلى أطول مدة ممكنة . إذا لم يكن هنالك أمل فى مقاومة التيار ، فلأسبح معه . إندفعت بكل ما أوتيت من قوة . أحسست بطعم المياه يتغير ، ويزداد ملوحة فى كل ثانية تمر . أخيراً ومضت فى عقلى الحقيقة . إن البركه تصرف ماءها فى البحر عن طريق نفق تحت الجبل ولو إستطعت أن أبقى على قيد الحياة مدة كافية فهنالك فرصة للنجاة . لكن ما طول النفق ؟

دفعتنى هذه الفكرة إلى أن أزيد من سرعة سباحتى تحت المياه ، لكن صدرى كان يصرخ طالبا الهواء . بدأت نبضات قلبى تدق فى جوانب رأسى وغشانى الذعر ، واحتجت إلى كل قوة إرادتى لكى أكبحه . مرت الثوانى بطيئه مرعبة تتزايد فيها آلام صدرى ، ورأسى . أخيراً لم أستطع أن أوقف الذعر الدافق . أستطيع الآن ، وأنا أكتب ، أن أستعيد الذاكرة لما حصل ، وإن كان وصفه يخرج تماما عن مقدرتى .

أضحى كونى كله ماء . استبدل الهواء فى الكون بالماء . إنك لا تشعر فى عالمك بالهواء ، لا تشعر بكثرته ، ولا بثقله ، ولا بأنه يحيط بك من كل جانب . ليس هكذا الماء . إنك تشعر به ، خاصة بكثرته ، وبأنك لا تستطيع التخلص منه ، هو حولك يحيط بك ، مهما فعلت ، وأيا اتجهت . هو عالمك

الذى تعيش فيـــه لثوان قبل أن تموت — هو لين سهل ، وينشق أمام ضرباتك ، ولا يرد لك إيذاء ، لكنه أقوى من أى قيد حديدى يطوق العنق ، ويزهق الأنفاس .

بقوة ، وعنف رحت أضرب فى المياه دون جدوى . إنقلب العنف جنوناً لا هدف له سوى محاولات يائسة للتخلص من الماء . واستمر الماء يملأ كونى . من الغريب أن تفكيرى ، إنتقل إلى الفتاة مرت سجر ، وإلى جنودى ، وبحارتى ، وإلى السفن . تذكرت زوجتى المتوفاة ، وإيوف عنخ ، وأشياء أخرى كثيرة ، لم تطرأ فى ذهنى فكرة الموت ، وإن علمت فيما بعد أنى كنت أموت فعلا :

ثم جاءت الراحة . ذهبت آلام صدرى ، وتوقفت نبضات قلبى تضرب فى رأسى ، لم أعد أشعر بوجود مادى لرأسى ، أو لصدرى ، أو أى جزء من جسمى . انقطع تفكيرى فى عالمى الماضى ، وحلقت فى آفاق جديدة . أصبحت موسيقى صامتة ، تعزف فى عالم غير مرئى من الألوان ، فى هل تجد فى كلامى تناقضاً ؟ أبداً لقد أصبحت أنا النغم ، وأنا الموسيقى ، وأنا اللون ، وأنا الضوء والأشعة ، هل يمكنك أن تتصور هذا ؟ هل يمكنك أن تتصور أنك بمفردك عالم قائم بذاته ؟ هل تتصور أنك كون هو مزيج من النغم ، والضوء ، واللون ؟

كنائم صبيت عليه ماء باردا انتفضت . فتحت عيناى لأجدنى مازلت أضرب فى المياه بعنف ، لكن رأسى كان فوق سطح البحر . مضت لحظات وأنا مازلت أضرب بلا وعى ، ثم فعل الهواء أثره فابتدأ عقلى يعود إلى . أخذت نفسا طويلا أملأ به رئتاى بالهواء ، ثم مكثت مدة ألهث . عاد إلى شعور بالعالم الذى نعيش فيه ، ودهشت إذ رأيت أن الشمس لم تغرب بعد .

الواقع أن ليس فى هذا ما يدهش إذ أن جميع ما مر بى فى المياه لا يمكن أن يكون أكثر من دقيقتين ، لكننى خلتها دهراً ، عادت إلى آلام رأسى

وصدرى، وشعرت بمدى الكلال الذى أصاب جسمى، كان ماء البحر هادئاً صافياً، ولم أكن أبعد سوى بضعة أمتار عن الشاطىء الصخرى. أجبرت نفسى على السباحة إلى الشمال بحذاء الصخور إلى حيث رأيتها تنحدر ويصبح الشاطىء رملياً.

بعد عشرة دقائق كنت ملق على الرمال، وجسدى كله يرتعش اضطرابا. لم أحاول النهوض فلم تكن لدى القدرة عليه. دقائق أخرى أمضيتها مستلقيا حيث أنا أستجمع فيها قواى. بغتة عادت إلى الذاكرة كاملة تذكرت الكمين المعد لعنخو، ومن جاء معه لإنقاذى. ترى هل وقعوا فى الشرك الذى أعده لهم القراصنة، أم أنهم لم يصلوا إليه بعد؟ هل هنالك وقت لإنقاذهم؟ والفتاة؟ هل عادت مع عنخو، ووقعت فى الأسر ثانية أم أنها بقيت فى المخيمات؟

الفصل التاسع

مدينة الذهب

كادت رجلاى أن تخذلانى حينما وقفت . كان الظلام قد ألقى سدوله تقريبا ولم يظهر القمر فلم أكن أرى إلا مجرد أشباح لأشجار الغابة القريبة . لم أبال بالضعف الذى اعترانى وطفقت أعدو . على بعد رأيت نيران المخيمات على الشاطىء ، وأشباح السفن الأربع الرابضة . ترددت فى تفكيرى لحظات بين أن أذهب إلى المخيمات لآخذ معى نجدة أو إلى عنخو ، ومن معه رأساً .

استقر رأيى على أن أعود إلى البركة عسى أن أوفر بعض الوقت ، لكن يبدو أن المجهود الذى بذلته فى الحوادث الأخيرة كان تأثيره أكثر مما قدرت إذ أننى بدأت ألهث تعبا ولم أكد أصل إلى الأشجار . خارت ركبتاى ، وسقطت إلى جذع بأول شجرة صادفتها أستعيد قواى كان فى هذه السقطة إنقاذ لحياتى ، وربما لجميع من معى فى الرحلة .

على بعد خطوات منى سمعت أصواتا بشرية تتحدث همسا . ظننت فى مبدأ الأمر أنهم أصحابى فالمكان بعيد عن البركة . هممت ان أنادى عليهم حينما قربت الأصوات ، وتبينت جليا أنها للقراصنة . إنكمشت فى موضعى ، وأرهفت السمع . لم تكن هذه مجرد أصوات لشخصين يتحدثان ، وإنما أصوات جماعات كثيرة تهمس وهم يتحركون .

تنبهت لشىء غريب . لم يكن أصحاب الأصوات يتجهون إلى البركة ، وإنما إلى المخيمات !! إذاً فالمسألة جميعا خدعة ووضحت لى الخطة كاملة . لقد انتهزوا فرصة استخدام الفتاة فقبضوا عليها لاستدراجى ، ولعلهم كانوا

يعرفون أنى قريب من البحيرة ، بل لعلهم كانوا يعرفون أيضا إن سمسو وعنخو موجودان . كان كل شىء لاستدراك أكبر عدد من الجند ، وصرف الأنظار عن هجومهم .

كانت جميع الظروف فى صالحهم . لاشك أن عدد النجدة التى ذهبت إلى البركة كبير ، وبالتالى فإن الرجال فى المخيمات كان عددهم بسيطا نسبيا . من كانوا على السفن كذلك أعدادهم متفرقة ، ولا فاعلية لهم إذا ما هاجمتهم جموع القراصنة . إذا أضفنا إلى كل هذا عنصر المفاجأة لعلمنا أن فرصة القراصنة فى الفوز كانت أكبر ما يمكن . شىء واحد لا يعلمونه . أننى كنت حيا .

* * *

بدا كل شىء هادئا فى المخيمات تألقت النيران المتفرقة على امتداد المساحة التى تحتلها الخيام ، وعم السكون إلا من الأصوات الطبيعية . لاح أن الجميع نيام، ووصل الإهمال إلى درجة أن حرس النوبات كانوا ممددين على الأرض، نياما. زحف القراصنة بهدوء وبطء . لم يصدر منهم أى صوت يوقظ النائمين، كانوا أربعمائة رجل أو يزيدون ، فى حين أن تقديرهم أن من فى الخيام لا يزيدون على مائة . كانت خطتهم محكمة ، ومفاجأتهم كاملة . سوف يهاجمون من فى الخيام ، ويقتلونهم بأدنى ما يمكن من الأصوات ثم يهاجمون السفن ، كل سفينة على حدة .

اقترب أحدهم من الحراس النائمين ، وأخرج خنجره ، ودفنه برمته فى قلب النائم . كذلك فعل آخرون بسائر الحراس . وكانت أول مفاجأة لهم ، لم يكن الحراس النائمون سوى دميات لا حياة فيها. احتار الرجال فيما يفعلون. كانت لديهم أوامر صارمة ألا يتفوهوا بلفظ ، وألا يحدثوا صوتا ، أوامر جزاء عصيانها القتل . أوامر لم يجرؤ واحد منهم على مخالفتها ، وإن كانت لدى بعضهم الحصافة أن تأخروا فى تقدمهم تاركين زملاءهم لما علموا أن فيه حتفهم لا مراء .

تقدم سائر الرجال ، رأوا ، أو ظنوا أنهم رأوا ، زملاءهم يقتلون الحراس ويتم أول جزء من الخطة طبقا لما هو مرسوم . بهـــدوء ، وبطء تقدموا محاذرين أن يحدثوا صوتا . وصل كل فريق منهم إلى الخيمة المحـــددة له ، وأخرجوا خناجرهم استعداداً لقتل النائمين. دنوا إلى داخل الخيام فى سكون، وكانت المفاجأة . لم يجدوا جنديا واحدا فيها . للحظات مكثوا ينظرون ببلاهة ، ثم تبينوا أنهم وقعوا فى الشرك الذى نصبوه .

تساقطت عليهم السهام وكأنما الدنيا تمطرها ، واستولى عليهم الذعر . كانت الدقائق التالية أقرب إلى مذبحة منها إلى قتال. جرى الأعراب يرتطمون ببعضهم ، كل يبغى الفرار من الموت المتساقط . تصايحوا مرعوبين ، واختلط صياحهم بأزيز السهام تمرق فى الهـــواء لتستقر فى الأجساد . تعالت أنات الجرحى ، وصرخات الموت من كل جانب ، لم يخطر فى بال أحدهم أن يطفىء النيران التى تجعلهم هدفا سهلا . أعماهم الذعر ، فراحوا يتخبطون فى عمى .

تركوا أسلحتهم ، وما كانوا يحملون ، واندفعوا متفرقين بلاوعى فى كل اتجاه يبغون الوصول إلى حماية الأشجار ، والظلام . لا بد أنهم فقـدوا بين جريح وقتيل أكثر من ثلث عددهم فقد غطت الساحة جثث القتلى ، وأجساد الجرحى الذين تمنعهم جراحهم من الحركة . من القراصنة من نجا بحياته، ومنهم من كان سىء الحظ فقابل جنود النجدة الذين ذهبوا للبحث عن بقيـــادة ساحو رع ، والذين كنت قد اعتنيت أن أرسل لهم بعض الجند يستدعونهم ينبئونهم بنجاتى . حاول رجالى مطاردتهم إلا أننى منعتهم من ذلك .

لا بد أن عدداً آخر قتل فى الغابة ، لأننا سمعنا أصوات الضباع المتجمعة وقد جذبتها رائحة الدماء . لست أدرى فى الواقع ما حدث فى الغابة للفارين ، وما كان يعنينى بشىء أن أعرف . من بين الأشجار خرج ساحو رع وعنخو وجماعتهما ، ومعهم مرت سجر التى اندفعت تعدو نحوى غير عابئة بالجثث الملقاة على الأرض ، وما لبثت أن ألقت بنفسها على تحتضنى ؛ وتغمرنى بالقبلات وهى تبكى بعصبية .

وقفت مذهولا ابرهات ثم أبعدتها عنى برفق ، لكن بحزم . إلى جانبى ، وقف نجم آب يبتسم ، فى حين تقدم ساحو رع مادآ يده يشد بها على يدى فى حرارة دون أن يبدو عليه أنه رأى شيئا مما حدث . كنت قد علمت أن إيوف عنخ لم يعد من رحلة الصيد التى بدأها مع جماعة من رجاله منذ الظهيرة ، وتعجبت لتأخره ، أما الآن فان تفكيرى لم يقف عند مجرد التعجب للتأخير، إنما اتجه إلى التساؤل عما إذا كان هنالك اتفاق بينه ، وبين ينعم زعيم القراصنة .

أصدرت أوامرى بعودة الجنود إلى السفن ، وبأن يضاعفوا الحراسة عليها ، ومكثت على الشاطىء فى بعض الخيمات مع قوة كافية ، أنتظر قدوم أيوف عنخ ورجاله . كان هناك احتمال ضئيل أن يكون قد نصب له الأعراب كمينا ، وأنه فى حاجة إلى معونة عاجلة ، وما كان لى أن أترك أحد قوادى بمفرده فى ميدان قتال . أرادت مرت سجر أن تبقى معى إلا أننى أرسلتها إلى السفينة غير عابىء بتوسلاتها .

أمرت فريقا من الجنود أن يقوموا بدفن الموتى ، وأن ينقلوا الجرحى إلى بعض الخيمات ، وأرسلت استدعى حكا نخت ، الكاهن الطبيب وزملاءه الثلاثة من السفن ليعتنوا بهم ، ويصنعوا ما يستطيعون من أجلهم . اتجهت نيتى إلى تضميد جراحهم، ثم تركهم لزملائهم بعد ذلك . راقبت تنفيذ أوامرى بعض الوقت حتى شعرت بتعب شديد ، فتركت متابعة التنفيذ إلى ساحو رع واتجهت إلى الخيمة المعدة لى .

ما كدت أن أمد جسدى حتى داهمنى النوم . نوم عميق لم تتخلله أحلام ، ولم أستيقظ منه إلا على أصوات الجنود وهم يعدون طعام الإفطار . سرعان ما كنت فى الخارج ، وكان عنخو أول من رأيت . كان جالسا القرفصاء على بعد يسير من الخيمة ، وحينما رآنى هب واقفا . اتجهت إليه ووضعت يدى على كتفيه .

— عنخو إنى آسف لما حدث لسمسو ، لكن لعل فى كيفية موته عزاء لك .

سردت عليه الوقائع وكيف أن سمسو مات وهو يحمينى من السهام . ربما لاحظ عنخو أن صوتى كان متهدجا ، وأنى أجاهد حتى لا تنساب الدموع من عينى ، إلا أن قسمات وجهه لم تتغير . ظل يستمع حتى انتهيت . أخيراً تكلم :

— إنه مات وهو يهبك الحياة ، إن روحه قد حلت فيك .

منذ تلك اللحظة لم يفارقنى الزنجى العملاق .

تناولت إفطارى بسرعة ثم استدعيت أونى وطلبت منه أن يرشدنى إلى حيث أرسل إيوف عنخ ورجاله . اعتزمت أن أقود بنفسى جماعة للبحث عنه ، لكن لم يكن هناك داع لهذا . ما كدنا نستعد للحركة حتى ظهر إيوف ورجاله ، من بين الأشجار . سألته لماذا تأخر كل هذا الوقت .

— كنا نبحث عن الصيد ، وتأخر بنا الوقت ، وخشيت أن أضل طريقى ليلا فقررت المبيت بالغابة حتى الصباح .

— إنى لا أرى معك صيدا ؟!

— لم نعثر على شىء ، ولعل الغزلان نفرت حينما رأتنا .

— ألم تصادف أحدا فى الغابة ؟

— كلا . هل رأيتم أحداً ؟

لم أجبه على سؤاله وتركت إخباره بالحوادث التى جرت أثناء غيبته لساحورع . أمرت أن ينتقل الجميع إلى السفن إستعدادا للرحيل ، وأن نترك الخيام التى تأوى الجرحى القراصنة كما هى ، وإلى جانبها كومة من الأخشاب تكفى لتغذية النيران حتى يصل أصحابهم . خلال ساعة كنا قد فارقنا الشاطىء ورفعنا السقالات ، والمراسى ، وتحركت السفن تمخر عباب البحر ، نحو الجنوب .

اعتزمت ألا نلق المراسى إلا عند المدينة التى سمعت عنها ، راهاباتا ، هذا إذا كان لها وجود . كان معنى هذا أننا سوف نمر بخليج آخر به مدينة إيسينا بعد إبحار يومين ، وليلتين ، ثم خليج آخر بعد ثلاثة أيام بلياليها يبدأ بمدينة أخرى تدعى تونيكى ، ثم بنهر رهابتون ، وخليج كبير آخر به نتوء جبلى بعد إبحار يوم وليلة ، أخيراً المدينة الشهيرة عاصمة باربار يا ، أعنى راهاباتا مدينة الذهب .

رحلة ستة أيام أو سبعة فى بحر لا نعلم عواصفه ، وتياراته ، حذاء شواطىء لا ندرى من أمرها شيئاً . سيرت السفن متتالية فى خط شبه مستقيم . جعلت سفينة القيادة فى المقدمة تليها سفينة نجم ساحورع ، وتأتى سفينة إيوف عنخ فى المؤخرة . باعدت بين السفن بمسافات تبعد خطر اصطدامها ببعضها إذا ما فاجأتنا عاصفة غير متوقعة ، كما تعطى فرصة للسفن الأخرى إذا ما اصطدمت سفينتى بحواجز مرجانية غير مرئية ، أو مايشابهها .

استمر الجو حاراً ، وإن خفت حدة الحرارة قليلا ، وهطلت الأمطار أحيانا ساعات غير أن التيار استمر يحمل السفن إلى الجنوب ، فلم يضار رجال التجديف . لم يكن البحر هادئا ، لكنه أيضاً لم يبلغ حد الاضطراب الشديد إذ لم تزد الأمواج فى أى وقت على نبيوين (حوالى مترين) . والواقع أننا كنا حتى هذه اللحظة سعداء الحظ بالنسبة لمتاعب البحر .

إلى الجنوب ، دائما إلى الجنوب . إن انحرفت السفن بعض الوقت فى خليج ، فانما لتعود سيرتها الأولى بعد وقت قصير . مضت على أوقات كنت أخلو فيها إلى نفسى وأتعجب متى ، وكيف ، تنتهى هذه الرحلة . هل هنالك أمل أن نعود إلى أوطاننا ، ألا يكفى ما أحرزناه من نجاح حتى الآن ؟ إننا ذهبنا جنوبا إلى حيث لم يذهب أحد من بنى جلدتنا فى حدود علمى ، لا بل وحيث لم يذهب أحد من عالمنا المعروف . ماذا بعد هذا ؟

فى مثل هذه الأوقات التى تهبط فيها معنوياتى إلى أدنى حد كنت دائماً أجد مرت سجر إلى جوارى ، وكأنها تشعر بما أعانيه . كنت قد تناسيت عنها منذ تلك الليلة التى قبلتنى فيها على شاطىء الموت ، بل إننى عاملتها بجفاء ، ومع هذا فإنها ظلت تلازمنى دون أن تتكلم . لعلى يجب أن أعترف أننى كنت أشعر براحة نفسية كبيرة وهى إلى جوارى ، وبفراغ غريب حينما تغيب عنى ، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى فى معاملتى لها بجفاء .

أعطتنى الرحلة البحرية وقتاً طويلا لأفكر فى موقف إيوف عنخ . ربما كان كل ماقاله عن عدم عثورهم على صيد فى الغابة ، وخشيته أن يضل طريق العودة مساء ، وعدم رؤيته لأى من الأعراب ، صحيحاً . وربما لم يكن كذلك . إذا لم تكن ادعاءاته صحيحة فأغلب الظن أنه عقد إتفاقا مع ينعم زعيم القراصنة ، وأن طلبه الذهاب إلى الصيد مع جماعته لم يكن إلا ليقابل القرصان ، ويتفق معه على خطة .

مما لاشك فيه أنه يود ألا تتم الرحلة ، وأن يعود أدراجه إلى الوطن وهو يعلم أنه لن يستطيع هذا حتى يقضى على ، وربما أيضاً على ساحورع . هل يمكن أن يكون هذا التصور صحيحاً ؟ إذا كان كذلك فإن معناه أنه لن يكف عن محاولاته ، وأنه سوف ينتهز أول فرصة تتاح له لتنفيذ مآربه . لكننى سمعت أن الأعراب لم يبتعدوا فى إبحارهم عن رهاباتا ، وأنهم يخشون الإبحار جنوباً بعد ذلك لاعتقادهم أن من يفعل منهم لن يعود . معنى هذا أن آخر فرصة له ، ولهم ، هى المدينة ، وأنهم سوف يبذلون أقصى جهودهم فيها ، أو قبلها .

لم أتصور أن يجازف القرصان بسفنه فى نزال مع سفنى ، فإنه رأى ما يمكن أن يحدث لسفنه الخفيفة ، هذا بالإضافة إلى أنه فقد عدداً كبيراً من رجاله فى معركة الشاطىء . لم أتصور كذلك أن إيوف عنخ يجرؤ على إظهار تمرده علنا ، خشية أن تفشل خططه ، ويتعرض للإعدام جزاء لخيانته . إن كل

ما يستطيع إيوف أن يفعله هو أن يخبر ينعم بخططنا ، ثم لا يعطى مساعدة فعالة وقت القتال . تماما مثل ماحدث . إذا كان كل تفكيرى هذا صحيحا فالاستنتاج الوحيد الباقى هو أن ينعم سوف يستعمل الأهالى فى رهاباتا للقضاء علينا ، وليست لديه فرصة أخرى .

رهاباتا إذا هى موعدنا التالى ، إنهم يعلمون أن لا مندوحة لى من الرسو فيها ، ليس لتمويل السفن ، وإصلاحها فحسب ، بل لضرورة أن أستقى من الأهالى أية معلومات ، ولو ضئولت عن الشواطىء جنوبها . لقد اختار ينعم مكان المعركة فهو يعلم عن البحار إليها ، وحولها ، وهو يعلم عن طبيعة الأرض ، وهو يعرف الأهالى ، فى حين لم تكن لدى أية معلومات عن كل هذا . لكنه كان عليه أن ينتقل إلى البلد ، وأن يسبقنى فى ذلك بمدة كافية لإعداد كمينه وإحكام تنفيذه ، وهنا نقطة الضعف .

إن وسيلة انتقاله السريعة الوحيدة هى سفنه . صحيح أنها أسرع وأخف من سفنى ، وصحيح أنه يعلم عن البحار ما لا أعلمه ، ويستطيع بذلك أن يبتعد عن الشواطىء حتى لا أراه ، لكن الصحيح أيضاً أن عليه أن يخفى سفنه عنى ، ومعنى هذا أن عليه أن يرسو بها فى أقرب مكان بعد رهاباتا ، وليس قبلها . كنت واثقا من صحة استنتاجاتى ، وعلى أساسها وضعت خطتى .

توالت الأيام ، والليالى دون حادث يذكر . مررنا بإيسينا ودخلنا الخليج ولم نتوقف عند أيهما . لاحظت أن الشواطىء خالية عند المدينة ، وليس فيها زورق واحد ، كما لم أر أية حركة على الشاطىء ، وكأن المدينة قد هجرها أهلها . بالمثل عندما مرت بنا تونيكى لم أر أحدا أوقارباً ، ولو كان لدى شك قبل هذا فى صحة استنتاجاتى لتبدد الآن . إن ينعم أراد أن يتأكد من أن أحداً لن يساعدنا فى تموين السفن إن أردنا ، فعمل على إخلاء المدينتين قبل أن نصلهما . هو يريد إذاً أن يقطع بأننا سوف نضطر إلى الرسو عند رهاباتا .

شاهدنا نهر رهابتون ، وأمرت بالاستمرار فى الإبحار . مررنا بالنتوء

الذى ذكروه لنا ولم أتوقف. أخيرا فى فجر اليوم السابع بدت مدينة الذهب، راهاباتا. كانت تعليماتى السابقة أننا سوف تلقى فيها مراسينا، ولم أغيرها حتى آخر لحظة حينما كان يجب أن تتجه السفن إليها، عندئذ فقط أرسلت الإشارات فى الإبحار جنوبا. قدت سفينتى دون توقف، وتبعتنى الأخريات.

* * *

لابد أن ينعم كان يراقبنا، وأنه صعق حينما رأى أننا لن نتوقف. لابد أيضا أنه يعلم أننى سوف اكتشف الخليج الذى أخفى فيه سفنه. ولعل صوابه قد طاش إذ عرف أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا لينقذها. كانت حركة سفنى فى المياه أسرع من حركته مع رجاله على الشاطىء.

تقدمت بسفنى، وأمرت منتوسين أن يعين رجالا حادى النظر يبحثون عن مخبأ سفن القراصنة، ولم تمض نصف ساعة حتى أشار أحدهم إلى خليج صغير يخفيه نتوء ساحلى، وتحيط به الأشجار. ربما كان فى هذه اللحظة يدعو أربابه أن يفقد جميع من فى السفن أبصارهم، أو أن يضلوا بشكل ما عن رؤية سفنه، أو أن تقع معجزة تعرقل تقدمنا، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث.

كان مكانا رائعا تختفى فيه السفن، ولولا أننا كنا نبحث عنها لمررنا بسهولة دون أن نلحظها. لكنه أيضا كان مصيدة لا يعطى مجالا لأية مناورة، إن كان هنالك عدد من البحارة القادرين على تسيير السفن. وقفت بسفنى عند مدخل الخليج الصغير نسده تماما. وبدأنا نمطر السفن الراسية وابلا من السهام المشتعلة. راقبت النيران تلتهم الأخشاب بسرعة، ورأيت بعض القراصنة الذين يبدو أنهم تركوا للحراسة يقفزون فى الماء ويسبحون نحو الشاطىء.

أمرت القراصنة أن يصطادوا الرجال فى الماء، فقد عزمت على أن أقضى نهائيا على أية محاولة أخرى لتدبير مكيدة أو كمين — أضحى الخليج متوهجا،

وتعالت ألسنة النيران ترسل دخانا كثيفا إلى السماء . إن كان ينعم عنده أى شك أو بقى عنده أى أمل ، فلا بد أن كليهما تبدد الآن . أضحى أمامه خيار بين ثلاثة أشياء لا رابع لها . إما أن يبقى فى هذه الأرض إلى أن يفنى رجاله فلست أحسب أن سفنا كثيرة تصل إليها ، أو أن يصنع سفنا من الأشجار إن كان لديه الصناع المهرة ، أو أن يستولى على سفنى . من الفروض الثلاثة كان الأخير هو أيسرها ، وكان على أن أقدم له الفرصة .

كانت هنالك نقطة ضعف ، وحيدة ، هى عدم ثقتى فى أن إيوف عنخ ورجاله ، وهم يمثلون ثلث قوتى . نتيجة لذلك فإن أية خطة أضعها يجب أن تأخذ فى حسبانها خيانة إيوف . ليس بأن يقف على الحيدة موقفا سلبيا فى القتال فحسب ، وإنما هنالك احتمال كبير أن ينضم بقواته إلى القراصنة . إنه لا شك يعلم أن هذه آخر فرصة له فى العودة إلى الوطن ، وإلغاء الرحلة، إن فشل فيها ، فلن يكون لديه أدنى أمل بعد ذلك .

قبل غروب الشمس كنت أجلس مع الربابنة الأربعة فى مجلس حرب . شرحت الموقف دون أن أشير إلى ما يساورنى من شك فى إيوف.

ــ هكذا ترون أيها السادة أن الموقف يتلخص فى أن القراصنة لديهم ما بين ثلاثمائة وأربعمائة محارب ، بالإضافة إلى عدد كبير من الأهالى. لكنهم قد حرموا من سفنهم ... ونحن لدينا السفن لكن يلزمنا النزول إلى الشاطىء. ليس للتموين فحسب ، بل كذلك لاستخلاص أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الخطوة القادمة . معنى هذا أن أحدنا يجب أن يقضى على الآخر فهل لدى أحدكم رأيا ؟

تكلم ساحو رع :

ــ إنى أرى أن نهاجم المدينة رأسا ، ولدينا من القوة ما يكفى لسحق القراصنة والأهالى سويا .

تنوعت الآراء بعد ذلك ، ودارت المناقشات ، لكننى كنت أهدف إلى أن يضع إيوف عنخ خطة معتزما تنفيذها فوراً ، ذلك أنى أعلم أن قوتنا تكفى لسحق أعدائنا ، هذا إذا لم تكن هناك خيانة ، أما وأن شكى شديد فى إيوف فقد رميت من التردد فى اتخاذ قرار أن اترك له الفرصة للتفكير فى خطة ، وكان ما حسبته بتؤدة بدأ إيوف يتكلم .

— إنى أعتقد أن أحسن خطة هى أن نحاصرهم فيذهب فريق منا ليهاجم المدينة فى حين ينزل فريق آخر هنا عند الخليج ، ويتقدم إلى المدينة ، وبذلك يكتمل الحصار .

لم أوافق فورا وبدأت أناقش :

— لكن فى هذا تقسيم لقواتنا ، كما أن مهاجمة المدينة لا تحتاج إلى كل قواتنا .

ورد إيوف عنخ بغرور الواثق فى قوته :

— إن ثلث قواتنا كفيل بالقضاء على هذه الطغمة ، ولو تركتم الأمر لى بمفردى لفعلت ذلك

إعترض الثلاثة قواد الآخرون على تقسيم القوات ، وتركت المناقشة تأخذ مجراها ، حتى سمعت إيوف عنخ يقول :

— دعوا لى الهجوم على المدينة ، ولكم على أن احق القراصنة ، والأهالى معا ، وهاجموا أنتم من ناحية الخليج ، وإن كنت واثقا أنكم لن تفعلوا شيئا وأنى سوف أكون قد قضيت عليهم.

عندئذ تدخلت ، كنت واثقا أنه سوف يقترح أن ينفرد بنفسه ، وقواته بشكل أو آخر حتى تكون له حرية الحركة ، وأنه إنما ألقمنا الخطة على جرعات .

— أعتقد أن خطة إيوف فيها الكثير من الوجاهة ، والآن علينا أن

تضع حساباتنا حتى يكون التوقيت مضبوطا . إيوف إنها خطتك ومن حقك أن تكملها ، عليك أن تحسب المسافة بين الخليج والمدينة سيرا بالنسبة للجنود مع الأخذ فى الاعتبار أنهم سوف يلقون مقاومة ، كما أن عليك أن تحسب أيضا الوقت الذى تقطع فيه السفينة المسافة عودا إلى المدينة ، مع العلم أنكم ستضطرون إلى التجديف ضد التيار . إننى أريد أن يكون هجومنا على المدينة فى وقت واحد . بعد الشروق بساعة .

قامت مناقشة ثانية حول التوقيت ، وضبط حركة السفينة ، والجنود ، وأخيرا استقر الرأى على أن يتحرك إيوف عنخ بسفينته فى الوقت نفسه الذى ينزل الجنود إلى أرض الخليج ، قبل الفجر بساعة ، مقدرين أن المدة التى سيستغرقها الطرفان للوصول إلى المدينة تكاد أن تكون واحدة .

عاد كل ربان بعدئذ إلى سفينته إلا أننى استبقيت ساحو رع ومنتوسين . بعد أن خلت بنا القمرة ابتدرتهما .

— إسمعانى ، إننى أعتقد أن إيوف سوف يخوننا وان يهاجم المدينة

رفع ساحو رع حاجبيه دهشة وقال :

— خائن ؟ ! كيف ؟ هل أنت واثق مما تقول ؟

— أعتقد هذا

— لماذا إذاً تركته يذهب بمفرده ؟ لماذا لم تأمر بأن يصطحب سفينة أخرى معه ؟

— لأنه لن يذهب إطلاقا ، سأذهب أنا بدلا منه ، وسيبقى هو مكانى ، لكنه لن يعرف هذا إلا قبل الإبحار بدقائق حتى أعطيه فرصة ليخبر بنعم بخطتنا .

— ما هذه الأحاجى ، والألغاز ؟ إننى لا أفهمك !!

— ستفعل إن لم تصر على مقاطعتى ، إفترض أننى على صواب فى اعتقادى أن إيوف خائن ماذا سوف يفعل ؟

— سيخبر ينعم بخطتنا ولا شك .

— هذا حسن ، وماذا سوف تكون خطتهما لهزيمتنا ؟

فكر ساحو لحظات ثم قال بتأن :

— أعتقد أنه سوف يهاجم جميع رجاله الجنود فى الخليج ، ويعد لم كمينا فى حين أنه لن يهتم بالدفاع عن المدينة إذ أن حليفه إيوف سيكون هناك.

— تماما ، لهذا أعطيت إيوف الفرصة لكى يخبر ينعم ، ولهذا سوف أقود أنا السفينة فى جنح الظلام قبل الموعد الذى حددته بنصف ساعة ، ولهذا أيضا لن ينزل الجنود إلى الخليج إلا حينما أعطى إشارتى ، سوف أستولى أنا على المدينة بدلا من ايوف ، ولست أتوقع قتالا فيها، ثم أتجه رأسا إلى الخليج حيث يكون ينعم ورجاله ، لأهاجمهم من حيث يظنون أنهم آمنون وعندما تسمعون أصوات القتال عليكم أن تنزلوا إلى الشاطىء وتهاجموهم بدوركم وبذلك ينحصرون بين نارين

للمرة الأولى تكلم منتوسين :

— لكن يا سيدى ألا ترى أن ينعم يراقب سفننا بدقة وأنه سيعلم إن تحركت سفينة القيادة إلى المدينة دون سفينة ايوف عنخ ، وبالتالى سوف يشك أن فى الأمر شيئا

— من قال إنى سأبحر بسفينة القيادة ؟

نظر إلى الرجلان غير مصدقين وسأل ساحو :

— هل تعنى أنك سوف تقود سفينة ايوف ؟

— أجل

— ورجاله ؟ إنهم لن يطيعوا لك أمرآ ، بل قد يعتدون عليك شخصيا.

— لماذا ؟

ـ لأنهم رجاله جميعا

ـ لكننا نقاتل سويا ، على الأقل فى الظاهر ، وأحسبهم لا يعلمون شيئا عما يجرى فى الخفاء .

قال منتو :

ـ ألا ترى فى هذا ياسيدى مجازفة كبيرة ؟

ـ هنالك بعض المجازفة ولا شك ، لكننى لا أعتقد أنها كما تصورها ، لا تخافا على ، إننى سأتدبر أمرى ، وما أريده منكما هو أن تراقبا ايوف جيدا خشية خيانته ، خاصة أنت يا منتو ستكون مهمتك دقيقة لأننى سأعينه نائب القائد ، وسيكون بالتالى معك فى السفينة ، حاول ألا تعارضه إلا إذا اضطررت .

أيقظونى . كما أمرتهم قبل الفجر بساعتين ونصف ، صحبت معى عنخو وحكو بتاح ، وأونى وثلاثة آخرين من رجالى . دهش إيوف حينما صعدت إلى سفينته ، وأخبرته أننى أنا الذى سوف أتولى قيادتها ، وأن عليه أن يحل محلى فى سفينة القيادة . حينما سأل عن سبب هذا التغيير المفاجىء فى الخطة أجبته بأننى أنا القائد ، ولا أرى أن يتحمل هو كل المخاطر ، ولا يتحمل أحدنا أية مخاطرة ، إذ أن القتال كما قال سوف يكون فى المدينة فقط . حاول أن يعترض إلا أننى طرحت إعتراضاته جانبا بحزم ، لم يكن أمامه سوى أن يطيع ، أو أن يجهر بالتمرد والخيانة . بعد تردد يسير ، ترك قيادة سفينته لى ، وأمرت عنخو وأونى أن يقوما بمصاحبته إلى سفينة القيادة ثم يعودان .

كانت خطوتى التالية أن أعرف إن كان إيوف قد باح بخطته لأى من رجاله ، إن كان قد فعل فالمنطق أن يكون هذا الشخص هو نائبه . أرسلت فى استدعائه ، ولم يمض وقت طويل حتى تبين لى أنه يعرف ما كان يعده إيوف من خيانة . تركته جالسا فى الحجرة ، واستدعيت حكو ، ثم سألته إن كان عنخو وأونى قد عادا ، فلما رد بالإيجاب أمرته أن يستدعيهما . جلست

صامتا مع الرجل ، لم أخاطبه حتى بدا قلقا فى جلسته ، بعد دقائق قليلة حضر عنخو ، وأونى فخاطبتهما .

— إن لدى هذا الرجل معلومات أريدها فوراً فلا وقت لدى أضيعه

لم يتكلم أيهما. تقدم عنخو نحو نائب إيوف بخطوات متمهلة فى حين ظل أونى مكانه ، وإن كان قد ظهر فى يديه قوس ، وسهم كأنما بفعل ساحر. هب الرجل من مكانه فى رعب :

— ماذا ستفعلون بى ؟

أجبتـــه :

— لا شىء ، هنـالك بضعة أسئلة أريد الإجابة عليها ، وليس لدى وقت للمحاورة .

كان عنخو قد وصل إليه ، بهـدوء ضغط على كتفيه فارتمى الرجل على مقعده. بالهدوء نفسه قبض على معصميه ، ولم يحاول الرجل أن يقاوم . رأى عقم المحاولة فترك الزنجى العملاق يفعل به ما يشاء . جمع عنخو يدى الرجل وراء ظهره ، وقبض على المعصمين بيد واحدة .

هنا أظهر أونى براعة لم أشهد مثلها فى حياتى على كثرة ما رأيت من إبداع فى رمى السهام ، كان الرجل يرتدى صندلا من الجلد يحوط قدميه ، والكاحلين ويخرج قليلا عن الأصابع .

بسرعة مذهلة طار سهمان ليثبتا الصندلين فى أرض القمرة الخشبية دون أن يمس أيا من الأصـابع . بدت من الرجل بداية صرخة كتمتها يد عنخو القوية .

— هل أسأل الآن ؟

كان الرجل ما يزال ينظر إلى السهمين برعب ، رفع رأسه وهزها ..

— دع فمه ياعنخو ، من كان رسول سيدك إلى ينعم ؟

لم يتردد وأخبرنى عن رجلين .

ــ هل هنالك غيرهما يعرف خطة إيوف ؟

ــ كلا ...

ــ حسنا أرسل فى استدعائهما وأمرهما أن يصحبا عنخو ، وأونى إلى سفينة ساحو رع ، واعطهما هذه البردية ليسلماها له .

نفذ ما أمر به ، وأمرت أونى وعنخو أن يخبرا ساحو أن يحتفظ بالرجلين فى مكان أمين حتى تصدرا له أوامر أخرى ثم يعودان . كان وقت الإبحار قد أزف إلا أننى انتظرت إلى أن عاد أونى وعنخو ثم خاطبت نائب إيوف .

ــ سوف تصدر الأوامر . وحتى نتأكد من التنفيذ سيصحبك دائما صديقاى هذان ، وإنى أكره لك أن تغضبهما .

* * *

سار كل شىء بعد ذلك كما قدرت . لم يجرؤ نائب إيوف أن يصدر أمرا مخالفا ، بل إنه أظهر حماسة فى تنفيذ تعليماتى . ارتحلت السفينة إلى المدينة وأنزلنا الجنود . كما توقعت ، لم تكن هنالك أية قوة تنتظرنا إلا أننى شاهدت أربعة من الأعراب يهرعون نحونا مرحبين . كانت لديهم أوامر أن إحدى سفننا سوف ترسو عند المدينة ، وأننا أصدقاء . يبدو أنهم لم يكونوا قد رأوا وجه إيوف ، وبالتالى ظنونى هو .

لم أصحح خطأهم ، وسألت حكو بتاح أن يستجوبهم ، وسرعان ما علم أن الموجودين من الأعراب ثمانية . هؤلاء الأربعة الذين أمروا أن يقودونا إلى حيث يوجد ينعم ، ورجاله مع الأهالى ، وأربعة آخرون يحرسون ملك المدينة إذ أنه أبى معاونة ينعم فى قتاله ، فقبض عليه واحتفظ به رهينة حتى ينتهى القتال .

كانت المدينة أكبر ما رأيت على الساحل ، لكنها بدت خالية تماماً من السكان .

انتحيت بأونى جانبا ، وأصدرت إليه بعض التعليمات ، فانسحب ومعه نفروسى ، ورجلين من رجالى . طلبت إلى الأعراب الأربعة أن يقودونا

رأساً إلى حيث ينعم ، وجيشه . فساروا أمامنا فى دروب الغابة . لم يمض وقت طويل حتى لحق بى أونى ، وسار إلى جانبى يتحدث همساً .

— لقد قتلنا الأعراب الأربعة الذين كانوا يقومون على حراسة الملك .

وهو يقول إنه سيلحق بنا ويأمر رجاله أن يقاتلوا فى صفوفنا ضد ينعم ورجاله ، وأرسلت معه نفروسى والجنديين الآخرين للتأكد من أنه لن يخطىء فى هذا ، وإن كنت أعتقد أنه مخلص فى أقواله نظراً لما يكنه من حقد على ينعم .

انتهى القتال بسرعة . قتل ينعم وجميع رجاله . ذلك أن الأهالى لم يقبلوا ترك أحد منهم على قيد الحياة ، حتى الجرحى . حينما نزل إيوف عنخ ، وسائر رجال السفن إلى الخليج كان القتال قد انتهى . حارب القراصنة بشجاعة ، قتال قاتلوا المستميت ، إذ عرفوا أن لا مهرب لهم . قتل من رجالى ، أو على الأصح من رجال سفينة إيوف عنخ ، ثلاثة وثلاثين ، وجرح ضعفهم تقريباً ، وقتل من الأهالى ، وجرح مثل هذا العدد .

فى المساء أبى الملك إلا أن يقيم حفلا ، واكتظت المدينة التى كانت مهجورة منذ ساعات . قدم إلى الملك صندوقا خشبيا كبيرا هدية منه لإنقاذ حياته ، وحياة الأهالى . حينما فتحه إنتابنى الذهول . كان مليئا بالذهب الخالص .

الفصل العاشر

إلى حيث يعزف الجن

شكرت الملك ، وأمرت بنقل الصندوق إلى سفينة القيادة . لم أشأ أن أوضح له مدى اهتمامي بالمصدر الذى أتى منه بالذهب ، فجلست أتحادث معه عن طريق مترجم سائلا إياه عن معلوماته عن الساحل الجنوبي .

أجابنى إجابات غامضة عن قبائل متوحشة ، وصائدى رؤوس ، وآكلى لحوم البشر . أخبرنى أن هناك تياراً مائياً يحمل المراكب إلى مناطق مأهولة بالجن ، وأن من يتعدى مسافة إبحار يومين لا يعود منها مطلقا ، فجأة سألنى :

ــ ألن تسألنى من أين أتيت بالذهب ؟

الحقيقة أن هذا السؤال لم يفارق رأسى منذ أن شاهدت ما بداخل الصندوق ، إلا أننى كنت أود أن أستخلص المعلومات منه دون أن يشعر بذلك . أجبته دون اكتراث ظاهر .

ــ لماذا أسألك ؟ إننى شاكر لك هديتك ، ولا أود أكثر منها .

ــ إن ينعم كان يود أن يعرف ، وظل يلحف فى السؤال كلما جاء ، بل وعذب بعض رجالى ، وكثيرا ما هددنى .

ــ وما دخلى أنا بهذا ؟

ــ إنك أبيض مثله . لكنك تختلف عنه .

ــ وهل السود سواسية ؟

ــ كلا ... على كل حال إننى فى الواقع لا أعرف من أين يأتى . كل ما أعرفه أن بعض القبائل فى داخل القارة تأتى به ، وتقايضنا على الملح ، والمنسوجات والنبيذ . أرسلت بعض رجالى ذات مرة ليقفوا آثارهم فقتلوهم ،

ولم يقبل أحد بعد ذلك أن يقفوهم . كل ما نعرفه أنهم يأتون من مسيرة طويلة غالباً من الجنوب .

سجلت هذه المعلومات فى ذاكرتى ، وسألته عن أوصاف رجال القبيلة وعما إذا كان يعرف إسمها فاخبرنى . كان على أن أدون هذه المعلومات فى مذكراتى دون أن أحاول البحث عنهم ، فلم يكن الذهب ضمن أهداف الرحلة . طلبت من الملك أن يعد لنا رجالا يساعدونا فى حمل الفاكهة الطازجة من الغابات ، وسائر أنواع المؤن ، والمياه ، فوعد بذلك .

فى الصباح طلبت إيوف عنخ وحينما حضر إلى الحجرة التى خصصها لى الملك فى داره ، واجهته بما تيقنت من خيانته . كان وقحا فى إجابته قائلا إن كل مايوده هو العودة إلى الوطن . خاطبته بشدة مقررا أن جزاء خيانته هو الموت ، ورد بالقحة نفسها .

— وهل ستقتل كل رجالى ؟

— إذا استدعى الأمر سأفعل .

— معنى هذا أنك ستفقد جزءا كبيرا من رجالك أيضا فرجالى لن يموتوا وهم مكتوفو الايدى .

فكرت مليا . كان فى أقواله نصيب كبير من الصحة ، لكننى من ناحية أخرى لم أتصور أن أقبل أن تمر مثل هذه الخيانة السافرة بلا عقوبة .

— ربما كنت على حق . لهذا فإنى لن أحاكمك الآن ، وإنما حينما نعود إلى الوطن .

إنفرجت شفتاه عن ابتسامة فوز كريهه وقال :

— هذا إذا عدنا .

لم أكن قد أتممت كلامى . بهدوء إستطردت وكأنه لم يقاطعنى .

— لكننى أقسم أنه إذا بدرت منك ، أو من أحد رجالك أية بادرة خيانة ، أو عدم إطاعة للأوامر فانى سوف أتركبم لشأنكم ، وعليكم

أن تواجهوا أخطار البحر ، والقرصنة ، بمفردكم أو أن تقضوا ما بقى لكم من عمر على الساحل .

زالت الابتسامة من شفتيه واصفر وجهه وصاح :

ـ إنك لا تستطيع أن تفعل هذا .

ـ جربنى .

* * *

بعد أربعة أيام كانت السفن قد أعيد شحنها بالمؤن والمياه ، وقررت الإبحار فى صباح اليوم الخامس . استيقظت عند الفجر ، واغتسلت ، وأديت صلاتى اليومية ، ثم ارتديت ملابسى . أثناء ذلك سمعت لجبا فى الخارج ، فأسرعت ، وتناولت سيفى ، وخنجرى . حينما خرجت وجدت أكثر من مائة من الجنود ، والبحارة متجمهرين يتصايحون ، كما لاحظت أن الملك قد خرج ، وتجمع الأهالى على بعد آمن .

بدا لى أن نائب إيوف عنخ هو الذى يقود الجماعة . وقفت صامتاً أراقبهم وأستمع إلى ما يقولون . تنبهت لفداحة الخطر حينما لاحظت أن الرجال لم يكونوا جميعا من جماعة إيوف ، كان منهم من كان من سفينتى ساحو رع ، ونجم آب ، بل إنى رأيت بعض الأفراد من سفينتى ، وإن كانوا يحاولون الاختفاء وراء إخوانهم .

كانت هذه هى العلامة الطيبة الوحيدة التى لاحظتها ، فأمثال هؤلاء لن يكون لهم الجرأة الكافية لمواصلة التمرد ، إذا ما أخذوا بالحزم ، أما باقى الجنود فكان الشر باديا عليهم . سألت ...

ـ ماذا تريدون ؟

أجابنى بلهجة وقحة وهو يتقدم منى متحدياً مهدداً :

ـ إننا لن نبحر جنوبا ... ولن نذهب إلى حيث الجن ، والشياطين ، لنموت جميعا حتى تنال أنت الشهرة والمجد .

كان ردى هادئا .

— هذه أوامر الفرعون ، وقد رآها رؤساؤكم .

— من يدرينا ؟ لعلك افتعلتها .

إنى أكره القتل بالرغم من صناعتى كجندى ، ومع هذا فإن هنالك مواقف لا يحسمها إلا السلاح . بسرعة لعلها أذهلت الحاضرين ، أخرجت سيفى ، وقفزت الخطوات التى تفصلنى عنه . وفى لحظة كان السيف قد اخترق صدره . سقط مضرجا بدمائه بين ذهول أصحابه ، كنت أتوقع أن يهاجمونى ، ولم يكن هنالك شك فى أن قتلى لن يستغرق منهم دقائق قليلة ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث .

تراجعت بسرعة إلى الوراء وكدت أصطدم بشخص ورائى ، وجاءنى صوت نجم آب ...

— إنه أنا نجم .

لم يكن بمفرده ، كان معه ساحو رع ، وأونى ، وعنخو . ارتفع صوته عاليا مهددا .

— إن بعض رجالى فى هذه المجموعة ، إن لم يتحركوا الآن إلى السفينة سأشنقهم جميعا .

كان لهذه الكلمات فعل السحر ، ابتدأ جماعة من الجنود فى الحركة بينما بدا أن الذين فى المقدمة رأوا أنهم إن لم يقوموا بالهجوم فى هذه اللحظة فقد ضاعت منهم الفرصة . اندفع أكثر من عشرين شخصا نحونا سقط منهم خمسة ، وفى صدر كل منهم سهم .

توقفوا فجأة كما اندفعوا ، وراحوا ينظرون إلى زملائهم بخوف . إلى جانبى وقد وقف أونى ، وقوسه فى يده ، كان يقف على عادته بإهمال من لا يعنيه الأمر ، لكن هذا الإهمال كان أبلغ تأثيرا من أى تهديد . تراجعوا إلى

الوراء منكمشين ، كان القوس والسهم فى يدى أونى يعنى أن منهم من سيلقى مصير رفقائهم الملقين على الأرض يتأوهون ، أو ينظرون إلى السماء نظرات زجاجية لا حياة فيها .

لم يكن لمثل هذا الموقف أن يطول ، فقد المهاجمون شجاعتهم ، وإن هى إلا لحظات حتى كانوا يتدافعون فرارا نحو السفن . إلتفت إلى رفاق أشكرهم ، وهنا رأيت إيوف عنخ يخرج من حجرته ، تقدم نحونا ببطء يتساءل عما حدث ، وأجبته باختصار :

ـــ لقد فشلت آخر محاولة لإفساد الرحلة ، بعد هذا سوف نتجه جنوبا فى بحر لم ترتده حتى سفن غيرنا ، ولا مجال لمحاولة إحباط الرحلة .

لكننى كنت مخطئا كما أثبتت الأيام .

* * *

وقفت مع منتوسين عند مقدمة السفينة . كان هذا هو اليوم الثانى من إبحارنا من راهابانا . ومع أننا كنا فى أشهر شمنو (الربيع) إلا أن الجو كان يميل إلى البرودة .(١)

أخذنا نراقب السفينة وهى تشق عباب البحر ، وخيل إلى أن سرعتها تزايدت عن ذى قبل . كانت الرياح قد بدأت تحول إتجاهها فبدلا من الشمال أضحت جنوبية ، مع هذا ، وبالرغم من أننا طوينا الشراع ، فإن السفينة كانت تتجه بسرعة نحو الجنوب .

إلتفت قليلا خلفى وراقبت المجدفين ، وقطعت بأنهم لم يكونوا مجهدين . إستطلعت رأى منتو .

---

(١) أرجو أن يلاحظ القارىء أن الربيع فى نصف الكرة الشمالى يقابله الخريف فى نصفه الجنوبى .

— ألم تلاحظ أن ثمة تياراً مائياً يزداد بشدة ساعة بعد أخرى ؟

— أجل ياسيدى القائد ، وهو يتجه جنوبا بالرغم من الرياح العكسية التى تهب من الجنوب (١)

تركته ، ودخلت قمرتى أدون ملاحظاتى عن التيار ،ومكان بدئه، وإتجاهه، وسرعة السفينة ، وقوة الرياح ، واتجاهها ، إلى غير ذلك من المعلومات البحرية التى ترشد من سيقومون بعدنا بهذه الرحلة . مكثت أكثر من ساعة ، وأنا أكتب ، ثم وضعت القرطاس ، ونحيت أوراق البردى وأخذت أفكر.

أين سوف تنتهى ليبيا (أفريقيا) ؟ هل سوف تستمر فى الإتجاه جنوبا إلى ماشاءت الآلهة ؟ هل حقيقة أننا ندخل بحار الجن ، والشياطين ؟ إننا لا نعلم شيئاً عن السواحل ، ولم نستطع أن نستخرج أية معلومات جدية من الأهالى عنه ، وكان من نتيجة هذا أننى أمرت أن يستمر الإبحار ليلا ، بعيداً عن الشواطىء ، وقد ساعدنا القمر على الرؤية ، والاحتفاظ بمسافة مناسبة بيننا وبين الأرض . لكن ما العمل حينمايغيب القمر ؟ ما العمل لو أن السحب غطت وجهه كما ينذر بذلك الجو ؟ ماذا لو بعدنا أكثر من اللازم ، وضللنا فى هذا البحر الذى يبدو أن ليس له نهاية ؟ وماذا لو اقتربنا أكثر عما يجب ، وارتطمنا بالصخور أو بشعب مرجانية ؟

استغرقت فى تفكيرى حتى أننى لم أشعر بباب القمرة يفتح ، ولا بأن مرت سجر قد دخلت ، ووقفت خلفى تراقبنى . شعرت بها فقط حينما أحسست بذراعيها توضعان على كتفى ، وشعرها الأسود الفاحم يلامس وجنتى. إنتبهت من أفكارى ، وقبضت على يدها أرفعها عن كتفى . لم تقاوم لكنها فى لحظة استدارت وجلست على ركبتى . تركت ذراعيها ، وقبضت على وسطها أرفعها وأضطرها إلى الوقوف ، ووقفت بدورى .

---

(١) هو تيار موزمبيق وهو تيار شديد يتجه جنوبا .

رأيت وجهها الجميل قريبا منى إلى درجة أننى بذلت مجهودا كبيراً لأمنع نفسى من تقبيلها . إبتعدت عنها ثم تصنعت الجد قائلا .

— مرت ، إنك فتاة خبيثة .

— لماذا ؟

— لأنك تحاولين إغرائى .

— وما الخبث فى هذا ؟

تساءلت ببساطة حتى أننى كدت أضحك . إن الفتاة كانت على فطرتها حتى أنها لا ترى شيئاً فى إغراء رجل ومصارحته بذلك . تمالكت نفسى ، وكلمتها برقة :

— إن الفتيات لايجوز لهن هذا .

— لماذا ؟ ألا يفعلنه فى بلادكم ؟

اضطررت أن أبتسم وأنا أعترف .

— أحسب أنهن يفعلن لكن ليس بهذه البساطة .

— كيف إذاً ؟

— لست أدرى إن لهن وسائلهن الخاصة ، وعلى أى الأحوال فإنه لا يجوز لك إغرائى ، أو أى رجل ، لأنك ملك للفرعون ، له الحيـــاة ، والصحة ، والقوة .

نظرت إلى متحدية غاضبة .

— إننى لست ملكا لأحد إلا من أشاء .

قالت هذا واستدارت خارجة من القمرة . ولم أملك إلا أن أتابع قوامها البديع بنظرة إعجاب .

* * *

تزايدت سرعة التيار وتزايدت كذلك سرعة الرياح. تلبدت السماء بالغيوم واختفى رع (شمس الظهيرة) وراءها . رأيت أن البحر بدأ يضطرب ، وارتفعت الأمواج تلطم جوانب السفينة ، وتتقاذفها . كان من الجلي أننا مقبلون على عاصفة . أشرت إلى السفن بالإبتعاد عن بعضها ، ومراقبة وجود خلجان على السواحل نحتمى فيها حتى يهدأ الجو .

أتانى الرد بأن أحدا لم يلحظ خلجانا تصلح كمأوى للسفن، فأمرت بالابتعاد عن الساحل قدر الاستطاعة وبأن على أية سفينة تفقد القافلة أن تتجه إلى الجنوب الغربي بعد هدوء العاصفة حتى نعثر عليها أو تعثر علينا .

ما أن حل المساء حتى كانت العاصفة على أشدها . كانت من القوة بحيث لم أشهد لها مثيلا من قبل حتى أنى إنتابنى قلق شديد على السفينتين الصغيرتين ومن فيهما . كانت الأمواج تتقاذفنا . تحملنا على ظهرها لترتفع عشرة نبيوات (٥و١٢) مترا أو يزيد ثم يفغر البحر فاه لنهبط فجأة ، وتعلونا أطنان من المياة تغمرنا حتى نظن الهلاك ، ثم تنحسر عن ظهر السفينة . تداعبنا المياه ، فتلطم أحد الجانبين حتى تميل السفينة على الجانب الآخر ، ونكاد أن نغترف من البحر ، ثم تعيد اللطم من الناحية الأخرى فتعتدل ، وتميل إلى الجانب الأول .

لم تكتف الطبيعة بهذا ، وبدت كأنما هى تصب جام غضبها كاملا علينا. عزفت الرياح عزيف الجن ، ودقت طبول الرعد تصم الآذان . أرسل البرق وميضا ينير الظلام الدامس لثوان كأنما ليرينا أى مصير ينتظرنا ، وتفتحت عيون السماء تصب الأمطار مدراراً . من قمرة القيادة شاهدت الصواعق تلتمع وتتثنى منكسرة تصل مابين السماء والأرض ، وتوجهت بصلاتى إلى رب الأرباب ألا تنقض على صاريات السفينة .

كان منتوسين قبطانا ماهراً . حينما استشعر قرب العاصفة أفرغ ظهر السفينة ، وأمر باحكام ربط كل المؤن ، والبضائع ، ورفض أن يترك شيئا

يتحرك فى الداخل . حتى المصابيح المعلقة جمعها كلها ، لم يستثن منها واحداً .
مد الحبال الغليظة على طول السفينة وعرضها ، وأحكم وثاقها ، حتى يستعملها
البحارة إذا إضطرتهم الظروف إلى الحركة على السطح . أمر البحارة أن يربطوا
أنفسهم بحبال ، يمكن أن تقيد نهايتها إلى حبال السفينة بحيث يستطيعون
الحركة ، وهم مقيدون إليها فلا تجرفهم المياه إلى أغوار البحر ، وأمرهم
أن يكونوا على استعداد .

راقبته يقود الدفة ، يحركها بحكمة ، ولا يحاول مقاومة التيارات المائية
إلا بقدر ، وبحذر . كان يخشى أن تنكسر فتتخبط السفينة فى أرجاء البحر
إلى حيث تحملها الرياح ، والتيارات لا نملك لها دفعاً . لم تكن قمرة القيادة
حجرة ، وإنما كانت مجرد سقف محمول على أعمدة متباعدة ، وأقيم جداران
خشبيان على الجانبين فى حين ترك الجانبان ، الأمامى والخلفى ، دون أى ساتر ،
حتى تكون للدفة حرية الحركة . كان هذا ساتراً كافياً يمنع الهواء ، والأمطار ،
والشمس فى الأوقات العادية ، أما فى مثل هذه العاصفة فلم تعط إلا حماية
ضئيلة من الرياح الهادرة ، ومياه الأمطار ، والأمواج . لهذا لم تكن قيادة
الدفه فى تلك الظروف مهمة يسيرة ، وكان على القائد أن يقيد نفسه إليها
حتى لا تجرفه الأمواج ، أو تقذفه الرياح ، أو يتخبط مع تمايل السفينة
واهتزازها الشديد . لست أحسب أن الشخص العادى يستطيع أن يستمر
فى هذه الظروف أكثر من ساعتين . كنا فى الواقع سعداء الحظ ، ذلك أنه
فى السفينة يكون هناك عادة أربعة أشخاص يستطيعون قيادة الدفة ، قائد
الدفة ، ووكيله ، والربان ، ونائبه ، أما على سفينتى فقد زادوا إلى خمسة نظراً
لوجودى شخصياً .

أصدرت أوامرى أن تكون نوبة قيادة الدفة ساعتين ، وأن يصاحب
القائد شخص آخر . على أن يستمر هذا النظام حتى تنتهى العاصفة بسلام .
قررت لنفسى نوبة بمفردى ، وطلبت إلى عنخو أن يصاحبنى ، فهو وإن لم يكن
يدرى عن قيادة السفن شيئاً إلا أنه كانت له قوة هائلة تساعدنى إذا
احتاج الأمر .

توليت القيادة بعد نوبة منتوسين ، وسرعان ما أدركت مدى ما يلاقيه قائد الدفة ، حتى أننى فكرت أن أنقص النوبة إلى ساعة . لم يكن فى الإمكان أن توجه الدفة إلى إتجاه واحد تستمر عليه ، إذ أن تخبط الرياح ، والتيارات والأمواج كان كفيلا بكسرها . كان يجب أن تعالج بدقة ، وحذر ومع هذا فإن الأمر احتاج إلى كل قدرتى ، وكل حذرى . بقيت فى إنتباه مستمر أقاوم المياه ، والرياح ، وحركات السفينة المفاجئة ، بل والأمطار التى تدفعها العاصفة إلى داخل القمرة ، والأمواج التى تحاول أن تجرفنى . كنت مقيداً إلى يد الدفة ، ومع هذا فان الأمر كثيراً ما إحتاج الى كل قوتى ، وانتباهى حتى لا أرتطم بها .

حمدت رب الأرباب أن انتهت نوبتى ، وشكرت عنخو ثم ذهبت متوجها الى قمرتى . كنت مرهقاً تعباً أشعر بآلام فى كل عضلاتى ، وما أن دخلت حتى ألقيت بنفسى على فراشى . لم أكد أغمض عينى حتى سمعت أنات خفيفة صادرة من حجرة مرت فقفزت من الفراش ، وهرعت إلى حجرتها . على الضوء البسيط الآتى من الخارج صعقت لما رأيت . كان نجارو الملك هم الذين قاموا بصناعة الأثاث ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن البحر ، وأنوائه ، فتركوه دون أن يثبتوه .

كانت القمرة على ضيقها قد انقلبت رأسا على عقب . على الأرض رأيت الفتاة تتأوه فحملتها بين يدى ، ولاحظت أنها فى غيبوبة ، وأن الدماء تسيل من جبهتها . أسرعت أحملها إلى قمرتى ووضعتها على الفراش ، وقيدتها إليه ، ثم أرسلت من يستدعى الكاهن الطبيب حكا نخت ، وجلست إلى جوارها أراقبها فى قلق . فى الخارج كانت العاصفة عل أشدها الا أننى لم أشعر بها إلا فى اهتزازات السفينة حتى أن أرض القمرة لم تستقر على حال . مضت دقائق قبل أن يحضر حكا نخت ، أحضرت فى أثنائها بعض الماء ، ومسحت به جبهة الفتاة ، ورأيت ان جرحها لم يكن غائراً . حينما جاء الطبيب الكاهن طلب ايضاً ان يضاء مصباح ، ورفضت لكننى اوقدت له شمعة . فحص الجرح

ثم فحص الفتاة وقرر ان بها خدوشا كثيرة فى مواضع شتى من جسمها ، لكنها جميعاً لا تزيد عن كدمات ، وان الجرح الحقيقى هو الذى فى جبهتها. وقال ان الفتاة سعيدة الحظ اذ ان ضيق القمرة الشديد اضعف كثيراً من قوة اندفاع الأثاث ، ثم وضع بعض الدهون ، وقرر أنه يلزم الفتاة بضعة أيام من الراحة .

أعطاها بعض المنبهات حتى أفاقت ثم تركنا ، وخرج . تنبهت ببطء ، وحينما رأتنى ابتسمت ابتسامة باهتة وسألتنى :

— هل سننجو ؟

ابتسمت مطمئنا .

— انها مجرد عاصفة سوف تزول عاجلا .

— انها غضبه رب الأرباب لأنك تجاوزت الحدود التى يسمحون للبشر بالحياة فيها . هل لازلت على اصرارك على الإتجاه جنوبا ؟

— اجل .

تنهدت فى استسلام . ورأيتها متعبة مرهقة فنهضت قائلا :

— يلزمك الراحة . نامى ، وسوف أمر للاطمئنان عليك بعد حين ، وسأحضر بعض المأكولات .

لم ترد وأغلقت عينيها ولم تلبث أن نامت .

كان أول مافعلته بعد خروجى أن أشرفت على النجارين وهم يثبتون أثاث قمرة الفتاة ، وحينما تأكدت استلقيت على الفراش ، واستغرقت فى نوم عميق، استيقظت بعد أن بزغ خبر (شمس الصباح) وكان أول ما لاحظته أن العاصفة قد هدأت . لم أبال بحلاقة ذقنى ، أو زينتى الصباحية ، وأسرعت خارجاً . دخلت بهدوء إلى قمرتى ، ورأيت أن الفتاة مازالت نائمة فتركتها دون إزعاج ، وخرجت إلى سطح السفينة .

استقبلني نسيم لطيف ، ورأيت الشمس ساطعة ، والبحر هادئاً لا أثر فيه لأمواج . ألقيت نظرة إلى الغرب ، ورأيت الساحل ممتداً على بعد يترو (كيلو متر تقريبا) ، أو يزيد قليلا . أدرت نظرى فى البحر فى جميع الاتجاهات ولم أر أثراً لأى من السفن الثلاث الأخريات .

اتجهت إلى قمرة القيادة ، وهناك رأيت قائد الدفة ، ونائبه فسألتهما إن كان مراقب الصارى قد رأى أيا من السفن فأجاب المراقب بأنه رأى السفينة الكبيرة الثانية ، أما الصغيرتان فلا أثر لهما . استفسرت عن خسائر العاصفة فعلمت أنها جميعا طفيفة ، وأن النجارين والحدادين قائمون بإصلاحها جميعا ، وأن الخسارة الحقيقية لحقت ببعض المؤن إذ تسربت إليها مياه البحر ، وأن هنا . أكثر من عشرين جريحا ، تسعة منهم إصاباتهم شديدة .

لاحـ . أن التيار ما يزال قويا يحمل السفن إلى الجنوب ، وأن النسيم الخفيف يـ ـاعد فى ازدياد السرعة . فأمرت بطى الشراعات حتى تبطىء السفينة قليلا ، ونعطى بذلك فرصة للسفينة الكبيرة الثانية أن تلحق بنا ، كما قد تظهر السفينتان الأخرتان أو إحداهما . أمرت كذلك أن يلاحظ مراقب الصارى طبيعة الأرض ، وأن يخبرنا إذا وجد مكانا يصلح لرسو السفن .

تركتهما بعد ذلك وأتممت زينتى الصباحية . وتناولت افطارى ثم حملت بعض الفاكهة ويممت شطر قمرتى . رأيت أن الفتاة قد استيقظت ، وأنها تحاول أن تحل الرباط الذى يوثقها إلى الفراش ، فأسرعت إليها أمنعها . وضعت يدى على كتفيها برفق ، لكن بحزم ، وطلبت منها ألا تتحرك ، مقرراً أن هذا هو أمر الطبيب الكاهن . احتجت بأنها قوية ، ولا تشعر بأية حاجة للاستمرار فى الفراش ، إلا أننى رفضت إحتجاجها ، وجلست إلى جوارها أساعدها على تناول الإفطار .

أثناء وجودى معها حضر الطبيب الكاهن ، وألقى نظرة على الجرح الغائر

فى وجهها ثم قرر أنه لاخطر منه ، وأن الفتاة إن وعدته بعدم الحركة اليوم ، فانه سوف يسمح لها بمغادرة القمرة فى اليوم التالى ، ووافقت متضررة حينما رأت إصراره . انتهزت فرصة وجوده ، وسألته عن حال الجرحى فأجاب بأنهم جميعاً بخير .

جاء منتوسين ، وعنخو ، وأونى يستفسرون عن صحة الفتاة ، وحينما اطمأنوا ، أخبرنى منتو أن مراقب الصارى يعتقد أن هناك منطقة فى الساحل يمكن الالتجاء إليها كما أن سفينة إيوف عنخ قد ازداد اقترابها حتى أن رؤيتها من ظهر السفينة أضحى مستطاعا ، أما السفينتان الصغيرتان فما زال لا أثر لهما . أمرت أن يعمل المجدفون ببطء شديد للالتجاء إلى الساحل ، وأن يوضع رجلان عند طرفى السفينة ليسبرا غور المياه بصفة مستمرة ، وأن ترسل إشارات إلى إيوف عنخ حتى يتبع أثرنا .

تركت الفتاة ، وخرجت إلى سطح السفينة أباشر تنفيذ أوامرى . كانت الساعة الخامسة صباحا (الحادية عشر بتوقيتنا الحالى) حينما بدأنا نتجه إلى الشاطىء ببطء . كان الجو صحواً والسماء صافية ، وأرسل خبر أشعته دافئة على صفحة المياه الهادئة . ألقى بعض البحارة شباك الصيد تنفيذاً لأوامر منتوسين وحينما سحبوها كانت مليئة بمختلف أنواع الأسماك حتى أن الجميع هلل فرحا .

ألقينا المرساه بعد أن اعتلى رع السماء (شمس الظهيرة) ، وأمرت بنشر الشراع الأكبر حتى يمكن أن يرى من مسافة بعيدة ، كما أمرت أن يستمر مراقب الصارى فى مكانه على أن يتناوب معه آخرون ، وعلى أن ينفخ فى البوق فى فترات متفاوتة ، بعد نزولنا إلى الشاطىء بقليل لحقت بنا سفينة إيوف عنخ ، واتضح أن خسائره بدوره لم تكن كبيرة ، وإن كانت أفدح من خسائرنا خاصة ، وأن أحد الصوارى قد اقتلعته العاصفة ، وسقط على شخصين ، فقتلهما ، كما فقد ثمانية رجال آخرون .

قبل أن يحل المساء ظهرت سفينة ساحو رع تترنح ، كانت فى حالة يرثى

لها . حتى على بعد أمكننى أن ألاحظ أن الصارى الرئيسى قد سقط ، وأن هيكل السفينة لم يكن متماسكا تماما . بعد الغروب بحوالى الساعة كان ساحو رع جالسا فى خيمتى على الشاطىء يروى ما حدث لى ، ومعنا ايوف عنخ ، ومنتو سين . قرر أن صاعقة انقضت على صارى السفينة فأسقطته ، وأنه قتل فى هذا الحادث ثلاثة رجال . قرر أن الأمواج كانت تغمر السفينة بالمياه ، وأنها جرفت أكثر من عشرة أشخاص كما أن عدد الجرحى زاد على الثلاثين . قرر أن أمثال هذه السفن لم تصنع لتحتمل الأنواء الشديدة فى بحار لا نعرفها ، لو أنه فقط كان يعرف الساحل لالتجأ إلى أقرب مكان يستطيع أن يرسو فيه ، أما فى مثل هذا الجو فإنه خشى بمجرد أن يقترب فربما كان الشاطىء صخريا ، أو أهم من هذا ، وأخطر منه ، الشعب المرجانية التى لا تظهر على سطح المياه . كان عليه أن يجابه العاصفة فى أشدها بسفينة غير مجهزة تجهيزا مناسبا . إن الكثير من المؤن قد أصابها التلف ، والكثير من المعدات والأخشاب فقدت ، وتهشمت . إن السفينة سوف تحتاج أياما ، وربما أسابيع لإعادة إصلاحها .

قال إنه رأى سفينة نجم آب تتخبط فى اللجج ، وأن حالتها أسوأ من سفينته . بدا عليه أنه يعتقد أنها غرقت بمن فيها إذ أنه لاح أن الدفة نفسها قد تهشمت . وأن السفينة تسير على غير هدى . حينما سألته عن المكان التقريبى الذى رأى فيه السفينة قال إنه لا يستطيع أن يحدده حيث أن العاصفة كانت تدفع السفن بسرعة هائلة . يساعدها التيار المائى ، لكنه قال إن ذلك كان قبل غروب شمس اليوم السابق . طرحت سؤالا للقباطنة الثلاثة .

— ما رأيكم الآن ؟

كان إيوف عنخ هو الذى تكلم .

— فى ماذا ؟

— فى كيفية إنقاذ نجم آب ومن معه طبعاً .

— إنهم ولا شك لاقوا حتفهم ، ولا أرى أننا نستطيع أن نفعل شيئا

نظرت إلى الاثنين الآخرين ، وقال منتو سين متسائلا .

— هل ترى أن هناك أملا فى إنقاذهم ؟

لم أجبه ، والتفت إلى ساحو رع الذى بدا مترددا .

— لست أدرى . ربما يكون هنالك بعض الأمل فى أن تكون سفينتهم قد ألقتها الرياح على شاطىء رملى ، أو ربما تكون ما زالت طافية بشكل أو آخر ، وإن كنت أصارحكم أنه تلزم معجزة لإنقاذهم .

كنت أفكر طوال الوقت وأزن الأمور . لم يكن ساحو رع ، وهو آخر من رآهم ، متفائلا . لم يستطع أن يحدد المنطقة التى رآهم عندها ، كما لم يستطع حتى أن يقدرها ، وما كنا نستطيع نحن ذلك ، ومع هذا فإن هناك أملا فى انقاذهم ، وإن يكن ضئيلا ، وحزمت رأيى .

— إن سفينتى مازالت فى حالة لا بأس بها ، وسأقوم بالبحث عنهم .

تكلم ايوف عنخ .

— كيف ؟ هل ستعود ضد التيار ؟

— سنجدف .

— إنك لن تقطع يترو أو اثنين فى اليوم ، وستهلك بحارتك دون جدوى .

— لا بأس . سنحاول .

— لكنك لن تصل إلى أية نتيجة ، ولن تصل إلى البقعة التقريبية إلا بعد أربعة أيام ، أو خمسة على الأقل ، ولا يمكن أن تبقى السفينة طافية هذه المدة أو يظل من فيها أحياء .

لم أجبه ، ووجهت كلامى إلى منتوسين .

— منتو أريدك أن تختار مائة وخمسين رجلا أقوياء يكون لهم جلد على التجديف ، هؤلاء سيبقون فى السفينة فاعطوهم راحة كافية الليلة ، أما الباقون فعليهم تفريغ حمولة السفينة ، وأن لا يتركوا بها سوى مؤن تكفى لأسبوع . أريد السفينة جاهزة للإقلاع عند أول خيوط الصباح : أنعمتم مساء يا سادة .

نهضت من مجلسي حتى لا أدع مجالا للمناقشة ، فلم يروا بدا من الانسحاب. قضيت الليل أرقا ، واستيقظت مع أول خيوط الفجر . تركت لهم أوامرى أن ينتظروا عودتنا خلال أسبوع ، وأن يصلحوا السفينتين جهد الاستطاعة ، وأن يجمعوا ما يستطيعون من مؤن . بعد ساعة كنا قد رفعنا المرسى وأدرت مقدمة السفينة عوداً إلى الشمال .

قسمت البحارة ثلاث فرق تعمل كل منها فى التجديف ثلاث ساعات ، وتستريح ستا . لكن الفرقتين اللتين فى الراحة كان عليهما أن يقوما بسائر الأعمال اللازمة كالطهى ، والنظافة ، والمراقبة ، والدفة ، وما إلى ذلك. تركت الأمر لضابط كل فرقة أن يوزع العمل بين رجاله ، بحيث ينال كل منهم نصيباً كافيا من الراحة .

بالرغم من أن حمولة السفينة كانت أخف ما يمكن ، مما أدى إلى أن يكون غاطسها إلى أقل مدى مستطاع ، إلا أن التيار كان من الشدة بحيث كان التجديف مرهقاً . كان الرجال يقومون بعد إنتهاء نوبتهم منهكين ، لا يكادون يستطيعون حراكا . وأظن أن أقصى ماقطعناه هو خمسة يتروات يومياً .

كاد السير بطيئاً مملا ، لكننا على الأقل لم نصادف أى جوسى. . إنتهزت الفرصة ، وبدأت أكتب ملاحظاتى على الشاطىء ، والرياح ، والتيارات ، والخلجان التى يمكن أن تتوقف فيها السفن ، إذ أنه لم يكن فى الإمكان ملاحظة ذلك أثناء العاصفة . أبلت مرت سجر تماما من إصاباتها ولم يبق سوى ندب خفيف فى أعلى الجبهة ، أفلحت أن تخفيه بأن غطته بخصلة من شعرها الجميل .

قضت معى معظم ساعات النهار تقريباً ، حتى وقت الكتابة كانت تجلس فى قمرتى صامتة ، صابرة إلى أن أنتهى . عند التفتيش أو قيادة الدفة كانت تقف بعيدة بحيث لا أكاد ألحظ وجودها . فى المساء كانت تجلس معى ،

أو ترافقنى فى جولة على سطح السفينة . أضحى التفاهم بيننا سهلا إذ أن ماتعلمته من اللغة الديموطيقية خلال المدة الماضية كان أكثر من الكفاية للتفاهم العادى ، فى حين أنى أيضاً إلتقطت الكثير من لغة البانتو ، والسواحيلية .

مضى اليوم الأول دون أن يظهر أى أثر للسفينة المفقودة ، وفى المساء رأيت أن أعطى البحارة فرصة للراحة ، فلجأت إلى أحد الخلجان الكثيرة . قبل الفجر تحركنا ، ومضى اليوم الثانى أيضاً كسابقه ، وأتبعه الثالث . فى صباح اليوم الرابع بدأت أقطع الأمل من العثور على السفينة ، أو أى أثرلها ، وأخذت أفكر جيداً فى العودة حينما صرخ مراقب الصارى أنه يرى شيئاً طافياً يدفعه التيار نحونا .

وقفت عند مقدمة السفينة ، ولم يمض وقت طويل حتى شاهدت قطعة خشبية يدفعها التيار . حينما اقتربت لم يبق لدى شك فى أنها من أخشاب السفينة المفقودة . كانت لوحا ضخماً ، وفوقه تمددت جثتان لإثنين من البحارة . أسرعنا بانتشالها ، ووجدت أنه ما زالت فيهما بقية حياة فأسلمتهما للكاهن الطيب حقا نخت . كان الجوع ، والعطش قد نالا منهما حتى أن شفتيهما تشققتا ، كما تضخم اللسانان ، واحترق جلدهما من تعرضهما المستمر لأشعة الشمس الحارقة ولم يكن فى الإمكان استجوابهما .

على أن بمجرد وجودها كان كافيا لأن يحيى موات الأمل فى نفسى أن أعثر على غيرهما ، كما دفع البحارة إلى مزيد من الحماس فى التجديف ، حتى إن الكثيرين تبرعوا أن يمدوا أجل نوبتهم ويشاركوا زملاءهم ، وكانت النتيجة أن اندفعت السفينة بسرعه لم تقاربها من قبل. ومع هذا فقد حل المساء دون أن نعثر على شىء آخر أو على أحد من السفينة المفقودة .

ألقيت المراسى فى أحد الخلجان ، بالرغم من أن البحارة أرسلوا إلى يبدون إستعدادهم للاستمرار فى التجديف حتى يغيب القمر ، إلا أننى رفضت ذلك لما رأيته من معاناتهم طوال اليوم . أرسلت فى إستدعاء الكاهن أسأله عن

حال البحارين المتشلين فقرر أنهما فى تحسن ، لكن مازال مستحيلا أن أسألهما.
وقفت مع مرت سجر عند حافة السفينة ة وران علينا صمت قلق ، ورحنـا نتشاغل بمراقبة القمر ، وأشعته تنعكس على صفحة مياه البحر ، والكون فى سكون كامل يزيده بهاء أصوات الأمواج وهى تأتى من بعد وتتكسر على الشاطىء . لجأة قطع السكون صوت صرخة بشرية أطلقها شخص بلغ به الألم ذروته .

الفصل الحادي عشر

صائدو الرءوس

بالرغم من أن ما سمعته كان مجرد صرخة ، وبالرغم من أنها لم تتكرر ، إلا أنني لم أشك لحظة في أن أحد بحارتنا هو الذي أطلقها ، وأنها صرخة موت : تركت الفتاة وبدأت أصدر أوامري بسرعة . أطفئت جميع الأنوار في السفينة وقدتها محاذرا نحو الشاطىء حتى أمكن إنزال السقالات .

أمرت أن يبقى ثلاثون شخصاً للحراسة ، وهددتهم بالموت إن أغفل أحدهم عينه أو تراخى في المراقبة . لم أكن واثقاً أن من كان يعذب البحار ، أو يقتله لم يرنا ، وربما تعمد أن نسمع الصراخ حتى نندفع إلى فخ أعده . من جهة أخرى لم يكن هذا يعني أن أتغاضى عن الصرخة ، وما تحمله من معان . إن الذي أطلقها لاشك أنه مات ، لكن ليس معنى هذا أنه ليس هناك عشرات غيره ، وربما باقي بحارة المركب المفقودة جميعهم ، ينتظرون المصير نفسه .

كانت أشجار الغابة تصل إلى حدود المياه تقريباً ، بفارق لا يتعدى عشرين نبيو (خمسة وعشرون متراً) لم أنزل كل القوة إلى الشاطىء خشية أن يكون هنالك كمين فيقتل عدد كبير قبل أن يصل الباقون إلى حماية الأشجار . لهذا قسمت القوة إلى ثلاثة أقسام ، وأمرت كل ضابط قسم ألا يهبط برجاله حتى يصل الذين سبقوهم إلى الأشجار .

قدت الجماعة الأولى ، ولم أتوقف لحظة . أمرتهم بإسراع الخطى نحو الغابة ، ووصلنا بسلام . في دقائق أخرى كانت الجماعة التالية قد وصلت ، وأعقبتها الأخيرة . لم أكن أعلم من أين أتت الصرخة ، لكن طبقاً لتقديري أنها جاءت من ناحية الشمال . تركت الفرقة آمراً إياهم بعدم الحركة ، أو

إصدار أى صوت حتى تأتى إليهم تعليماتى ، أو إذا سمعوا صرخات ، استنجاد صادرة منا .

استصحبت معى أونى ، وعنخو ، وخمسة أفراد آخرون ، وتقدمت فى الغابة محاذرا . كان القمر يرسل أشعته باهتة تتخلل الأشجار ، لكن ضوءها لم يكن كافياً للرؤية الواضحة ، ومع هذا فلاشك أنها كانت عونا كبيراً . لم أشأ حتى أن أشق طريق بقطع الأفرع ، وتعمدت أن أتفاداها قدر الاستطاعة .

سرت بمحاذاة الشاطىء تقريباً حيث رأيت أنها المنطقة التى تخف فيها الأشجار ، وفروعها نسبياً .

تنازعنى عاملان . فمن ناحية كانت المنطقه جديدة على ، ولا أعرف وحوشها ، وضواريها ، وهوامها ، بالإضافة إلى هذا كنت مازلت فى شك من احتمال وجود كمين من عدو ماكر ، غادر ، يستدرجنى ورجالى إلى أنسب الأماكن بالنسبة له . ومن ناحية أخرى كانت الصرخة التى سمعتها مازال تدوى فى أذنى ، وتدفعنى إلى أن أغذى السير . فضلت التأنى . أياكانت الأخطار التى تحيط بالرجال ، فانهم إستمروا فيها أكثر من خمسة أيام ، ولن يضيرهم الإنتظار ساعة .

كنا نتعجل لاشعورياً حيثما يسقط ضوء القمر ، ونتلكأ تلقائيا فى حماية الظلال . تدور أعيننا فى الغابة تتلمس الأشباح ، وتتصنت آذاننا المرهفة تلتقط الأصوات . كان عنخو أول من سمع الأصوات . أحسست بيده تقبض على ذراعى تستوقفنى ، وحينما إلتفت إليه أشار بيده إلى أذنه موضحا أنه سمع شيئاً . أرهفت السمع ، وجاءتنى الأصوات مختلطة ، وإن كنت لم أتبين إلا أنها بشرية .

فى الدقائق التالية سرنا بحذر أكبر ، ولم نكد نقطع بضع عشرات من النبيوات حتى ظهر أمامنا ضوء نار من خلال الأشجار الكثيفة . دهشت

إذ كان الضوء بعيداً عن الشاطىء ، على عكس ما توقعت أنه يكاد أن يكون إلى الغرب تماما . خطر فى بالى أنه لابد من وجود درب أو أكثر ، يتجه بين الأشجار من موقع النيران إلى الشاطىء . همست بذلك إلى عنخو فأومأ برأسه ، واختفى بعد لحظات .

يبدو أننا كنا على مقربة جدا من الدرب إذ أنه لم تمض دقائق قليلة حتى عاد مقرراً أنه عثر عليه . سرنا وراءه وبعد أقل من ثلاثين نبيو توقف . أشار إلى الدرب خلف الحاجز من الأشجار مباشرة ، وقال إنه يستحسن ألا نصل إليه إذ أننا لانبعد عن مكان القرية كثيراً ، ومن اليسير على من فيها رؤية أى شخص يظهر فى الدرب . وافقته على رأيه ، وإن كنت فى الواقع لم أرد معرفة مكان الطريق إلا لاستعماله حين العودة ، إن اضطرتنا الظروف إلى العدو حيث أننا لم نكن نعرف مسالك الغابة ومن اليسير على أعدائنا اقتناصنا فيها .

فجأة دقت الطبول ، وازدادت الأصوات ارتفاعا حتى أنى لم أشك فى أن سكان الغابة يقيمون وليمة . اقتربنا إلى مسافة كافية للرؤيا ، وتلصصنا بين الأشجار . كانت مساحة خالية كبيرة أشعلت النيران فى وسطها ، وفى طرفها البعيد ، أقيمت وليمة . على الأرض بسطت أنواع مختلفة من الفاكهة ، وبعض المأكولات الأخرى التى لم أتبينها . كان الجميع جلوسا على الأرض سوى رجل واحد جلس على جذع شجرة ، بالرغم من المسافة التى تفصلنا ، فإن الضوء أظهر مدى بشاعة الوجه ، وضخامة الجثه .

قامت جماعة ترقص على دقات الطبول . كانوا عرايا لا يستر جسدهم شيئاً ، نساء ، ورجالا . لفت نظرى فيهم طول القامة غير العادى حتى أننى مع ضخامة جسمى ، اعتقدت أننى أقل منهم طولا . كان الكثيرون منهم قد طلوا وجوههم ، وأجسادهم ، بألوان متباينة ، ورسومات غريبة ، جعلت منظرهم مفزعا . إلى جانبى تحرك عنخو ، وحينما إلتفت إليه تعجبت إذ رأيته ينزع ثيابه . فى ثوان تجرد عارياً ، وما كان فى الإستطاعة أن تفرقه عن الراقصين .

بخفة غريبة تحرك ، ولم تمض لحظات إلا وكان الظلام قد ابتلعه . أدرت وجهى ثانية نحو الساحة أستطلع . رأيت الأكواخ متناثرة حول الساحة فيما يشبه الدائرة ، واستقرت عيناى على أربعة منها فى أقصى الشمال الغربى . أبصرت رجالا دائبو الحركة حولها ، وأيقنت أن جماعة من أصحابنا قد سجنوا فيها ، وأن الرجال يقومون بالحراسة .

قررت أن نتجه إلى الأكواخ ، فى محاولة لإنقاذ البحارة المعتقلين . قبل أن أفعل أرسلت أحد الرجال إلى باقى جنودنا طالبا منهم أن يتقدموا إلى أقرب نقطة من القرية ، وأن لا يقوموا بأى عمل حتى تأتيهم إشارتى ، كان علينا بعد ذلك أن نخترق الدرب لنصل إلى الناحية التى تقع فيها الأكواخ . اتجهت بجماعتى الصغيرة صوب الشاطىء ، بعيدا عن مرمى نظر من كان بالقرية ، وعبرنا الدرب ، واحدا إثر الآخر ، ومن ثم اتجهنا ثانية نحو القرية .

هنا وقعت الطامة . فى لحظة كنا نتلصص بين الأشجار فى أمان ، وفى اللحظة التالية كان عشرات الرجال يحيطون بنا من كل جانب . بحركة لا شعورية وضعت يدى على مقبض حسامى . وكأنما بسحر ساحر ظهر القوس ، والسهم فى يدى أونى ، كما استعد باقى الجنود ، بينما وقف الزنوج حولنا رافعين أيديهم برماحهم الخشبية . عم السكون ، حتى دقات الطبول توقفت .

للحظات تجمد الموقف ، ثم رأيت ألا فائدة من المقاومة فأصدرت أوامرى بالتزام السكينة ، واسترخت الأعضاء المتوترة . بالرغم من سوء موقفنا فإننى لم أملك إلا أن ألاحظ مدى طول قامات الزنوج أمامى . لم يكن منهم من هو أقصر منى ، وكان معظمهم أكثر طولا ، قبيلة من العمالقة ، مع هذا كانت أجسامهم ضعيفة فلم يكن لهم عرض مناكب ، أو تفصيل عضلات .

بشكل ما فهموا أننا استسلمنا . لم يحاولوا أن يأخذوا أسلحتنا ، واستدار الجماعة أمامنا آمرين إيانا بالمسير . تحركنا وهم يحيطون بنا من كل جانب ، وبهذا الشكل دخلنا القرية . اقتادونا حتى وصلنا أمام الرجل الجالس على جذع

الشجرة الذى كان زعيمهم بلا أدنى شك . إذا كنت قد لاحظت بشاعة وجهه وضخامة جسده من بعد ، فإننى حينما اقتربت منه أهالنى الاثنان . كان وجهه أقرب إلى القردة ، إلا أنه لم يكن عليه شعرة واحدة ، أما شعر رأسه فكان جعداً ، ومصفوفاً إلى حد أنه كون مجارى خالية تماماً .

على أن بشاعة وجهه لم تكن شيئا إلى جانب ضخامة الجسد . حينما وقفنا أمامه وقف . كان ماردا بين العمالقة حتى خلت أنى قزم . فاقنى طولا بقبضة يد على الأقل . كان رأسه صغيرا بالنسبة إلى جسمه ، وعلى العكس من ذلك ، بدا عنقه ضخما قصيرا ركب على كتفين هائلين ، يعلوان صدرا عريضا إمتلأ شحماً ، ولحماً وتدلى ذراعان مفتولان ، وصل طولهما إلى الركبتين . كانت القوة البدنية الخارقة ممثلة فى كل جزء منه .

تقدم حتى صار أمامى مباشرة ، ومد يديه ليقبض على ذراعى يسمرهما إلى جانبى . شعرت بأن عظامى تكاد أن تتهشم بين أصابعه . فجأة رفعنى من الأرض دون أن يثنى ذراعيه ، وأحسست كأنما أنا طفل يلهو به هرقل . كان يستعرض قوته أمام قومه ، ولم أدر لماذا غمرتنى مهانة جعلتنى أتصرف بلا عقل . بسرعة تحرك ساقى ليلتقى قدمى بركلة مريعة مع أسفل بطن الوحش. صرخ من الألم ، وألقانى بعيداً كأنما أنا كرة لاثقل لها ، ولا وزن. ارتطمت بالأرض بشدة رضت ضلوعى واندفع رأسى إلى غير موضعه الطبيعى ، ثم ارتد ثانية إلى مكانه من العنق ، وغالبا ما أكون قد فقدت رشدى لثوان .

قبل أن أتمالك نفسى كان المارد قد رفعنى من الأرض بكلتا يديه . لم يكن يستعرض قواه هذه المرة ، وإنما كان يريد أن يقتلنى ، أحسست بقبضتين من الحديد تلتفان حول وسطى ، وتضغطان بقوة ، لو أنها استمرت ثوان لتهشمت ضلوعى ، وانكسر عمودى الفقرى ، لكنه لم يستمر . تقدم منا رجل ارتدى قناعا مسخاً على وجهه ، وزين جسمه بالكثير من الدهون المتباينة الألوان . تكلم مع الوحش بلهجة آمرة فيها غضب . وتراخى الذراعان الحديديان .

سقطت على الأرض فى شبه غيبوبة أحاول أن أسترد أنفاسى الضائعة . ومع كل محاولة كانت عظامى تئن ألماً . مكثت لا أستطيع النهوض دقائق ، ثم شعرت بركلة شديدة فى جانبى . تمالكت نفسى ، ووقفت لأرى الرجل ذا القناع يشير إلى ويتكلم بلغة لم أفهم منها حرفاً واحداً لكن المعنى كان واضحاً . تحاملت على نفسى ، وسرت إلى حيث يقف زملائى . جردونا من الأسلحة ودفعونا أمامهم إلى أحد الأكواخ الأربعة .

استقبلنا جماعة من بحارة السفينة المفقودة وجنودها ، يستفسرون . كنت ما زلت أتألم ، وأتحامل على نفسى ، لكن ما أن وصلت إلى الكوخ حتى ارتميت على الأرض جالساً .

— أهلا بالسيد القائد .

كان صوت نجم آب . رفعت بصرى لأراه واقفاً إلى جوارى ، ولم أستطع الكلام .

— كيف أتيتم إلى هنا ؟ وما الذى حدث لك ؟

تركت لرفاقى مهمة الرد عليه ، وركزت إرادتى فى استعادة قواى ، واسترداد أنفاسى . كنت لم أزل أشعر بآثار الأصابع الفولاذية فى جانبى ، ولم يكن تنفسى قد انتظم تماماً ، فجاهدت أن أقاوم الآلام . ببطء شديد بدأت أستعيد قواى ، ويصفو عقلى . اعتدلت فى جلستى ، إلا أننى لم أتعجل النهوض. لاحظ نجم آب أننى أكاد أن أفيق . فقال بصوف جاد :

— سيدى القائد عليك أن تتمالك نفسك بسرعة فإن الذى حال بين ذلك الوحش وبينك هو الكاهن الساحر . هؤلاء القوم صائدو رؤوس ، ومن أكلة لحوم البشر ، وقد رفض الكاهن أن تقتل قبل أن يقوم بطقوسه ، ومعنى هذا أن أمامك بضعة دقائق لتستعيد قوتك كاملة ، واتزان عقلك لأنك سوف تقابل زعيمهم فى حلبة القتال ، والقتال هنا إلى الموت .

كنت أستمع ، وصفا ذهنى تماماً . جاء سؤالى مفاجأة له :

ـــ هل تعلم أين خبئوا الأسلحة ؟

نظر إلى دهشا لكنه أجاب :

ـــ كلا .

ـــ هل تعلم أين كوخ الزعيم ؟

ـــ أجل ... هو الكوخ الكبير فى صدر الساحة .

ـــ أين كوخ ساحر القرية ؟

ـــ إلى جواره مباشرة .

ـــ حسناً . إستمع إذاً ونفذ ما أقول . إذا كان كلامك صحيحاً بالنسبة للقتال فلا بد أنهم جميعاً سوف يركزون كل اهتمامهم عليه . سأحاول أن أطيل المدة قدرة استطاعتى ، وعليك أن تقود البحارة إلى طريق السفينة جنوبا . سوف تلتقى مع الجنود الذين جاءوا معى . لكن قبل ذلك عليك أن ترسل بعضهم ، ليستولى على أسلحتنا ، وأعتقد أنها لا يمكن أن تكون إلا فى أحد الكوخين : الزعيم ، أو ساحر القرية ، وربما فى الإثنين .

نظر إلى نجم آب كأنما قــد مسنى خبال ، وحينما تكلم جاءت كلماته مصداقا للنظرة .

ـــ كل هذا جميل . لكن كيف سنخرج من هنا . إن الحرس يدورون بصفة منتظمة حول الأكواخ وإذا فاجأناهم فان صوت القتال سوف ينبه ، ولاشك ، سائر القرية وسنجد أنفسنا نقاتل مئات منهم قبل أن نستطيع الحركة .

ـــ إن عنخو قد اندس بينهم ، وسوف يجد ، ولاشك ، طريقة للإفراج عنكم ، وقتل الحرس قبل أن يتنبه سائر من فى القرية ، وسوف يكون الأمر سهلا ، وأنا أقاتل زعيمهم .

ـــ إنك لن تخرج سليما ، ولن تقاتله لأكثر من ثوان .

— ربما . لكن هذا هو الأمل الوحيد .

— لكنك سوف تموت حتما .

— غالبا ، لكننى سأحاول على كل حال . ولا أريد منكم العودة لإنقاذى بعد ذلك . عليكم بالرحيل فوراً دون انتظارى إن لم أعد .

— إنك لن تستمر فى القتال مدة طويلة . سوف يقتلك هذا الوحش فى دقائق .

ضجرت من مناقشته المتكررة فقلت بلهجة آمرة :

— لاشأن لك بهذا ، وعليك أن تفعل ما آمرك به . شىء واحد أرجوه إذا لم أستطع الفرار ، فعليك أن تتولى قيادة الرحلة ، وأن تتبعها إلى نهايتها ، ولا تترك إيوف عنخ يؤثر عليك .

ما كدت أنتهى من كلامى حتى فتح باب الكوخ ، وظهر منه الكاهن يتبعه رجلان . تقدم حتى وصل إلى ، وأمرنى بالخروج ، ولم أحاول الإمتناع . سرت أمامهم إلى الساحة ، ورأيت جميع الأهالى قد تجمهروا فى دائرة كاملة ، تاركين مساحة كبيرة خالية فى الوسط . لاحظت بارتياح أن من الموجودين من كانوا صغاراً ، كما أن النساء كن موجودات أيضاً بكثرة يغلب معها الظن أنهن جميعاً قد تركن أكواخهن ليشاهدوا القتال . وابتسمت لنفسى . إن هذا سوف ييسر طرق الهرب أمام رجالى ، كما سوف ييسر محاولات عنخو . ماعلى الآن إلا أن أطيل القتال قدر جهدى ، وأن أشد انتباه الأهالى .

توسط الكاهن فى الدائرة ثم أخذ يرنم بألفاظ لم أفهمها . دقت الطبول وبدأ الرقص حولى . لم أعره إهتماما فكل تأخير يعطى عنخو ، ورجالى فرصة أكبر . جلت بنظرى فى الموجودين ولم أر زعيمهم ، ولعله كان يتلقى بركة كاهن آخر . استمرت الطبول ، واستمر الرقص أكثر من ربع ساعة ، ثم توقف الإثنان معا كأنما باتفاق سابق .

تعالى صريخ القوم يستقبلون زعيمهم . من وسطهم تقدم غير عابىء بأحد

منهم حتى دخل الحلبة الفسيحة ووقف أمامى مباشرة . كان هائلا فى ضخامته بشعا فى منظره . لم يكن لديه شك فى النتيجة ، كما لم يكن لدى أى أمل ، ومع هذا فإننى كان على واجب أن أطيل القتال ، جهد استطاعتى . كان الكاهن مازال واقفاً إلى جوارنا . فجأة صرخ بأعلى صوته وانسحب ، وفهمت من هذا أن القتال قد بدأ ، خاصة حينما رأيت يدى المارد تتحركان .

ربما لم تكن مضت نصف ثانية على صرخة الكاهن ، كان عقلى خلالها قد استوعب ، وتحركت يدى بلكمة ضمنتها كل قوتى ، واصطدمت قبضتى بفك المارد الأسفل . لو أن هذه الضربة أصابت أى شخص عادى لانتهت القتال أما مع هذا الوحش ، فلم تزد على أن أوقفت تقدمه ، كما ارتد عنقه إلى الوراء شعرت بأن عظام أصابعى قد تهشمت ، وانتابتنى آلام فى كتفى ، ومع هذا فما كنت لأترك له فرصة يضع فيها يده على جسمى . كنت أعلم أنه لو فعل لانتهت المعركة .

بسرعة تراجعت مبتعداً عن الذراعين الفولاذيين ، قبل أن يفيق ، سددت ضربة ثانية من جانب الفك ، تحت الأذن مباشرة . أذهلته هذه اللكمة لثوان حتى أنه استدار إلى الناحية العكسية يبحث عنى . انتهزت الفرصة وقفزت فى الهواء راكلا ظهره بقدمى كلتيهما . جاءت الركلة فى وسطه تماما فاهتز جسده الضخم ، واندفع الى الأمام يتخبط ، بينما سقطت أنا على الأرض .

حتى هذه اللحظة لم يكن قد لمسنى ، ومع هذا فإننى كنت ألهث ، وأشعر بآلام حادة فى أصابعى ، وكتفى ، وبخور فى ركبتى . كانت ضرباتى الثلاث جميعها موفقة إلا أننى كنت فى كل مرة أشعر كأنما أرتطم بحائط لايتأثر . استعدت نفسى ، ووقفت فى اللحظة المناسبة . رأيته يندفع نحوى كثور هائج ، وقد مد ذراعيه ، للمرة الثانية قفزت فى الهواء ، وامتدت ساقاى تستقبلانه وتركلانه فى أسفل بطنه .

صدرت منه صرخة اهتزت لها أرجاء الغابة ، وأطاح بإحدى يديه حيث كنت . أصابتني الضربة فى كتفى ، وشعرت بنفسى أطير فى الهواء لأرتطم بالأرض الصلبة . ارتجت أضلاعى جميعها ، وشعرت أن ذراعى الأيسر قد توقف عن الحركة . لم أستطع النهوض من مكانى ، ووصلت أذنى أصوات مختلطة بين الهتاف والتشجيع . توقعت أن ينقض المارد على وأن ينهى المعركة بضربة واحدة من قبضته ولم يحدث شىء . وقفت أترنح ، والدنيا تدور بى . غشيت عيناى غمامة فلم أر أمامى إلا مجرد أشباح لا أستطيع تمييزها . خلت المارد يتقدم نحوى مسدداً لكمة أخرى إلى رأسى لحاولت تفاديها ، ولم يكن الأمر كذلك .

مضت نصف دقيقة قبل أن أتبين الأشياء جليا ، وعلمت لماذا لم يجهز على . وأنا فى شبه غيبوبة . كان المارد جالساً على الأرض يتألم أثر الركلة الأخيرة ، لم أتعجل الهجوم عليه . كنت أنا فى حالة يرثى لها ، ولم أكن قد استعدت حواسى تماما ، كما أن حركة ذراعى الأيسر ، وكتفى كانت ماتزال شبه مشلولة . كنت أعلم أن ما أتميز به عن المارد هو العقل ، وخفة الحركة ومن المحتم على أن أستغل الميزتين الى أقصى الحدود ، لو أردت أن أطيل القتال .

عندما ارتكبت الخطأ الذى كاد يودى بحياتى . لقد قدرت لنفسى الميزتين ، وكنت على حق . لكننى لم أقدر خصمى حق قدره ، ولا انا قدرت مدى عجز ذراعى الأيسر ، ولا أننى كنت لم أستعد رشدى تماماً . اتجهت بسرعة نحوه ، وضربته بأقصى قوتى فى عنقه الغليظ . ترنح وهو جالس ، لكن فى اللحظة التالية امتدت يده بسرعة أذهلتنى لتقبض على يدى وتشدنى اليه .

أحسست بالذراعين الحديدين يطويان خصرى ، ويضغطان على عمودى الفقرى . كان المارد مازال جالسا على الأرض ، لكنه اعتدل بشكل ما ، وانتصب جزء جسمه الأعلى راكعاً على ركبتين . حاولت بأقصى قوتى أن

أدفعه عنى ، ثم تبينت أنها محاولات صبيانية . لفترة بدأ الذعر ينتابنى ، وطفقت اكيل له اللكمات بلا هواده ولا هدى . أردت أن أتخلص من الذراعين الذين يقصمان عمودى الفقرى ، ويمنعان عنى كل تنفس .

بدأت السحابة السوداء تغشانى ثانية ، وعلا طنين مزعج فى أذنى ، وبلاشعور أيقنت أن المسألة لن تعدو ثوان . لم يأبه المارد بضرباتى . ومع أن الدماء كانت تسيل من أنفه ، وفمه ، ومع أنها ولاشك كانت تؤلمه ، إلا أن ضغط الذراعين لم يخف . حاولت محاولة أخيرة . فردت ذراعى ، وبأقصى ما أستطيع من قوة هبطت بها على أذنى المارد . شعرت بسهم من نار يخترق كتفى الأيسر ، لكن غريمى صرخ ، ورفع ذراعيه عنى .

بسرعة ابتعدت عنه ، وأخذت أتنفس الهواء بشدة . كان عمودى الفقرى فى حالة يرثى لها ، حتى أننى أحسست كأن جزئى الأعلى قد انفصم عن الأسفل واشتدت الآلام فى كتفى وذراعى ، لكن تنفسى ابتدأ ينتظم ، وأخذ الطنين يخف من أذنى ، وترتفع الغشاوة عن عينى . نظرت الى المارد . كان مازال على الأرض منحنياً ، ورأسه إلى اسفل وقد وضع يديه كلتيهما على أذنيه يئن من الألم .

أيقنت أننى لم أتخلص منه سريعاً ، فأننى لن أحتمل ، وسوف أكون فريسة سهلة له . إن أية ضربة من ضرباته لو أصابتنى فستقضى على . كان على أن أفكر ، وأن أعمل سريعاً ، وهو مازال على الأرض ، وقبل أن تعود إليه جميع حواسه .

قدرت خطوتى التالية . مثل هذا الوحش لن ينتظر حتى يسترد وعيه تماما ، وإنما سوف يقف بمجرد أن يشعر بأن الآلام بدأت تخف . ومثل هذا الجسد يحتاج إلى وقت لينتصب واقفاً ، وكان على أن أضبط ضربتى الثانية بحيث يكون توقيتها محكما . دنوت منه قليلا أحثه على النهوض قبل أن يشعر بقدرته التامة عليه ، فكلما تعجل القيام ، كان أبطأ حركة . حدث

ماتوقعته . وضع يده كلتيهما على الأرض يسند جسده الضخم ، استعدادا للنهوض ، وهنا تحركت . للمرة الثالثة قفزت فى الهواء ، وللمرة الثالثة ، إرتطمت به قدماى . هذه المرة فى رأسه .

كان فى منتصف حركته حينما تلق الضربة . شعرت بأن رأسه قد ارتد إلى الخلف تاركا رقبته فى مكانها . رأيت الجسد الهائل يتراجع كأنما يلاحق الرأس فى محاولة لاستعادة توازنه ، ثم يسقط متمددا على الأرض . لم أبال بالآلام التى كنت أشعر بها ، وأسرعت معتدلا . للمرة الرابعة قفزت فى الهواء لـكن لتسقط قدماى كلتاهما على وجه المارد .

لست أدرى كيف حدث هذا . لعل شدة الألم هى التى دفعته إلى مافعل أو لعلي لم أعط عقله مايستحق من تقدير . أياكانت الأسباب فقد إرتفعت صرخته مدوية ، وطوح بيده بآلام بقوة لتصطدم قبضته بجانبي الأيمن . شعرت بآلام جادة عرفت أن ضلعاً أو أكثر قد تـكسر فى قفص الصدرى . طوحت بي الضربة حتى أنى وجدت نفسى وسط جماعة من رجال القبيلة . انهالت ضرباتهم يدفعوننى ثانية إلى الحلبة .

وقفت أحاول أن أتنفس دون أن أفكر فى الوحش الذى أقاتله . كانت آلام صدرى لا تحتمل حتى أنها طغت على كل شعور آخر . كنت أترنح ، وقد غشى عينى ظلام يمنع الرؤيا ، وعلمت أنى سأفقد الوعى إن لم أقاوم ، من مكان ما فى أعماق ، ربما من البا ، النفس ، أو من سخم ، القوة الحيوية ، أو من آب ، الإرادة ، أياكان المـكان فانى إستجمعت قوة لا أدرى من أين جاءتنى .

فى دقائق كنت قد تغلبت على ضعفى ، وزالت الغشاوة عن عينى . لم تزايلنى آلام صدرى ، لـكننى تحكمت فيها رأيت المارد ، مايزال جالساً على الأرض واضعاً يديه على إحدى عينيه ، وهو يئن ألماً . أعدت النظر فلاحظت أن يديه مخضبتان ، كما أن الدماء تسيل من أنفه بغزارة . إنتابتنى موجة من الرحمة

حينما علمت أن حذائى فقأ إحدى عينيه ، وهشم أنفه .

تعالت هتافات الأهالى تصم الآذان . ومع أنى لم أكن أفقه مايقولون إلا أننى سمعتهم يرددون كلمة واحدة . كان من اليسير على الآن أن أقضى عليه بالرغم من آلامى إذ أن حالى أحسن كثيراً من حاله. ومع هذا فلم أتقدم إليه. لو أن شيئاً دار فى خلدى وقتئذ فإنما تساؤلى عما إذا كنت أجرؤ على مساعدته مخاطراً بأن أكون تحت رحمة يديه . لم تزايلنى الثقة أنه ، بالرغم مما هو فيه ، قادر على أن يقتلنى بضربة واحدة .

إذا كنت لم أفهم مايردده الناس ، فان تصرف الكاهن لم يجعل لى سبيلا إلى عدم الفهم . تقدم حاملا سيفى ، وصار متلصصاً وراء المارد ، يريد قتله . تغابيت مظهراً أننى لم أفقه شيئاً حتى إذا ما أضحى خلف المارد تماما ، قفزت عليه وأمسكت يده قبل أن تهوى بالسيف . تحرك الرجل الجريح قليلا ، وبالرغم مما هو فيه رأى ، وفهم . كان الكاهن الساحر فى مثل طولى لكنه أبعد مايكون عن قوتى .

ضغطت على معصمه حتى سقط السيف على الأرض . لم أترك يده وإنما جذبته بشدة قذفت به بعيداً بين أحضان شعبه . وفى اللحظة التالية كان السيف فى يدى . ارتفع صياح الناس حتى أضحى صراخاً . كانوا من أكلة لحوم البشر ورأوا الدماء تسيل ، ولعلهم منوا أنفسهم بوليمة على الجسد الهائل لزميلهم ، ثم شاهدونى أحرمهم منه . جن جنونهم ، وحرضهم الكاهن الساحر ، فاندفعوا نحوى يهللون ، ويهددون . وقفت مستعداً للدفاع عن نفسى ، وعن الوحش الجريح ، وإن أيقنت أنها إن هى إلا لحظات ، ونموت .

فجأة صمتت الضوضاء ، وبدلا من أن يتقدموا ليطبقوا علينا ، رأيتهم يتراجعون مرتعبين . أحسست بحركة إلى جانبى فالتفت ليعترينى الفزع بدورى على قيد خطوة منى وقف جدار أسود يترنح ، والدماء تسيل من عينيه ، وأنفه كان وجه المارد بشعاً بطبيعته ، أما الآن وقد فقد إحدى عينيه ، وتهشم أنفه ،

وتورم خده ، فانه أضحى مفزعاً رهيباً . كنت أعلم أنى أصبحت تحت رحمته تماماً فمع أن السيف كان فى يدى إلا أنى لن أتمكن من إصابته قبل أن يهوى بقبضته على ، وفى هذا الموت لامناص .

تسمرت فى مكانى موقناً بالموت ، إلا أن المارد لم يلتفت إلى، واستمر تقدمه نحو الجماهير المحتشدة . تراجعوا إلى الوراء ، كل يود لو فر من أمامه إلا أن ضغط الصفوف الخلفية منعهم من ذلك . تصايح الناس من خلف يحضون زملاءهم ، وبدأ الآخيرون يستجمعون شجاعتهم ، خاصة بعد أن لاحظوا أن المارد يترنح فى مشيته . التفت خلفى فى الوقت المناسب لأرى جماعات أخرى تطبق علينا . تحرك سيفى بسرعة فأسقط اثنين ، وتراجع الآخرون مذعورين .

من السماء تساقطت سهام كأنما الدنيا تمطرها ، وتعالى الصراخ ، والأنين بين الجموع المحتشدة .

الفصل الثاني عشر

التمــرد

كنت قد اعتزمت ألا نبق فى الخليج لأكثر من يومين حتى أستطيع أن أعيد تنظيم رحلة العودة ، وتموينها ، لكن الواقع أنى رحت فى غيبوبة حتى لم أفق منها إلا بعد ثلاثة أيام . حينما إنتهيت وجدت أن صدرى جميعه تلفه الضمادات ، كما تبينت أنى فى حالة ضعف شديد حتى أن اية حركة كانت تقتضى مجهوداً .

أحسست بجوع شديد فتململت محاولا النداء عسى أن يسمعنى أحد البحارة ، وفى لحظة قفزت مرت سجر من الأرض لتنحنى عل فراشى تسألنى بلهفة عما أود . كان وجهها الجميل متجهماً ، علته صفرة توحى بأنها لم تذق النوم لأيام إلا لماماً ، ودلت نظراتها عل مـدى القلق الذى يعتمل فى نفسها . إبتسمت ابتسامه باهتة فى محاولة أن أطمئنها ، وسألتها أن تأتينى بالطعام . لم أكد أتم كلامى حتى كانت قد اختفت من القمرة ، وبعـد دقائق عادت ومعها حقانحت ، وصينية مليئة بالفاكهة ، وأنواع متعددة من الطعام.

فحصنى الكاهن ثم ابتسم علامة الرضا :

— إنك قوى ، لو أن هذا المارد الذى أتيت به ضم شخصاً آخر لتحطمت عظام صدره جميعا وضغطت على رئتيه. على أى، فيلزمك بضعة أيام لا تتحرك فيها وتستطيع أن تأكل ما تشاء .

— بضعة أيام ؟ كم يوماً بقيت فيها فى غيبوبة ؟

— ثلاثة أيام ، ولا أدرى كيف جئت سائراً على قدميك .

— ثلاثة أيام ؟! كنت أظنها يوماً أو بعض يوم !

— كيف حال المارد ؟

— لا بأس ، وإن كان فقد إحدى عينيه تماماً كما أن به الكثير من الرضوض ، لكنها جميعاً بالنسبة إليه سطحية . إن عنخو قد اتخذه خليلا . هل ستحتفظ به ؟

— لست أدرى . إننى إذا أعدته إلى قومه فسوف يقتلونه لا محالة .

حاولت أن أعتدل جالساً فشعرت بوخزة ألم شديدة فى صدرى . هرع إلى حما نخت ووضع يده برفق على كتفى .

— لا تحاول الحركة . سوف تقوم مرت سجر بتغذيتك ، وخدمتك . فى الواقع أنها فعلت ذلك طوال الثلاثة أيام الماضية . كانت تسقيك السوائل والأدوية فى صبر وأناة عجيبين ، كما لم تمل من وضع الكمادات على جبهتك حينما تزداد عليك الحمى . سأدعك بين يديها الآن إذ أن لدى الكثيرين من الجرحى .

— هلا أرسلت إلى نجم آب ؟

أومأ برأسه وغادر الحجرة تقدمت مرت سجر ووضعت بعض الوسائد لترفع رأسي قليلا ، ثم جلست تطعمنى وتسقينى . كان أول إحساس هو الحرج ، وربما التأفف . ثم اجتاحنى شعور بالغبطة ، ورغبة عارمة أن أزداد التصاقا بها . كانت لها رائحة خاصة دون أن تضع شيئاً من الطيب . رائحة خفيفة تشدنى إليها ، وتزيدنى إختلاطا بها ، وقرباً منها ، واستغراقاً فيها .

وعلى هذا الحال دخل نجم آب . تلاعبت على شفتيه ابتسامة خفيفة دفعت الدم إلى رأسى خجلا ، فنحيت الفتاة بيدى قائلا إنى إكتفيت . خامرنى شعور بالذنب لا أدرى له سبباً . حانت منى إلتفاتة لا إرادية نحوها ، ورأيتها تجلس إلى جوارى كالملكة وقد رفعت رأسها ، ونظرت إلى الداخل متحدية . أشرت إلى المقعد ، ولما جلس سألته :

— هل تعلم كم عدد الرجال الذين فقدناهم سواء فى البحر أو فى القتال ؟

— هل كتبت قائمة أسمائهم . مائة وتسعة قتلى وغرق ، وإثنان وعشرون جرحى ، معظمهم فى حالة جيدة سوى ثلاثة لا يعتقد الكاهن أنهم سيعيشون.

— والتموين ؟!

— إن الرجال قائمون به ، ونكاد أن ننتهى . ربما غدا ، أو بعد غد .

— هل عاود الأهالى هجومهم ؟

— كلا

— وحالة الجو ؟ !

— ما زالت الرياح شمالية ، والسماء مليئة بالغيوم ، وربما تصادفنا عاصفة خلال ساعات ، وإن كنا هنا فى الخليج لن نتأثر بها كثيراً .

كنت أفكر أن نبحر دون انتظار لإتمام التموين ، ولكننى ترددت حينما سمعت بأن عاصفة وشيكة على الهبوب .

— حسناً انتظر حتى تتم التموين ، وسوف نرى حالة البحر .

خرج نجم آب ، وحاولت مرت أن تستأنف إطعامى إلا أننى رفضت ورجوتها أن تتركنى لاستريح حيث أننى شعرت فجأة بإعياء شديد . ما كادت تخرج بدورها حتى أسلمت نفسى لنوم عميق . استيقظت على أصوات العاصفة كانت الرياح تزمجر بشدة ، ووصلتنى أصوات الرعد بهدوء ومع أننا كنا نرسو فى خليج تحميه الصخور ، كما تكتنفه من معظم الجهات الأشجار ، إلا أن السفينة كانت تتمايل ، والصوارى تئن تحت لطمات الريح . حاولت أن أقوم من فراشى فأحسست بألم شديد فى عظام صدرى ، جعلتنى أنبذ المحاولة وأخلد إلى النوم .

يبدو أننى أكملت اليوم الرابع نائما ، إذ أننى حينما صحوت كانت الريح قد هدأت ، والشمس تدخل من كوة القمرة . على المقعد الأمامى رأيت مرت

سجر جالسة وقد أسندت رأسها على يدها ، وراحت فى ثبات . مكثت أرقبها وأمتع ناظرى بشعرها الفاحم الطويل وقد تهدل على كتفيها ، وتدلت منه خصلات تخفى الجزء الأعلى من وجهها . كان كل شىء فيها جميلا . الأنف المستقيم ، والفم الدقيق ، والجلد الأملس ، والصدر الناهد ، والذراعان الملفوفتان ، واليد الصغيرة ، والأصابع الرقيقة . حتى العظام التى كانت ظاهرة فى بعض الأماكن لم تبد كنتوءات بارزة إنما إندمجت بشكل مامع سائر الجسد. مضت دقائق وأنا أتأملها معجباً .

— هل اكتفيت ؟

فوجئت بالسؤال فارتبكت واحمر وجهى ، حينما رفعت رأسها جابهتنى عيناها

— هل أنت مستيقظة ؟ لم أكن أعلم ذلك ؟

إرتسمت إبتسامة جميلة على شفتيها ، وقالت بصراحتها المعتادة

— هذا واضح . إنى إستيقظت لحظة تقلبك فى فراشك ، لكن حينما رأيتك تتفحصنى كرهت أن أقطع متعتك . هل اجتزت الإمتحان ؟

إزددت إرتباكا . الواقع أنى بعدت عن الفتيات ، والنساء مدة طويلة منذ زواجى الأول ، وكنت أتحاشى مجرد الجلوس معهن ، لهذا فإنى وجدت نفسى فى حيرة تامة لا أدرى كيف أتصرف معها ، تحاشيت أن يلتق ناظرنا وقلت فى صوت أجش محاولا أن أغير مجرى الحديث :

— هلا ساعدتنى على القيام ؟

فى ثوان كانت إلى جانبى على الفراش تمنع برقة محاولتى النهوض ، وبدا القلق على وجهها ، وصوتها حينما تكلمت .

— كلا لا تحاول الآن .

— سأجلس على الأقل .

ترددت لحظات ، ثم قالت وهى تسرع بترتيب بعض الوسائد خلف ظهرى :

ـ حسناً ...... إنتظر قليلا .

أعانتنى بعد ذلك ، وعاودتنى الآلام فى صدرى ، ولكنها كانت أخف وطأة من الأولى . حينما اعتدلت فى جلستى ، شعرت بدوار خفيف ما لبث أن زال ليحل محله شعور بالضعف الشديد . وكأنما قد أحسست بما أشعر . إبتدرتنى .

ـ سأتركك قليلا لأحضر الطعام . لا بد أنك ضعيف .

لم تنتظر إجابتى ، واندفعت فى رشاقة الغزال خارجة . جاءت بالطعام ، وحينما حاولت أن تطعمنى رفضت مقرراً أننى لست فى حاجة إلى معونة ، ومع هذا فإنها ظلت جالسة إلى جوارى . دبت فى القوة شيئاً فشيئاً مع كل قطعة طعام ألقمها ، وشعرت بدماء الحيوية تعود متدفقة فى أوصالى الواهنة. أخذت الفتاة بقايا الطعام ، وأخرجته ، وبعد دقائق عادت بطست وإبريق . خرجت ثانية بعد أن اغتسلت ثم ما لبثت أن عادت يصحبها حقا نخت الطبيب ، ونجم آب . تقدم الطبيب وقال وهو يتحسس الأربطة ويضغط بأنامله على عظام صدرى :

ـ إنك أحسن حالا ، وقد زالت الصفراء التى كانت تعلو وجهك . كيف حال تنفسك ؟

ـ إن الآلام قد خفت كثيراً .

ـ لكنها لازالت موجودة . لندع الأربطة كما هى ، وأرجوك ألا تتحرك .

ـ لكننى فى أحسن حال ، وأعتقد أننى أستطيع الحركة .

لا ... ليس بعد . يومان آخران وسوف نرى .

تردد قليلا ثم أجاب :

— ربما أمكنك أن تجلس اليوم ، ثم نقرر غداً .

— اكتفيت مؤقتاً بهذا الوعد ، وسألته عن الجرحى .

— لقد مات ثلاثة رجال أما الباقون فلا بأس بهم .

تحول نظرى إلى نجم آب متسائلا فأجاب :

— إن السفينة مستعدة للاقلاع وقد ملأناها ، أطعمة ، وفواكه ، وبعض اللحوم ، الطازجة ، والمجففة .

— إذن ماذا ننتظر ؟

— أوامرك . سأصدر التعليمات بالإقلاع فوراً .

خرج مصطحباً الطبيب ، ولم تمض دقائق حتى وصلنى صوته الجهورى يصدر الأوامر بين ألفاظ السباب . دقائق أخرى ، وامتلأ سطح السفينة نشاطاً ، ثم ما لبث أن أحسست بها تتحرك . وقد استراحت أعصابى بشعورى هذا فرحت فى سبات عميق .

فى اليوم التالى بدأت الحركة فى القمرة بمساعدة سجر أولا ، ثم بمفردى فى آخر النهار . فى اليوم الثالث ، السابع من أول مرضى ، كنت أستطيع السير بمفردى دون ألم يذكر . عادنى عنخو ، ومعه العملاق الأعور . بمجرد أن دخلا ألقى العملاق نفسه على الأرض ، وأمسك بطرف الفراش ، واندفعت من فمه الكلمات . لم أفهم منها شيئاً إلا أننى أمسكت بيده أرفعه من الأرض . انتصب واقفاً وهو ما يزال يتمتم . وقال عنخو :

— إن اسمه سيمبا ، الأسد . وهو يقول إنه مدين لك بحياته ، وأنه عبدك ما عاش ، وهو يعتذر عما سببه لك من الآلام نتيجة القتال ، ويشكر الأرباب والأسلاف على شفائك ، ولو أمرته لقطع ذراعيه جزاء له نكراً على ما فعل .

نظرت إلى الرجل . كان صادقا فى شعوره ، وأحاسيسه ، فشكرته وقلت إن هذا نتيجة لقتال شريف ، ولا ضير . انتظرت حتى ترجم عنخو ثم وجهت سؤالى إليه :

— كيف عرفت التفاهم معه ؟

— إنه من إحدى بطون قبيلة الماى، وأنا منها إلى الشمال من هذه البلاد ، وإن اختلفت لهجاتنا قليلا إلا أنى أستطيع أن أفهم ما يقول ، وأستطيع أن أخاطبه إلى حد ما .

كانت رحلة العودة ممتعة ، سواء من ناحية الجو والبحر ، أو تمتعى برفقة مرت سجر . لم تكن الفتاة أثناءها تتركنى لحظة واحدة . عاونتنى فى السير فى الحجرة ، ثم على سطح السفينة ، كما قصرت نفسها على خدمتى حتى أن عنخو وسيمبا اللذين أبديا استعدادهما للخدمة أولا ، تنحيا عنها اكتفاء ، على ما يبدو ، بمهمة الحراسة . كنت لا أكاد أخطو حتى أرى أحدهما ، أو كليهما على مقربة منى .

فى صباح اليوم الثالث ، وصلنا إلى الخليج الذى تركنا فيه السفينة ورفاقنا . كانت أول ملاحظة من بعيد أنه لا توجد سوى السفينة الكبيرة فقط . درت بناظرى فى جميع الاتجاهات ، ولم أر أثرا لسفينة ساحو رع . طلبت من مراقب الصارى أن يبحث عنها لكنه صاح بعد دقائق أنه لم يرها ، ثم أضاف بصوت منفعل أن هناك قتالا على الشاطىء فيما يعتقد . أمرته أن يستمر فى المراقبة ، وأن يخطرنى أولا بأول عما يدور .

بالرغم من أننا كنا نسير بسرعة معتدلة فالرياح تدفعنا أمامها ، والتيار يساعدنا ، إلا أنى أمرت أن يأخذ جميع المجدفين أماكنهم ، وأن يبذلوا أقصى جهدهم ، وما لبثت السفينة أن اندفعت تشق طريقها بخفة ورشاقة . كان هنالك شىء فى داخلى يحذرنى من خطر داهم ، ويدفعنى إلى طلب المزيد من السرعة . رحت أصرخ فى المجدفين أن يبذلوا جهوداً أكبر ، ورأيت عضلاتهم تبرز تحت الضغط المريع الذى يعانونه .

طلبت من نجم آب أن يكون الجميع مستعدين بالسقالات ، والملابس الحربية والسلاح وأضحت السفينة شعلة من النشاط . كلما ازدادت السفينة اقترابا من البر ، وكلما بدأت الرؤية توضح ما يحدث ، ازداد اليقين أن قتـــالا حامى

الوطيس يدور على الشاطىء بين جنودنا ، أو عدد قليل منهم ومئات الأهالى فى البحر ، رأيت عشرات الزوارق الصغيرة ، تحيط السفينة الكبيرة ويحاول من فى الزوارق الصعود إلى السطح فيدفعهم الجنود ، والبحارة .

لا بد أن رجال الفريقين المقاتلين ، سواء فى البحر ، أو البر ، رأونا وشاهدوا السرعة الفائقة التى نتقدم بها لأن القوارب بدأت تهرع بعيداً ، كما انسحب الأهالى على الشاطىء نحو الغابات . بعد ساعه كان ساحو رع ، وأيوف عنخ ، ومنتو سين مع نجم آب فى قمرتى الخاصة يروون ما حدث .

علمت أن أيوف عنخ اعتقد أننا لن نعود بعد أن مر أسبوع على رحيلنا وتولى القيادة . قرر أنه سمع أن الذهب الى الجنوب من رهاباتا ، ومعنى هذا أنه يعتقد أنه يوجد فى المنطقة التى ترسو فيها السفينتان . ذكر لساحو رع أنه سيأخذ قوة يتوغل بها داخل البلاد بحثاً عن الذهب ، وحينما يعود ، سوف يبدأ رحلة العودة إلى الوطن . حاول ساحو رع أن يعارضه ، لكنه لم يملك فى النهاية إلا أن يذعن للامر .

فى اليوم الثامن من رحيلى أخذ ايوف عنخ أكثر من نصف القوة ، واتجه بها إلى الداخل تاركاً ساحو رع لحراسة السفينتين . غاب ثلاثة أيام ، وجاء فى الليلة الماضية ، ومعه الكثير من الذهب وبعض النساء . ذكر أنه توغل فى الغابة حتى رأى قرية ، ولاحظ أن الكثيرين من أهلها يتحلون بأساور من ذهب فهاجمها ، واستولى على كل ما تمكن من الذهب ، وقبض على بعض النساء ، وساقهن معه حتى يتسرى بهن رجاله . أقاموا وليمة ، وشربوا النبيذ ، وعند الفجر روعوا بأن السفينة الصغيرة تحترق ، كما اندفعت أعداد هائلة من الأهالى نحوهم ، يمعنون فيهم القتل والجرح ، استمروا يقاتلون حتى وصلنا منذ ساعة أو تزيد ، ولولا هذا لقضى على الجميع بالموت .

استمعت إليهما بهدوء حتى انتهيا ثم سألت .

- كم عدد القتلى والجرحى ؟

أجابنى إيوف عنخ دون اكتراث :

ـــ لا أدرى ... ربما مائة أو أكثر .

وتدخل ساحورع :

ـــ كلا . إنهم يزيدون على مائتين ، أو مائتين وخمسين لقد كان فى سفينتى وحدها أربعون شخصا لست أظن أن أحدا منهم قد نجا .

ـــ هل قمتم بتموين السفينة ؟

ـــ كلا ... إننا كنا ننتظر قدومكم ، ثم كان هنالك الإصــلاح اللازم لسفينتى ولم ير أيوف أن نتعجل التموين على أن نبدأ به قبل رحيلنا بيومين ، أو ثلاثة حتى تكون الأطعمة طازجة قدر الاستطاعة .

سألت إيوف :

ـــ ما موقف التموين الموجود فى سفينتك ؟

ـــ ربما يكفى لثلاثة أيام أو أربعة .

ـــ وماذا عن المياه ؟

ـــ لمثل هذه المدة أو أقل قليلا .

ـــ أين الذهب والنساء ؟

نظر إلى إيوف بتحد :

ـــ الذهب فى سفينتى أما النساء فقد فررن أثناء القتال .

ـــ عليك أن تتخلص من الذهب ، كما أريد تقريرا دقيقا عن عدد القتلى، والمفقودين ، والجرحى وحالتهم ، وموقف المؤن خلال ساعتين . وأخيراً عليكم أن تكونوا على استعداد للرحيل فى المدة نفسها .

صرخ إيوف عنخ بغضب :

ـــ ماذا تظن نفسك ؟ إننى لن أتخلص من الذهب . إنه ملكى . أنا الذى بحثت عنه ، ووجدته ، وسوف أحتفظ به ، كما أننى لن أتخلص من الذهب . وسوف أحتفظ به ، كما أننى لا يمكننى أن أبحر دون إعادة التموين .

لم أكن فى حالة نفسية تسمح بالمناقشة . بالرغم من أنى كنت ما زلت ضعيفا إلا أنى لم أبال. قفزت من مقعدى لأقبض بيدى كلتيهما على رقبته أمنعه من النهوض . ضغطت على حنجرته حتى كدت أزهق أنفاسه ، ورحت أهز رأسه ، وأقول فى صوت متهدج من الغضب :

— ليست هذه الرحلة لإرضاء نزواتك ، ولا حق لك فى الذهب أو غيره بل ولم يكن لك حق فى البحث عنه مما تسبب فى ضياع سفينة ، وقتل عشرات الرجال . سنلقى بالذهب فى الماء ، وستنفذ باقى أوامرى ، أما أنت فلا مكان لك فى القيادة منذ الآن .

دفعته بشدة سقط منها ، ومقعده على الأرض ، والتفت إلى الربابنة الثلاثة :

— ساحو رع سيتولى قيادة السفينة الثانية يعاونك نجم آب ، أما إيوف عنخ فسيظل معى . عليكما أن تنفذا أوامرى كما عليكما أن تقسما رجال إيوف بين السفينتين . إحتفظا بالثلثين ، وأرسلا الثلث إلى سفينتى ، ثم أكملا عدد رجالكما إلى نصف الرجال الموجودين على أن يكون رجالكما ممن كانوا معكما فى سفينتيكما . إذا احتجتما إلى القوة لتنفيذ الأوامر فاستعملاها بلا رحمة . بنتوسين عليك الاهتمام بشئون التموين ، وتقسيم المؤن ، والمياه الموجودة ، فى السفينتين عليهما بالتساوى . أيها السادة سنبحر خلال ساعتين أو ثلاث .

كان إيوف قد قام من سقطته ، ووقف ينظر إلى والشرر يتطاير من عينيه . لم يستطع فى غضبه أن يتكلم ، كما وجد نفسه عاجزا عن أن يقوم بأى عمل . قام الرجال الثلاثة من مقاعدهم ، وطلبت إلى منتوسين أن يرسل إلى عنخو . تردد أن يتركنى بمفردى مع إيوف إذ لاحظ أنى فى حالة ضعف شديد إلا أنى أشرت إليه بالخروج ففعل . وما كان بحاجة إلى الخوف إذ أنه وجد عنخو واقفاً بالباب .

— عنخو ، عليك أن تأخذ هذا المخلوق وتحبسه فى قمرة منتوسين ، مؤقتا

حتى أفكر فى مكان أضعه فيه . إنك مسئول شخصيا عنه ، ولك أن تستعين بسيمبا .

لم يتكلم عنخو إنما حول نظره إلى إيوف الذى بدا أن الغضب قد أعماه حتى أنه كان يفكر فى القتال ، ثم عدل عن تفكيره ، وبعد لحظات خرج من القمرة يتبعه العبد الأمين .

. . .

بعد ساعتين عاد ساحو رع ونجم آب إلى القمرة . أخبرنى أن أوامرى قد نفذت . لقد وضعا على الشاطىء الذهب الذى جمعه إيوف عنخ من القرية وكادت أن تقوم ثورة بين البحارة والجنود . حصر عدد الرجال فكانوا ألفا ومائتين وعشرين واثنين ، وقسماهم مناصفة بين السفينتين . قالا إن بحارة إيوف عنخ لم يرضوا فى بادىء الأمر ، لكن نجم آب هدد كل من رفض الانصياع للأوامر بالموت ، وقبلوا على مضض . أما المؤن فانها قليلة جدا ، وكذلك مياه الشرب ، ولا بد أن نسرع بالتموين فى أقرب مكان ، وإلا تعرض الجميع للجوع ، والعطش ، أخيرا أنبأنى ساحو رع أن السفينة جاهزة للاقلاع تبعا لأوامرى .

كان الموقف عصيبا ، فالسفينتان صممتا لتحمل كل منهما خمسمائة رجل فاذا بالعدد يزيد بأكثر من مائة رجل . كان هذا حملا ثقيلا على السفينتين خاصة إذا صادفتهما عاصفة ، أو ريح هوجاء . ليس هذا فحسب . إن مائة رجل ، يزيدون ، يحتاجون كمية ضخمة من المؤن ، وهذا حمل إضافى أيضا . أخيرا فان مكان نومهم سوف يقطع ، لا محالة ، من المساحة المخصصة لنوم البحارة ، والجنود وفى هذا إضافة إلى متاعبهم .

صارحتهما بأفكارى ، وطلبت منهما أن يتخلصا قدر استطاعتهما من كل الأحمال غير الضرورية على سطح سفينتهما ، وإلا فان أحدا لن ينجو إذا واجهتنا عاصفة . حينئذ تساءل نجم آب :

— لماذا لا نترك بعض الرجال على الشاطىء ، وعليهم أن يدبروا أنفسهم؟

كان هذا الرأى يجول فى رأسى ، إلا أنى استبعدته لنفورى أولا من أن أترك رفاق إلى مصير مجهول ، وثانياً خوفاً من عداء الأهالى نتيجة لما حدث. ومع ذلك أجبت :

— قد ألجأ إلى هذا لو اضطرتنى الظروف .

على أن الأقدار ، التى لاقيت منها كثيراً فى الأسبوعين الماضيين ، ففقدت سفينتين ، ومعظم رجالهما ، أضحت تهادننى. أبحرنا فى جو مناسب ، وحملنا التيار جنوبا . لم يكن فى نيتى أن أقف للتموين إلا بعد أن أبتعد بمسافة كافية عن مرسانا الأول إذ أن من المؤكد أن الأهالى لن ينسوا بسهولة ما فعله إيوف عنخ ، ولهذا وددت أن أضع أكبر قدر من المسافة بيننا وبينهم .

من حسن الحظ أيضا أنى كنت قد ملأت سفينتى بالمؤن والمياه . صحيح أنها بعد أن اقتسمناها مع السفينة الثانية نقصت إلى حد بعيد ، لكن ما فيها مع ذلك ، ومع الاحتياط فى الاستهلاك ، كانت تكفى لأسبوع على الأقل . قضيت الثلاثة أيام التالية أدون ما مر من أحداث ، وأرسم خريطة للشواطىء التى نمر بها . فى اليوم الثانى من إبحارنا شاهدت خليجا جميلا يقع عند مصب نهر . كان خليجا مثاليا يمكن أن ترسو فيه السفينتان حتى نستكمل التموين إلا أنه من ناحية ثانية كان قريبا من مكاننا الأول ، فصرفت النظر عنه مكرها .

لم تكن مرت سجر تكاد أن تفارقنى . إذا جلست للكتابة جلست أمامى دون أن تفوه بكلمة ، وإذا خرجت من القمرة لأعمالى فى السفينة مكثت على السطح تشاهد الأمواج ترتطم بالسفينة ، وإذا أردت الرياضة صاحبتنى . ومع أنى استعدت قوتى سريعا ، وخفت آلام صدرى حتى أن حقانخت قرر التخفيف إلى أقصى حد من الأربطة ، إلا أن الفتاة استمرت تصر على أن تعاملنى كمريض مدلل . لا داعى لأن أنكر أنى كنت سعيدا بتدليلها ، وسعيداً بقربها ، سعيداً بكل لمسة من يدها ، أو نظرة من عينيها ، أو نبرة من

صوتها . لكننى لم أنس فى أى وقت أنها ليست ملكا لى ، وإنما هى أمة للفرعون ، وما أنا إلا مجرد حارس لها ، وسيأتى اليوم الذى أسلم فيه الوديعة.

أحيانا كانت تنتابنى كآبة ، فقد يصعب على المرء أن يضع حدا فاصلا بين التزاماته وحقوقه . إن التزامى قبل مرت سجر واضح ، فهى وديعة ملك الفرعون ، وعلى أن أحميها ، وأن أرعاها حتى أسلمها له . لكن ما هى مدى حقوقى ؟ هل من حقى أن أكون سعيدا معها ؟ هل من حقى أن ألمس يدها ، وأنا أشعر بسعادة ، هل من حقى أن أتمتع بصحبتها ؟ حينما كانت تؤرق ضميرى هذه الأفكار ، وأمثالها تنتابنى الكآبة ، وكانت مرت سجر تشعر بأننى بعدت عنها ، ولست أعتقد أنها عرفت السبب ، أو لعلها حدسته .

أحسست به مساء اليوم الرابع من إبحارنا ونحن نقف عند سياج السفينة ننظر إلى المياه القاتمة وقد التصق كتفانا . لقد شعرت وقتئذ بسعادة غامرة ، خلت أننا انقطعنا عن العالم ومن فيه ، ولم أرد أن أستبعد هذا الشعور . تحولت أحاسيس جسدى كله إلى ذلك الجزء الذى إلتصق بكتفيها ، وذراعها وأنه ليخيل إلى أنه لو قدر لأحد أن يبتر ساقى ما شعرت . وفجأة لاح لى وجه الفرعون . ابتعدت عن الفتاة كأنما مسنى شرر من نار ، وطلبت منها أن نعود إلى قمرتنا بحجة ضعف طارىء : لم تتكلم ، إنما طالعتنى عيناها بنظرة عتاب فيها تعجب . تحاشيت أن أطيل الوقوف فاستدرت ، وسارت معى ، ولم أكد أنم فى تلك الليلة .

تناولت إفطارها معى فى الصباح صامتة ، وكان من اليسير على أن أرى وجهها المجهد من أثر السهر . حينما اتجهت إلى مكتبى لأسطر بعض الملاحظات ، لم تنتظرنى كعادتها ، وإنسلت خارجة . بعد أن فرغت من الكتابة خرجت إلى سطح السفينة بحجة التفتيش ، والواقع أننى كنت أخادع نفسى ، لم يكن يدور فى فكرى سوى أن أراها . فوجئت بها تسير بصحبة منتوسين يتكلمان فى ود ظاهر ، وانتابتنى غيرة خفيفة . رأيانى واتجها إلى ، وكطفل صغير أظهرت

اهتماما بالعمل الجارى فى السفينة ، وكأننى لم ألحظهما . لما وقفا أمامى تكلمت مع منتوسين عن بعض الأعمال متجاهلا الفتاة ومع هذا فقد ظلت صامتة فى مكانها . أخيرا تنبهت إلى سخافة ما أفعل . أى حق لى أدعيه ! إننى مجرد حارس ، ولم يفعل منتوسين ، أو الفتاة ما يخل بواجباتى .

. . .

عند الظهر ، ونحن نتناول طعام الغداء ، فاجأتنى للمرة الثانية بأن توسطت لأطلق سراح إيوف عنخ . كنت قد نقلته من غرفة منتوسين إلى حجرة ملحقة بمخزن المؤن فى قاع السفينة ، ونسيت أمره . حينما رفضت ، طلبت أن أدعه يتريض على الأقل ، وقبلت إذ كان بقاؤه بصفة مستمرة فى الحجرة المظلمة بمثابة حكم عليه بالموت . أصدرت أوامرى بذلك . قبل الغروب رأيته . مع أنه لم يكن قد مضى عليه فى الحجرة أكثر من يومين إلا أنه لاح شخصا آخر : نحل جسده ، ونبتت لحيته . واصفر وجهه ، وزاغت عيناه . سمعت الفتاة إلى جوارى تشهق مندهشة ، وهى تراه رثا يسير وراءه العملاقان سيمبا وغنخو . التفتت إلى كأنها تريد أن تقول شيئا ، ثم لم تفعل وسارت صامتة .

إعتذرت مبكرة ، وأخفت نفسها طوال الليل فى قمرتها . فى صباح اليوم الخامس من إبحارنا ، رأيت إيوف عنخ نظيفا حليقا . سألت منتوسين عمن سمح بذلك فقال إنه فعل بناء على التماس من مرت سجر . حينما رأيتها طلبت منها ألا تتدخل ، فأجابت بحدة :

— لماذا ؟ إنه من البشر أليس كذلك ؟ أليس من حقه أن يرى النور ؟ أليس من حقه أن يكون نظيفا ؟ أليس من حقه أن يستنشق الهواء النقى ؟

تكلمت بهدوء .

— والذين قتلوا فى سبيل نزواته ! ألم يكن من حقهم الحياة ؟ إسمعى إن ثلث رجاله على ظهر هذه السفينة ، أى أكثر من مائة وستين رجلا محاربا هل تتصورين مدى خطورته ؟

بهتت للحظات ، وخفت حدتها ثم قالت بصوت خفيض :

ــ لم أفكر فى هذا !

ــ إذاً دعينى أسوس الرجال بالطريقة التى أراها .

رأيت شرر الغضب يلمع ثانية فى عينيها ، لكن قبل أن تفتح فاها ، تناهى إلى سمعنا صوت مراقب الصارى يعلن رؤيته لخليج قد يصلح للإرساء . تركتها ، وهرعت أصدر تعليماتى . أصدرت إشارات إلى السفينة الثانية أن تتبعنا وتحولت الدفة تغير من إتجاه السفينة ! وتغير إتجاه الشراع ينتفخ بالرياح ، ويدفعنا نحو الشاطىء . سرنا ببطء متعمد خشية الشعب المرجانية والصخور التى لا ترى أحيانا إلا بعد فوات الوقت .

بدا خليجا صغيرا لكن يكفى السفينتين ، كانت مناظره خلابة ، برماله البيضاء الناصعة ، وأشجار جوز الهند ، التى تكاد أن تلامس مياه البحر اللازوردية ، حينما دخلناه إتضح لنا أنه لم يكن صغيراً كما بدا من البحر إذ أن لسانا طويلا من الرمال والأشجار إمتد يحجب خليجا كبيرا وراءه ، سكنت مياهه ، حتى كأنما هو بحيرة صغيرة تستمد مياهها من فتحة صغيرة تتصل بالبحر . كان اللسان طويلا ، وعريضا إلى درجة ظلت معها مياه الخليج الداخلى رقراقة هادئة لا يمكن أن تتأثر فى أعتى العواصف .

ألقينا المراسى بعد أن أرخى الليل سدوله لهذا لم أجازف بالنزول إلى الشاطىء . لم تظهر مرت سجر ويبدو أنها اعتكفت فى قمرتها ، شعرت بوحشة غريبة لم أشعر بمثلها منذ زمن طويل ، وحشة ذكرتنى بالأيام الأولى التى تلت هجر زوجتى لى . قام بيننا حاجز غير منظور يباعدنا ، ويضع السعادة البريئة التى كنا نتمتع بها ، أحسست بشخص يقترب ، وبعد لحظات كان منتوسين يقف إلى جوارى .

ــ سيدى القائد إن البحارة والجنود قلقون ، ولا أخفى عليك إننى قلق كذلك .

— من ماذا ؟

— إن لنا شهورا فى هذه الرحلة لعلها جاوزت السنة ، ونحن دائما نتجه إلى الجنوب ، فى بحار لا نعرفها ، وأجناس لا نراها ، ولا يبدو أن هنالك نهاية . هل عند سيدى القائد علم لا يريد أن يبوح به .

كان يبحث عن الطمأنينة ، وله كل الحق ، ماكان لدينا هو بعض أقوال متناثرة لا ترقى حتى إلى مرتبة الشائعات ، إن البحر يحيط بليبيا (افريقيا) ومعنى هذا أن شرقها متصل بغربها عن طريق البحر ، لكننا لم نعلم أن أحدا فعل هذا ، بل ولا حتى مصدر هذه الأقوال ، إننا نبحر منذ أشهر ، والرياح تساعدنا ، وقد قطعنا آلاف الأميال ، ومع ذلك ظل إتجاهنا دائما إلى الجنوب الذى يبدو لا نهاية له ، لم أشأ أن أعطى نائبي أملا كاذبا .

— كلا يا منتو ليس لدى علم أخفيه .

بانت الحيرة على وجهه .

— أعذرنى يا سيدى ، لكن إلى أين ينتهى بنا كل هذا !

— لست أدرى . إن كل ما أعلمه أن لدى أوامر من الفرعون يجب أن أنفذها ، أو أهلك دونها .

— لكن إن الفرعون نفسه لا يعلم إذا كان فى الاستطاعة تنفيذ هذه الأوامر !

— لا أستطيع أن أفترض هذا . منتوسين إنك ضابط كفء ، والضابط الكفء لا يطرح الأسئلة على رئيسه ، هو ينفذها فقط .

إعتدل فى وقفته ، وقال فى صوت جامد :

— إنى قلق على البحارة والجنود يا سيدى القائد ، إنى أسمع همهمة تذمر ، إن الكثيرين قتلوا وهنالك جرحى ، وهم يريدون السبب الذى من أجله يخاطرون . ليست هذه الرحلة للتجارة ، وهى أيضا ليست حملة حربية ماذا إذاً ؟

— هى رحلة إستكشافية قد تنتهى بالتجارة والحــرب معا . أسعدت مساء .

تركته واتجهت إلى قمرتى لكن الشك كان يساورنى . إنه على حق . هل لهذه الرحلة من نهاية سوى أن نلاقى حتفنا بشكل أو آخر .

* * *

ما أن بدت أول خيوط النهار حتى كانت الحركة تدب فى السفينتين . لقد مل البحارة ، والجنود البحر وفرحوا بكل فرصة تتيح لهم البقاء على اليابسة أياما . أنزلوا السقالات . ونصبوا الخيام ، وأشعلوا النيران ، وقطعوا الأخشاب ، وصادوا الأسماك ، واتخذ الحراس أماكنهم ، وأنزلوا براميل المياه ، وما نحتاج اليه من مؤونة مؤقتة . عند الظهيرة كان المعسكر معداً تماماً ، وكأنه قائم منذ أيام .

رفضت مرت سجر أن تنزل إلى البر ، وفضلت البقاء على سطح السفينة وظننت أننى أعرف السبب حينما لمحتها تقف عند الحاجز إلى جوار ايوف عنخ ، وعلى بعد يسير منهما وقف سيمبا . نهشت الغيرة قلبى ، لكن دوامة العمل شغلتنى عن التفكير فيها ، وما لبثت أن نسيتها تماما . وفى الخيمة المعدة لى اجتمع القواد الثلاثة يتناقشون لنضع الخطط للتموين ، والاستكشاف . تناولنا طعام الغداء ونحن نتحدث ، حتى علم كل واحد واجبه . تطرق الحديث إلى ما تساءل عنه منتو سين فى الليلة الماضية وكان المتسائل هو نجم آب :

— أليس لهذه الرحلة من نهاية ؟

نظر إلى منتو سين ، وأجبت بهدوء :

— نهايتنا أن ننفذ أوامر الفرعون ، أو نموت دون ذلك .

— إننا نتجه دائماً إلى الجنوب . ضع على الأقل حداً زمنياً معقولا نعود بعده أدراجنا إن لم يتغير اتجاهنا إلى الغرب ، أو الشمال .

كان طلبه معقولا ، ويضع حداً للقلق الذى ساد الجميع ، لكننى لم أكن مستعداً لأن أهمل تنفيذ الأوامر .

— كلا . لكننى سأضع حداً آخر ، هو أننا سنعود أدراجنا إذا استحال علينا التقدم .

— معنا هذا أنه من الجائز أن تستمر الرحلة سنوات ؟ !

— أجل ، وأعتقد أنه بهذا تكون المناقشة قد انتهت .

قام غاضباً ، وتبعه منتوسين ، بينما استقر ساحورع جالسا يفكر . لم يكن قد تكلم فى الموضوع أو اشترك فى مناقشته فبادرته :

— ما رأيك أنت يا ساحورع ؟

هز رأسه وأجاب بحذر :

— إنه على حق يا كين . إن الرجال فى قلق متزايد ، وأخشى أن يفلت زمامهم . ولا تنسى أن رجال إيوف عنخ غاضبون لعزله من القيادة ، وسجنه ، وهم نصف القوة تقريبا .

مس الوتر الحساس . كانت هذه هى مشكلتى الكبرى فعلا . إن نصف القوة لا يؤمن جانبها . إننى اجتهدت أن أوزعهم لكى يكونوا دائما أقلية . حتى فى المعسكر قسمتهم بحيث يبقى شطر منهم على سطح كل من السفينتين ، وشطر فى المعسكر ، والباقون يعملون فى البحث عن المؤن التى خصصت لها أربع فرق ، ومع هذا فلا شك أنهم كانوا يمثلون قوة لا يستهان بها . قوة تدين بالولاء لايوف عنخ ، وتضمر لى كل الشر . لعل ما كان يدور فى خلدى ظهر أثره على وجهى ، فشجع هذا ساحورع على أن يضيف :

— فكر فى الأمر يا كين ، ولا تغضب نجم آب ورجاله أيضا .

رفعت نظرى وأجبت بإصرار وصرامة :

— لا مجال للتفكير .

• • •

بدأت حملات الصيد ، وجمع المؤن ، والمياه مع مطلع الفجر وما لبثت

أن تجمعت كميات من الفواكه ، والغزلان ، والجاموس الوحشى ، ونعم أفراد الرحلة بعشاء فاخر لم يذوقوا مثله منذ أيام . كان من ضمن الفواكه كمية كبيرة من العنب البرى ، وقام بعض الرجال بصنع النبيذ ، واختزنوا بعضه وشربوا بعضه . كانت جماعة هانئة تلك التى نامت تلك الليلة ، أو هكذا بدت .

تكررت عملية التموين فى اليوم الثانى ، وانتهزت الفرصة ، وأمرت النجارين أن يقوموا بمراجعة السفينتين ، وتقوية جوانبهما ، واستبدال الألواح الخشبية التى تآكلت ، كما أمرت جماعة من الجند باعداد الأخشاب اللازمة . وكان هذا من حسن الحظ إذ أنهم اكتشفوا تآكلا فى قاع كل سفينة . بل إن إحداهما كان الماء قد بدأ يتسرب منها فعلا . كان من نتيجة هذا أن غيرت خططى ، فبعد أن كنت قد اعتزمت ألا يطول بقاؤنا على اليابسة لأكثر من أربعة أيام أضحى جليا أنه يلزمنا أسبوعان على الأقل .

كونت فرقة لفتل بعض الحبال من ألياف الأشجار ، وجددت المؤمن بصفة مستمرة بحيث يكون استهلاكنا للقديم منها ، وبحيث تكون السفينتان على أهبة الاستعداد للابحار فى أى وقت ينتهى فيه النجارون من أعمالهم . توغلت فرقة الصيد إلى داخل القارة ، وازداد توغلها يوما بعد يوم نتيجة لهرب الحيوانات ، وابتعادها من ناحية ، ولنقص الثمار من ناحية أخرى .

• • •

ندرت رؤيتى لمرت سجر فى هذه الأيام إذ أنها أصرت على رفضها النزول إلى الشاطىء واختارت البقاء فى السفينة . كنت ألمح خيالها بين الحين والآخر لكنها كانت دائما بصحبة أيوف عنخ مما زاد من حنقى عليه ، وعليها . كثيراً ماخطر فى بالى سؤال : هل سوف يتكرر ما حدث لزوجتى ؟ ومع هذا فلم أكن أملك التدخل . إنهما لا يلتقيان إلا على سطح السفينة ، ودائما تحت أعين عنخو وسيمبا فلا حجة لى فى منع إلتقائهما .

فى مساء اليوم العاشر من رسونا كان القمر بدراً ، والجو صحوا لا أثر فيه للحرارة أو الرطوبة . خامرنى حنين قوى أن أرى الفتاة ، وأحادثها ، فأقنعت نفسى بأنه يلزم التفتيش على المؤن فى السفينة والتأكد من وضعها فى مكان ملائم ، ولم أحاول أن أراجع الرأى بأنه لا ضرر من الإنتظار إلى الصباح ، وأن الليل ليس أنسب الأوقات ، أو أحسنها للتفتيش .

لحظة أن وضعت قدمى على سطح السفينة رأيتها . كانت تقف إلى الحاجز إلى الناحية الأخرى . إلى جانبها ، يكاد أن يلتصق بها ، وقف ايوف عنخ ، وعلى بعد خطوات رأيت عنخو . لم يكن هذا كل ما رأيت وراء عنخو ، فى ظلام القمرات ، والصوارى ، شاهدت أشباحا تتحرك ، عشرة رجال أو يزيدون . بدا أن تفكيرهم كان مركزاً على الشبح الماثل أمامهم حتى انهم لم يلحظونى ، ولو أن أحدهم أدار رأسه لرآنى .

صرخت منبها عنخو ، وأنا أندفع نحوهم شاهراً سيفى . ذهل المتسللون للحظات ثم قسموا أنفسهم فريقين . هاجمنى أربعة مسلحون ، فى حين قفز الآخرون على العبد . لم يكن أحدهم يحمل سيفا ، وإنما التمعت الخناجر فى أيديهم . قذفنى واحد بأحدها ، وسمعت صوت ارتطامه فى الخشب ورنى ، كما سمعت صرخة ندت من فم مرت . فى اللحظة التالية كان سيفى قد اخترق صدر الرجل .

لم أستطع أن أسحب سيفى فى الوقت المناسب ، وانتهز الرجال الفرصة فانقضوا على ، ارتفع نصل فى الهواء ليهبط على صدرى إلا أننى بادرت صاحبه بضربة قوية من قبضتى ألقته على زميل له . لم أتوان فى الهجوم على الرابع . قبضت على يده ، التى تحمل الخنجر ، وثنيت ذراعه خلفه ، وصرخ الرجل من الألم ، وسقط الخنجر من يده ، فدفعته بأقصى ما أستطيع من قوة نحو زميليه . وارتطم باحداهما ، وسقط الإثنان على الأرض فى حين اندفع الآخر نحوى شاهراً خنجره . كنت أحاول أن أتفاداه وأفكر فى

كيفية الخلاص منه بسرعة قبل أن يتقدم زميلاه ، حينما امتدت يدان طويلتان تقبضان على الرجل ، وترفعانه فى الهواء كأنما هو دمية صغيرة ثم تلقيان به بقوة على زميليه .

من الظلام ظهر جسد سيمبا المارد . لم يلتفت نحوى ، ولا هو إلتفت إلى الثلاثة الذين لم يتحركوا من مكانهم على الأرض . تقدم نحو الرجال الذين يقاتلون عنخو . ارتفع ذراعاه فى الهواء ليهبطا على رأسين ، وسقط رجلان ولم يتحركا . انفتح الذراعان الهائلان أفقياً هذه المرة ، ثم انصبا بقوة مرعبة ليرتطما بصوت مخيف ، وتنطلق صرختان ، ويسقط رجلان آخران . وظهر عنخو يقاتل رجلا واحدا ما لبث بدوره أن لحق بزملائه .

لا شك أن أصوات القتال كانت قد وصلت إلى كل من فى السفينة إذ ازدحم سطحها بالرجال .

كان بعضهم من رجال إيوف ، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا . بل وقفوا مبهوتين أمام استعراض القوة الهائلة التى شاهدوها . لم أعر أحدهم إلتفاتا ، والتفت ناحية الفتاة وإيوف عنخ ، كانت الفتاة تقف بمفردها ، سألتها أين هو فهزت رأسها مرتعبة . لم ترفع ناظريها عن الجثث المسجاة ، والدماء المتدفقة وكأنما قد سمرت فى موقفها ، اتجهت نحوها أحجب المنظر عنها ، وأتلقاها بين ذراعاى قبل أن تسقط على الأرض ، ويغمى عليها .

حملتها إلى قمرتها ، ومكثت إلى جوارها أرطب رأسها بالماء ، ولما فتحت عينيها ابتسمت لها مطمئنا ، قبضت على ذراعى بشدة وهى تقول فى عصبية :

— لا تتركنى بمفردى ، ذلك الوحش ، لقد انتثر المخ من رأس أحدهم ، تهشمت عظام رأسه كيف ... كيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

— لا تراعى ... إنه مخلص لنا ، لى ولك ، إنه كان يدافع عنا ... اسمعى على أن أذهب الآن لأبحث عن ايوف عنخ ... إنه كفيل بأن يسبب لنا متاعب نحن فى غنى عنها .

ازدادت قبضتها شدة على ذراعى :

ــ لا ... لا تتركنى .

نزعت يدها برفق ، وحزم :

ــ لن أغيب طويلا ... وسأعود ... حاولى أن تنامى .

أسرعت خارجا ، كان الرجال على سطح السفينة ما زالوا فى هرج ؛ أمرتهم أن يلقوا بالقتلى إلى البحر ، وأن ينقلوا الجرحى إلى أسرتهم ، سألت عنخو عن ايوف عنخ ، ورد على بأنه لم يره ، ويعتقد أنه فر ، أمرت بالبحث عنه فى السفينة ، وهرعت على سقالة إلى الشاطىء ، وهنالك عرفت الحقيقة ، لقد فر ايوف عنخ واصطحب معه لا أقل من مائة من رجاله .

° ° °

جلسنا نحن الأربعة نناقش الوضع الجديد . كان من رأى نجم آب أن نتركه ورجاله ونتم إصلاح السفينة ونرحل. ورأيت أنه يلزم أن نتبع الفارين، وأن نقضى عليهم ، وانضم ساحورع ومنتوسين إلى رأى نجم آب . عزز ساحورع الرأى بأن أضاف :

ــ ماذا سوف نجنى من تتبعه . إن السفينتين كانتا تحملان أكثر من العدد المقرر لهما ، وقد أراحنا إيوف عنخ من نصف الحمولة الزائدة . أضف إلى هذا أنه قد أراحك بالذات من توقع الخيانة ، والتمرد كل لحظة .

هززت رأسى نفيا :

ــ أعتقد أنكم مخطئون . إن ترك التمرد دون عقوبة تشجيع عليه . ثم هل تظنون حقاً أن ايوف عنخ سوف يتركنا نرحل فى سلام ، ويقنع بالبقاء هنا إلى أبد الآبدين ؟ كلا يا سادة إنه يعلم أن أمامنا تسعة أيام على الأقل قبل أن نستطيع الإبحار ، وسوف يحاول الاستيلاء على سفينة على الأقل قبل هذا الموعد .

ضحك نجم آب :

-- وماذا سوف نفعل نحن ؟ هل سنقف مكتوفى الأيدى ؟ إن أول ما نحتاط له هو أن نجرد باقى رجاله من السلاح ، ونحصرهم بحيث يصبحون شبه مسجونين . ثم ليأتى بعد ذلك ، ويقاتلنا .

لم أقتنع بمنطقه ، وحاولت أن أثنيهم عن رأيهم فلم أفلح . كان فى استطاعتى أن أستعمل سلطتى ، وانفرادى بالرأى ، إلا أننى فى الواقع لم أكن واثقاً من صحة رأيي ، لهذا تركت الأمر ، ونزلت على رأيهم ، وإن طلبت تشديد الحراسة على المعسكر ابتداء من الساعة .

طلع علينا الصباح بنبأ جديد . لقد تسلل أثناء الليل مائة آخرون من رجال إيوف . بدا على وجوه الربابنة الثلاثة استعدادهم للنزول عن رأيهم ، إلا أننى رأيت أنه أضحى من الخطر تعقب الفارين . كانوا قد أصبحوا أكثر من مائتين ، وهم يختبئون فى الغابة ، وإذا أردت أن أتعقبهم فلابد أن أترك قوة كافية لحماية السفن ، والمؤن ، ثم علينا بعد ذلك أن نقيم حراساً على من بقى من رجاله ، وهم يناهزون الثلاثمائة . لا ... كان يجب أن ينفذ الرأى البارحة مساء ... أما الآن فقد فاتت الفرصة .

الفصل الثالث عشر

فى الأسر

دخلت خيمتى باكية منتحبة ، ألقت بنفسها عند قدمى ، وهى تنشج بعصبية . كانت تتكلم ، ولم أستطع فى بادىء الأمر أن أتبين ما تقول :

ـ اقتلنى ... إننى أنا السبب فى هروب إيوف عنخ . أنا السبب فى قتل وجرح الرجال... أنا السبب فى فرار عشرات الرجال ، والموقف السىء الذى أنت فيه الآن ... أنا التى كنت أنقل رسائل إيوف عنخ إلى رجاله ... لم أكن أقدر خطورة ما أفعل كان يقول إنه يريد أن ينجو بحياته وأنك لابد قاتله ... وساعدته ... أرادنى أن أفر معه .. ورفضت ... أقتلنى ... إننى أنا السبب فى كل ما أصابك من كوارث .

أخذت بيدها أرفعها بهدوء :

ـ إننى أعلم ذلك يا مرت ... وربما كان خطئى أننى لم أبعدك عنه .

توقفت عن النشيج دفعة واحدة ونظرت إلى مندهشة :

ـ تعلم ... من أين لك العلم ؟

ـ لم يكن هنالك شخص آخر سواك يدير الاتصال بين إيوف ورجاله لعلى أخطأت إذ لم أبعدك عنه عنوة كان يجب أن أقدر أنه سوف يستغل سذاجتك ، وطيبة قلبك ، ولكن الغيرة الحمقاء ، والكبرياء السخيف أعميانى ... إننى ملوم فى ما حدث مثلك تماماً .. وربما أكثر .

كان هذا أقرب ما يكون إلى الإعتراف بحبى ، ولكنى أردت أن أخفف عنها ما تشعر به من تأنيب للضمير ، أسرعت تمسح دموعها بيدها ، بحركات بدائية لطيفة ، وتلاعبت الإبتسامة السعيدة على شفتيها :

أجل لقد أردت أن أثير غيرتك ، خاصة بعد أن شعرت أننى فى نظرك أمة للفرعون .

بالهدوء نفسه أخبرتها :

ــ وما زلت كذلك .

ظهر عليها التعجب ، وراحت تتطلع فى وجهى ، وكأنما هى تبحث عن شىء ، لم تكن تفهم مقدار ما يشعر به رجل مثلى من عبء المسئولية ، ولم تتصور أن إنساناً يمكن أن يتصرف بهذه البساطة ، ويتنازل عن أعز شخص لديه فى سبيل مبدأ ، لكنها فهمت شيئاً واحداً ، أنه لا فائدة من وراء هذا الحب ، وأنها لن تكون لى أبداً ، هى أمة الفرعون فحسب .

نكست رأسها وهمست :

ــ إذاً لا فائدة ! ؟

ــ أجل يا مرت لا فائدة .

فجأة إنتابها غضب شديد ، تحولت من الهدوء ، والاستكانة إلى نمرة متوحشة . إلى باكا القطة .

ــ أنت تقول إننى أمة الفرعون ، وأنا أقول إننى لك ، ولن ينالنى رجل سواك ، سوف أظل أحارب فى سبيل هذا إلى أن أفقد الأمل تماماً ، وعندئذ لن ينال منى فرعونك أو غيره سوى جثة هامدة .

لم تنتظر ، أولتنى ظهرها ، وخرجت وتركتنى غارقاً فى بحر الأفكار ، على أننى رجل عملى بطبيعتى لهذا سرعان ما طرحت مشكلتها جانبا مؤجلا إياها إلى حينها ، وانتقلت بتفكيرى إلى المشكلة التى أنا بصددها ، إيوف عنخ . كان يلزم أن تكون الحراسة شديدة فى كل الأوقات فإننى أدرى مقدار مكره وخبثه ، سوف يضرب فى وقت لن نفكر فيه ، وكان على أن أعرف هذا الوقت حتى لا أؤخذ على غرة .

تركت الخيمة ، واتجهت إلى السفينتين أسأل النجارين عن المدة التى تلزمهم للانتهاء من أعمالهم ، قالوا أسبوعا فكلما أصلحوا شيئاً ظهرت عيوب أخرى ، كانت السفينتان فى موقف يسهل الهجوم عليه من الجانبين ، فهما ترسوان

بين شاطىء ليبيا (أفريقيا) ، وشاطىء اللسان الممتد فى البحر ، كان هنا أحسن حماية لهما من الأنواء ، أما الآن فان خطر إيوف عنخ ورجاله أكبر. سألت إن كان يمكن أن يتم الاصلاح بعيداً عن الشاطىء فأجابوا بالنفى. إذا كان ولا بد إذا فشاطىء واحد ؟ ! حذرونى أن أحرك السفينتين أو إحداهما وإلا تعرضنا للغرق ، واضطررت مكرهاً أن أتركهما فى موضعهما ولم يبق سوى أن أتعجل الإصلاح .

مرت ثلاثة أيام أخرى دون أن يظهر أثر لايوف عنخ أو رجاله ، عادت علاقتى بمرت سجر إلى طبيعتها الأولى ، لم نشر إلى ما حدث بكلمة ، وسارت الأمور عادية ، فى اليوم الرابع جاءنى ساحو رع وقد ارتسمت على وجهه علامات القلق ، أخبرنى أنه أثناء تفتيشه رأى براميل المياه قد كسر الكثير منها ، وأن الماء تسلل وأفسد بعض المؤن ، وأنه من الضرورى إعادة تموين سفينته ، سألته وإن كان قد عرف شخص الفاعل فأجاب بالنفى .

كنت قد تفاديت إعادة تعويض ما يستهلكه البحارة ، والجنود من مؤن ومياه حتى لاأضطر إلى ارسال فرق تعيين داخل الغابة ، أما الآن فانه أصبح لا مفر من المجازفة ، كان لدى إيوف مائتا رجل ، وكان تحت أمرى ألف ، ومع هذا فان الأرقام تبدو خادعة ، والواقع أنه لم يكن الألف تحت قيادتى اذ أن منهم ثلاثمائة لن يتوانوا عن قتلنا ، والإنضمام الى ايوف ، وربما كان الأيسر لو لم يكونوا معنا إذ كان يلزم وضع حرس عليهم دون أن نزيد من الشعور العدائى الذى يكنونه .

* * *

ثار نجم آب . ارتفع صوته يـكيل لى السباب . قال إنى مجنون إذ أحسب أنه سوف يدخل إلى الغاب بمائة من الرجال ليلقوا جميعاً حتوفهم على أيدى ايوف عنخ ورجاله . خرج من خيمتى قبل أن أجيب ، وبادرت باللحاق به . لاحظت أن عدداً من الرجال قد تجمع يستمع إلى مايدور . كان الجميع فى حالة شديدة من توتر الأعصاب ، ولم يكن منهم من يرغب فى استئناف

الرحلة ، وقد أثرت شهور الغربة فيهم ، ثم جاءت أحداث إيوف عنخ فزادتهم توتراً .

كان على أن أفعل شيئاً سريعاً ، وإلا أفلت الزمام من يدى . إن جزاء التمرد هو الإعدام ، لكننى كنت فى موقف عدائى مع رجال إيوف ، ولم أرد أن أضم إليهم نجم آب ورجاله . ومع هذا فقد كان يلزم أن أعطيه درساً . لم أكن أملك أن أتركه يفلت بعصيانه ، خاصة وقد جاهر به ، وسمعه عشرات من الرجال فى المعسكر .

لحقت به قبل أن يبتعد خطوات عن الخيمة ، وقبضت على كتفه بقوة . لم أرد أن أستعمل السلاح ، فنتائجه غير مضمونة ، أعنى أنى قد أقتله ، فلم يكن لدى أدنى شك فى أنى أمهر منه كثيراً . كنت أود أن ألقنه درساً ، ولم أكن أريد قتله . إلا أن الأمور لم تسر حسبما ظننت . ما أن شعر بيدى على كتفه حتى استدار موجهاً إلى وجهى لكمة قذفت بى بعيداً ، وألقتنى على الأرض . وقبل أن أنهض من سقطتى كان يمتشق حسامه ، وقد وضع نصله على عنقى .

وقف مبتسما ، ولم أستطع حراكا . بطرف عينى لاحظت الرجال . كانوا ، سواء عن عمد أو عفوا ، يجتمعون . إنضم رجال ساحورع إلى رجالى فى حين تكتل رجال نجم آب . كان مجموع الرجال على الشاطىء لا يزيد على مائتين وخمسين ، منهم مائة وخمسون من رجالى ، فكان لى بهذا اليد الطولى إذا نشب قتال . لكن أين إيوف عنخ نفسه ورجاله ؟ لابد أنهم يراقبون ما يجرى من الغابات ولاشك أنهم سوف يتدخلون إذا ماحدث قتال بين الطرفين ، ولن يكون تدخلهم لصالحى .

دارت هذه الأفكار بسرعة البرق فى عقلى ، إلى جانبها دارت أفكار أخرى . على أن أتخلص من الموقف الذى أنا فيه . كنت أعلم عن ضعف رجل نجم آب ، ولم يكن أحد من الموجودين يعلم شيئاً عنها . بسرعة هائلة

تحركت . رفعت قدمى لأركله فى ساقه العرجاء ، وفى الوقت نفسه حركت رقبتى بعيداً عن النصل . انثنت ركبته مع الضربة ، ورجع بجسده قليلا إلى الخلف فى محاولة لاستعادة توازنه . وكانت فرصتى . اعتدلت فى جلستى ، والتفت ذراعاى حول ساقيه ، ثم رفعت جسده الضخم كاملا ، وقذفت به على الأرض ، ثم انتصبت واقفا منتضياً سيفى .

إنقلبت الأوضاع فى لحظات . أضحى هو طريحاً ونصل سيفى على رقبته يحز فيه ، فى حين كان سيفه قد أفلت منه . ارتفعت الهتافات من رجالى ، وزمجر رجال نجم آب . تراجعت إلى الخلف فهنالك احتمال لأن أقتله ، كما ذكرت وكنت أريد ان ألقنه درساً على مرأى من رجاله . رفعت صوتى صائحاً ليسمعنى الجميع .

— نجم آب أنا لا أريد أن أقتلك . دع الحسام ، وسألقى حسامى ، ولنتعارك بالأيدى فإن فرصتك أكبر . لقد عصيت الأوامر . وسوف ألقنك درساً . وإنى أتعهد من ناحية أخرى إن هزمتنى أن أقود جماعة التموين بنفسى .

نظر إلى مليا . كان يعلم أننى وضعته فى مأزق حرج ، فهو لا يستطيع أن يرفض دعوة إلى العراك بالأيدى ، خاصة أمام رجال مقاتلين ، وإلا سقطت هيبته ، وهو من ناحية أخرى واثق من أننى سوف أهزمه ، لأننى أعلم عن العيب فى ساقه . تردد لحظات ثم هز رأسه موافقاً . ألقيت حسامى جانبا ، وتقدم عنخو يلتقط الحسامين . ووقف نجم آب مستعداً .

أحاط بنا الرجال مكونين دائرة كاملة ، ووقفنا على بعد نبوات قلائل . لم يتحرك خصمى من مكانه ، وترك لى الهجوم . ربما ظن أنه الأقوى بدنيا ولم يردنى أن أستغل ضعف ساقه . لكنه كان مخطئا . بالرغم من ضعفى فى الأيام السابقة نتيجة لما أصابنى على يد سيمبا ، إلا أننى كنت الأقوى بنية ، والأدرى بفنون القتال . كانت قوته حيوانية بحتة ، ولم يعتن بالتدريبات ، وقد بدا أثر هذا جليا فى ترهل بدنه ، وكمية الشحم على صدره . ومع ذلك فقد كان خصما يرهب جانبه .

تقدمت منه محاذراً فلم أكن أود أن تصيبنى لكمات من القبضتين الضخمتين ، ولم يتحرك . وقف فارجا ساقيه يراقب حركاتى كالنمر . ناوشته بضربات خفيفة أصابت صدره وكتفه . وبادلنى اللكمات دون أن يتراجع أو أن يتفادى . استمر التبادل لحظات ، وعلت هتافات الجنود يشجعونه مرة ويشجعوننى أخرى . مد ذراعه كأنما يتقى احدى لكماتى ثم قبض بسرعة فائقة على ذراعى الأيمن وجذبنى نحوه .

لعله كان يريد أن يصرعنى ، أو لعله كان يريد أن يستغل عدم الإلتحام الكامل لعظام صدرى نتيجة معركتى مع سيمبا ، وربما كان يفلح فى هزيمتى ، لو أنى تركته ينال غرضه . بالسرعة نفسها التى اندفعت بها نحوه إثر جذبة ، إمتدت يدى اليسرى بلكمة شديدة زاد من قوتها اندفاعى . صوبت الضربة إلى معدته ، وشعرت بلحمه ينثنى ، وغاصت قبضتى فيه .

تحرك ذراعه بحركة لا ارادية وانحنى واضعا يديه على معدته ، محاولا استرداد أنفاسه المقطوعة . ارتفعت قبضتى ، لتلتقى بفكه فى ضربة رفعته فى الهواء بضعة دجبات (الدجب عرض الاصبع) ثم سقط على الأرض بصوت رهيب . تركته يلتقط أنفاسه الضائعة ، ووقفت أرقبه . كان هدفى أن ألقنه درسا ، ولم أكن أريد هزيمته .

تململ جالسا ولم يتعجل النهوض . ارتفعت صيحات الاستحسان من رجالى ، والاستهجان من رجاله . راحوا يشجعونه على القيام ، بل أن منهم من طالبه بتمزيق إرباً . تصدى لهم رجالى مستهزئين ، وتبادل الفريقان السباب . ربما كانت سوف تقوم معركة بينهم ، لو لم يتحرك نجم آب . قام متحاملا ببطء ، ثم بسرعة مذهلة ، وعلى حين غرة ، اندفع نحوى قبل أن يتم نهوضه مصوبا رأسه نحو بطنى .

قذفتنى الصدمة بعيداً ، وحينما ارتطمت بالأرض أحسست كأن سلسلتى الفقرية انكسرت . انقطعت أنفاسى ، فلم أستطع الاستنشاق ، وبدا كأن

غمامة سوداء تغشى عينى، فمكثت مكانى ملقى على ظهرى لا أستطيع حراكا. لم يدعنى أسترد أنفاسى الضائعة، وهبط بركبتيه على بطنى، يخرج القليل من الهواء الذى استنشقته، وأحاطت أصابعه الفولاذية برقبتى تمنع عنى التنفس تماما. لم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئا، ومكثت تحت رحمته، كأنما من مكان سحيق أتتنى صيحات غضب من رجالى الذين شاهدوا الهجمة الغادرة، وجاءتنى ضحكات استفزاز، وسخرية من رجاله.

قاومت الغمامة السوداء أن تزداد قتامة، وحاولت جاهدا أن أبعد الأصابع التى تنغرس فى عنقى، لكن مجهوداتى ذهبت هباء، ربما أنقذنى من الموت إختناقا فرط ثقة غريمى فى قدرته، أو لعله تعجل النهاية، فانحنى بكل جسده يزيد من الضغط على عنقى. كان من نتيجة هذا أن اقترب رأسه منى أكثر مما تدعوه الحيطة، وفى ثانية ارتطمت يداى بكل ما بقى لى من قوة بأذنيه.

صرخ متألما، ورفع قبضتيه إلى أذنيه، وزاغت عيناه كالمذهول. فى اللحظة التالية كنت قد دفعته عن صدرى. وبدأ الهواء يخترق طريقه بصعوبة إلى رئتى. ظل كلانا على الأرض لا نستطيع حراكا. أخيرا تحاملت على نفسى، ونهضت أترنح. كان ما يزال جالسا واضعاً يديه على أذنيه وهو يهز رأسه ينفض أصواتا وهمية. ووقفت أنتظر. بدأت الغمامة تنقشع من أمامى، واسترد صدرى قدرته على التنفس، وإن كنت ما أزال أتنفس بصعوبة إلا أنى شعرت كأن ركبتاى غير قادرتين على تحمل جسدى.

مضت أنات (أت — دقيقة) ونحن على هذا الحال. لم تنقطع صيحات الرجال، بل لعلها إزدادت انفعالا، ولم أعرهم انتباها. بدأت الأنفاس تتردد فى صدرى ناعمة، وإنقشعت الغمامة عن عينى تماما، فوضحت الرؤية، وازدادت قدماى استقرارا على الأرض، مع أنى بدأت أشعر بآلام حادة فى عضلات عنقى.

تعالت صيحات رجال نجم آب يشجعونه ، وتحامل واقفا ، لم أدع له فرصة . اندفعت نحوه أكيل الضربات ، واللكمات ، هبطت ضرباتى على وجهه وفكيه ، وصدره ، وبطنه ، لم يستطع أن يفعل شيئا سوى التراجع ، ومحاولة تفادى الضربات المنهالة ، ظهر أثر ترهل الجسم ، وانعدام التمرين فى حركاته المتثاقلة ، ومحاولاته الفاشلة فى الدفاع عن نفسه ، وتردد أنفاسه اللاهثة .

تابعته فى تراجعه . . إنبثقت الدماء من أنفه ، وفمه ، وتورمت عيناه ، وظهرت الكدمات على جبينه ، وفكيه ، وما زال يتراجع وهو يتلقاها ، لم أرحمه ، وإن كنت لم أتمالك أن أعجبت بقوة تحمله ، آلمتنى عظام يداى ، ومع هذا فلم أتوقف ، ولا خفت حدة ضرباتى، أخيرا جاءت النتيجة الحتمية ، تلقى لكمة هائلة فى فكه جعلته يتراجع خطوات . وعلى غير انتظار خارت ركبتاه ، وسقط على الأرض ، وبقى دون حراك .

لست أدرى من بدأ القتال ولا متى ، ولا السبب فيه ، وإنما فجأة تحول الشاطىء إلى ساحة للحرب . كنت ما زلت أرقب نجم آب ، وأنا أتحسس عظام يداى مرة ، وعضلات عنقى أخرى حينما وجدت نفسى وسط معركة ، لعلها بدأت بألفاظ سباب ، أو سخرية ، ثم تحولت إلى تلاحم بالأيدى ، وأخيرا إلتحمت الأسلحة .

لم أكن أخشى النتيجة ، فرجالى هم الأكثر عددا ، والأكثر تدريبا ، إلا أننى لم أكن أريد أن يتناقص عدد القادرين إذا ما استدعى الأمر مجابهة إيوف عنخ ورجاله ، لم أحاول أن أشترك فى القتال الدائر حولى ، واكتفيت بأن عنخو ، وسيمبا وقفا يحرسانى ، ويحولان دون هجوم أى شخص على ، سمعت صوت ساحو رع يحاول تهدئة الرجال دون جدوى ، ولم أعره التفاتا .

كان الشخصان الوحيدان اللذان يستطيعان أن يوقفا القتال هما نجم آب وأنا ، وكان نجم آب فى غيبوبة لا يبدو أنه سيفيق منها فى الزمان القريب .

أشرت إلى سيمبا أن يغترف من برميل المياه القريب من خيمتى ، وتمتم عنخو بكلمات رأيت المارد بعدها يشق طريقه وسط المقاتلين .

عاد بعد لحظات حاملا برمته . وراح يصب الماء على الرجل المسجى ، تململ نجم آب وفتح عينيه المورمتين ، رجوته أن يتمالك نفسه مخبراً إياه أن الرجال يتقاتلون بالسلاح ، ارتكز على كوعيه وبدا كأنه لم يفهم ما أعنى ، ولا كأنه لاحظ شيئاً غريباً حوله ، بل ظل متلبداً يحاول أن يستجمع شتات أفكاره ، ولم يستطع التركيز ، كان عامل الزمن يهمنى ، فأشرت إلى سيمبا الذى كان ما يزال واقفاً يحمل البرميل ، وتدفقت المياه تهبط على الرجل المذهول ، انتفض كطائر ضخم بلله القطر ، واعتدل فى جلسته ، نظر حوله أولا كأنما يستوعب ما يرى ثم التفت إلى .

أخبرته أن رجالنا يقاتلون ، وأنى أخشى أن ينتهز ايوف الفرصة ، ويكر علينا برجاله . كانت نظرته متبلدة وهو يتحامل على نفسه ببطء شديد . حينما اعتدل واقفاً كان ما حسبت حسبانه قد حدث .

من الغابة اندفع عشرات الرجال يصرخون ويلوحون ، يتقدمهم رجل لم أكن فى حاجة إلى التحقق منه لأعرف أنه ايوف عنخ ، كانوا يصيحون مشجعين رجال نجم آب ، وازداد وطيس القتال حمية وتجلد رجال الفريقين . لم يكن هنالك وقت أضيعه مددت يدى إلى عنخو فسلمنى سلاحى وكذلك فعل غريمى السابق .

لم تكن المسافة بين ساحة القتال والغابة لتزيد على حت واحد (مائة ذراع) ، أو حت ونصف على الأكثر ، قطعها ايوف عنخ ورجاله فى إتات (دقائق) قليلة ، تصوروا أنهم ، وهم مائتان ، وقد انضموا إلى رجال نجم آب ، أضحوا أغلبية ساحقة تزيد عن ثلاثمائة رجل يقاتلون نصف عددهم ، وأن المسألة لا تعدو دقائق ، وينتهى القتال .

اندفعوا وسط المعركة ملوحين بأسلحتهم ، يقودهم رئيسهم . لم يلحظوا أن الرجال المقاتلين قد أفسحوا لهم الطريق . لم يعلموا بالخدعة إلا بعد أن

أحاط بهم الرجال جميعاً ، رجال نجم آب ورجالى ، رأوا أن الذين كان يبدو من بعيد أنهم قتلوا ، أو جرحوا من رجال الفريقين ،يهبون واقفين ، وينضمون إلى زملائهم ، وابتدأ القتال الحقيقى .

مضت دقائق قبل أن يستوعبوا الحقيقة كاملة ، وكان أونى ورجاله فى هذه الدقائق يحصدونهم بسهامهم ، رأونى ونجم آب نقاتل جنباً إلى جنب ، ولم تصدق عيونهم ، أخذت أشق طريق بين المقاتلين حتى رأيت إيوف عنخ ، ولم يكد يرانى حتى اندفع نحوى والتحم سيفانا .

" أيا قيل عن الرجل فهو لم يكن جباناً ، كان مبارزاً ماهراً خفيف الحركة ، لين الجسم . بالإضافة إلى ذلك كانت لديه أسباب قوية تدعوه إلى القتال ، كان يعلم أنه قتال لابد أن ينتهى إما بفوزه ، أو بقتله ، هو قتال حياة أوموت ، تلاعب بسيفه وكأنما هو فى كل مكان فى آن واحد ، ما من هجمة إلا وصدها ، وانتقل بعدها من الدفاع إلى الهجوم ، بدا كأنه يقاتل بعشرة أسياف لا واحدا ، حيثما امتد سيفى لاقاه بحسامه .

كأنما باتفاق سابق كان المقاتلون يتنحون لنا عن المكان ، وشيئاً فشيئاً وجدنا أنفسنا نقاتل بمفردنا فى العراء ، وخاطبته بشىء تعمدت فيه الهدوء .

— إيوف عنخ لماذا لا تأمر رجالك بالكف عن القتال ؟ أعتقد أنه قد قتل منهم النصف على الأقل ، دع حسامنا يقرران النتيجة فإما أن أقتلك ، وأما أن تقتلنى ، وتفوز بحريتك .

جاء رده فى صيغة هجمة شديدة لولا يقظتى لاخترق حسامه صدرى . عدت ثانية أخاطبه :

— لقد تسببت حتى الآن فى قتل وجرح عشرات الرجال ، فلم تصر على أن تفنى جميع رجالك ؟ .

كنت أهدف من وراء كلامى أن أستثير غضبه فينسى حذره ، وكان ما أردت ، إزداد هجومه شدة ، وإزداد تهوراً . ومضيت فى خطابى :

— إنك مغفل يا إيوف لقد أردت أن تستدرجنى إلى الغابات بإراقتك للماء، وإفسادك للمؤن، فاستدرجتك إلى العراء على الشاطىء، خدعتك تماماً قتالى مع نجم آب، كما خدعتك تمثيلية المعركة بين رجال نجم ورجالى.

إلتمع سيفه تحت أشعة الشمس وهو يندفع بسرعة خارقة نحو صدرى فى هجمة جريئة، وتحرك جسمى حركة خفيفة أبعدت النصل عن هدفه، أعماه الغضب فتخلى عن حذره، وترك صدره مكشوفاً، ببساطة امتد ذراعى بضربة لو أنها أصابت هدفها لأنهت القتال، كانت موجهة إلى القلب لكن ليونة جسمه أنقذته، مع اندفاعه وراء حسامه نحو الهدف المراوغ انثنى جزؤه الأعلى فى محاولة التفادى، لم يفلح تماماً إذ مزق النصل كتفه الأيسر، لكنه ما لبث أن استعاد توازنه وواجهنى.

— هذه أول الدماء يا إيوف، ألم أقل لك إنك مغفل؟ لابد أن رجالى يضحكون منك الآن ساخرين، وأن رجالك يلعنونك على ما أرديتهم.

سالت الدماء من كتفه بغزارة، ولابد أن حيويته كانت تتناقص بسرعة ومع هذا فقد استمر هجومه الوحشى، أصبحت المسألة بالنسبة لى مجرد وقت لن يلبث بعده خصمى أن يفقد كل قدرة على القتال، كان يحرق ما بقى له من حيوية بهجماته المتتالية، ولم أزد على أن إتخذت موقف الدفاع، لم يطل الوقت حتى بدت حركاته أكثر ثقلا، وأقل اتزاناً. لابد أنه لم يكن يرى جيداً حينما اندفع فى آخر هجمة له، اندفع نحوى، ولم ير سيفى الممتد فى طريقه، واخترق النصل صدره.

وقفت أنظر إلى جثته لحظات، ثم استدرت إلى ساحة المعركة. كان القتال ما يزال دائراً، وإن تكن حدته قد خفت إلى حد بعيد، صحت بأعلى صوتى إن إيوف عنخ قد مات، وأن على رجاله أن يستسلموا، ويلقوا بأسلحتهم، بعد لحظات توقف القتال تماماً وأحاط رجالى بالبقية المتبقية من الأعداء، كانوا لا يزيدون على المائة، أخبرتهم أننى لن أقبلهم ضمن

رجالى فى السفينتين ، وأنى أتركهم وحظهم فى القارة ، إلى أن نرحل عليهم أن يعملوا فى نقل المؤن ، وحمل ، المياه .

° ° °

جلسنا نحن الثلاثة نتبادل الحديث ، تساءلت عن عدد قتلانا وسررت إذ علمت أن ساحورع قال إنهم لم يتعدوا عن الاربعة عشر ، وأن عدد الجرحى إثنان وعشرون . ضحك نجم آب وانفرجت أسارير وجهه المتورم وهو يقول :

— لقد لقنتنى درساً كما قلت مع أن الأمر لم يكن يعدو التمثيل .

— إنى آسف يانجم ، لكن هذا الجزء من التمثيلية كان لابد أن يكون حقيقياً حتى يقتنع إيوف عنخ .

ابتسمت وأنا أتحسس رقبتى ثم زدت .

— وأنت كدت أن تقتلنى خنقاً . ترى هل كنت تفعل هذا حقاً ؟

— كلا إذ أعطيتك الفرصة لتقلب الأوضاع ... إن رأسى ما زال يطن حتى الآن ، وأخشى أن أكون قد فقدت السمع جزئياً . ضحكنا ، وقلت :

— على أى الأحوال أظن أنه من المأمون الآن أن نبدأ فى تموين السفينتين. وكنت مخطئاً .

° ° °

ربما كان ما حدث بعد هذا هو نتيجة لفرط الإطمئنان الذى شعرت به بوفاة إيوف عنخ ، وزوال حالة التوتر الشديد بين الرجال . لم أحملهم عبء العمل مساء يوم المعركة ، وتركت لهم حرية التصرف ، وما لبثوا أن انتشروا على الشاطىء يمرحون ، ويسبحون ، ويأكلون ، ويحتسون النبيذ .

صعدت على كل من السفينتين ، وجمعت رجال إيوف ، وأخبرتهم بوفاة قائدهم ، وخيرتهم بين البقاء مع زملائهم على أرض القارة ، أو أن يرحلوا معنا على أن يقسموا يمين الولاء لى ، مهدداً أى ناكص للقسم بعقوبة

الإعدام . فضل معظمهم إستئناف الرحلة ، ولم يرفض سوى عدد قليل لا يتجاوز الأربعين ، إنضموا إلى زملائهم الآخرين . أمرت بإعادة السلاح إلى من أقسم يمين الولاء ، وبأن يعمل من آثر البقاء فى القارة فى نقل المؤن والمياه .

فى الصباح قامت فرقتان تتكون كل منهما من مائتى رجل للبحث عن المؤن ، إحداهما بقيادة منتوسين ، والأخرى بقيادة نجم آب . كنت أعلم أن المنطقة القريبة من الشاطىء قد جردت تقريباً من الثمار ، كما فرت الحيوانات ، ولهذا أمرت أن يأخذوا معهم ما يلزمهم للمبيت ليلة أو اثنتين فى العراء ، ولما لم يكن لى بعد رحيلهم عمل على الشاطىء ، فضلت الانتقال إلى السفينة لمراقبة النجارين ، وحثهم على الإسراع .

مرة واحدة خاطبتنى فيما مرت سجر فى اليومين التاليين . لم أكن قد رأيتها حينما صعدت إلى سطح السفينة ، ولا بد أنها إعتكفت فى قمرتها . لكنها جاءت إلى قمرتى بعد قليل وصرخت فى وجهى أنى قاتل ، واتهمتنى بأنى قتلت إيوف عنخ عمدا لغيرتى منه . كان هذا الموضوع قد أغلق نهائياً بالنسبة لى ، فلم أشأ أن أدحض مزاعمها ، ولم أبال بالرد . حينما رأت صمتى ، وإستنفد غضبها حدته تركت القمرة ، ولاحظت بعد ذلك أنها أضحت قليلة الاتصال بى .

عادت الفرقتان فى اليوم التالى محملتين بالمؤن والمياه ، وقرر قائداها أن المناطق القريبة قد جردت تماما من الثمار ، وأنه لاستكمال المؤن يلزم التوغل أكثر فى الغابة ، ومعنى هذا أنهم لن يعودوا من رحلتهم التالية إلا بعد يومين . لما كانت هذه هى آخر رحلة يقومون بها كما أن النجارين كان لديهم عمل لأكثر من اليومين فلم أر بأسا من ذلك . وعقدت العزم على أن نبحر فى اليوم الرابع ، أو الخامس على الأكثر .

تركونا صباح الغداة ، وقضيت اليوم أنتقل بين السفينتين أتعجل النجارين ، والعمال . كانت أعصابى متوترة ، ولم يكن عندى شك فى أن

السبب هو عدم رؤيتى لمرت سجر . كنت ساخطاً عليها ، وعلى نفسى ، ووددت لو انتزعت من رأسى التفكير فيها ، إنى لم أستطع . ما أن اتجهت الشمس إلى أمنتى (الغروب) ، وتوقف النجارون عن العمل ، حتى صعدت إلى سطح سفينتى آملا أن أراها ، لكن يبدو أنها ظلت معتكفة فى قمرتها .

شعرت بضيق نفسى شديد حتى أنى تركت السفينة ، وعبرت السقالة إلى الشاطىء . كان (شمس الغروب) ما زال يتلكأ فى الأفق ، والجو يميل قليلا إلى البرودة . سرت بمحاذاة البحر وقد نكست رأسى أفكر فى حبى لمرت سجر ، وعدم جدوى الإستمرار فيه . كان على أن أبعد كل أمل فى أن أحظى بها فهى ليست ملكا لى ، ولن تكون . إنها ملك للفرعون . كدت أتمنى ألا تنتهى الرحلة ، وأن نجد بقعة من الأرض نستقر فيها ، وما أكثر البقاع الجميلة التى مرت بنا . لن يعثر علينا أو يقف على أثرنا أحد . مالبثت أن طردت هذا الخاطر . إنى ضابط بحرية الفرعون ، وأمامى مهمة يجب أن أؤديها ، أو أموت دونها ، ولا يوجد لى خيار ثالث .

مع تصميمى هذا ، لم أملك فى قرارة نفسى إلا أن يعاودنى الحنين إليها ، وددت لو كانت تسير معى الآن ، تتشابك أيدينا . وأستمع إلى صوتها . ملأت نفسى رغبة عارمة أن أضمها إلى صدرى وأنهال عليها لثما أحسست بفراغ عظيم فى قلبى ، وطاف فى خاطرى أكثر من مرة أن أعود إلى السفينة ، وإليها ، أطرق باب قمرتها ، وألقى بنفسى عند قدميها ، وأخبرها كم أحبها ، وأهواها .

تمثل خيالها يتراجع سائرا أمامى مبتسما ، هاشا . أسرعت الخطى كأنما لألحق بها ... و ... وأصابتنى الضربة على مؤخرة رأسى . أحسست بسهم من نار يمرق داخل جمجمتى ... وغشيتنى غمامة سوداء حجبت الرؤيا ، وضعفت ركبتاى عن تحمل ثقل جسدى ، فتهاويت على الأرض وغبت عن الوجود .

الفصل الرابع عشر

الملكة

تململت فى رقدتى . قبل أن أتحرك شعرت بألم حاد فى مؤخرة رأسى . فتحت عينى وطالعتنى أعالى الأشجار ، والسماء الصافية يضيئها القمر . كنت أهتز ، وأتحرك ، وأنا راقد على ظهرى ، حاولت النهوض ، فمنعتنى حبال مفتولة تبينت منها أننى مقيد إلى محفة يحملها بعض الرجال ، وأنهم يتوغلون داخل الغابة .

رفعت رأسى قليلا ، وعاودنى الألم الحاد . نظرت حولى ، ورأيت رجالا كثيرين يسيرون على جانبى المحفة ، وأمامها ، دون أن يعيرونى إلتفاتاً رجعت برأسى إلى الخلف حتى استقر على أخشاب المحفة ، وتطلعت إلى السماء أفكر . لابد أننى كنت مستغرقا فى خيالى فلم أشعر بالعدو وهو يقترب ، لم أدر كم من الوقت مضى على فى إغمائى ، ولا المسافة ، أو الاتجاه الذى نحن سائرون فيه ، أدرت رأسى أبحث عن الجواب فى نجوم السماء ، وسرعان ما تحققت أننا نتجه إلى الجنوب الغربى .

أغمضت عينى أخفف من الآلام التى كانت تندفع فى رأسى كالسهام بين الحين والآخر ، تتالت الأفكار فى رأسى ، إننى بين أيدى جماعة من أهالى المنطقة ، ترى ماذا يريدون منى ؟ لو شاءوا قتلى لفعلوا ذلك منذ مدة ، وما احتاجوا إلى حملى ، ترى هل رآنى أحد من رجالى ؟ أين عنخر وسيمبا ؟ كم مضى على وأنا فى غيبوبة ؟ احتارت الأسئلة ، وتوالت دون أن أجد إجابة شافية على أيها ، وما لبث أن انتابنى الإرهاق ، لعل أحسن ما أفعل الآن هو أن أنام فمن يدرى متى أحتاج إلى قواى .

أيقظتنى أشعة الشمس الحارة ، وجدت أن آسرى ما يزالون يسيرون ،

لكن المناظر تغيرت ، بدلا من الأشجار الباسقة ، والنباتات المتشابكة ، إكتست الأرض ببساط أخضر من الأعشاب ، ولم تظهر سوى أشجار قليلة منفردة ، وبعض غيضات متباعدة ، على طول الأفق امتد جبل أشم ، بدا من إتجاهنا أننا نقصده ، أو نقصد مكانا عند سفحه.

شعرت بجوع شديد لكن لم تكن هنالك وسيلة حتى للطلب ، وعجبت هل سوف يتوقف الرجال ولو لتناول الطعام ؟ كانوا يسيرون بحركات رتيبة دون أن يتبادلوا الحديث ، يتقدمهم قائد متوسط القامة ، ممشوق القد ، يسير بخفة الغزال ، لم أر سوى ظهره ، لكن كان فى هذا الكفاية لأعلم أنه يختلف عن سائر الرجال ، كان جلده أملس كجلدهم ، فقد لاحظت أن معظم الرجال السمر قليلو شعر الجسم ، لكن لونه كان أميل إلى السمرة منه إلى السواد ، كان يرتدى نوعا من القماش يستتر به جسده وكان القماش نفسه يغطى رأسه ويخفى شعره ، فلم تكن هنالك وسيلة لأعرف إن كان يشارك باقى الرجال فى الشعر المفلفل الخشن .

رفعت رأسى قليلا لأتحقق من القائد ، وشعرت بدوار وألم خفيفين ، أحس الحمالون بحركتى فتكلم أحدهم بلغة لم أعرفها ، والتفت القائد ، وكانت المفاجأة ، لم يكن القائد رجلا ، إنما كانت امرأة ناضجة الأنوثة ، رفعت يدها ، فتوقف الحمالون عن السير ، ثم تمتمت بضعة كلمات بلهجة آمرة ، غير الرجال بعدها خط سيرهم ، واتجهوا إلى إحدى الأجمات القريبة تتقدمهم المرأة .

عندما وصلنا إلى الغيضة أصدرت المرأة أوامرها ، ووضع الحمالون المحفة برفق على الأرض تحت ظل شجرة كبيرة ، انحنت المرأة لتحل قيودى وأمكننى أن أراها جيدا ، لم تكن قطعا من أصل زنجى خالص ، بل إن آثار السلالة الزنجية كانت نادرة تتمثل فى الشفتين الغليظتين ، والجسد الأملس الممشوق ، والجلد الأسمر ، كانت جميلة بأية معايير الجمال ، حينما لاحظت أننى أتفحصها

زال الجمود الذى صبغ وجهها، وابتسمت، ثم جاءت دهشتى التالية حينما تكلمت بالسواحلية، بصوت ناعم رقيق:

— هل تتكلم السواحلية؟

— قليلا.

— هل أنت عربى؟

— كلا، إننى من تامرى.

— أين هى هذه البلاد؟

— أقصى الشمال من بلادكم على مسيرة أشهر كثيرة.

بانت الحيرة على وجهها.

— هل هنالك أناس آخرون غير الزنوج، ومن يقطنون بلاد مأرب.

— هنالك أقطار كثيرة فيها مختلف الأنواع، والأجناس.

حينما أتمت حل قيودى اعتدلت جالسا، لم أشأ أن أقوم دفعة واحدة حتى أتأكد أن الدوار لن ينتابنى، وقفت المرأة أمامى تنظر وتتفحصنى بإعجاب لم تحاول أن تخفيه.

— إنك ضخم الجسد جدا، هل تريد أن تأكل؟

— أجل

والتفتت إلى الرجال، وأصدرت أوامرها، فأسرع بعضهم يضع أمامى بعض الفواكه:

جلست إلى جوارى وبدأنا نأكل، وكذلك تفرق الرجال حولنا يطعمون ويستريحون، تناولنا الطعام لفترة فى صمت ثم سألتنى:

— ألا تريد أن تعرف أين ستذهب؟

— سأعرف حينما يحين الوقت

— ألست خائفا أن نقتلك؟

— لو شئتم لفعلتم من مدة طويلة .

انطلقت منها ضحكة جذلة رنانة هي أقرب ما رأيت إلى الأنوثة . أعادت النظر إلى وجهي ولم تخفض عينها :

— إن مايا ستسر بك كثيرا .

— من هي مايا ؟

— الملكة طبعا ... إنك ستتزوجها أولا .

توقفت عن تناول الطعام إذ كادت أن تصيبني غصة :

— ماذا تعنين أتزوجها أولا ؟

عادت إلى الضحك ، وما لبثت أن ردت على سؤالي :

— كما أقول إنك ستتزوجها ، ثم لك أن تنتقي من شئت من الشريفات بعد ذلك .

سألت بغباء :

— ماذا تعنين ؟

— استمع إلى قصتنا ، وربما تفهم بعد ذلك . من أزمان سحيقة جاء بعض الأعراب ، إذ تحطمت سفينتهم عند هذه المنطقة ، كان عدد من نجا لا يزيد على عشرة أشخاص ، أنقذهم الأهالي ، وبنوا لهم أكواخا خاصة ، فلم يكونوا قد رأوا رجالا بيضا قبلهم ، اعتبروهم آلهة ، أو من نسل الآلهة ، ازدادوا اقتناعا بهذا عندما شرع الأعراب في بناء منازل من الأحجار لأنفسهم واستعملوا الخناجر والسيوف ؛ والرماح الحديدية ، إن الحديد موجود بكثرة في الجبال لكن الأهالي لم يكونوا يعرفون شيئا عن استعماله. تزاوج الأعراب من الأهالي ، وأقاموا معهم ، من نسلهم تكونت الطبقة الحاكمة ، لكن شيئا غريبا حدث إذ أن معظم النسل الأبيض كان من النساء ، وكان من النادر أن يولد رجل أبيض ، حينما يولد مثل هذا الرجل لا يكون ملكا فحسب ، وإنما يعتبر من الآلهة . كان من نتيجة ندرة المواليد البيض من

الذكور أن استولت النساء على الحكم ، والقيادة بأنواعها ، ومع تعاقب الأجيال إبتدأ اللون الأبيض ينعدم ، وبالرغم من أننا بحثنا عنه بين الأهالى فى البلاد المتاخمة فإننا لم نعثر عليه إلا حينما حضرتم ، كنتم دائما تتحركون كمجموعة ، وخشينا أن نهاجمكم ، لكن حينما رأيتك منفردا سهل على أن أختطفك ، لهذا ستكون أنت زوج الملكة ، وستعامل كإله ، كما لك أن تعاشر من شئت غيرها ، وبذلك تتجدد دماء الأشراف ويولد جيل جديد منهم .

ربما كانت مثل هذه الحياة تروق لغيرى ، إلا أنى رأيت نفسى أعيش كالثور يؤتى به لتحسين السلالة ، لايقوم بعمل حتى يترهل ثم يذبح . لم أكن أريد أن أكون إلها ، إنما مجرد رجل له زوجة ، وأولاد ، ومنزل . ضابط فى جيش الفرعون عليه تبعات ، وأمامه مهمة كلفه بها رئيسه فالتزم بتنفيذها. رأت وجومى فقالت غامزة :

ـ ألا تروق لك هذه الحياة ؟ سوف أتزوجك بعد مايا ، إذ أنى التى اكتشفتك وأسرتك .

لاحظت أنى لا أتناول الطعام فأضافت :

ـ ألا تريد مزيدا من الطعام ؟

ـ كلا ، شكرا .

ـ إذاً هيا بنا ... هل تستطيع السير ؟ أم آمرهم بحملك على المحفة ؟

ـ أعتقد أننى أستطيع السير . شكرا .

ـ إذاً هيا بنا فإن رحلتنا طويلة ، ولن نصل قبل الغروب فى اليوم التالى .

قفزت من مكانها بخفة ، وراحت تصدر الاوامر ، وسرعان ما كنا فى طريقنا. تناولت رمحا طويلا ذا رأس حديدى وسارت فى المقدمة ، وسرت إلى جوارها ، لاحظت أن عدداً محدودا من الرجال يحمل رماحا ، وأنها جميعها خشبية ، مجرد عصى غليظة مدببة أحد الطرفين ، بحثت عيناى عن سيفى لكننى لم أره ، ولعله كان مخبئا بين سلال الطعام .

سرنا ساعات وسط الأحراش ، وشاهدت أنواعاً متباينة من الحيوانات : الغزلان ، والحمير الوحشية ، وبعض الزراف ، والأفيـال ، والوعول ، والجاموس الوحشى ، ووحيد القرن ، والخنازير . كانت جميعا تفر بعيداً عنا ، حتى الأفيال كانت تبتعد عن طريقنا ... رأيت وحيد قرن وأنثاه يرعيان ، ولعل رائحتنا وصلتهما فما لبثا أن ابتعدا بدورهما .

عند الظهيرة ، حينما اعتلى رع كبد السماء جلسنا فى إحدى الغيضات نتناول طعام الغـداء ، ونقضى ساعة يستريح فيها الرجال حتى تخف حرارة الشمس . لم يبد أننا اقتربنا من الجبـل بالرغم من المسافة التى قطعناها ، وبدأت أشك أن المـكان الذى نقصـده لا بد أن يكون بدوره بعيداً عن سـفح الجبـل ، هذا إذا كان حقاً ما قالته القائدة الحسناء من أننـا سوف نصل بعـد غروب اليوم التـالى .

واستأنفنا السير ، وبعد حوالى الساعتين حدثت الواقعة . على بعد لا يزيد على مائة متر مرق أمامنا غزال يعدو مرتعبا . وراءه اندفع جسد ضخم لأسد هائل الحجم . من الأعشاب قفزت غزلان لم أكن قد رأيتها ، لكننى الآن شاهدتها تقفز فى كل اتجاه . لم تدم المطاردة طويلا إذ مالبث الأسد أن توقف عن المطاردة فى حين اختفت الغزلان .

توقفت القافلة عن السير ، وتجمدت الفتاة إلى جوارى ، واستعد الرجال بالحراب . أخيراً همست الفتاة :

— إنه أسد جائع عجوز ، لابد أن له أياما لم يذق فيها طعاما .

فهمت مرماها . إنه سوف يهاجمنا ، وحقا استدار الوحش تجاهنا ، ووقف شامخا برأسـه الضخم ضارباً بذيله فى الهـواء . وعادت الفتاة تتكلم بسرعة :

— إهرب أنت مع الرجال ، وسوف أقتله ثم ألحق بكم .

كانت تريد أن تحتفظ بالثـور للإنتاج ، ولا بأس إن هى فقدت حياتها . لكننى لم أكن لأدع امرأة تدافع عنى .

— إعطنى الرمح .

— لا ... لا ... إذهب أنت .

لم يكن هنالك وقت للمناقشة إذ زأر الأسد ، واندفع نحونا. رفع الرجال رماحهم وألقوها على الوحش الذى أضحى على بعد أمتار منا ، ثم فروا والحمالون، متفرقين فى الأحراش . ربما كان بعض الرماح قد أصابت الجسد الهائل، لكنه لم يتوقف عن اندفاعه . عندما أصبح على بعد لا يزيد على ثلاثة أمتار قفز فى الهواء قاصدا الفتاة . بعنف وقوة رمت رمحها ليستقر فى كتفه وصرخ الحيوان ألماً .

سقط على الأرض، وسقط عنه الرمح . لم تكن الضربة من القوة بحيث ينغرز النصل إلى مسافة كافية تعوق الوحش عن الحركة . انثنى الأسد وقفز على الفتاة . شددتها من ذراعها أسحبها بعيدا عن طريقه ، ودفعتها فسقطت بين الحشائش . قفزت بدورى لكن هدفى كانت الرماح التى ألقيت . عثرت يدى على رمح خشبى فقبضت عليه لكن القبضة كانت من ناحية النصل .

حدث كل هذا فى ثوان ، لكنها كانت كافية لأن يرتد الوحش ويعاود هجومه ، قفزت واقفا أستقبله بالرمح ، مستعملا إياه كهراوة . لم أكن قد اعتدلت، تماماً لهذا لم تأخذ الضربة قوتها الكاملة ، لكنها كانت ضربة موفقة هبطت على أنفه ، فأوقفت هجومه. ومع هذا أحسست بأطراف مخالبه تلمس كتفى لتمزق ملابسى ، والجلد من تحتها ، وتسيل دمائى . وفقدت توازنى .

أطلق زئيراً مخيفا ، وكر يهاجمنى إلا أنى كنت قد اعتدلت وتنحيت عن طريقه . هبطت العصاة على وجهه بقوة جعلته يميل برأسه صارخاً . بخفة غير متوقعة من مثل هذا الجسد الضخم انثنى قبل أن أنتبه ، رأيت الموت على بعد لا يزيد على مترين ، ولم تكن لدى وسيلة أتفادى بها القبضة القوية التى لاشك ستهبط على قبل أن أستطيع الإفلات منها . فى هذه اللحظة مرق رمح خلفى ليستقر فى صدر الوحش .

قفز فى الهواء يزأر غضبا، وألما، واعتدل الرمح فى يدى. بأقصى ما أستطيع من قوة دفعته فى الصدر العريض إلى جانب أخيه. جن جنونه، وأخذ يضرب الرمحين بقدميه الأماميتين، وسقط رمح، وانكسر الآخر. فى هذه الأثناء كانت الفتاة قد ناولتنى رمحا آخر ألقيته بقوة سابقه فى جانب الأسد. قفز مرتين، أو ثلاثة حتى استقر على الأرض، ولم يتحرك من مكانه.

وقفت الفتاة إلى جانبى تشاهد الحيوان يلفظ آخر أنفاسه، وعاد الرجال يلتفون حوله. كانت نظراتهم تنتقل منه إلى، وسمعتهم يتكلمون منفعلين — وقالت الفتاة:

— إن من يقتل أسداً هو بطل الأبطال. وكم من رجل منهم فقد حياته فى محاولة لأن يكتسب هذا اللقب.

مست كتفى الجريح بأنامل رقيقة، فأخبرتها أنها جروح لا أثر لها إذ حمتنى الملابس. أصدرت أوامرها إلى الرجال، وسمعتهم يتمتمون، ثم انصرفوا يجمعون الرماح، ويرفعون الأحمال التى ألقوها وهم يفرون. وخاطبتنى الفتاة:

— إنهم لا يريدون أن يتركوا الأسد قبل أن يقتطعوا شرائح من لحمه وينتزعوا قلبه، فإنهم يعتقدون أن من يأكل قلبه يصير مثل شجاعته، لكن ليس لدينا وقت نضيعه إذا كنا سوف نصل إلى قريتنا الليلة القادمة.

بعد دقائق بدأنا السير. شاهدت بعد الضباع وقد تجمعت، تنتظر رحيلنا لتبدأ وليمتها، إلا أن أحداً لم يعرها إلتفاتا. لابد أننا سرنا أكثر من ساعتين حينما بدأت ألحظ أن النباتات قد خفت، وبدأت الأرض تتعرى منها فى أجزاء متفرقة، كما كثرت الحجارة والحصى. كان الجبل قد ملأ الأفق وإختفت الشمس وراءه ترسل أشعتها باهتة محتضرة.

أمضينا الليل فى إحدى الغيضات ، واستيقظنا عند الفجر لنتناول طعامنا ونبدأ بالسير . لم يحدث شىء ، ولم نتوقف سوى مرة واحدة لنتناول طعام الظهيرة ، وبدأ رع يتحول إلى أتوم .

رأيت على بعد ، مابدا كغيضة كبيرة تحف بها الأشجار . أشارت الفتاة مقررة أنها مقصدنا . كنا نسير ببطء ، فقد أضحت الأرض صخرية ، وتزايد إرتفاعها كلما تقدمنا . على ضوء الشمس الباهت خيل إلى أننى رأيت سورا حجريا بين الأشجار ، ولم أتأكد من ذلك إلا بعد أن مضت ما يقرب من العشر إتات (دقائق) . كان سوراً هائلا من الأحجار الضخمة يزيد ارتفاعه على خمسة أمتار ، ولابد أن الأهالى أقاموه بالأحجار لدفع خطر الوحوش عنهم ، لكنه من ناحية أخرى كان آية فى فن البناء . لاحظت وجود أبراج للمراقبة على أبعاد متساوية ، وكأن من بالقرية ، أو المدينة ، يخشون أيضا هجوم أعداء .

كان الليل قد جن حينما توقفنا عند البوابة الخشبية الضخمة . صاحت القائدة على الحراس وما لبثت إحدى الضلفتين أن تحركت . لم أدهش ، وأنا أرى أن خمسة رجال أشداء كانوا يشدونها ، فقد كان جلياً أنها مصنوعة من أخشاب الأشجار العملاقة . ما أن ظهرت أمامى المدينة حتى تبينت أنها مدينة حقيقية بطرقها وأزقتها ، ومنازلها .

مدينة جمعت الكثير من المظاهر الحضرية . صحيح أن أغلب المنازل لم تكن سوى أكواخ خشبية ، إلا أنها كانت منظمة ، حسنة الصنعة (١) .

---

(١) موضوع المرأة الحاكمة ليس إقتباسا من روايات رايدار هجارد ، أو من قصص ألف ليلة كما قد يتبادر إلى ذهن القارىء ، إنه حقيقة واقعة فما زال هو النظام السائد لدى بعض القبائل كما أن المبانى الحجرية موجودة فيما هو معروف باسم حضارة زمبابوى ، وان يكن العلماء لم يرجعوها إلا إلى الألف الأولى بعد الميلاد على أقصى تقدير ولما كانت حضارة زمبابوى أرقى مما وصفت كثيرا فان خيال الكاتب هو الذى أوحى بأن تبدأ الحضارة فى هذا الزمن السحيق .

انفرج الباب أولا عن ساحة واسعة جداً ، وأثناء دخولنا هالتنى ضخامة الأحجار التى بنى بها الحائط . على بعد يزيد على حت (١٠٠ ذراع) ، أو أكثر ، تصدر الساحة مبنى ضخم من الحجارة . كان مبنى ذا قلب ، وجناحين ويرتفع فوق سطح الأرض بطابقين . لاح كأنما هو خط آخر للدفاع عن المدينة . إلى جانبه كانت مبان حجرية أخرى ، تلتها الأكواخ مصطفة فى نظام مكونة الطرقات التى علقت بها مشاعل على مسافات معقولة تكفى لتلقى أضواء تنير السبيل .

رأيت الأهالى يجرون فى الأزقة ليتمتعوا بمشاهدتى ، وكلما تقدمنا فى الساحة تزايدت كثافة النظارة . لاحظت أن كثيرات من النساء تتباين ألوانهن ، وليس كذلك الرجال ، تماما كما أخبرتنى الفتاة . ومع هذا فقد كان منهم ذوو وجوه وسيمة ، وأجساد قوية ممشوقة . كان الجميع يتطلعون إلى كأنما أنا حيوان غريب هبط بينهم فجأة . سرت متحاملا على نفسى أحاول أن لا يظهر على أثر مما أشعر به من تعب ، وألم . كان رأسى ما زال يؤلمنى ويرسل طنينا مرعبا فى أذنى ، كما شعرت بأن كتفى قد تصلب من أثر مخالب الأسد .

تقدم موكبنا نحو القصر ، أو الحصن ، وشاهدت رجالا يهرعون بمشاعل إضافية حتى غشيت أضواؤها الباهرة المكان . امتلأت الشرفة الطويلة بالنساء ، ولابد أنهن الشريفات ، وتوسطتهن الملكة مايا ، عروسى المنتظرة . هالنى منظرها . ربما كانت أكثرهن بياضا ، لكنها كانت سمينة مترهلة حتى أنها ملأت مقعداً ضخما لعله العرش . اتصلت ذقنها بصدرها فاختفت الرقبة ، واكتنز الجسد شحما ، وبرزت بطنها إلى الأمام حتى أنه خامرنى الشك فى أنها لن تستطيع النهوض من مجلسها .

إبتسمت وهى تنظر إلى كأنما أنا قربان يقدم إليها لالتهامه . لم يكن فى نيتى أصالة أن أتزوجها ، أما وقد رأيتها فإن الشعور الذى خامرنى هو الرغبة

فى الفرار . ركعت الفتاة أمام ملكتها ، وخاطبتها بتلك اللغة التى لم أفهمها ، وارتفع صوتها رناناً وسط السكون الذى حل على الساحة . ما إن انتهت حتى تصايح الأهالى مهللين . أشارت المرأة المترهلة فاعتدلت الفتاة فى وقفتها بينما هرعت بعض الشريفات يخلين مكاناً لمقعد ضخم آخر وضع إلى جوار جبل الشحم .

ترددت برهات ، ولاحظت آسرتى ذلك فوضعت يدها على ذراعى برفق وقادتنى إلى المقعد . كنت مرهقاً فلم أقاوم وجلست منكمشاً فى الركن القصى بعيداً عن عروس المستقبل . التفتت إلى وما زالت ابتسامتها تشطر الوجه المكتنز ، وخاطبتنى بالسواحلية .

ـــ مرحبا بك فى زيمبا . سنقدم لك كل ما فى استطاعتنا ، لنجعل إقامتك سعيدة ، وإذا أردت شيئاً فما عليك إلا أن تأمر .

انتهزت الفرصة وأجبت :

ـــ شكرا لك أيتها الملكة . إنى متعب من أثر الرحلة الطويلة . ما لاقيته فيها من مشاق . هل أطمع فى أن أستريح ؟

بان القلق على محياها ، وخاطبت النساء حولها بلهجة آمرة سريعة ، وما هى إلا لحظات حتى جاءت آسرتى ، وطلبت منى أن أتبعها ، أعدت شكرى للملكة وقفوت أثر الفتاة ، قادتنى إلى داخل القصر ، أو الحصن ، وتبينت ضخامته من الداخل ، كان جميع بنائه من الأحجار ، حتى الأرض كانت حجرية وإن صقلت بحيث أضحت ناعمة ملساء ... رأيت بهواً فسيحاً ليس فيه من الرياش سوى بعض مقاعد خشبية متناثرة ، ويتصدره درج يقود إلى الطابق الأعلى . لمحت على الجانبين حجرات أخرى إلا أنى لم أتبين رياشاً .

كان البهو مضاء بالمشاعل ، وكذلك الدرج ، وحينما تبعت الفتاة إلى أعلى اتجهت فوراً إلى ردهة على الجانب الأيمن ، ثم فتحت باباً خشبياً ، ودعتنى إلى الدخول . رأيت حجرة واسعة أرضها من الحجارة ، وبها نافذة واحدة

تطل على الساحة . فى أحد أركانها سرير خشبى عريض ، وإن كانت الحبال المجدولة قد حلت محل الحشايا ، بالقرب من النافذة وضعت منضدة ، ومقعدان ، فى أحد الأركان وصندوق كبير ، وفى مقابلتهما منضدة كبيرة عليها طست ، وإبريق من الفخار .

أغلقت الفتاة الباب وجلست على أحد المقعدين :

— هل تريد شيئا ؟ أعنى طعاماً أو شرابا ! ؟

— كلا شكراً ، إن كل ما أريده هو أن تطلقوا سراحى لأعود إلى إتمام المهمة الموكلة إلى .

بان الاهتمام على وجهها :

— إنك لا تريد أن تبقى معنا ... إننا سوف نفعل كل ما نستطيع لإسعادك .

— إن سعادتى أن أعود إلى سفينتى .

— إن مايا ليست أجملنا ، لكنها أكثرنا بياضاً ، ويمكنك أن تتسرى بمن تختار منـــا .

— المسألة بالنسبة لى ليست مسألة نساء ، إننى موكل من ملكى بمهمة على أن أقوم بها ... ولن أستقر حتى أتمها .

— أرجوك ألا تفكر فى الفرار ... إنه الشىء الوحيد الذى لا تستطيعه .

لم أرد على هذا كنت أفكر أننى لو حصلت على السلاح فأننى أستطيع أن أحاول على الأقل ، لكن كيف أجد سيفى ، أو حتى مجرد خنجر .
ابتسمت الفتاة وقالت محاولة تسليتى :

— إن الأهالى سوف يقيمون وليمة الليلة بمناسبة العثور عليك ، طبعا ستكون الليلة الكبرى غداً ، ليلة عرسك ، لكن الليلة أيضا تعتبر عيداً ، سوف يأكلون ، ويشربون ، ويرقصون ، حتى وقت متأخر من

الليل ، ويمكنك أن تشاهد كل شيء من النافذة .

— أعتقد أنى سأنام . إنى سأنام . إنى متعب .

ترددت قليلا ثم قالت وهى تقوم من مجلسها :

— إنى لم أنس أنك أنقذت حياتى . إنى لا أستطيع أن أساعدك على الفرار ، لكننى على الأقل أستطيع أن أحذرك ، إن لدينا فهدين مدربين ، هما حيوانان سريعان جدا ، ويقومان بحراسة القرية مساء .

شجعتنى كلماتها على أن أسألها إن كانت تستطيع أن تعطينى سيفى ، وخنجرى فنظرت إلى نظرة طويلة ، ثم أولتنى ظهرها ، وخرجت دون أن ترد على سؤالى ، ما أن خرجت حتى خلعت ملابسى ، واغتسلت ، ثم ألقيت بجسدى المنهك على الفراش ، كان أثر الضربة ما زال يؤلمنى فى رأسى كما أن كتفى كان به أيضاً تصلب خفيف — لهذا آثرت الراحة التى أعلم أنى سوف أحتاجها فى القريب . إن المسافة بينى وبين الساحل مسيرة يومين على الأقل ، هذا إذا لم أضل الطريق ، أو لم يعقنى حيوان مفترس ، لهذا كان يلزمنى أن أدخر كل قواى . من النافذة جاءت أصوات حركة غير عادية لقد بدأ الأهالى إعداد الوليمة للاحتفال ، إلا أننى لم ألبث أن نمت .

استيقظت على أصوات الصخب ، حينما فتحت عيناى مكثت برهات فى شبه ذهول ، حتى تذكرت الحوادث التى مرت ، أتت الأصوات من النافذة المفتوحة ، ومنها أيضاً دخل ضوء القمر زاهياً ينير الحجرة ، أردت أن أعرف الوقت ، ولكن لم تكن هنالك وسيلة أتمكن بها من التأكد . صحيح أننا فى النصف الثانى من الدورة القمرية ، وأن نافذتى شرقية ، ومعنى هذا أننا قد جاوزنا منتصف الليل ، لكننى لم أستطع أن أحدد الوقت بدقة ، ولا كم ساعة تبقت ، حتى مطلع النهار .

نهضت من فراشى وبدأت أرتدى ملابسى ، وكانت المفاجأة الأولى إذ لم تكن هذه ملابسى ، إذاً فقد جاءت الفتاة ، وأبدلتها ، وأنا نائم .

لم تكن هذه هى المفاجأة الوحيدة إذ لاحظت وجود سلة كبيرة حوت أنواعاً متعددة من الفواكه ، إلى جانبها وجدت بعض اللحم المطبوخ .

تناولت الطعام ، ووقفت أمام النافذة ، راقبت الأهالى لفترة وهم ما يزالون يعربدون ويرقصون . لقد أمضوا فترة طويلة من الليل يأكلون ويشربون ، حتى إستلقى معظمهم نائماً حيث كان ، بينما ظل الباقون يرقصون ويصخبون ، ويترنحون . كان هذا أنسب وقت أتسلل فيه ، لكن إلى أين ؟ إنتقل ناظرى عبر الساحة إلى السور الضخم . كانت الساحة وهجاً من ضياء المشاعل ، وزادها القمر ضوءاً .

رأيت السور والحراس الواقفين عند الباب الضخم ، وأيقنت أن لا أمل يرجى من محاولة إقتحام الباب . ببطء انتقل ناظرى إلى الجهة الشمالية من السور . كانت الأبراج متقاربة بحيث تكون مجازفة كبيرة إن حاولت التسلق . كذلك تقاربت الأبراج من الناحية الجنوبية ، لكن على بعد من السور ، والباب ، رأيت شجرة ضخمة ربما يمكننى أن أتسلقها . ركزت إهتمامى عليها ، إمتدت الفروع حتى غطت مساحة هائلة تتوج جذع الشجرة ، لكن ما أحيي فى الأمل هى الفروع الممتدة ناحية السور التى تكاد أن تلامسه .

إنتقلت إلى التفكير فى مشكلة الهبوط من الناحية الأخرى . إن ارتفاع السور يزيد على خمسة أمتار ، ويمكننى قفزه ، لكن خطر إصابة الساقين ، أو الكاحلين كبير ، وان أستطيع بعد ذلك الإبتعاد كثيراً قبل أن يلحقنى المطاردون الذين ولا شك سوف يتبعوننى ، تركت النافذة ، وطافت عيناى بالحجرة تبحثان عن أى شىء يمكن أن أستفيد منه . لاحظت الصندوق الكبير فاتجهت إليه وفتحته ، كادت أن تفلت منى صيحة فرح حينما شاهدت سيفى ، وخنجرى . هل أتت بهما الفتاة لتساعدنى على الفرار ؟

بمجرد أن إلتفت قبضتى على سيفى شعرت بأمان غريب . إحساس بالطمأنينة بصديق لا يبخل . نسيت ما تبقى من ألم إثر الضربة التى تلقيتها

على رأسى ، ونسيت تصلب كتفى ، ولم أعد أفكر إلا فى الفرار . بخنجرى قطعت جدائل الفراش وصنعت منها أولا منطقة لسيفى ، وخنجرى ، ثم ربطت الباقى ببعضه ، فأضحى لدى حبل يزيد طوله على أربعة أمتار ، وانتهيت من مشكلة القفز من السور .

كانت المشكلة الكبرى فى إخفاء هذه الأشياء ، إذ أن كل الملابس التى تركتها آسرتى لم تزد على إزار من قماش سميك يلتف حول الوسط ، بحثت فى الصندوق ووجدت إزاراً آخر لعله ترك حتى أتمكن من استبدال ملابسى حينما أشاء ، رتبت أشيائى على ألا تظهر قدر الاستطاعة ، وارتديت الإزار الثانى يغطيها تماماً ، واعتمدت على أن الأهالى فى حالة شديدة من السكر ، وأن ضوء المشاعل لا يعطى إنارة كافية .

فتحت باب حجرتى وخرجت متلصصا ، والواقع أنى لم أكن فى حاجة إلى التلصص إذ أنى قابلت فى القصر أكثر من شخص ، ورآنى ، ومر بى كأنه لم ير أو طوح بيده بإشارة غير مفهومة ، وهو يترنح ، شجعنى هذا على أن أسير غير محاول إخفاء نفسى ، ولم يعترضنى أحد سوى امرأة ثملة تترنح حاولت أن تحيط عنقى بذراعيها فدفعتها بعيداً ، وسقطت على الأرض . دون أى تردد إتجهت إلى الشجرة . لابد أن حراس البوابة أيضا كانوا قد شربوا ، ذلك أننى لا أشك فى أن واحداً منهم على الأقل رآنى ، لكنه لم يلبث أن ارتكن على حربته ، واتجه نظره تائهاً إلى ناحية أخرى دون أن يبدو عليه أى شعور .

عند الشجرة جاءت مفاجأة أخرى إذ رأيت آسرتى منتظرة . حين رأتنى أمسكت بذراعى وقالت بسرعة وهى تناولنى صرة :

— عليك أن تتعجل . لا تخش شيئاً الآن فإن الجميع ثملون ، حتى الحراس أمرت باعطائهم بعض الشراب ، أما الفهدان فقد قيدتهما . عليك بالإسراع قدر استطاعتك فان الفجر لن يلبث أن يبزغ ، وسوف يكتشفون

فرارك دون شك . إن الفهدين سريعان جداً ، وهما مدربان ، ثم إن لدينا أيضا رجالا إعتادوا على الجرى لمسافات طويلة . إننى أعددت لك بعض الطعام حتى لا تتوقف .

أمسكتها من كتفيها ، وقبلتها . حين تركتها كانت الدموع تنساب من عينيها فهمست فى أذنيها :

— شكرا .

بعد لحظات كنت قد اعتليت الشجرة وهبطت من الناحية الأخرى من السور . ما حدث بعد ذلك كان سلسة من العدو ، والإرهاق . لم أتوقف إلا لدقائق لألتقط أنفاسى . كان اتجاهى دائما إلى الشمال الشرقى ، وإتخذت خطوة سريعة واحدة . لم أرهق نفسى ، فإننى أعلم أن الوقت الذى يضيع فى الراحة من الإرهاق ، يفوق ما أستفيده من فارق السرعة .

ساعة إثر ساعة ، وحتا (١٠٠ ذراع) إثر حت ، دون توقف تقريباً كنت أعلم أن الأهالى مدربون على السير بلا توقف ، فقد شاهدتهم وهم يحملوننى ليلة كاملة ، وجزءا من نهار لم يذوقوا فيها نوما ، أو راحة إلا ما اختطفوه فى الساعات القلائل التى استرحنا فيها . كان كتفى به تصلب خفيف لكن رأسى هو الذى أعجزنى . لقد تلقيت منذ أقل من ثلاثة أيام ضربة شديدة أفقدتنى رشدى ، وبالرغم من أن الراحة التى نعمت بها فإن أثر الضربة كان ما يزال موجوداً .

بزغ خبر (شمس الصباح) وما زلت مستمراً فى خطواتى السريعة . مع هذا فإن أشعة خبر كانت قوية بحيث بدأت أشعر بالحر ، وبدوار خفيف فى رأسى حالفنى حسن الحظ فلم يصادفنى حيوان مفترس يعرقل طريقى . رأيت بعض الغزلان ، والحمر الوحشية ، لكنها كانت تقفز حينما ترانى ... التقيت بقطيع من الثيران ، وتفاديته . ذات مرة اضطررت أن أعدو بأقصى ما أستطيع

من سرعة حينما هاجمنى وحيد القرن إلا أنه بعد فترة ، كأنما سئم العدو فى الحر . توقف واستمر يرعى .

بالرغم من أن رأسى كان يؤلمنى ، وأن عينى بدأت تغشاها سحابة ، وأذناى أخذتا تطنان ، إلا أننى لم أتوقف . كان عدوى الأكبر هو الشمس ، هو خبر يتحول إلى رع (شمس الظهيرة) . أردت أن أصل إلى حمى الغابة ، حيث الظل ، بأسرع ما أستطيع . كنا قد قطعنا منطقة الأعشاب فى يومين كاملين للراحة والنوم حينما حملنى آسرى إلى القرية ، لكننا كنا نسير دون سرعة ، كما توقفنا ، عندما هاجمنا الأسد . قدرت من هذا أننى سوف أصل إلى الغابة عند الظهر تقريباً ، أى بعد ونوت (ساعة) أو اثنتين .

انقضت ونوت ، وبدأت تلوح أشجار الغابة من بعيد . ضاعفت جهدى بالرغم من أن ساقاى بدأتا تنوءان بحملى ، وأن عضلاتهما كانت تؤلمنى . أعطتنى رؤية الأشجار أملا جديداً دفعنى إلى عدم التوقف . ساعة أخرى وصلت بعدها إلى أوائل الأشجار ولم أستطع أن أستمر . ألقيت بجسدى المنهك على الأرض فى ظل أول شجرة ، وشعرت بإغماءة خفيفة . آلمتنى ساقاى ، وكتفى ، ورأسى ، وتوالت أنفاسى لاهثة ، ولم أستردها إلا بعد أكثر من عشرة دقائق .

تناولت بضعة لقيمات ، زادت من شعورى بالظمأ ، ومع هذا فقد شعرت بحيوية جديدة تندفع مع دمائى . حتى بعد مضى أكثر من نصف (نوت) كنت مازلت مجهداً ، لكننى كنت أعلم أننى لن أسترد قواى كاملة ولو مكثت يوما . تحاملت على نفسى وعدت إلى السير . أحسست بتصلب عضلات ساقاى حتى أننى أجبرت نفسى على الحركة فى كل خطوة ثم تلاشى التصلب شيئاً فشيئاً . لم يكن فى استطاعتى أن أعدو مثلما فعلت فى الأحراش ، فللغابة دروب ، ومسالك لا أدرى عنها شيئا . لقد قطعها الأهالى فى ليلة تقريباً ، وخامرنى شك فى أننى أستطيع أن أصل إلى الشاطىء قبل أن يجن الليل .

مضت ساعتان ، وأنا ألتمس طريقى ، ثم دون سابق إنذار هبط على جسد ضخم ليلقينى على الأرض ، ولم أكن محتاجا إلى عناء كبير لأعلم أنه أحد الفهدين . تدحرجت بعيداً ، ومددت يدى لأستل سيفى ثم توقفت . كشر الوحش عن أنيابه ، وإلى جانبه وقف الفهد الآخر متحفزاً . تذكرت كلمات آسرتى إن الفهدين مدربان . لن يقتلانى إلا إذا حاولت قتلهما . طغت على موجة يأس مرير ، وآلمنى أن أفشل فى هروبى بعد هذا المجهود المضنى ، لكن لم يكن فى إستطاعتى أن أفعل شيئا .

من بعيد جاءتنى أصوات الأهالى . سوف يأتون ، ويجدونى حبيساً لا أستطيع التصرف تراجع الفهد قليلا ، واعتدلت جالسا لأرى أن الوحشين ينظران إلى ، يرقبان حركاتى . مضت ربع ساعة تقريباً قبل أن يصل الأهالى لم تكن آسرتى معهم ، وإنما كانت تقودهم امرأة أخرى . لاحظت أن معها خمس نساء أخريات من الشريفات . إذاً فالملكة لم تطمئن إلى أن ترسل واحدة ، فأرسلت ستا حتى تضمن عودتى .

خاطبتنى القائدة بلهجة شديدة آمرة إياى بالقيام ، وتحاملت على نفسى . فجأة انقلب الموقف. من بين الأشجار ظهر عدد من الرجال ، وسمعت صوت نجم آب وهو يقول فى بساطة :

— هذا أنت أيها القائد ، لقد انتابنا القلق لغيابك .

كان جنوده يحيطون بجميع الأهالى ، وإلى جانبه وقف أونى وقفته المهملة وقد أمسك بسهامه ، وقوسه . كشر الفهدان عن أنيابهما ، وتخاطبت النساء بتلك اللغة التى لا أعرفها وبدا كأنما القتال أضحى لا مناص منه ، وتدخلت وتكلمت بالسواحيلية

— ابعدن فهديكما ، وإلا فسوف يقتلان . اسمعن إن الغرض من كل هذا هو مجرد الحفاظ على النسل . إذا كان هذا فلا داعى لأن تقتلن ، ويقتل رجالكن . عوضا عنى هنالك أكثر من مائة وخمسين رجلا أبيض .

الفصل الخامس عشر

رأس العواصف

— أين كنت ؟

بهاتين الكلمتين الغاضبتين استقبلتنى مرت . ولم أتمالك أن أبتسم . كأنما أنا زوج تأخر عن موعده . حينما رويت لها ماحدث سألتنى عن آسرتى هل هى جميلة ؟ لما أجبت بالإيجاب زمت شفتيها ، وتركتنى .

تمت عملية إنزال رجال إيوف عنخ ، ولم أدهش إذ لاحظت أن الذين تركوا السفينتين ، وفضلوا البقاء على أرض القارة كانوا أكثر من مائتين ، بل إننى أشك فى أن بعضهم لم يكن من رجال إيوف . كان الجميع سعداء . كنت سعيداً بعودتى ، وبأننى تخلصت من العدد الزائد من الرجال . وكان الرجال سعداء ، إذ علموا أنهم ضيوف مكرمون ، ورسل آلهة ، وكانت النسوة سعيدات ، صحيح أن أوامر ملكتهم كانت العودة بى بأى ثمن ، لكنها لاشك سوف تنتقى لنفسها رجلا يعوضها عنى ، كما أن باقى الشريفات سيحلن دون أى تصرف أخرق منها . هذا إذا فكرت فيه .

ارتحلنا مع أول خيوط نهار اليوم التالى . كانت السفينتان قد أكملتا تموينهما ، وملأت جرار الماء ، ولنتهى النجارون من أعمالهم . إلى الجنوب ثانية . هل لهذا الجنوب من آخر ؟ أمضيت النهار فى تدوين أحداث الأيام الماضية ، ومن الغريب أن مرت سجر عادت إلى سابق عهدها معى وكأن شيئا لم يحدث . نسيت إيوف عنخ . وما اتهمتنى به ، ونسيت إهمالها لى ، وإذا جاز لى أن أقول فإن معاملتها أضحت أرق ، وأكثر ألفة ، ومودة .

استمر التيار يدفعنا نحو الجنوب بشـــدة ، ولم نكن فى معظم

الأيام فى حاجة إلى التجديف (١) . أردت أن أوفر بعض الوقت الذى ضاع منا فى زيمبا فلم أتوقف إلا لفترات قصيرة لمجرد تجديد المؤن والمياه ، بل أننى كثيرا ما استغنيت عن تجديد المياه إكتفاء بمياه الأمطار . لقد فقدت أكثر من ثلث القوة التى بدأنا بها منذ ثمانية أشهر ، ولم أكن أدرى متى تنتهى الرحلة ، إن كان لها نهاية ، وهل سأفقد المزيد من السفن ، والرجال؟

ولهذا كان يلزمنى أن أظهر دائما بمظهر السعيد خالى البال ، الواثق من نتيجة هو فى الواقع أبعد ما يكون عن تصديقها .

لاحظت تغيرا فى الجو إذ بدأ يميل إلى البرودة ، أو على الأقل يبعد عن الحرارة الشديدة ، التى عانينا منها فى الشهور الأخيرة . لاحظت بعد ذلك ، خاصة بعد أن مررنا بنهر كبير (نهر لمبوبو) ، ازدياد التيار شدة وهو يجرفنا نحو الجنوب ، وارتفاع الأمواج ، وكثرة هطول الأمطار .

ربما كان من الأوفق هنا أن أذكر أن كلا من السفينتين قد صممت بحيث تحمل بالإضافة إلى الرجال تموينهم ، ومياههم لمدة أسبوع ، هذا طبعاً عدا الغلال التى حملناها معنا من تامرى ، والتى احتاط كا لم أور ، قائدى السابق ، فخزن ما يكفى كل سفينة لمدة عام على الأقل (٢) حينما لاحظت أن الجو يميل إلى البرودة . وإلى كثرة الأمطار فكرت أن أستغنى عن تموين المياه ، إلا القليل ، وأن أستعيض عنها بزيادة التموين الطازج من فاكهة ولحوم ، وبقول إلا أننى نظرا لجهلى بالأماكن التى سوف نرتادها خشيت مغبة ذلك فاحتفظت بكميات المياه كما هى .

---

(١) تيار موزمبيق ، ثم تيار أحولهاس بعد ذلك ، وهو الذى يدور حول رأس الرجاء الصالح .

(٢) اذكر القارىء أن قدماء المصريين كانوا بارعين جدا فى تخزين الغلال حتى أنه قد عثر على بعض حبات القمح من عصورهم ومازالت جيدة حتى الآن بل ويمكن انباتها .

من ناحية أخرى قدرت أن الغلال سوف تنفذ بعد شهر أو ثلاثة على الأكثر ، ورأيت أن الجو يسمح بزراعتها ، ففكرت جدياً أن أتوقف بحيث أبذر ما بقى لدينا من قمح ، وأنتظر حتى حصاده إلا أننى أرجأت ذلك مؤقتا حتى أستغل التيار الجنوبى إلى أقصى حد ممكن . وضعت خطتى بحيث لا أتوقف إلا حينما تهبط المؤن إلى ما يكفى يومين ، ثم ، حينما أجد المكان المناسب ، والجو المناسب ، ألقى المراسى لأكمل تموين الأسبوع .

كنا فى النصف الثانى من الشهر الرابع من شهور شمو (يونيو) حينما لاحظت أن المناطق التى يسهل فيها الرسو تتباعد نظراً لأن الشواطىء صخرية حتى تكاد الجبال أن تنتهى فى كثير من الأحيان عند حافة المياه . ندرت أيضا المناطق التى استطعنا فيها التموين للسبب نفسه ، لهذا اضطررت أن أغير من خطتى التموينية لتتوائم مع الظروف الجديدة .

أصدرت أوامرى أن توزع الأطعمة بحيث تكفى المؤن لمدة عشرة أيام بدلا من أسبوع . ومن حسن الحظ أنى أمرت أن تملأ السفينتان بالتموين أكثر مما تحتملان عادة ، وحينما لاحظت أن الجو يميل إلى البرودة ، وأن الأمطار تزداد هطولا بالرغم من أننا قاربنا الصيف(١) فإنى جازفت بأن اكتفيت بنصف التموين اللازم للمياه حتى لا يزداد الحمل على السفينتين فى هذا الجو العاصف .

فى آخر لقاء لى مع ساحور رع ونجم آب أكدت تعليماتى السابقة فيما يتعلق بحالة هبوب عاصفة ، ذكرت أننا يجب أن نبتعد عن الشاطىء ، وعن بعضنا ، حتى تقل فرص الاصطدام ، وأن عليهما بعد هدوء الجو أن يرسوا فى أقرب مكان مناسب على الشاطىء حيث سأكون فى انتظارهما ، أو حيث

---

(١) لعلنا لم ننس أن أشهر الصيف بحسب تفكير بطل القصة كانت فى نصف الكرة الشمالى ، وأن أشهر الشتاء تقابلها فى الواقع فى النصف الجنوبى .

أوافيها . فان لم نلتق ، فكل سفينة وشأنها . على أن يكون الهدف دائما هو إتمام الرحلة .

أقلعنا من مرسانا فى السابع عشر من الشهر ليتلقفنا التيار الشديد ، لم يكن هنالك شك فى أننا مقبلون على عاصفة ، اكفهرت السماء ، وتلبدت بالغيوم ، وارتفع عويل الرياح ، وتقاذفت الأمواج السفينة تلطمها من كل جانب بلا هوادة ، استمر الحال هكذا طوال النهار ، واستمر كذلك فى الليل ، لم تخف حدة الجو ، ولم ينقلب إلى عاصفة . كان الجو رديئا فحسب ، مع هذا بدا لى شىء واحد يبشر بالخير ، إن اتجاهنا لم يكن إلى الجنوب فقط وإنما كان إلى الغرب كذلك ، صحيح أننا سبق أن اتجهنا إلى الجنوب الغربى ، ثم إننا فى خلجان ، وأنها لم تكن نهاية ليبيا الجنوبية ، إلا أننا فى هذه المرة طال اتجاهنا إلى الغرب عن المعتاد ، فإما أن نكون فى خليج كبير جداً ، وإما أننا نتحول قليلا إلى الغرب(١) .

لم أبح بآمالى هذه لأحد إذ خشيت أن يعود الاتجاه مرة ثانية إلى الشرق ، أو الجنوب فحسب فتكون صدمة خيبة الأمل شديدة . فى صباح اليوم التالى جاءنى منتوسين يسأل عن اتجاهنا ، وعرفت أنه وصل إلى النتيجة التى وصلت إليها ، طالبته بالتريث وعدم الاندفاع فى الاستنتاج دون أن أعطيه بارقة أمل ، ما أن تحول رع (شمس الظهر) إلى أتوم (شمس المغرب) حتى قطعت الشك باليقين ، ليس فى إتجاهنا ، وإنما فى أن عاصفة مدمرة بدأت .

إذا كنت قد وصفت الجو بالرداءة قبل ذلك فإنى أعدل عن وصفى ، إنه لم يزد على نسمة رقيقة إذا ما قورن بالأنواء التى صادفناها بعدئذ ، ألقت الطبيعة بكل ثقلها فى الأيام التالية ، لم تتوقف الأمطار عن الهطول ، وتصايح الرعد متتاليا يصم الآذان بأصوات صياح الجن والعفاريت ، إلتمع البرق ،

---

(١) لابد أنهم كانوا عند دربان .

يرسل الصاعقة تلو الأخرى تضيع فى جوف المياه ، وزأرت الرياح هادرة كأنما تبغى الفرار من الجحيم ، ولم يقبل البحر أن يقف ساكنا أمام كل هذا الغضب العارم ، فثارت مياهه تتلاطم فى قوة ، وعنف ، لتكون زبداً تتخطفها الرياح وتنثرها فى الجو ، يرتفع بالسفينة أمتاراً كأنما يريد أن يتخلص منها ، يقذفها فى الهواء ، ثم يهبط بها أخرى يحاول إبتلاعها فى جوفه العظيم ، وحينا آخر يضرب جانبيها بعشرات الأطنان من المياه بغية تحطيمها . تئن صوارى السفينة وألواحها الخشبية ، وتأتى الرياح لنجدة البحر كأنما ليتعاونا على دفعها لتتحطم على الشاطىء الصخرى .

حينما هبط الظلام كان لزاما على أن أبتعد بالسفينة إلى عرض البحر ، بعيداً عن الشواطىء التى لم نكن نراها إلا لمحات أثناء ومضات البرق. أخفيت عن رفاقى رعبا حقيقيا إذ لم أكن أعلم تعرجات الشاطىء ، وعما إذا كنا قد دخلنا خليجا ضخما أم أن ليبيا نفسها تنحرف نحو الغرب ، وظللت طوال الليل قلقا أتوقع الاصطدام ، بالصخور والجبال الشامخة ، فى أية لحظة . لم أذق طعم النوم ، وأخذت أتنقل فى أرجاء السفينة لأتأكد من أن كل شىء متحرك قد أحكم رباطه .

دخلت قمرة مرت سجر فوجدتها تنتحب ، وهى متشبثة بفراشها تكاد ذراعاها أن تكلان ، لم أرها فى مبدأ الأمر إذ لم يكن هنالك ضوء كاف، حتى إذا اقتربت أترنح كدت أسقط عليها فى الفراش ، وعندئذ علمت ما تعانيه ، صرخت عندما أحست بوجود شخص غريب ، ثم هدأت حينما سمعت صوتى ، أخذت أهدىء من روعها بصوت عال تغطيه أصوات العاصفة ، ثم تناولت ملاءة وقيدتها إلى الفراش ، لم أكن أستطيع أن أوثقها بالحبال حتى لا يؤلمها الوثاق مع شدة تأرجح السفينة ، تركتها ، وانتقلت إلى غرفة القيادة ، كان منتوسين يحاول أن يسيطر على الدفة يساعده عنخو ، وسيمبا ومعهما رجلان آخران يتناوب كل اثنين منهما القيادة تحت اشراف منتو . إنضممت إليهم فلم يكن هنالك رجل يستطيع أن يستمر فى توجيه الدفة فى

مثل هذا الجو لأكثر من نصف ساعة ، لم تهدأ العاصفة طوال الليل ، ولا هى خففت من حدتها حينما بزغ النهار .

لم يكن مراقب الصارى فى مكانه فما كان من المستطاع أن يرتقى شخص الصارى ، لهذا كان على أن أدور بناظرى فى هذا الجو المكفهر باحثا عن الشاطىء ولم أر له أثراً ، واحتار عقلى فى التفسير ، كنا لم نزل نتجه إلى الجنوب الغربى ومع هذا فلم أر شيئا ، هل معنى هذا أن ليبيا قد إنتهت فى وقت ما أثناء الليل ؟ أم هل معناه أننا ابتعدنا عن الشاطىء لأكثر من اللازم ؟

كان على أن أتخذ قراراً حاسما . هل أتجه إلى الغرب وأجازف فى هذه العاصفة العاتية ، بأن أصطدم بالصخور والجبال ؟ أم أستمر فى الإبحار إلى الجنوب الغربى ، وأنتهى بأن أضل طريقى وسط هذا البحر المتلاطم ؟ لم يكن من العسير على ، إذا ضللت طريقى فى البحر . أن أعرف الطريق السليم إلى العودة ، لكن كانت هناك عقبات كثيرة أولها العاصفة ، وثانيها التيارات المائية التى لا أعرفها ، وثالثها الشواطىء المجهولة ، ورابعها ، ولعله أهمها ، التموين . لقد مضى علينا يومان ، وليلتان فى البحر ، ومعنى هذا أن مالدى يكفى للتموين أسبوعا آخر ، أو ثمانية أيام . ماذا لو حملتنا العاصفة إلى مسافة لا نستطيع فيها العودة إلى البر قبل هذه المدة ؟

ماذا لو استمرت العاصفة ، أو على الأقل الجو الردىء ، أكثر من ثمانية أيام ؟ إن ما أراه من علامات الجو لا يبشر بأن العاصفة سوف تهدأ فى القريب . كان على أن أتخذ القرار بمفردى دون استشارة منتوسين . لم أرد أن يعلم أحد بمقدار الحيرة التى أنا فيها ، ولا مدى الجهل الذى أتخبط فيه . أيا كان القرار فإنه يعنى الحياة ، أو الموت بالنسبة لمئات الرجال ، ويعنى فشل المهمة أو استمرارها . ترى ماذا فعلوا فى السفينة الأخرى ؟ لقد اختفت عنا منذ مدة ، ولا أعلم مصيرها ولا شك أنهم يعانون مما أعانى منه ...

أمضيت النهار جميعه وأنا أفكر دون أن أجد حلا للمشكلة . لم أتوقف

عن التفكير وأنا أقود السفينة ، ولا وأنا أتطلع إلى الغرب عسى أن أرى شاطئنا ، ولا وأنا أتناول غدائى مع مرت سجر ، ولا وأنا جالس معها أحدثها ، وأطمئنها بأن كل شيء على ما يرام . زال عنها الرعب الذى أصابها حينما بدأت العاصفة ، لكنها كانت مصفرة الوجه لا تأكل إلا لماما ، وأصابها دوار البحر فالتزمت فراشها لا تبرحه . أرغمتها على أن تأكل لعلمى بأنه لا شيء أضر من الإصابة بدوار البحر إذا كانت المعدة خالية .

حينما حل ظلام الليلة الثالثة أحسست بأنى منهك القوى ، وبأننى لن أستطيع أن أتابع السهر ، إذا لم أنل قسطا من النوم . طلبت من منتوسين أن ينقص كمية الطعام إلى النصف ، ورأيته يرفع حاجبيه فى دهشة . اعترض بأن الرجال يميلون إلى الإكثار من الطعام فى الجو السيء لا إلى الإقلال منه ، إلا أننى أصررت على رأيي دون أن أعطى له سببا ، سألته بعد ذلك أن يتركنى لأنام أربع ساعات كاملة يوقظنى بعدها ، إلا إذا جد سبب يستدعى إيقاظى .

ما أن ترك منتو القمرة ووضعت رأسى على الفراش حتى رحت فى سبات عميق لم أشعر فيه بالعاصفة وأصواتها ، ولا بالسفينة وتأرجحها . حينما أيقظنى استعدت نشاطى الذهنى دفعة واحدة . سألته عن حالة الجو ، ولم أكن فى حاجة حقيقية للسؤال فإن الأصوات التى آتتنى وأضواء البرق ، كانت كفيلة بالإجابة . سألته عن اتجاه السفينة فأجاب بأنه لم يتغير ، ما زال نحو الجنوب الغربى وأنه لم يتلق منى قبل أن أنام أية تعليمات بتغييره . سألته إن كان قد رأى هو ، أو أحد زملائه ، الشاطيء فى ومضات البرق فأجاب بالنفى . أخيراً سألته عمن يمسك الدفة فأجابنى بأنه مرحب قائد الدفة ، ومساعده ، وأن عنخو ، وسيمبا أبيا الذهاب للراحة ، وبقيا معها . طلبت إليه أن يذهب إلى قمرته لينال قسطا من النـــوم ، وأخذت طريقى إلى غرفة القيادة .

بمجرد ان خرجت من قمرتى رأيت إلى أى مدى وصلت العاصفة .

استقبلتنى الرياح العاتية تكاد أن تنتزعنى من سطح السفينة لتلقينى فى اليم . ولم يكن البحر أقل منها لهفة ، إذ تطاولت أمواجه من كل جانب لتغطى السطح ، وترتد فى محاولة لجرف ما تصادفه فى طريقها . تلاعب بالسفينة فى كل اتجاه ، فراحت السفينة تتأرجح ثملة لا تدرى لها مستقراً . تلبدت السماء بالغيوم فاختنق القمر ، واختفت النجوم ، وساد الكون ظلام ، إلا من ومضات خاطفة للبرق . ملأ الجو خليط مرعب من الأصوات . زئير الرياح وتلاطم الأمواج وهى تتخبط مع بعضها ، وفى جوانب السفينة ، جلجلة الرعد فى السماء يهز العالم حوله ، ثم يتلاشى فى الأفق البعيد ليبتدىء صوت جديد .

مع ان الأمطار توقفت عن الهطول إلا أننى ، حينما وصلت قمرة القيادة كنت مبتلا من رأسى إلى القدمين . تناولت الدفة من مرحب ، واضطررت أن أرفع صوتى إلى ما يشبه الصياح ، وأنا آمر كلا من عنخو وسيمبا ، أن يتوجها إلى فراشيهما . لما رأيت ترددهما كررت الأمر ، وصحبته بالإشارة فلم يريا بدا من الإذعان ، وبقيت فى غرفة القيادة يعاوننى مرحب ومساعده .

رفضت أن يمسك الدفة غيرى . وكان لى من وراء هذا هدفا . كنت أريد أن أعلم مدى قوة التيار ، وإلى أى اتجاه يحملنا . لم أقاوم ، وتحركت مع الذراع الطويل للدفة . لم أكن قد اتخذت قرارى بعد عن الاتجاه الذى أقود اليه السفينة ، وأردت أن أتأكد من قوة التيار واتجاهه قبل أن أحزم رأيى . بعد أقل من ربع ساعة عرفت . بالرغم من أن العاصفة تأتى من الجنوب متجهة إلى الشمال ، وبالرغم من لطماتها المتتالية للسفينة فان الاتجاه كان إلى الغرب .

أضحت القيادة أسهل ، وأنا أجارى التيار ، لكن كان على أن أظل مراقباً الغرب حتى إذا ما ظهر شاطىء أمكننى أن أتفادى الكارثة ، أو على الأقل

أحاول أن أتفاداها . طلبت من قائد الدفة ومساعده أن يركزا اهتمامهما على النظر إلى الغرب ، أو على الأصح إلى حيزوم (مقدم) السفينة ، وأن يخبرانى إن رأيا الشاطىء ، أو حتى شكا فى رؤيته . على هذا المنوال قضينا بقية الليل .

جاء الصباح ببشرى جديدة . خفت حدة العاصفة . لم يصف الجو ، فما زالت الأمواج عالية ، وما زالت الرياح تعوى ، وما زالت السحب تغطى السماء ، لكن مع هذا فما لا شك فيه أن العاصفة قد هدأت نسبيا ، وتوقف الرعد والبرق ، وتوقفت الصواعق بعـــد بزوغ أول خيوط الضوء جاء منتوسين ليتسلم القيادة ، وجاء عنخو يصحبه سيمبا ليعاوناه ، فى حين ذهب مرحب ومساعداه إلى فراشيهما . نظر إلى منتوسين مذهولا حينما أمرته أن يساير التيار إلى الغرب ولم يتمالك أن سأل :

ــ هل سيدى القائد واثق من أن هذا هو الاتجاه الصحيح ؟

ــ كلا .

إذا كانت دهشته قد ازدادت فانه لم يحاول المناقشة . كان جديراً بلقب ضابط فى جيوش الفرعون ، كان يعلم أن على القائد أحياناً أن يتخذ قراراً دون أن تكون لديه أسس ثابتة ، وأن عليه أن يجازف تاركاً للحظ ، وعناية الآلهة نصيبا أكبر مما يجب أن يترك عادة ، كان يعلم هذا ، ويقدر مدى المسئولية التى يأخذها القائد على عاتقه ، فلم يناقش .

اتجهت بناظرى إلى الشمال أبحث عن أثر للشواطىء ، ولم أر شيئا ، تصورت أن هذا ربما يعود إلى ارتفاع الأمواج فاذا كان هذا صحيحا فلا بد أن تظهر ، ولو قمة الجبال بين الحين والآخر ، ومع أنى لم أرفع عينى لحظة فان أكثر من ساعة مضت دون أن أرى شيئا سوى المياه ، والسماء ، حذرت الرجال الثلاثة أن يركزوا جهودهم على النظر عند حيزوم (مقدمة) السفينة ، وإلى الجانب الشمالى فان شاهدوا أرضا أن يخبرونى فوراً ، وذهبت إلى قمرة مرت سجر .

ربما كانت تحلم حين دخلت ، لأنى رأيتها تتقلب فى فراشها متململة حتى خشيت أن تسقط منه ، هممت أن أوقظها ثم أشفقت عليها ، فتناولت مقعداً أدنيته من الفراش وجلست عليه ، لاشك أنى غفوت بعد فترة لأنى حينما انتهيت كانت هى مستيقظة تنظر إلى ، ابتسمت معتذرا ، وردت الابتسامة بتحية الصباح .

سألتها عن صحتها وأجابت بأنها تشعر بضعف شديد ورفضت تناول الطعام ، أرسلت فى استدعاء حقا نخت فأعطاها بعض الأدوية ، وطالبها بأن تأكل ، وجلست معها حتى أرغمها على تناول بعض الطعام .

تركتها وخرجت . كان حقا نخت ينتظرنى ، ليخبرنى أن حالة الفتاة حرجة ، ولما سألته إن كانت حياتها فى خطر قال إنه لا يوجد خطر حاليا لكن إذا استمر الجو على هذا المنوال فربما يوجد خطر . لم يكن لدى حيلة سوى أن أجبرها على الأكل بصفة مستمرة .

ثلاثة أيام أخرى بلياليها ، والجو على ماهو . إزدادت حالة الفتاة سوءاً مما أقلقنى وأهمنى ، وأضحيت أقضى معظم أوقات فراغى فى قمرتها . تناقصت المؤونة بشكل مخيف حتى صار شبح الجوع يهدد من بالسفينة . كانت وجهتها دائما إلى الغرب ولم يعد لدى أدنى شك فى أن ليبيا (افريقيا) قد انتهت ، لكننى كنت أخشى أن أتجه إلى الشمال ، استمرت الرياح جنوبية تدفعنا شمالا ومع هذا استمر أيضا التيار يحملنا غربا .

فى صباح اليوم التالى ، الثامن من اقلاعنا الأخير ، تحولت الرياح إلى عاصفة لم أشهد لها مثيلا . لم يعد فى الإمكان السيطرة على السفينة ، أو حتى توجيه الدفة دون خطر كسرها . وارتفعت الأمواج لتصل إلى عشرة نبيوات (عشرة أمتار تقريبا) أو تزيد ، وتلاطمت مع بعضها بأصوات مرعبة ، وتقاذفت السفينة فى كل اتجاه ، اتجهت إلى قمرة مرت سجر ، وهناك كان الكاهن الطبيب حقا نخت . حينما رآنى ابتسم ابتسامة باهتة غير مطمئنة ،

وهمس أن الفتاة نائمة . لقد أعطاها مهدئا لكن حالتها ازدادت سوءا .

تأكدت من إحكام الأربطة حولها حتى لا تسقط من الفراش ، ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئا غير هذا ، قبل أن أغادر القمرة سمعت صوتا هائلا يدوى على سطح السفينة . وهرعت إلى الخارج لأتأكد مما عرفت أنه قد حدث ، على السطح شاهدت الكارثة التى حاقت بنا . لقد أصابت صاعقة الصارى الأكبر ، وسقط مهشما . لم تتوقف آثاره عند ذلك ، وإنما جاء سقوطه منحرفا إثر اهتزاز السفينة فهشم بعضا من قمرة القيادة ، ومس جزء منه ذراع الدفة ، إنكسر الذراع إلى ما يزيد على نصفه ، وقتل معه مرحب ومساعده .

إن طول ذراع الدفة يساعد على سهولة توجيهها ، أما وقد فقدنا أكثر من نصفه فإنه أضحى من العسير جدا التوجيه إذا كان البحر فى حالته العادية ، أما الآن ، فى مثل هذا الجو ، فإنه أضحى مستحيلا ، معنى هذا أننا أصبحنا تحت رحمة العاصفة تماماً دون أى نوع ، أو أمل ، فى الحماية . لم يقتصر الأمر على هذا إذ سرعان ما أتانى خبر فزعت له ، قال منتوسين إن الصارى قد هشم جزءا من سطح السفينة ، وحرك بعض ألواح الجانب الأيمن بحيث بدأت المياه تتسرب إلى الداخل ، وأنه يخشى أن تتفكك الألواح .

جمعت النجارين الذين قرروا أنه من العسير عليهم أن يقوموا ولو ببعض الإصلاح فى هذا الجو ، إن السفينة دائمة الحركة ، سريعة الانكسار فى كل اتجاه . لم آبه لاعتراضهم ، وأمرتهم أن يفعلوا ما يستطيعون ، لأنه بغير ذلك تتعرض جميعاً للموت غرقا ، وتركتهم تحت إشراف منتوسين .

صحبت عنخو وسيمبا إلى غرفة القيادة ، كان جانبها الأيمن قد تهشم ، ودخلتها مياه الأمطار ، والبحر ، وعصفت الرياح تهدد باقيها ، أما باقى ذراع الدفة فقد بدا كأنما به مس من الجن . لم يستقر فى مكان ، وراح يتحرك حركات فجائية عشواء بحيث أصبح من الخطورة بمكان مجرد الاقتراب منه ، ومع هذا كان لا بد من محاولة فعل شىء ... أى شىء ...

تعاونا نحن الثلاثة ؛ سيمبا من ناحية ، وعنخو وأنا من الأخرى ، استدعى الأمر تضافر قوانا جميعا حتى نقلل من التحركات الفجائية ، أخبرتهما أن علينا أن نتأكد من مسرى التيار ، وأن نحاول قيادة الدفة فى اتجاهه ، كانت مفاجأة سارة حينما اكتشفت أن التيار ، والعاصفة يتجهان اتجاها واحدا إلى الشمال ، إذاً فقد انتهى امتداد ليبيا إلى الغرب ، ومعنى هذا أنها شبه مثلثة من الجنوب ، أم هل هى حقيقة قد انتهت عن الامتداد غربا ؟ ألا يجوز أن يحرفنا التيار ، وتدفعنا العاصفة إلى شواطىء صخرية ؟

لم تكن لدى وسيلة للتأكد ، أو ربما الأصح أن أقول إننى لم يكن لى خيرة فى الأمر . إن ثلاثتنا قد تضافرنا لنخفف من حدة أرجحة السفينة ، ولن نستطيع أن نفعل أكثر من هذا ، أعنى أننا لن نستطيع ، بهذا الذراع القصير ، أن نغير اتجاه السفينة ، فكرت أن أقيد الذراع إلى الصارى لأنه كان من المستحيل أن نستمر نحن الثلاثة ، أو غيرنا على هذا الوضع لأية مدة ...

من حسن الحظ أن حبال الصارى كانت قريبة نسبياً فلم أترك الذراع لزميلى إلا لفترة ضئيلة . كانت حبال الشراعات ما تزال مربوطة إلى الصارى الثقيل وكل ما فعلته أن بدأت أحكم قيدها ما استطعت إلى الذراع ، تاركا طولا كافيا ، لإمكان تغيير الاتجاه بقدر محدود . تضافرنا نحن الثلاثة بعد ذلك لإحكام الرباط ، بل وقيدنا الذراع من الناحية الأخرى حتى لا يكون من اليسير قطع الحبل ، كما تركنا أيضا مسافة كافية لحركة الذراع خشية أن تحدث حركة فجائية قد تكسر الدفة ، أو تقطع الحبال .

داخل السفينة أصلح منتوسين ، ورجاله ما استطاعوا الألواح غير الثابتة ، ليس فقط فى الجانب الأيمن ، وإنما أيضا فى السقف ، أعنى أخشاب سطح السفينة التى تهشم بعضها من سقطة الصارى الضخم ، لم أكتف بذلك . وطلبت منهم تدعيمها وأذنت لهم أن ينتزعوا من أخشاب الأسرة والمقاعد ما قد يحتاجون إليه .

ذهبت إلى قمرة مرت سجر لأجدها فى حالة يرثى لها . جلست إلى جوار فراشها ، وأخذت يدها فى قبضتى . كانت نائمة ، ومع هذا فان شبح ابتسامة باهتة لاح على شفتيها ، وانثنت أصابعها الضعيفة تقبض على أصابعى . كان يجب على أن أقوم لأتابع عملى بالسفينة لكننى لم أجد الشجاعة الكافية لأن أنتزع يدى منها . لم أكن قد تناولت طعاما طوال النهار ، وشعرت بضعف شديد من جراء ما قمت به من مجهود وددت معه أن أترك نفسى للنوم ، لكن كان أمامى الكثير قبل أن أستطيع الراحة ...

استيقظت ، وعندى إحساس بأن شيئاً غريباً قد حدث . ثم تبينت كل شيء فجأة . توقفت أصوات العاصفة ، وكانت ليلا .

الفصل السادس عشر

فنانو الكهوف

تلألأ ضوء القمر على صفحة رقراقة من الماء، كانت السماء صافية لا أثر فيها للغيوم، أو السحاب، وكأنها لم تكن هي التي أرعدت وأبرقت. الأيام خلت. إذا كانت هنالك أرض فيلزم أن تكون إما شمالا أو شرقا. تلفت إلى الناحيتين دون جدوى. على مدى النظر لم تر عيناى سوى المياه. سرت على سطح السفينة أشهد مدى الدمار الذى أحدثته العاصفة، وأعطى أوامرى للإصلاح، خاصة ذراع الدفة.

سكنت الريح سكونا تاما، وأضحى من اللازم أن تستعمل المجاديف، خاصة وأن الصارى الأكبر قد تهشم، أمرت مراقب الصارى أن يرتقى أحد الصوارى الباقية ليخبرنا إن كان يرى أى أرض فى أى إتجاه، أو السفينة الثانية، فأرسل صوته عاليا بأنه لم ير شيئا. للمرة الثانية كان على أن أتخذ قرارا دون أية معلومات عن الشواطىء، حولنا، أو الرياح، أو التيارات المائية كان يلزم أن يكون قرارا سريعا نظرا للتناقص الشديد فى المؤن. واتخذت القرار الوحيد المعقول فى مثل هذه الظروف. إننا تركنا الأرض واتجهنا إلى الجنوب الغربى، فالعودة إليها إذاً لا تكون إلا فى الاتجاه العكسى تماما، الشمال الشرقى.

مع هذا فانى لم أصدر قرارى إلا بعد أن ذهبت إلى قمرتى أستشير ماتجمع لدى من معلومات، قوة التيار، شدة العاصفة، سرعة السفينة، الوقت الذى قطعناه فى الاتجاه الجنوبى، وحساب الزمن الذى استغرقناه إلى الجنوب الغربى، ثم الغرب والشمال، على هدى هذه المعلومات الضئيلة قدرت درجات الانحراف والميل.

ما أن انتهيت من الاطمئنان على سير الأمور حتى اتجهت إلى قمرة مرت سجر . كان حقا نخت إلى جانبها ، وقد وضع أمامها أنواعا متعددة من المأكولات يحثها على تناول أكبر كمية منها ، حينما رآنى إبتسم إبتسامة وقورة قائلا إنه سينسحب تاركا لى العناية بها . لم يكن هنالك شك فى أن حالتها تحسنت كثيراً ، بل أنى لاحظت على ضوء المصباح الباهت أنها إعتنت بتصفيف شعرها ، وأن وجهها زالت عنه تلك الصفرة الكئيبة التى ظلت تلازمه أياما حتى الابتسامة التى رحبت بى كانت مشرقة ، وأتانى صوتها خاليا من الوهن .

— أنت ترى أنه ليس من اليسير التخلص منى .

— عليك أن تأكلى جيدا ثم تنامين .

— إننى أريد أن أخرج من هذه القمرة . إنها أشبه بسجن . أريد أن أتنفس الهواء .

— ليس الليلة . ربما فى الصباح إن كنت فى صحة تسمح لك .

— لكن ضوء القمر ساطع ، وأتمنى أن أخطر معك على سطح السفينة.

— سيكون أسطع مساء الغد ، عليك بالصمت ، وتناول الطعام إن كنت تريدين الخروج غداً من القمرة .

* * *

مضى الليل لم أكد أنام فيه ساعة ، كانت المؤونة قد تناقصت إلى درجة أنها لن تكفى لأكثر من يومين ، هذا مع الإقلال منها إلى حد كبير . حتى الغلال لم تكن مطحونة ، ولم أرد أن أوزع منها شيئا لغرض فى نفسى ، لكننى أعلم أن لا شىء يوقف الرجال إذا عضهم الجوع . ليس هذا فحسب ، ذلك أننى كنت أعلم أن السفينة ليست فى أحسن حالاتها . صحيح أن النجارين قاموا ، ويقومون ، بإصلاح الكثير مما دمرته العاصفة ، لكن مع هذا فانه لا يمكننى الاطمئنان عليها إذا ما هبت عاصفة أخرى . مسألة ثالثة ظلت تلح على . أين السفينة الثانية . ماذا حدث لها ؟ إن عليها نصف القوة ، هل نجت من العاصفة ؟

كانت مرت سجر أول من أتانى بأخبار طيبة . تحاملت على نفسها وخرجت من القمرة بمساعدتى ، ووقفنا على السياج نتطلع إلى الشرق و نتحادث . ورأيتها تتوقف عن الكلام دفعة واحدة ، وتحدق النظر فى بقعة معينة .

إلتفت لأرى ما رأته لكننى لم أشاهد سوى المياه . بعد فترة وجيزة قالت هامسة وهى تشير بيدها :

ــ أليس هذا صارياً ؟

لم أر شيئاً حيث أشارت ، فصحت فى مراقب الصارى ، أوجه نظره ، ولم يلبث أن جاءت كلماته مؤكدة لما رأت مرت سجر ، أضاف أنه يظن أن السفينة راسية على الشاطىء ، وإن يكن متأكداً ، لم أكن فى حاجة إلى حيث المجدفين إذ سمعوا صياحاً ، فتضاعفت جهودهم بشكل ملحوظ حتى أن السفينة بدت كأنما هى تسير على صفحة المياه الساكنة ، دقائق أخرى وجاء تأكيد المراقب أنه يرى الأرض ، لاحظت أن الفتاة لم تتمالك نفسها ، وأنها على وشك أن تطوق عنقى بذراعيها ، فأسرعت مبتعداً ، وأنا ألقى أوامرى بارتباك .

* * *

جلست أستمع إلى قصة ساحورع . لم يصادفهم أى حادث إذ أنهم لم يكونوا يعرفون كيف يتجهون فتركوا أنفسهم للعاصفة ، والتيار ، وإن حاذروا قليلا من الاقتراب من الشواطىء ، منذ ثلاثة أيام جنحت بهم السفينة وحاولوا مقاومة العاصفة إلا أن الدفة انكسرت ، وارتطمت السفينة بشاطىء رملى ، هنالك بعض الإصلاحات التى يجب أن تتم ، وهنالك بعض الجرحى ، سواء من آثار العاصفة ، أو الارتطام ، لكن لا شىء خطير .

إنتقل تفكيرى بعد هذا إلى المشكلة الرئيسية ، أعنى الطعام . سألتهم عن حالة المؤن لديهم وعما إذا كانوا قد بحثوا فى المنطقة عن الطعام ، وقال ساحو

— إن المنطقة كما ترى شبه صحراوية(١) ويبدو أن نسبة الأمطار فيها قليلة إذ أن بها بعض الكلأ المتناثر والأشجار المتفرقة لكن لا يوجد ثمار أو مياه .

— والحيوانات ؟

— لم أر شيئاً منها فى الثلاثة أيام التى قضيناها ، وربما كان يوجد بعض أنواع الغزال نظراً لوجود الكلأ لكن يبدو أنه نادر . لقد أرسلت فرقة بقيادة نجم آب إلى الشمال عسى أن يعثروا على مياه نقية أو فواكه ، والمفروض أن يعود الآن . على أى الأحوال فإنى وفرت كثيراً من المؤن عن طريق الأسماك .

كانت أمامنا أعمالا كثيرة قبل أن أستطيع معاودة الإبحار ، هنالك المؤن والمياه أولا ، ثم البحث عن مكان توجد فيه أشجار بوفرة على أن تكون مناسبة لإصلاح السفينتين ، وعمل صار جديد ، لم أر فائدة من فرقة الإستطلاع التى أرسلها ساحورع ذلك أن من الواضح أننا كنا فى منطقة تكثر فيها العواصف ، والأمطار وأنها تخف حينما تتجه إلى الشمال بدليل وجود الصحراء ، معنى هذا أن أية فرقة يجب أن تتجه إلى الجنوب ، وليس إلى الشمال .

ما أن استقر بنا المقام حتى أرسلت منتوسين مع مائة من الرجال إلى الجنوب وأمرتهم بالبحث عن منطقة قريبة المياه دانية الأشجار والقطوف لتمدنا بالثمار والأخشاب لإصلاح السفينتين ، كان ما توقعته . فى اليوم نفسه عاد نجم آب مقررا أن المنطقة الشمالية يزداد فيها الجفاف ، وليس بها ماء (٢) وإن كان قد استطاع اصطياد غزالين حملهما رجاله .

---

(١) جنوب صحراء كلهارى ومتوسط أمطارها بين ٥ ، ١٠ بوصات فى السنة .

(٢) صحراء ناميبيا .

أقام الرجال وليمة فى المساء كان الطعام الرئيسى فيها لحم الغزالين ، والأسماك . ولأول مرة منذ أيام امتلأت البطون ؛ وهجع الجميع فى مراقدهم آمنين . ولأول مرة أيضا قضيت الليل جميعه نائماً نوما غير متقطع ، فلقد بعدت الأخطار ولو مؤقتا .

عاد منتوسين عصر اليوم التالى وجاء بدوره يحمل رجاله غزالين . إختلفت أخباره تماما عن نجم آب . قال إنه كلما توغل جنوبا إزدادت الأعشاب وكثرت الأشجار . لم يشاهد غابة إلا أن الأشجار مع ذلك موجودة بوفرة . قال إنه رأى قطيعا من الغزال ، كما رأى بعض الحيوانات الأخرى . على أن أهم ماقاله هو أنه رأى نهرا كبيراً (١) يخترق الصحراء من ناحية بينما ترتفع ضفته الأخرى لتكون هضبة بها الكثير من الأعشاب ، والنباتات . وإنه رأى قريبا منـــه خليجا صغيرا فيه حماية للسفن من أعاصير البحر ، وعواصفه .

كان هذا مكانا مثاليا لأهدافى جميعها ، ولم أتوان عن إصدار أوامرى أن يستعد الجميع للإبحار فى اليوم التالى . برزت مشكلة سفينة ساحورع التى كان جزء منها مستقراً على الرمال إلا أننا فرغناها تماما من كل مؤنتها وحمولتها ، فارتفع غاطسها قليلا . وضعت بعض الرجال عليها يجدفون ، وربطتها بسفينتى فى محاولة لأن أقطرها . استغرقت هذه العملية اليوم التالى بأكمله ، وهللنا جميعا حينما طفت السفينة مرة ثانية .

لما لم نكن نعلم مدى الخسائر التى لحقت بالقاع فان معظم بحارتها ، وجنودها توجهوا مع منتوسين سيرا على الأقدام ، ولم نترك بها إلا عدداً يسيرا يكفى للقيادة ، والمساعدة فى التجديف . كان من نتيجة هذا أن سرنا ببطء شديد ، وأننـــا لم نصل إلى الخليج الذى ذكره منتو إلا بعد يومين .

---

(١) نهر الأورانج

بمجرد وصولنا رأيت أن كل ماقاله عن المنطقة صحيحاً ، وبدأت من فورى أعمل .

قسمت الرجال إلى فرق لكل منها عملها . منهم من تفرغ للتموين ، سواء من ناحية صيد الحيوان ، أو الأسماك ، أو جميع الفاكهة ، وما قد يصلح من النباتات كخضروات ، ومنهم من كان يبنى ثكنات خشبية ، وأكواخ للإقامة ، ومنهم من اختص بالمساعدة وجمع الأخشاب اللازمة ، ومنهم فرقة للحراسة . على أن أكثرهم عهدت إليه بفلاحة الأرض الصحراوية إلى جانب النهر . عزمت أن أزرع القمح حتى تتوفر لنا الغلال لسنة أخرى على الأقل . كان الجو يضارع شهور برت (الشتاء) فى تامرى (مصر) وهو بهذا يصلح للزراعة .

فى الأيام التالية كانت معالم المنطقة تتغير بسرعة . أقيمت مستعمرة كاملة من المبانى سواء السكنية أو المستودعات ، والمخازن . صنع النجارون محاريث خاصة يجرها الرجال ، وهبطت الفئوس تمهد الأرض ، وتقلع الحشائش ، وتشق المساق ، والمصارف ، وتقسم الأحواض . بعد أقل من ثلاثة أسابيع كانت مساحة تربو على مائة وعشرين فدانا قد زرعت قمحا .

طوال هذه المدة لم أر مرت سجر إلا لماما . كنت أقضى اليوم كاملا فى الحقول ، وحينما أعود فى المساء يكون الإنهاك قد أخذ منى فألقى بنفسى على الفراش لأنام ، وأستيقظ مع فجر اليوم التالى . على أن المرات القليلة التى رأيتها فيها طمأنتنى إذ استردت صحتها كاملة ، وعادت إلى سابق قوتها وحيويتها . حينما انتهيت من الزراعة ركزت جهودى ، وجهود الرجال على إصلاح السفينتين . استدعى الأمر أن نتوغل داخل ليبيا ، وأن نرتقى الجانب الآخر من النهر بحثا عن الأخشاب ، والمواد اللازمة .

كان كل شىء مختلفاً تماما فى الجانب الآخر من النهر فى حين كان الجو حارا نسبياً حيث اقمنا ، إذا به يميل إلى البرودة على الهضبة . فى ناحيتنا

الأرض شبه صحراوية ، وفى الأخرى أرض مراعى وفيرة الصيد . شيء واحد أثار حيرتى . إننا مع إقامتنا الطويلة لم نر أى إنسان. ربما لا يثير هذا تعجبا فى الضفة شبه الصحراوية ، أما فى المراعى حيث الكلأ، والصيد ، بل والكهوف والأشجار ، والثمار ، فلم يكن مفهوما .

لاأعتقد أن أحداً فكر فى هذا حتى جابهتنا الحقيقة فى مكان لم نكن نتوقعه . كنا نبحث فى الهضبة عن بعض الثمار ، والأشجار ، وأخذنا مكانا جعلناه مركزا مؤقتا ننتشر منه ونعود إليه. كان هذا كهفا فى جبل جمعنا فيه محصولاتنا ، واتخذناه مسكنا نأوى إليه حين يجن الليل . ذات ليلة جاءنى أونى وسأل إن كنت قد رأيت كهفا آخر لا يبعد عن مأوانا كثيرا ، وحينما أجبت بالنفى ، طلب أن أتوجه معه فى الصباح ليرى ما شاهد . سألته ، فأخبرنى أنه رأى رسومات متعددة على الصخور ، وفى عدة أماكن شاهد نحتا .

صحبته فى الصباح إلى حيث الكهف ، ورأيت رسومات لحيوانات متعددة وأشخاص . بلغت الرسومات درجة كبيرة من الفن ، كما أن ألوانها كانت ثابتة ، وجذابة إلا أن أحجام الأشخاص بدت صغيرة إلى جانب الحيوانات . هنا كان الدليل القطعى على وجود البشر ، لكن أين هم ؟ لماذا لم نر لهم أية آثار أخرى ؟ هل تركوا المنطقة حينما رأونا ؟ توالت الأسئلة فى ذهنى وأنا واقف أتأمل الرسومات ، ولم أجد إجابة شافية لأى منها .

حينما عدنا إلى معسكرنا اتخذت بعض الإجراءات الاحتياطية . شددت الحراسة ، ومنعت أن يبتعد أى شخص عن المعسكرات إلا فى صحبة جماعة ، ولو كان ذلك عند جمع الثمار ، والخضروات وأصدرت أوامرى أن يكون الجميع دائما على أهبة الاستعداد ، وأن يحملوا دائما معهم أسلحتهم . وزدت على هذا بأن أمرت أن يكون فى كل مجموعة تبتعد عددا من رامى السهام .

انقضت أربعة أشهر منذ أن وطأنا الأرض لأول مرة . نبت القمح ،

وارتفعت عيدانه ، وتم إصلاح السفينتين كأحسن مايمكن أن أشتهى ، ولم تنقصنا أى أنواع المؤن ، سواء اللحم ، الطازج ، أو الأسماك ، أو الفاكهة أو الخضروات . بل أن بعض الجنود وجد خلايا نحل جبلية ، واستطاع أن يحضر لنا عسلا بكميات وافرة ، كما استطاع آخرون صيد بعض الماعز ، وأمكننا بذلك أن نضعها فى حظائر ، وأصبح لدينا لبناً وجبنا ، وسمنا .

ذات يوم أرسلت نجم آب ، ومائة من الرجال فى طلب المؤن . كنا فى المدة الماضية قد مسحنا المنطقة المحيطة بنا تماما ، وكذلك القريبة منا على الضفة الأخرى . اصطنعنا معبرتين يمكن لكل منهما أن تحمل عشرين رجلا ، أو مايعادل وزنهم من المؤن ، وتركنا واحدة على كل ضفة . وبذا كان من اليسير على الفرقة أن تنتقل عبر النهر فى أقل من ساعة . وقفت مع مرت سجر أرقب عملية العبور حتى استقر جميع الرجال على الضفة الأخرى ، ثم ابتدأوا يرتقون الهضبة .

صحبتها إلى المعسكر ، ودخلت الحقول أتفقد حال الزراعة . بعد أن انتهينا من زراعة القمح ، وإصلاح السفينتين ، وإعداد المعسكر ، أضحت حياتنا فى الواقع ناعمة هادئة لا عمل حقيقى فيها سوى جلب المؤن الطازجة من وقت إلى آخر . قمت بعدة رحلات إلى الداخل ، سواء فى الصحراء ، أو فى الهضبة ، وجمعت أنواعا شتى من الأعشاب ، والنباتات القريبة ، كما جمعت أنواعا مختلفة من الحجارة لاعتقادى بأنها ربما تحتوى على معادن .

فيما عدا هذه الرحلات ، التى لم تستغرق فى مجموعها أسبوعين ، كنت غالبا بصحبة مرت سجر . كانت أياما سعيدة قضيناها فى الحديث ، والرياضة حدثتنى عن حياتها ، وحياة أهلها ، والقبائل المحيطة بهم ، وكانت ذخيرة من المعلومات أضفتها فى كتاباتى ، ومذكراتى . لم تجر بيننا كلمة حب أو إشارة غرام ، ومع هذا فان الألفة التى ربطت بيننا أضحت بادية لكل من بالمعسكر أصبحوا يعتبرونها امرأتى ، والواقع أننى لست أدرى كيف كانت

تكون الرحلة بالنسبة لى إذا لم تكن معى؟ حينما أرتحل كنت أصطحب معى أونى لمهارته الخارقة فى استعمال القوس والسهام ، وأترك عنخو معها لحراستها وكانت رحلة العودة بالنسبة لى كلها سعادة . كانت تستقبلنى بابتسامة كلها فرح ، وسرور ، وكثيرا ما شهدتها من بعد تقف عند نهاية المعسكر منتظرة متطلعة .

مضى أسبوع منذ أن ارتحل نجم آب وجماعته ، مع هذا لم يعد منهم أحد. كانت هذه مدة طويلة لا يبررها البحث عن المؤن ، حتى ، وإن كنا جردنا المناطق القريبة منها ، ذلك أن الرحلة أصلا لم تزد مطلقا على أربعة أيام ، فلو أضفنا فارق المسافة فلا أتصور أن تزيد على يومين . بدأ القلق ينتابنى ، وأضحت وقفتى المفضلة عند ضفة النهر ، أرتقب المعبرتين فكرت أكثر من مرة أن أذهب بنفسى للبحث عنهم ، ثم راجعت رأيى متعللا بأن الجماعة ، ربما توغلت أكثر من اللازم .

مضى يومان آخران ، واستقر رأيى على أن أبدأ عملية البحث فى اليوم الثالث . حاولت مرت سجر أن تثنينى عن عزمى ، أو على الأقل أن أوكل المهمة إلى أحد القادة الآخرين إلا أنى رفضت مقرراً أن سلامة الرجال هى مهمة القائد . انتقيت مجموعة من مائتى رجل وعدت بهم فى الصباح إلى الضفة الأخرى . كان الطريق الذى سلكته الجماعة السابقة واضحا سهل الاقتفاء، ومع هذا مضى يومان قبل أن أعثر عليهم .

ربما كان الأصح أن أقول إنى عثرت على من بقى منهم ، ذلك أنى رأيت نجم آب يتقدم جماعة لا يزيد عددها عن العشرين . لقد خرج ومعه مائة مقاتل وإذا بى أراه يعود بأقل من خمسهم. حتى هذا العدد الضئيل بدت حالته تدعو للرثاء — وجوه مكفهرة ، وأسمال مهلهلة وسيقان تنوء بحمل الأجساد، وأقدام متعثرة تجرجر نفسها عبر المراعى ، والحشائش .

ما أن رأونا حتى تهالك معظمهم على الأرض لا يستطيع حراكا . وبدأت

أسأل عما حدث . يبدو أن جماعة منهم توغلت إلى درجة كبيرة فى الداخل ، وفاجأت بعضاً من الأهالى فى أكواخهم العشبية . لم يكن موجوداً فى ذلك الوقت سوى النساء ، والأطفال ، والعجائز . فرح الجنود بالنساء فاختفوا إثنتين وثلاثين منهن ، وحينما حاول بعض المسنين المقاومة قتلوا أربعة .

قضى الجنود تلك الليلة يتسرون بالنساء . كن صغار الأجسام نسبياً (١) إلا أنهن كن شرسات ، شديدات المقاومة . لم يطلقوهن فى الصباح ، وأرادوا الاحتفاظ والعودة بهن إلى المعسكر ، تركوهن فى المقر المؤقت تحت حراسة عشر رجال ، وتفرق الباقون بحثاً عن المؤن ، حينما عادوا إلى المقر المؤقت قبل المساء اكتشفوا أولا أن الجنود العشر قد قتلوا ، وثانياً أن النساء اختفت ، وثالثاً أن عدد من عاد ينقص أكثر من عشرين .

غضب نجم آب لقتل رجاله ، وصمم أن يعاقب المعتدين متناسياً تماماً أنه هو الذى بدأ بالاعتداء ، وأن الأهالى تركوا لنا المنطقة نجنى ثمارها ، ونصيد وحوشها دون أن يتعرضوا لنا طوال المدة الماضية ، جمع باقى القوة واتجه إلى حيث كانت الأكواخ ليجدها خاوية لا أثر فيها للحياة ، قضوا الليلة فيها ولم يتعرض لهم أحد بسوء . فى الصباح أشعل فيها النيران وتركها .

منذ تلك اللحظة لم ينعم هو ورجاله ، بالراحة والأمان ، لم يروا أحدا من الأهالى مطلقا ، كل ما هنالك كان ينطلق سهم ، بين الحين والآخر ، يقتل واحداً من الرجال . حينما عادوا إلى حيث مستقرهم المؤقت لم يجدوا المؤن التى جمعوها ووجدوا المكان حطاماً ، فى المساء تساقطت عليهم السهام وهم هاجعون ، فهبوا مذعورين ليجدوا أن عددا آخر منهم قد قتل ، لم يكن أمامهم بعد هذا إلا الفرار ، وتابعتهم السهام ، اضطروا أن ينسوا المؤن وأن يناموا نهارا ، فرغ ما معهم من الزاد ، والمياه ، ومع هذا فلم يجرؤ

---

(١) من قبائل البوشمان أو الهتنتوت .

أحدهم على البحث عن الطعام ، أو الشراب ، أكلوا ما نالته أيديهم ، وهم يهربون ، ولم يذوقوا نقطة مياه منذ يومين .

كنت أقدر موقف الأهالى. لقد تركوا لنا المكان نتمون منه ، ونصطاد كيفما شئنا ، وارتحلوا بعيدا ، ومع هذا فقد كافأناهم باغتصاب نسائهم ، وقتل شيوخهم ، وترك الأطفال الرضع دون أمهات ، وإحراق أكواخهم . لم يكن أمامهم إلا الدفاع عن أنفسهم حتى لا يتكرر الوضع ، خاصة وأنهم لا يعلمون أننا نقيم بصفة مؤقتة فالشواهد جميعها تدل على أننا أتينا مستعمرين مقيمين.

مع تقديرى لموقف الأهالى فإننى كنت قائد حملة ، ولا أستطيع أن أترك رجالى يحصدون دون أن أفعل شيئاً . إن أمامنا شهرين على الأقل حتى يتم حصاد القمح ، وكان على أن أحمى الرجال . لكن ماذا أفعل ؟ سهام تتطاير فى الهواء دون أن يظهر وراءها أشخاص ؟ بدأت بالسؤال عن نوع السهام فأخبرونى أنها قصيرة رفيعة ، لا تكاد أن تحدث خدوشاً فى جسم المصاب ، ومع هذا فهى الموت الزؤام . مسمومة إذاً ؟!

تشاورت مع أونى ، وبعض رماة السهام فى المدى الذى يمكن أن تطلق منه مثل هذه السهام وكانت الإجابة مبهمة . إن هذا يتوقف على قوة ساعد الرجل ، وعلى اتجاه الريح ، وسرعتها ، ووزن السهم ، ونوع القوس المستعمل. تذكرت الرسومات التى رأيناها فى الكهف . لقد كان الرجال صغار الأجسام . لم يكونوا أقزاما ، لكنهم أيضاً لم يكونوا عاديين . تذكرت ما قاله رجال نجم آب من أن النساء كن صغيرات الأجسام ، وأن السهام صغيرة . كان كل شىء أقل من المعتاد . وأخبرتهم أن الرجال وراء السهام لا تزيد قوة سواعدهم ، كثيراً على نصف قوة الرجل العادى . تشاوروا فيما بينهم ثم أفتونى بأن المسافة لا تقل عن خمسة عشر نبيو (حوالى عشرين ذراعا) ، ولا تزيد على عشرين (حوالى خمسة وعشرين ذراعا) .

كان رع (شمس الظهيرة) يعتلى كبد السماء ، حينما أمرت الرجال بالعودة

إلى المعسكر . ثار نجم آب مقرراً أننا يجب أن ننتقم من القتلة الذين اغتالوا رجالنا ، وأنه لا يقبل أن ننسحب كالخراف ليصطادونا. تركته حتى أتم كلامه ثم خاطبته بلهجة قاسية .

ــ إنك أنت السبب فى قتل ثمانين من الرجال . وأنت السبب فيما نحن فيه الآن من عداء مع الأهالى ، ولعل حياة جميع من فى المعسكر الآن فى خطر ، ولا أريد أن أسمع منك رأيا أو نصيحة . عليك أن تتبعنا ، وإلا فسوف نتركك حيث أنت .

كاد الغضب أن يعميه فقد كان صوتى واضحاً عاليا سمعه كثير من الرجال وقد تعمدت ذلك حتى أضع الأمور فى نصابها ، وحتى يتعلم الجميع ألا يناقشوا سلطتى . لو ترك نفسه على هواها فانى كنت واثقاً من أنه سوف يهاجمنى ، وربما فعل لولا علمه بأننى أستطيع أن أهزمه فى أى وقت ، حتى دون ساقه العليلة . تصلب فى مكانه برهات ينظر إلى بعينين محمرتين يكاد الشرر أن يتطاير منهما. لم يعتد أن يذل ، خاصة أمام الجنود ، وكان من العسير عليه أن يتقهقر. إمعانا فى ذله لم أحاول أن أخفف عنه ، وقفت أنتظر خطواته التالية . بعد فترة خفض عينيه ، وأرسل ضحكة مفتعلة ، وتمتم قائلا إننى القائد ، وإننى المسئول عن نتيجة هذا القرار .

سرنا ساعتين فى طريق العودة ، لم أغفل أثناءها عن مراقبة الحشائش الطويلة ، والأشجار المتباعدة . كان هدفى أن نقضى الليلة فى مكان معين لاحظته فى اليوم السابق ، وكنت أعلم أننا نستطيع أن نصل إليه قبل حلول الظلام إذا أسرعنا الخطى ، لهذا لم أعط الرجال راحة ، وسرت فى المقدمة أجد السير ، حتى ليحسب الرائى أن هدفى حقيقة هو الفرار .

قبل أن يميل أتوم (شمس الغروب) نحو الغروب ، كنا قد وصلنا إلى هدفى . أسررت ببضعة كلمات إلى أونى اختفى بعدها ، وانسلت معه جماعة من رامى السهام . انسلوا أفرادا بحيث كان يختفى الفرد منهم بين الحشائش ،

ثم يزحف ليتخذ مكانه . كان الوقت ملائما إذ أن أتوم كان مايزال يعطى ضوءا باهتا بحيث لا يستطيع أحد من أعدائنا الاقتراب بدرجة كافية دون أن نراه ، كما هبت نسمة خفيفة تلاعبت معها الحشائش لتخفى أى أثر لحركات المتسللين .

كان المكان الذى اخترته لا يختلف كثيراً عن غيره . مجرد أرض منبسطة تغطيها الحشائش ، وتتناثر فيها الأشجار . لكن ما كان يميزه وجود غيضة كثيفة . ابتعدت عنها بحيث يكون آخر رجالى على بعد لا يزيد على ثلاثين نبيو (حوالى أربعين ذراعا) وأعلنت أننا سنبيت الليلة ،جاءنى نجم آب يقول إننى لاشك أريد أن أنتحر ، وأن أقتل جميع من معى فهذا العراء هو أنسب مكان للأهالى يتصيدوننا فيه . أجبته بخشونة إنى القائد ، وإنى المسؤل عن حماية أرواح الرجال .

تصرفنا بعد ذلك تصرفا طبيعياً . أوقدنا نيراناً تدفأنا عليها ، ووزعنا الزاد ، والمياه وجلس الرجال على الأرض ، أو تمددوا ينامون. أقمت الحراسة العادية ، لم أزد شيئاً ، ولم أنقص ، وجلست إلى جانب النيران مع نجم آب نتناول بعض الطعام ، وانتظرت . بعد حين هبط الليل فتمددت على الأرض متظاهراً بأننى سوف أنام ، ونصحت نجم آب أن يفعل مثلى . بعد حوالى ونوت (ساعة) كان كل من بالمعسكر نياما إلا من عليهم نوبة الحراسة .

مضى من الليل نصفه ، أو أقل قليلا ، واعتلى سين (القمر) السماء يرسل أشعته الفضية . من مكان ما ارتفع زئير أسد يتحدى ، وتجاوبه الأصدقاء . ثم عاد السكون . فجأة مزق السكون صوت صرخة آدمية ، تلتها أخريات ، وهب كل من فى المعسكر صاحيا . إستمر خليط الأصوات دقائق قليلة ، وتصايح الجنود يتساءلون ، فى حين اعتدلت جالساً إلى جوار النيران الخابية ومكثت أنتظر. نظر إلى نجم آب مندهشاً . كان قد هب واقفاً وحسامه فى يده يتلفت حوله دون أن يدرى ماذا يفعل ،حينما لاحظ أنى لم أعتن حتى بالوقوف خطر فى عقله المتبلد أننى لابد أن أعرف شيئاً فسأل فى تردد :

— ماذا ؟ ماذا حدث ؟

أجبت ببساطة :

— لقد أعددت كمينا ، وأعتقد أنه نجح .

كانت الأصوات قد خمدت نسبياً فرفعت صوتى مناديا !

— أونى :

وجاءنى الرد . ظهر أونى وبدأ تقريره . لقد جاءوا كما توقعت ، اتجهوا إلى الدغل متجمعين ، يرقبوننا حتى تأكدوا أننا نمنا ، ثم تسللوا من أماكنهم ، ليقتربوا إلى مسافة كافية لرمى السهام . عندئذ اصطادهم أونى ورجاله . ربما نجا منهم اثنان ، أو ثلاثه أما الباقون ، ثلاثة وعشرون شخصاً فقد قتلوا .

تبعته إلى حيث توجد الجثث شبه العارية وتأملت أعداءنا . رجال قصار القامة جميعهم . لم يكونوا زنوجا ، وإنما كانت تعلو وجوههم صفرة غريبة ، عظام وجناتهم بارزة ، وأطرافهم رقيقة . وشعورهم خشنة مفلفلة . كانوا جنساً غريباً ، لم أر مثله من قبل .(١) إذاً فهؤلاء هم فنانو الكهوف . أولئك أصحاب الرسومات الجميلة ، والألوان الجذابة . لم يبد عليهم أى عداء ، ولا ظهرت على وجوههم أية وحشية . وانتابنى أسف غامر لقتلهم ، لكن هذه هى حظوظ القتال .

---

(١) هذا هو وصف البوشمان .

الفصل السابع عشر

غابة الأقزام

عدنا إلى المعسكر بعد ثلاثة أيام جمعنا فيها كل ما استطعنا من مؤن وصيد، ولم نتعرض لهجوم. يبدو أن الجماعة التى أفنيناها تقريباً لم تكن قبيلة، وإنما مجرد مجموعة أفراد يعيشون سوياً. تصورت أن هذا الجنس يقضى حياته فى تجمعات صغيرة كالتى صادفناها، كل منها يختص بمساحة معينة من الأرض يتنقل فيها، ويعيش على خيراتها دون أن يكون هنالك ارتباط حقيقى بين المجموعات. ربما اجتمعوا فى أعياد معينة، أو مواسم محددة، أو بمناسبة إجراء طقوس معلومة، أما فيما عدا ذلك فكل مجموعة تعيش منفصلة تماماً عن سائر الجنس.

إذا كان تصورى هذا صحيحاً فلم يعد هنالك ما أخشاه، أما إذا تجمعوا فلا يعلم أحد مدى الخسائر التى سوف تلحق بنا. مع هذا مرت الأيام دون أى حادث، واقترب وقت الحصاد الذى كنت أقدره بعد شهر على الأكثر، أعنى أول شهور برت (نوفمبر). فيما عدا أعمال الحراسة، وهذه لم أقصر فيها، أو أتراخى بعد حادث نجم آب، لم يكن هنالك عمل حقيقى أقوم به، لهذا قضيت معظم الوقت مع مرت سجر.

منعت فى هذه الفترة أن أرسل فرقا لتقوم بالصيد، وجمع المؤن من الضفة الجنوبية للنهر، واكتفيت بأن أرسل الرجال إلى رحلات صيد الغزلان فى الصحراء. أخيراً جاء الوقت الذى اختفت فيه الحيوانات تماما

من شبه الصحراء المحيطة بنا ، وأصبح من الضرورى ، إما أن نتوغل فيها إلى مسافات بعيدة أو أن نحاول فى الضفة الأخرى ، بالإضافة إلى هذا فرغت تماما كميات الخضر، والفواكه التى جمعناها فى آخر مرة ، وبالتالى لم يعد هناك مناص من تجربة حظنا .

اعتزمت أن أتولى بنفسى قيادة الفرقة التى ستتولى جمع المؤن . حاولت مرت سجر أن تثنينى عن عزمى ، باكية هذه المرة ، إلا أننى رفضت توسلاتها. طلبت أن تصحبنى ، ورفضت . أخذت مائتى رجل . وحذرتهم أن صادف أحدهم بعض رجال أو نساء فنانى الكهوف ألا يمدوا أيديهم إليهم بسوء . أنذرتهم بأن أى عصيان لأمرى سيكون جزاؤه الموت .

على العكس مما اعتدنا سابقاً ، لم أنقل الرجال فى الصباح المبكر إلى الضفة الأخرى ، وإنما نقلتهم تحت ستار الليل . كانت لدى خطة أريد تجربتها ، أوحيت إلى من حقيقة أن القبيلة لم تحاول مهاجمتنا طوال الفترة الماضية . تصورت أنهم ، وهم الفنانون ، يميلون إلى السلام ، لم يكونوا جبناء ، كما أثبتوا ذلك قبلا ، لكنهم كانوا يفضلون السلم ، طالما نحن قد تركناهم لحالهم فقد تناسوا الموضوع .

أمرت الرجال بالتسلل دون صوت ، واتخذت طريق رأساً إلى الكهوف. كان تصورى أن القبيلة تتخذ منها مأوى تحتمى فيها من البرد ، والمطر ، وأنهم لم يتركوها ، ويقطنوا فى أكواخهم العشبية إلا حينما رأونا نعبر النهر . قبل بزوغ ضوء الفجر كنا عند مداخل الكهوف . بصمت ، وزعت رجالى على أكبر عدد ممكن وأخذت لنفسى ما بدا كهف كبير . اتخذنا أماكننا ولم نحدث أى صوت ، ومكثنا ننتظر .

عند أول خيوط النهار خرج من مدخل الكهف الكبير ، حيثما ربضت مع رجالى ، أحد رجال القبيلة ورآنا . وقف مذهولا ، وقبل أن يصرخ كنت أتقدم منه رافعاً يدى فى الهواء . كانت وسيلة التفاهم الوحيدة التى

أستطيع أن أوحى بها إليه بأنى جئت سالما . بسرعة مذهلة كان قد حرك قوسه من كتفه ، وانتزع سهما من جعبته وراء ظهره ، وشده إلى الوتر ، وصوبه . لم آت بحركة واحدة لأدافع عن نفسى . لم أحاول أن أتقدم صوبه ، ووقفنا برهات نتبادل النظر . لم يبد عليه أنه اقتنع أنى جئت مسالما ، وكان ما يزال يفكر فى إطلاق سهمه حينما استدرت ببطء شديد ، وأوليته ظهرى ، واتجهت إلى رجالى .

توقعت أن يصيبنى السهم فى ظهرى فى أية لحظة ، لكن هذا لم يحدث . وصلت إلى الرجال ، وأمرتهم بالهبوط إلى الوادى وأن يبدأوا فى إقامة معسكر ، كما هتفت إلى باقى الفرقة أن تنضم إلينا . أثناء هذا كانت جماعات أخرى من القبيلة قد خرجت ، ووقفت تشاهد ما يحدث . شاهدتهم من بعد يتجمعون ، ويتشاورون ، أو يلوحون بأيديهم ، إلا أنى لم أعرهم إلتفاتا ، وأمرت رجالى أن يقيموا المعسكر دون مجرد النظر إلى القبيلة ، وانهمك الرجال فى العمل ، يدقون الأوتاد ، وينصبون الخيام .

مضت حوالى نصف ساعة ونحن على هذا الحال وبدت الخيام تنصب . حولت نظرى نحو الكهوف ، ورأيت أن بعض الرجال قد انفصلوا عن سائر القبيلة ، وأنهم يتجهون نحونا وفى أيديهم الأقواس والنبال ، فى حين وقف الباقون يتطلعون ، ويرقبون الأحداث . أمرت الرجال أن يستمروا فى العمل ، وأمام الجماعة المتقدمة نزعت سيفى ببطء ، ووضعته على الأرض ، وفعلت كذلك بالخنجر ، ثم تقدمت بمفردى للقائهم .

كانوا حوالى عشرة أشخاص يتقدمهم شيخ بدأ الشيب يخط فى شعر رأسه . توقفنا على بعد خطوات ، وابتدأ الشيخ يشير بيده إشارات عصبية غاضبة . وفهمت إشارته . إنه يريد أن يقول إن علينا أن نرحل إلى الضفة الأخرى ، وأنهم لن يقاتلونا طالما لم نعتد على أراضيهم . كان يهدد ، ويتوعد ويشير إلى قوسه وسهامه ، ورجاله . أومأت برأسى إشارة إلى الموافقة ، ثم أشرت

إلى فمى ، وبطنى ثم إلى الأشجار ، والغابة ، والمراعى . أشرت إلى ملابسى ، وإلى سيفى ، وخنجرى الملقيان على الأرض . وفهم الشيخ أننا جئنا مسالمين، وأننا نبغى التموين .

تحول إلى من معه ، وبدأ معهم النقاش بتلك اللغة الغريبة غير المفهومة . ووقفت أنتظر بصبر دقائق أخرى ، وهبطت الأقواس والسهام . سار كل شىء بعد هذا بيسر . اقترب رجال القبيلة ، ونساؤها وأطفالها يطوفون فى المعسكر ، على استحياء أولا ، ثم بجرأة وفضول طبيعيين بعد ذلك .

حينما حل الصباح التالى جاءت ، جماعة منهم يقودها الشيخ . أشار إلى أنهم سوف يصحبونا فى صيدنا ، وفى جمعنا للثمار ، ولم أر بأساً من هذا . لا شك أنهم كانوا يريدون التخلص منا فى أسرع وقت ، ورأيت من جانبى أنهم يعرفون المنطقة ، حيواناتها ، وثمارها ، وفاكهتها وأن هذا سوف يساعدنا كثيراً . حدثت حادثة واحدة فى مساء اليوم التالى . حاول أحد الجنود الاعتداء على امرأة ، وحينما صرخت توتر الجو ، ولجأ رجال القبيلة إلى أقواسهم ، وسهامهم ، يهددون ، إلا أننى سرعان ما تداركت الأمر ، وانتهى الموضوع بسلام حينما رأوا أن الرجل يجلد بلا رحمة . وعادت الأمور إلى مجاريها .

بعد ثلاثة أيام كنا قد جمعنا من المؤن أكثر من احتياجاتنا ، وساعدنا الأهالى فى نقلها إلى النهر . جاء الوقت الذى أعبر فيه النهر . أشرت إلى الشيخ بأنه يمكن أن يأتى مع رجاله لزيارتنا فى أى وقت فى الضفة الشمالية ، لكننى قلت إن النساء ممنوعات من الحضور . لم يكن من اليسير التحكم فى هذا العدد من الرجال طوال الوقت ، وربما أيضاً النساء . أشار إلى بأنه فهم مرادى ، وأنه سوف يأتى مع جماعة من رجاله فى القريب .

جاء بعد أقل من أسبوع ، يصحبه أكثر من عشرين رجلا ، أخبرنى حراس المعديتين بأنهم يقفون على الضفة الأخرى ، ويرغبون فى العبور ،

رحبت بهم ، ودهشت لكمية الهدايا من المؤن التى جاءوا بها معهم ، قبلتها شاكراً ، وأمرت ساحورع أن يصحب الزعيم ورجاله فى جولة فى المعسكر، ثم صحبتهم شخصياً . مع ساحور فى زيارة إلى السفينتين . كانوا كالأطفال فضوليين ، فرحين ، لا يتوانوا عن إظهار مشاعرهم .

طلب منى الزعيم أن أصطحبه وساحو إلى الضفة الأخرى ليرينى شيئا . وقبلت . أخذونا رأسا إلى أحد الكهوف ، وكم كانت دهشتى حينما رأيت رسما يمثلنى ، وآخر يمثل السفينتين . طلب الرجل من ساحو رع أن ينتظر ، وشاهدنا شابا يحمل جعبة أخرج منها ما يشبه الفرشاة ، وأحد عشر لونا ، وبدأ فى رسمه بمهارة وسرعة . لم أمل من المراقبة . ولم تمض ساعة إلا كان الرسم قد اكتمل وبدأ الشبه واضحا .

توالى تبادل الزيارات بعد هذا ، حتى كان من النادر أن لا يحضر الشيخ ، أو جماعة من الأهالى . لاحظت أن ساحو رع يكثر من الانتقال إلى الضفة الأخرى ، وأنه يقضى بعض الليالى حينما يكون خاليا من الخدمة . لما سألته عن السبب أجاب بأنهم جماعة طيبة ، وأنه يستريح إلى الحياة معهم . لم أرد أن أتابع الموضوع فتركت الأمر ، وتنهد ساحو رع بارتياح .

جاء موعد الحصاد ، وأمرت بالاستعداد مقررا أننا سوف نبدأ فى فجر اليوم التالى ، وأن على الجميع أن يخلدوا إلى النوم مبكرا ، فالحصاد يجب أن يتم فى الساعات الأولى من خطوط النهار، ثم يتوقف بعد بزوغ الشمس بفترة قصيرة ، وذلك حتى تتناثر حبات القمح . فى هذا اليوم جاءنى الشيخ مصطحبا معه فتاة صغيرة ، جميلة الوجه ، دقيقة الأطراف ، وأخبرنى أنها هدية منه ، رفضت الهدية شاكرا ، وأهديته بدورى سيفا ، وخنجرا كاد أن يطير بهما فرحا . ولعله من الطريف أن أذكر أن مرت سجر غضبت منى دون سبب أدريه ، ومضى بعض الوقت قبل أن تقبل عذرى أننى لا ذنب لى فى عرض الرجل هديته ، كما أنى لم أقبلها .

انتهى الحصاد ، وصنع الرجال رحى للطحن ، وطحنا بعض الغلال ، وخزنا الباقى ، وحان موعد تموين السفينتين. قدم لنا الأهالى مساعدات قيمة للتموين ، والصيد ، وفى آخر زيارة لى للضفة الأخرى بدأ الحزن الحقيقى على الشيخ حينما علم أننا سوف نرتحل بعد يومين. طلب منى أن أمكث مع رجالى ولما رفضت ، أشار إلى النساء ، وأفهمنى أنه يستطيع أن يأتى بمجموعات منهن تكفى الرجال .

ــ إبتسمت شاكرا ، وهززت رأسى نفيا .

حدثت حادثة كادت أن تقضى على هذه الصداقة التى نبتت ، وتغلغلت . فى تلك الليلة تسلل جماعة من الرجال إلى مقر القبيلة ، واستقبلوهم بترحاب إلا أنهم كانوا ثملين فهددوهم بالسيوف ، وأرغموا خمس نساء على اصطحابهم إلى الغابة . قبل أن يختفوا بهم وصل ساحو رع ، فقتل اثنين من رجالنا ، وهرب الباقون تاركين النساء قبل أن يمسوهن . وانتهت الأزمة بسلام .

فى الصباح جاءنى نجم آب متذمرا يشكو أن ساحورع قد قتل رجلين من رجاله ، ولم أكن قد علمت بالحادث ، ولما سألت عن ساحو علمت أنه قضى الليلة فى الضفة الأخرى ، فأمرت أن يأتى بمجرد حضوره. بعد حوالى الساعة جاء ومعه الشيخ ، واستمعت إلى القصة ، وأمن عليها زعيم القبيلة . حاول نجم آب أن ينكر أن رجاله حاولوا إغتصاب النساء إلا أنى أسكته بخشونة قائلا إن من حسن الحظ أننى لم أكن موجودا وإلا لأمرت بإعدامهم جميعا .

خرج نجم آب ، وبقى ساحو رع ، والشيخ . رأيتهما يتلكآن فاستفهمت عن السبب ، وتململ ساحو وهو يقول إنه يرجو البقاء ، ولا يود الرحيل . أجبته بأنه جندى ، وأننا مكلفون بمهمة ، وليس لنا الخيار فى القيام بها ، أو تركها حينما يحلو لنا ، قال بإلحاح ورجاء إنه يعلم هذا لكنه أحب إحدى فتيات القبيلة ، وتزوجها ، ولعلها الآن حامل ، ويرجونى أن أعفيه من الخدمة

وأتركه يعيش مع قوم أحبهم ، وأحبوه ، فى بلاد مليئة بالخيرات ، ولا تختلف حتى فى جوها كثيرا عن تامرى (مصر)

أجبته بخشونة أننى لا أملك أن أعفيه ، وأن كل ما أستطيع أن أفعله من أجله هو أن أمنحه أجازة مساء اليوم على أن يكون هنا فى الصباح المبكر . أضفت أنه إذا لم يعد فى الموعد المحـــدد ، فسأضطر إلى اعتباره هاربا من الخدمة ، والرحيل بدونه . فهم ما أرمى إليه وشد على يدى شاكرا إلا أننى سحبتها منه قائلا بالخشونة نفسها :

— لماذا تشكرنى ؟

ضحك بسعادة وأجاب :

— على منحى أجازة الليلة .

— آه هذا ... لقد نسيت . على أى الأحوال فعليك عمل تؤديه اليوم لا أحسبك سوف تقصر فيه . عليك متابعة شحن باقى المـــؤن ، والقمح ، والدقيق ، وسائر الأدوات . وبالمناسبة إن محصولنا كان أكثر مما توقعت ، ولا مانع من أن نترك للقبيلة التى استضافتنا بعضا من الغلال ، والدقيق كذلك لا بأس أن نترك لهم بعض الأدوات ، والملابس المستهلكة ، أو التى لسنا فى حاجة إليها .

كاد أن يطير من الفرح

— إن هذا أكثر مما أطلب . على أننا لسنا فى حاجة إلى القمح فأنت ترى أن الكثير منه قد دخل شقوق الأرض ، ولن يأتى الموسم القادم إلا وينبت على الأمطار ، وسوف يكون عندنا أكثر مما نريد .

عادت الخشونة إلى صوتى ثانية :

— إنك تتكلم كما لو كنت ستبقى ، وهذا مالا أسمح به .

إبتسم ، وتركنى مع الشيخ الذى ظل واقفا لا يأتى باشارة . كان سائر اليوم جميعه عمل متصل . وفى المساء ، وكانت آخر ليلة أقضيها عـــلى ذلك

الشاطىء ، جاءنى ساحو رع والشيخ . شدا على يدى مودعين ، ورأيت الدموع تترقرق فى عينى صديق ، فى حين بان الحزن جليا على وجه الزعيم . قال ساحو :

— لقد علمت من الشيخ أن الشاطىء رملى لمسافة سير أيام طويلة ، وأن الأرض بعد فترة صغيرة تتحول إلى صحراء لا نبت فيها ، ولا مياه . عليك يا صديقى أن تقتصد فى صرف التموين والمياه ،وإلا تعرضتم للمجاعة والعطش ساعد بقدر الإمكان بصيد الأسماك ، وهى وفيرة فى الشواطىء ، أصدر أوامرك باستعمال مياه البحر فى كل ما لا حاجة ماسة إلى المياه العذبة به . رافقتك السلامة يا صديق .

اختفى الاثنان فى الظلام ، وأحسست بفراغ كبير لفقدى صديقى، وفراق للشيخ الطيب وقبيلته .عندما حل الصباح لم يحضر ساحورع . أمرت بالبحث عنه ، ولم يجدوه ، حينئذ عينت نجم آب قائدا للسفينة الثانية، وتركت له حرية إختيار نائبه . أخبرته أنى أتوقع أن تكون الشواطىء رملية خالية من المزروعات ، والمياه ، وأن عليه أن يقتصد فى توزيع المؤن ، والمياه ثم أصدرت أوامرى بالإقلاع .

أقلعنا فى اليوم الرابع عشر من ثانى شهور برت (ديسمبر) وكانت المياه هادئة ، والجو صحو ، وهبت رياح لطيفة تدفعنا شمالا . فردنا الشراعات ، وسرنا على مسافة آمنة من الشاطىء ، ولم يكن هناك ما يعكر هذا الصفو . طالما أن اتجاهنا إلى الشمال ، فانى واثق من أننا فى طريقنا إلى العودة .

الواقع أننى كنت أتوقع أن يكون اتجاهنا إلى الشمال الغربى، أو أن يعرج إلى الغرب قليلا ؛ لأننى أعلم أن البحر الشمالى (البحر الابيض) كان أطول بكثير من الجنوب الذى قطعناه ، أعنى أن ليبيا من الشمال أعرض كثيرا من الجنوب فهى إذاً شبه مثلثة . ولما كان ضلعها الشرقى يكاد أن يكون مستقيما فلا بد أن الغربى منحرف إنحرافا شديدا نحو الغرب لهذا تعجبت من أن يكون إتجاهنا إلى الشمال فحسب ، وأن الميل نحو الغرب ضئيل نسبيا .

تتالت الأيام رتيبة لم يحدث فيها يستدعى الذكر، سوى أن علاقتى بمرت سجر ازدادت توثقا، إن صح لى أن أقول هذا . زال خوفى من اتجاهنا ، فأنا الآن أعرف أنه الاتجاه الصحيح ؛ وأننا سنصل إلى هدفنا إن قريبا ؛ أو بعيداً . ظل الجو أيضاً صحوا، واستمرت الرياح لطيفة تدفعنا شمالا . حتى الملاحين لم يكن لديهم عمل حقيقى يقومون به . كل ما أقلقنى فى تلك الأيام هو التموين ، والمياه. كلما مر يوم تحققت من صحة ما أخبرنى به ساحو رع . تزايدت الحرارة بشكل ملحوظ ، وندرت الخضرة على الشاطىء ، حتى أضحى صحراء مترامية على مدى النظر . لم تكن هنالك وسيلة للتموين إلا فى صيد الأسماك.

على أن نقص التموين لم يحتل فى تفكيرى المركز الأول إذ أن السفينتين كانتا محملتين تماما بكافة أنواع المؤن ، والغلال ، أما المـــاء فكان المشكلة الحقيقية . صحيح أن السفينتين كانتا تحملان عددا من الرجال لم يكن يربو على ثمانمائة وخمسين ، أو ستين ، وصحيح أيضا أنى كنت أصدرت أوامرى بالتوفير فى المياه بحيث لا يأخذ أحد أكثر من حاجته ، إلا أن شدة الحرارة ألزمتنى أن أزيد قليلا من نصيب الفرد . زاد الطين بلة أننا إكتشفنا أن المياه فى بعض الجرار قد أسن لسبب أو آخر ، لم أجرؤ أن ألزم الرجال بالشرب منها خشية الأمراض .

ذات ليلة ، بعد أن مضى أسبوع تماما منذ رحيلنا الأخير ، رسونا عند شاطىء رملى تترامى وراءه الصحراء . كانت أول مرة نرسو فيها إذ أننى رأيت أن أنتهز فرصة الجو ، والرياح ، لأقطع أكبر مسافة ممكنة عسى أن تنتهى الصحراء ، أو يتغير الجو ، وتمطر السماء . عقدنا مجلسا نحن الأربعة نجم آب ونائبه الجديد ، ستنا أمون حت ، ومنتوسين ، وأنا ، نتباحث فى الموقف . لم تكن حال سفينة نجم آب أحسن من حالنا كثيرا ، بل ربما كانت أسوأ إذ أنه لم ينفذ تعليماتى حرفيا ، وتساهل فى توزيع حصص المياه .

بعد أن استعرضنا للموقف ؛ وجدنا أننا أمام تهديد حقيقى بالظمأ .

قررنا أنه مع التشديد فى التوزيع لن تبقى نقطة مياه عذبة واحدة بعد خمسة أيام ، أو ستة ، ولما كنا لا ندرى متى سنصادف أول مصدر للمياه فبدا أن الخطر حال ، سألت إن كانت هنالك وسيلة لإنقاص الحصص ، ورد نجم آب :

— إن الرجال يتذمرون من ضآلتها الآن ، ولو أنقصناها فإنى أخشى أن يتمردوا .

— ماذا عن النبيذ والجعة ؟

— يوجد ماقد يكفى ليومين ، لكن هذا لن يغنى عن المياه ، كما أنك لا تستطيع أن تعطى أية كمية حقيقية منهما ، وإلا لثمل الرجال وتقاتلوا .

— إنى لم أقصد أن أعطيهم حتى يثملون ، وإنما مجرد ربع كوب فى اليوم ، على أن أنقص كمية المياه ، وبذا نستطيع أن نبعد خطر الظمأ ثلاثة أيام ، أو أربعة أخرى .

— ثم ... ؟

— لست أدرى ، لكن كل يوم يعتبر مكسبا .

اتفقنا على هذا ، وأقلعنا فى الصباح . لم يمض يوم واحد بعد هذا دون عراك بين الرجال من أجل الماء ، توترت الأعصاب حتى أنهم تقاتلوا ذات مرة بالخناجر ، والمدى ، واضطررت إلى التدخل شخصيا ، ثم أمرت بتجريد كل الرجال ، إلا قلائل اخترتهم ، من السلاح . ومع هذا فلم يتوقف العراك . تزايدت الحرارة بشكل ملحوظ ، وتزايدت معها حاجة الرجال إلى الماء . كنت أسير نهارا بينهم أتفقد الأعمال ، وأرى أمامى عيونا زائغة ، تتطلع بين الحين ، والآخر إلى السماء عسى أن ترى سحبا تتجمع ، وشفاها تشققت تحاول ألسنة جافة أن ترطبها ، وأيد غير ثابتة ، تهتز وهى تؤدى العمل الموكول به ، وأجسادا عارية تنكمش جهدها فى الظل مبتعدة عن أشعة

الشمس الحارقة(١) .

يوم إثر يوم ، والحرارة تزداد شدة ، والحالة تزداد سوءاً ، وقدرة الرجال على التحمل تتضاءل ، حاول بعضهم أن يشرب من مياه البحر فمنعتهم لأنى أعلم مدى الضرر الذى يصيب عقل الرجل ، وبدنه إذا ما ارتوى من ماء أجاج . بلغ بهم الأمر إلى أنهم كانوا يتصيدون ندى الصباح ، والأبخرة المتصاعدة من المطبخ ، ليكثفوها على ضآلتها يرطبون بها شفاههم .
جاء حقا نخت فى اليوم الثامن . وتساءل :

ـ كم بقى من المياه ؟

ـ لن يكفى ما يزيد على يومين .

ـ ثم ؟

ـ لست أدرى .

ـ ماذا لو كثفنا بعض مياه البحر ؟

ـ وأين الخشب ؟ هل تعلم ضخامة الكمية اللازمة من الوقود لتكثيف مياه تكفى تسعمائة رجل تقريبا ؟

ـ لا . لكننا نستطيع أن نستعمل كل ما يمكن الاستغناء عنه فى السفينتين وهى كمية لا بأس بها .

ـ والوقت ؟ إن هذه العملية تستغرق وقتا ليس بالقصير ، ونحن لا نستطيع أن نضيعه ، أولى بنا أن نستمر فى الرحيل عسى أن تنتهى هذه الصحراء اللعينة ، أو تهطل الأمطار ثم ماذا عن وقود المطبخ ؟ هل يشرب الرجال ، ولا يأكلون ؟!

لم يسلم حقا نخت وظل يحاور .

---

(١) أعود فأذكر القارىء ، أن شهرى نوفبر ويناير هما أشد شهور حرارة فى نصف الكرة الجنوبى .

ـ إنك تكتسب وقتاً أطول إذا ما ارتوى الرجال قليلا ، إننى فى الواقع أهتم بحالتهم النفسية أكثر ، أنت تعلم أن سبعة رجال شربوا فعلا من مياه البحر ، وأن أحدهم جن ، وألقى بنفسه فى اليم ، كما أن باقى الرجال قد فقدوا ، أو يكادون ، قدرتهم على التحمل ، وإذا جاء اليوم الذى تضطر فيه إلى إخبارهم بعدم وجود مياه فسوف ينهارون تماما ، ولن تجد فيهم من يقاوم ، أما عن المطبخ فإن المياه أهم من الطعام ، ويمكن للرجال إذا استدعى الأمر أن يتناولوا وجبة واحدة أو أن يتناولوا طعامهم نيئاً .

كانت هذه مناقشة لها وجاهتها ، نظرت إلى منتو سين الذى حضرها ، ورأيت أنه يميل إلى رأى الكاهن . وافقت ، وأصدرت تعليماتى أننا سنرسو فى المساء ، وأن على الجميع أن يعدوا ، أو ينتزعوا كل الأخشاب غير الضرورية ، ويجمعوها على سطح السفينة ، وأرسلت إشارتى بذلك إلى نجم آب .

• • •

عند ما حل المساء كان حقاً نخت قد درس العملية دراسة وافية بمعونتى ، ومنتو سين . لم نكن نريد أن تذهب أية كمية من البخار هباء ، ولا أن تضيع قطرة مياه ، ولا أن تستهلك كمية لا داعى لها من الوقود . بالوسائل القليلة التى تحت يدنا ، قررنا أنه يلزم عمل حفرة كبيرة توقد فيها النيران حتى لا تزيدها الرياح إشتعالا دون فائدة ، وأن توضع الأوانى النحاسية معها حتى لا تتعرض بدورها للرياح ، فتخفف من حرارتها وأن يحكم إغلاقها بعد ملئها بمياه البحر ، على أن تمتد منها أنابيب طويلة توصل مياه البحر تحتها عن طريق قنوات لتبريدها ، على أن يوضع فوقها رمال رطبة حتى يتكثف البخار فى أسرع وقت ممكن ، وتتلقى القدور ، مغلقة ومدفونة بدورها ، قطرات الماء المتساقطة من الأنابيب .

إنتقينا مكاناً يليه منخفض من الأرض حتى يمكن أن نحفر قناة يتجدد ماؤها بصفة مستمرة . استغرق إعداد العمل ، وإحكامه ثلاث ساعات ،

بذل فيها أكثر من سبعمائة رجل أقصى جهودهم ، بعد مضى تلك المدة كانت النار مشتعلة ، ومياه البحر تملأ الأوانى النحاسية . احتاج الأمر أيضاً إلى تجربة يسيرة لمعرفة المدة التى يلزم بعدها إعادة ملء الأوانى ، وإعداد غيرها وتنظيفها من الأملاح المتراكمة .

ما أن تمت جميع الترتيبات حتى قسمت العمل إلى دوريات كل منها ساعتان إذ اقتصر العمل بعدئذ على تغذية النيران ، وتنظيف الأوانى ، وملء غيرها ، ورفع القدور ، والبراميل بعد أن تمتلىء بالمياه العذبة ، ووضع الفارغة . لم تكن هذه الأعمال تستحق أكثر من ربع القوة التى تحت إمرتى لهذا كان التقسيم إلى نوبات ليأخذ كل شخص قسطه من الراحة .

فى الصباح كان قد تجمع لدينا مايكفى الجماعة من المياه ثلاثة أيام أخرى ، سوى ماكان موجوداً أصلا ، وبذا أضحى مالدينا يكفينا لخمسة أيام أو ستة . لكن برزت مشكلة ثانية كنا قد استهلكنا معظم مالدينا من الوقود ، ولم يبق ما يكفى المطبخ لأكثر من يومين ، وبعدها سوف يصبح لزاما أن نتناول طعامنا نيئا إذا لم تنته هذه الصحراء .

اليوم هو الثامن بعد رحيلنا من الشاطىء حيث قطرنا المياه من البحر لقد استعضت عن الطعام المطبوخ ، فى اليوم السادس ، والسابع ، بالفاكهة ، والمياه ، وفرغت كميات الفاكهة ، وتناقصت المياه . كانت الحرارة تزداد يوما عن يوم ، ولا أثر لأية غمامة ، أو سحابة فى السماء ، أو لأية شجرة أو نبت على الشاطىء . من السفينة الثانية صدرت إشارات استغاثة ، فطلبت من مراقب الصارى أن يدلنا على خليج تستطيع السفينتان الإتجاه إليه . أشار إلى خليج قريب ، ولاعجب فالشواطىء جميعها كانت رملية ، ولم يكن من العسير العثور على مكان يصلح للرسو .

أعطينا الإشارات للاتجاه إلى الشاطىء وغيرت السفينتان إتجاهها . بعد أقل من ساعة كنا قد ألقينا المراسى ، وأنزلنا السقالات . قال نجم آب إنه

كان مهدداً بتمرد حقيق على سفينته . فرغ الوقود، واختفت الفاكهة، وندرت المياه ، واشتدت الحرارة . اتضح أن جماعة من البحارة قد خبأوا كمية من الفاكهة ، وحينما اضطر الآخرون لتناول اللحوم المجففة نيئة كانوا هم يأكلون الفاكهة سراً . اكتشف أمرهم ودار قتال ، لولا شخصية نجم آب ، ومعاونة بعض رجاله ، لانتهى الأمر بمذبحة . والواقع أنه قتل ثلاثة أشخاص فعلا ، وجرح كثيرون . سأل :

— ماذا سوف نفعل الآن ؟ إن الفاكهة فرغت ، والمياه فى تناقص مستمر ، ولا يبدو أن هنالك نهاية لهذه الصحراء . ماذا سوف نفعل ؟

نظر إلى الرجال الثلاثة ، نجم آب ، ومنتوسين وستنا آمون حت

— هل لدى أحدكم اقتراح ؟

تبادلوا النظرات . وقال ستنا آمون حت

— لاحيلة لنا إلا الإقتصاد فى المياه ، وأن يتناول الرجال وجباتهم نيئة.

إعترض نجم آب بشدة على نائبه

— لقد شاهدت ماحدث . كيف يمكن أن نجبر الرجال على هذا ؟ إنهم لن يقبلوا ، وستجد نفسك فى مأزق لامفر منه إلا بمذبحة . لقد قضينا على تمردهم هذه المرة بصعوبة ، وأخشى أن يفقدوا أعصابهم ، ولا نستطيع كبح جماحهم . كيف الحال عندك ؟

كان السؤال بطبيعة الحال موجها إلى :

— لايختلف كثير عما عندك لكنه ، لم يصل إلى درجة التمرد . مارأيك أنت يامنتوسين ؟

إلتفت إلى نائبي وقال متردداً :

— إن المشكلة ليس فيها رأى . إن الحل الوحيد فى تصورى هوماذكره ستنا ولامخرج آخر .

كاد نجم آب أن يعترض مرة أخرى إلا أننى قاطعته متسائلا :

ـــ هل لديك اقتراح آخر ؟

ـــ كلا

ـــ إذا أخبرنى كم يوما تظن أن فى استطاعة الرجال أن يتحملوا الاقتصاد فى المياه ، وأكل الطعام نيئاً .

ـــ لا أكثر من يومين .

ـــ حسنا لك أن تخبرهم أن عليهم أن يتحملوها ، وسنجد الحل لمشا كلنا فى اليوم الثالث .

سنرسو ثانية عندئذ ، وسوف يطعمون كما يحلولهم .

ـــ وأين ستجد الوقود ؟

ـــ لاشأن لك بهذا . فقط اخبرهم ، واترك الباقى لى .

هز رأسه موافقا وإن بدا عليه عدم الإقتناع ، حينما إنصرفنا إلى السفينتين رافقنى منتوسين وسأل :

ـــ هل حقا ستوفر الوقود ؟

ـــ لم أعتد الكذب .

ـــ أعتذر إنى لا أعنى هذا ، لكن من أين الوقود ؟

ـــ أرجو أن تجده قبل مرور اليومين .

* * *

لكننا لم نعش عليه . سقطت بعض الأمطار الخفيفة ، وتزودنا بقليل من المياه لكن استمرت الصحراء جرداء تماما دون شجر ، أو عشب . وحل اليوم الثالث ، وصاح مراقب الصارى أن لا أثر للشجر . أمرته أن يوجه السفينة إلى مرسى ، وطلبت من منتوسين الذى ظل ينظر إلى بتعجب ، أن يتولى القيادة .

جاءتنى مرت سجر ووجهها شاحب ، وقد ظهر أثر الهزال عليها ، لم

تكن معتادة على مثل هذه الحياة ، فالغذاء موجود فى بلادها بوفرة ، وكذلك المياه . لكنها لم تبد تبرماً ، الواقع أنها تحملت كل ما مر بشجاعة نادرة ، بل إنها كانت أقل الموجودين تبرماً وتذمراً . سألتنى قلقة :

— لقد حل اليوم الثالث ، من أين ستجد الوقود ؟

— إنه موجود .

لم يبد عليها الاطمئنان . وألحفت فى السؤال ، وما زال القلق يبدو على محياها :

— إن البحارة توترت أعصابهم ، وسوف يثورون إذا لم تف لهم بوعودك

— لا تقلق سأفى بوعودى .

تركتها ومضيت أراقب السفينتين تتجهان نحو أحد الخلجان . لاحظت أن أونى وعنخو ، وسيمبا ، كانوا فى الأيام الأخيرة يتبعوننى كظلى وفهمت أنهم يخشون على حياتى من اعتداء البحارة . لم أعر الأمر اهتماما فقد كان الحزن يملأ قلبى من التصرف الذى سأقوم به ، والذى دفعت إليه دفعاً ، لكن لم تكن لدى حيلة .

على الشاطىء عقدنا مجلسنا نحن الأربعة ، وابتدرنى نجم آب متحديا :

— إننا فى اليوم الثالث ولا أثر للوقود .

أجبته بحزن :

— بل موجود يا نجم ، عليك أن تأمر رجالك بالبدء فى تكسير سفينتك وانتزاع كل ما يستطيعون من أخشاب داخلية ، أريد أن يستمر الهيكل الخارجى فقط .

نظر الثلاثة إلى ببلاهة . وصاح نجم بغضب :

— هل ستحطم السفينة ؟ لن أسمح بهذا .

قدرت عصبيته فان أى بحار لا يفكر فى تحطيم سفينته ، ولعله يفضل الموت . لهذا لم آخذه بالشدة فقد كان قلبى مثقلا للثلاثة أيام الأخيرة :

ـــ أنا آسف يا نجم . لا حيلة أخرى لدينا . على أننى سأحتفظ بالهيكل الخارجى ، وبما يكفى لأن نستمر فى الإبحار ، وإن كنت لن أترك عليها أكثر من مائتى رجل ، وسينقل باقى رجالك إلى سفينتى .

ـــ لن أسمح بهذا ... أى نوع من القادة أنت ؟ أتحطم سفينتك بيدك ؟
أخذته بالحزم ، وإن لم يكن بالشدة .

ـــ نفذ أوامرى . . إننى مسئول عن حياة أكثر من ثمانمائة شخص .
إن لم أفعل هذا فالجميع معرضون للموت ، وسنفقد السفينتين .

رفع عينيه يواجهنى إلا أنه رأى أن لا فائدة من المناقشة فقام غاضباً .
أمرت منتوسين وستناحت أن يساعداه ، وأن يعطوا أوامرهما إلى البحارة لصيد الأسماك ، وإعداد وجبة دسمة للرجال ، وتركتهما وسرت على الشاطىء بعيداً عن منظر السفينة فلم أكن أريد أن أراهم يجردونها إذ كان شعورى كمن يجلد والدته أمام عينيه .

لم تمض أربعة أيام بعد هذا حتى كان المنظر تغير تماماً . صحيح أن الجو قد ازداد حرارة ورطوبة إلا أن السحب بدأت تظهر فى السماء ، كما ظهرت على الشاطىء بعض الأعشاب ثم الأشجار المتفرقة ، فى اليوم الخامس هبطت الأمطار بشدة وأصبحنا لنرى أن الشاطىء الذى كان صحراء جرداء تحول إلى مراعى وغابات .

سارت الأمور عادية بعد هذا ، صادفتنا أنهار عديدة ، وملأنا مخازن المؤن والمياه ، ولم يبق سوى أن نستكمل بناء السفينة الأخرى . والواقع أننا نجد أشجاراً مناسبة يمكن أن تمدنا بما نحتاجه من أخشاب . ولما كان المنظر أمامنا يتغير باستمرار ليتحول إلى أشجار باسقة فقد فضل النجارون الانتظار

حتى يجدوا المكان المناسب الذى يستطيعون فيه استقطاع أشجار قريبة من الشاطىء تصلح للسفينة .

توقفنا كل ثلاثة أيام تقريباً ، وتوغلنا فى بعض المناطق إلى الداخل بحثاً عن الأشجار المناسبة ، وانتهز أونى وفرقته من رماة السهام الفرصة ، ومونونا المرة تلو المرة باللحوم الطازجة ، إزدادت كثافة الأشجار بشكل ملحوظ ، ورسونا على شاطىء رملى قريباً من نهر عظيم تتدفق مياهه هادرة(١) . إلى هنا قرر النجارون أن المكان مناسب والأشجار تصلح لتمدنا بما نشاء من أخشاب .

أقمنا معسكرا على الشاطىء ، ولم يمض يوم حتى كان العمل على أشده . بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة ، بدا أن كل شىء يسير على ما يرام ، لكننى مع هذا لم أكن مرتاحاً ، كان هنالك شىء مخيف فى المكان ، ليس سوبك (التمساح) فى النهر القريب هو الذى أزعجنى ، ولا الأفيال ، ولا زئير الوحوش هو الذى أرهبنى ، ولكن شيئاً آخر لا أدرى ما كنهه .

شعرت أن هنالك عيوناً ترصد حركاتنا بصفة مستمرة . عيون أعداء تتربص ، وتنتظر فرصتها لتضرب ، رحت أتطلع إلى أشجار الغابة الكثيفة القريبة منا ، حدقت النظر فى كل شجرة ، وفى كل فرع ، ومع هذا لم أر ما يريب ، ظللت قلقاً منقبض الصدر طوال النهار ، ولا زال عنى الإكتئاب حينما تحول رع إلى أتوم (شمس الغروب) أشعلنا النيران ، وأمرت بالإكثار منها كما ضاعفت الحراسة العادية حتى أن منتوسين سألنى عن السبب ، ولم أدر بما أجيبه سوى أننا فى أرض غريبة ، وأننى لا أريد المجازفة .

قضيت الليلة الأولى على الشاطىء مسهداً أنام نوما متقطعا . خيل لى أثناء الليل أننى سمعت صرخة مكتومة ، فخرجت من الخيمة لكننى لم أشاهد شيئا

---

(١) نهر الكونغو .

غير عادى ، عدت إلى فراشى ، وحاولت النوم إلا أن الشعور بالخطر استمر يلاحقنى ، ويجفو عنى النعاس ، ما بدأت خيوط الفجر تبدد الظلام حتى سمعت صرخة تلتها صيحات رجال ، وهب من فى المعسكر جميعه يتساءلون السبب . حينما خرجت من الخيمة رأيت الرجال متجمهرين ينظرون إلى شىء لم أتبينه حتى أفسحوا لى طريقا ، وعندئذ رأيت . كانت جثة أحد الرجال ، أحد الحرس ، ملقاة على الأرض وقد برز من العنق سهم صغير .

تأملت السهم بدهشة ، كان صغيراً إلى درجة أنه لم يكن من المتصور أن أى رجل يستطيع الإمساك به وشد القوس عليه . كان أقصر بمراحل من سهام قبيلة فنانى الكهوف ، إلى جانبى سمعت صرخات نجم آب يقول بتعجب:

— ما هذا بحق الآلهة ؟

جاءنى الرد من حما نخت :

— إنه سهم مسموم إذ لا يتصور أن مثل هذا السهم الصغير يمكن أن يقتل رجلا بغير ذلك ، لابد أيضاً أنه سهم شديد ، سريع المفعول ، وإلا لكنا سمعنا صيحات الرجل ، أو أنينه ، لكن كيف يمكن أن يطلق مثل هذا السهم الدقيق ؟

سألت الكاهن الطبيب :

— ما هو عمق الجرح ؟

انحنى الكاهن على الجثة ، وتحاشى حذرا أن يمس رأس السهم ، وانتزعه برفق ، لم يقتض انتزاعه قوة تذكر ، ولا كانت هنالك دماء كثيرة حول الجرح الصغير الذى تركه .

— إنه لم يحدث أكثر من خدش خفيف لا يزيد عمقه على دجب (عرض الأصبع) وربما أقل ... لابد أن السم شديد جدا وسريع المفعول ، وإلا لما أثر مثل هذا الجرح فى الرجل . . . إن ما سال من دمائه لا يزيد على نقطة أو اثنتين . . . .

إعتدل واقفاً وهو يمسك بالسهم الرقيق من طرفه وهز رأسه ، وعاد يكرر تساؤله :

— كيف يمكن أن يطلق أى رجل مثل هذا السهم ؟

تناولت السهم بحذر ، وأمرت الرجال بأن يتفرقوا لتناول الطعام ، والعمل ، واستدعيت أونى . أريته السهم ، وسألته ، لكنه هز رأسه نفيا ، وقال إنه لا يتصور قوسا يشد فيه مثل هذا السهم ، حتى لو كان الرامى طفلا ، يحتاج إلى ثلاثة أضعاف الحجم على أقل تقدير ، عرضت السهم على سائر الرماة ، والقواد ، لكن أحداً لم يعرف الإجابة ، واستمر اللغز بلا حل .

بعد تناول الإفطار جاء فى أحد بحارة سفينتى ليخبرنى أن مرت سجر تطلب أن تنزل إلى الشاطىء . كنت قد منعتها عن النزول فى اليوم السابق خشية وجود أخطار ، ولم أكن مستعداً لأن آذن لها الآن وقد تحقق الخطر أخبرته أنى سأذهب بنفسى إليها على سطح السفينة ، وأن عليها أن تنتظرنى وألا تحاول المجىء ، برفق وضعت السهم على قطعة من القماش ، بعد أن أحطت رأسه بورق شجر عريضة ، وحملته معى إلى قمرتى .

استقبلتنى مرت سجر على سطح السفينة ، وصحبتنى إلى القمرة . رأتنى أضع اللفافة على المنضدة . وسألتنى عما بداخلها . لم تنتظر الإجابة ، وإنما توالت أسئلتها عن سبب منعى لها من النزول إلى الشاطىء ، وعن الهرج الذى شاهدته فجراً . أردت أن أقنعها بخطر استصحابها ففتحت اللفافة ، وظهر السهم بداخلها . ما أن رأته حتى تسمرت فى مكانها . وكفت عن الأسئلة .

جحظت عيناها رعباً . وظلت تحدق فى السهم الرقيق ، وراقبتها دهشاً من تصرفاتها . أخيرا تكلمت . سألتنى بصوت متحشرج دون أن يتحول نظرها عن السهم :

— من أين ؟ . . . من أين أتيت بهذا ؟ . . . إنه الموت !

ازدادت دهشتى ، وجاء دورى فى سؤالها .

— هل رأيت مثله من قبل ؟

— أجل . . . فى عنق شخص متوفى . . . ورأى قومى كثيرا منه . . . إنه الموت ! !

— ماذا تعنين ؟

— هذه السهام لا يستعملها سوى قبائل الأقزام ، إنهم بدائيون إلى أقصى درجات البدائية ، لا يعرفون النيران ، أو النبات ، أو حتى المنازل ، أو الأكواخ ، إنهم لا يتكلمون بل يطقطقون كما تفعل القردة ، إنهم نمنميون ، يأكلون لحوم البشر ، ولا صديق لهم فى الغابات . . هم الرعب الذى يسيطر على كل المخلوقات ، سواء الحيوان أو الإنسان . نادرا ما يراهم المرء ، لكنهم دائما موجودون . أشرس من الفهد ، وأخبث من الثعلب ، وأسرع من الغزال .

كانت تتكلم كأنما فى حلم . لم ترفع عينيها عن السهم ، وجاء صوتها هامسا ، كمن لبسه سحر . سألتها :

— هل تعرفين كيف يقذفون هذه السهام ؟

— أجل . . . بأفواههم ؟

— ماذا ؟

— إنهم يضعونها فى اسطوانات خشبية مجوفة ، وينفخونها ، وقلما يخطىء الهدف .

بالرغم من الدهشة التى اعترتنى إلا أننى تبينت ما فى قولها من صحة ، أجل ، إن مثل هذا السهم الرقيق لا يمكن أن يطلق إلا بالوسيلة التى ذكرتها مرت سجر ، استمرت الفتاة فى تساؤلها ، ولم تتوقف :

— لكن كيف جاءوا إلى هنا ؟ إننا نبعد مسيرة أشهر عن بلدتى حيث يوجدون .

— لست أظن ذلك إننا نكاد أن نكون أمامها تماما . وهى على الشاطىء الشرقى لليبيا ونحن على الشاطىء الغربى ، إن هذا يعطينى أفكارا جديدة ، وعلى أن أعيد حساباتى لكن أولا على أن أضمن سلامة رجالى ، لا تتركى السفينة وسوف أعود إليك ثانية .

لم أكن فى حاجة فى الواقع إلى هذا الطلب إذ أنها بعد أن رأت السهم لم تحاول أن تطلب الهبوط إلى الشاطىء ، تركتها ، وذهبت ، ثم جمعت القادة الثلاثة ، وعرضت عليهم ما علمته ، وطلبت منهم أن يبتعد المعسكر ليلا عن الأشجار ، وأن يضاعفوا الحراسة فلا يترك شخص بمفرده ، مع جميع هذه الاحتياطات فاننا اكتشفنا فى صباح اليوم التالى جثتين لاثنين من الرجال بينما اختفى شخص ثالث ، وتذكرت قول مرت سجر إن الأقزام نمنميون .

الفصل الثامن عشر

ذوو الشعر الكث

قضينا طوال اليوم كله فى بناء سور خشبى . خصصت ستمائة رجل يقطعون الأشجار ، ويحفرون الخنادق ، ثم يقيمون السور من ناحية الغابة ، وتركته مفتوحا من ناحية البحر فقط بحيث لو شاء أحد الخروج ، أو الدخول من البر لا يستطيع . لم يحل المساء حتى كان السور قد تم بناؤه ، ولأول مرة طلع عليه الصباح دون أن نفقد أحدا من الرجال ، بل إن عدونا فقد رجلا واحداً على الأقل إذ حاول أن يعتلى السور ، ورآه أحد رماة السهام فقذفه ، وأصابه ، لكننا لم نر له أثراً فى الصباح ، ولابد أن رفاقه قد حملوه معهم .

كان علينا أن نعمل فى الغابة الكثيفة ، وخشيت السهام المسمومة ، فكونت فرقة للحراسة أمرتهم أن يحملوا معهم الدروع دائماً ، وأن يقفوا متجاورين بحيث لا يمكن لعدو أن يخترق صفهم ، كما اعتنيت أن تكون جميع الدروع خشبية أو جلدية ، إذ أن حرارة الجو لم تكن تسمح بالمعدنية مع هذا ، فإنه يبدو أنى لم أقدر عدوى حق قدره . كانت الغابة موطنهم ، يعرفونها ، ويعرفون مسالكها ، ووحوشها ، وهوامها . وكانوا صغار الأجسام بحيث يستطيعون أن يمروا وسط غيضات كثيفة ، لا يستطيع الرجل العادى أن يخترقها ، كما كان من اليسير عليهم الاختفاء فى أماكن لا تخطر على البال .

بالرغم من جميع الاحتياطات لم يأت منتصف النهار إلا وكنا قد فقدنا أربعة رجال . يتراخى أحدهم فى وقفته ، أو يظهر أى جزء من جسمه ، لثوان معدودات ، ويمرق سهم من تلك السهام الرفيعة الصغيرة ، ليحدث خدشاً خفيفاً ، ولا تمضى دقائق إلا ويكون الموت قد اختطفه . كان أونى

أول من اكتشف أحد الأقزام . رآه مختبئا عاليا فى إحدى الأشجار بين فروع لم يكن أحدنا يتصور أنها تتحمل ثقل أى رجل ، وقد أخفته تماما أوراق الشجرة ، ومع هذا فقد مرق سهم أونى ليسقط القزم .

أخذت من هذه الحادثة عظتى . جمعت أكثر من أربعين من حملة السهام وأمرتهم أن يطلقوها على أعالى الأشجار القريبة عشوائياً ، دون التقيد برؤية الأقزام . إخترت عشرين آخرين من أمهر الرماة ، وأمرتهم أن يقفوا على استعداد لإصابة أى شىء يتحرك من الفروع . فى الدقائق التالية تساقطت السهام على الأشجار عشوائياً ، ولكن بكثرة مريعة . أحسب أن كل حامل قوس قد رمى عشرة أسهم على الأقل .

هدفت من وراء هذا أن يسيطر الذعر على الأقزام المختبئين فيتركون أماكنهم هاربين وكان لى أكثر مما أردت . سقط من الأشجار ثلاثة ، ثم رأينا شيئا عجيباً . رأينا عشرات منهم يتنقلون بخفة بين الفروع كالقردة . حيثما كانت الأشجار ساكنة لاحياة فيها امتلأت فجأة بتلك المخلوقات الصغيرة تفر مذعورة أمام وابل السهام المتساقط . وتابعوهم رامو السهام فقتلوا منهم ثمانية آخرون قبل أن يختفى الباقون تماماً بين فروع الأشجار الكثيفة .

وقفت أتمعن فى جثث الأقزام المتناثرة . كانوا ضئيلى الأجسام لا يتجاوز طول معظمهم نصف قامة الرجل الطويل . أطرافهم صغيرة، ودقيقة كالأطفال وبشرتهم سوداء ، وشعورهم مفلفلة . بدت على وجوههم شراسة ، لم يستطع سكون الموت أن يمحوها . كان أحدهم يحمل معه جعبة صغيرة ،ومازال يقبض بين أصابع يده على إسطوانة خشبية مجوفة . فتحت الجعبة بحذر ، ورأيت كثيراً من السهام الدقيقة . أخذت الجعبة ، والاسطوانه ، وإحتفظت بهما للذكرى .

استمر العمل فى هدوء بقية النهار ، وقبل أن يجن الظلام عاد الجميع إلى

حماية المعسكر ، قضينا الليله دون حادث ، ومرت ثلاثة أيام أخرى لم أتصور أن الأقزام قد اكتفوا بما نالهم ، وقبعوا فى غاباتهم خائفين . حينما خاطبت مرت سجر فى الأمر ، أكدت هذا ، وقالت إنهم لاشك يجمعون أعدادهم ، ويعدون العدة لضربة قاضية ، وأنهم فى تاريخهم الطويل كانوا دائما رعب الأهالى فى جميع المناطق المجاورة . يختطفون النساء ، ليتزوجونهن فهم يحبون النساء الطويلات ، ويقتلون الرجال ، والصبيان يطعمون من لحومهم .

كان لايزال أمامنا خمسة أيام أخرى قبل أن ينتهى العمل ، وفكرت جديا أن أكتفى بما تم أداؤه ، أو أختصر المهمة ، إلا أنى كرهت لنفسى أن أفر أمام مثل هذه الطغمة . كان هذا خطأ ، فالقائد الحكيم يجب أن يفكر أولا فى رجاله ، ومهمته ، وأن يدع الكرامة جانباً ، ومع هـــذا فلم تكن كرامتى هى التى فكرت فيها ، وإنما تامرى . إننا جنودها ولايجوز لنا أن نفر ، أيا كانت الظروف .

فى تلك الليلة جاءنى عنخو . أيقظنى من نومى برفق وحينما إنتبهت سمعته يتكلم :

— سيدى القائد أعتقد أن الأقزام مقدمون على شىء .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن هنالك حركة على طوال السور من الخارج .

— ماذا ؟ هل يحفرون ؟

— كلا إنهم يجلبون أشياء ، وأظن أنها أخشابا ،أوأفرع شجر ، وأوراق.
كنت قد نهضت من فراشى وهو يتكلم ، وبدأت فى ارتداء ثيابى .

— إذهب وأوقظ نجم آب ، ومنتوسين ، خبرهم بما أخبرتنى به ، وقل لهم إننى أظن أن العدو سوف يشعل النار فى السور ، قريباً من البحر . وأوقظ أونى ، وعليه أن يكون مستعداً مع حملة الأقواس . لكن على الجميع

أن يتظاهروا بالنوم بعيداً عن السور على الأقل بعشرين نبيو (مايقرب من خمسة وعشرين مترا)

انسحب عنخو فى خفة الشبح، وأتممت إرتداء ثيابى، ثم خرجت من الخيمة. كنت أود أن أتعرف قدر الإستطاعة على خطة أعدائى حتى أعد العدة للقائهم، ولم يكن ليتأتى هذا دون الإستماع إلى حركاتهم وراء السور مباشرة، قررت أن أفعل ماعليه على واجبى، مع مافى ذلك من مخاطرة .

لاحظت وأنا أتجه إلى السور، أن الجند قد بدأوا فعلا فى الانسحاب التدريجى، ولم أتمالك من الإعجاب بجنود الفرعون وهم يتحركون فى صمت وكأنهم فرد واحد . انجهت من فورى إلى طرف السور الجنوبى، إلتصقت تماما به سرت ببطء وحذر متصنتا لأدنى الأصوات . قطعت مسافة لم أسمع فيها شيئاً ثم بدأت تصل أذنى أصوات خفيفة، كأنما يتحرك أشخاص، ويضعون أحمالا على الأرض إلى الجانب الآخر من السور . وضعت علامة عند المكان الذى سمعت فيه لأول مرة الأصوات، ثم واصلت سيرى بجوار السور .

استمرت الأصوات الخفيفة تنبعث من الجانب الآخر ثم انقطعت بعد ذلك . وقفت لأضع علامة حيث انقطعت الأصوات للمرة الثانية، فجأة سمعت ورائى صرخة مكتومة، فالتفت وقد أخرجت خنجرى من منطقته، لكننى رأيت سيمبا واقفاً خلفى تماماً وقد قبض بيده على رقبة أحد الأقزام ينفضه فى الهواء ويخنقه . كان سيمبا عملاقا بين الرجال أما إذا ماقورن بالقزم فقد بدا ماردا . ثوان معدودات وإنتهت حياة القزم . بسهولة عجيبة طوح سيمبا الجثة لتتخطى الحاجز، وتقع على الأرض . سمعت صوت إرتطامها، ثم صرخات متعددة، وأصوات أقدام تعدو هلعة نحو الغابة .

شكرت العملاق فلا شك أنه أنقذنى من إحدى السهام المسمومة، إذاً بدا جليا أن القزم كان قد اعتلى السور فى مكان يقرب من موضع وقوفى،

وكان عل وشك النفخ فى القصبة حينما قبض سيمبا على رقبته يمنع خروج الهواء . أتممت وضع العلامة ثم انسحبت بعيداً عن الحاجز . جاءنى نجم آب ومنتوسين ، وستنا حت ، يستفسرون عن خطتى . وأخبرتهم .

— إن الأقزام سوف يشعلون النيران فى وسط الحاجز من هذه العلامة إلى تلك تقريباً كما سيحتلون السور على ما أعتقد عند الجانبين .

قاطعنى منتوسين لأولى مرة :

— معذرة ياسيدى القائد ... أننى لاأعتقد أن هذه خطتهم .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن الأقزام ، حسبما رأيت ، قصار الأرجل جدا لايستطيعون الجرى ، وهم فوق هذا رجال غابات ، وليسوا رجال أرض منبسطة ، إن قوتهم فى الغابة على الأشجار ، وبين الأدغال ، والأكمات ، وليس على الأرض.

وجدت أن منطقه سليما فأومأت برأسى :

— أكمل ... !

— إنهم لا يريدوننا فى منطقتهم ، لهذا سيحرقون الحاجز ، ويتركوننا بلا حماية ، ولن نستطيع الاقتراب ، وبناء السور مرة أخرى إلا بخسائر فادحة .

— لاشك أنهم جمعوا من بنى عشيرتهم أعداداً كافية ، وإحتموا بالأشجار القريبة . أما فى المساء فسنكون مكشوفين تماماً لهم .

— والرأى ؟

— أن ننسحب . إننا لن نضار كثيراً . إن فى إستطاعتنا الإبحار ، وإتمام عملنا فى مكان آخر بعيداً عنهم ...

— وماذا عن المؤن ، والأخشاب ، والأدوات هل نتركها لهم ؟ ... إننا لن نستطيع أخذها معنا قبل هجومهم .

— وماذا تعنى بعض الأدوات ، والمؤن ، والأخشاب ؟ إننا نستطيع أن نعوضها فى مكان آخر .

نظرت إلى نجم آب وستنا حب وسألتهما رأيهما فقال نجم آب :

— كلا ... لا يمكن أن ننسحب أمام مثل هذه الطغمة .

وافق ستناحب على رأى منتوسين ، وعاد القرار إلى . لم يكن هناك شك فى أن منتو كان على صواب ، لكننى أكره أن أترك مجهود أيام يضيع لمجرد الخوف من القتال ، كما أنى لا أقبل أن ينسحب جنود الفرعون أمام مثل هؤلاء ، حتى وإن أدى الأمر إلى بعض الخسائر . المهم أن تكون الخسائر أقل ما يمكن . هادنت بين الرأيين .

— لنؤجل القرار النهائى إلى حين . دعونا يا سادة ننتظر إلى الصباح لنرى ما يسفر عنه . وإلى أن نقرر نهائياً ، أريد من فرقة رماة الأسهم ، أن يطهروا ما وراء الأسوار ، وكذلك الأشجار القريبة .

بينما نستعد للخروج من الخيمة دخل علينا أونى ليخبرنا أن الأقزام قد أشعلوا النار فى السور ، وأنها تمتد بسرعة رهيبة لتأكل الأخشاب الجافة بسهولة ، ويسر . أعطيته أوامرى بأن المنطقة القريبة من السور يجب أن تنظف تماماً من العدو ، وأن تكون هنالك فرقة من الرماة على استعداد لمقابلة أى هجوم .

لم تمض دقائق بعد هذا حتى كان الرماة قد انقسموا إلى قسمين ، بدأ أحدهما فى إلقاء الأسهم عالياً فى السماء لتسقط عند السور . جاءنا الرد فى شكل وابل من السهام يتساقط . لم تكن تلك السهام الصغيرة المسمومة ، وإنما كانت نوعاً عاديا . إذاً فقد استعان الأقزام بقبائل أخرى ، أو لعلهم أنفسهم غيروا من طريقة هجومهم ، وإن داخلنى شك كبير فى هذا .

كانت مرمى سهامهم أقصر من أن تصل إلينا ، خاصة وأنى لاحظت أنها جميعها تأتى من الأشجار ، ومع هذا فقد جرح خمسة رجال . استمر الحال على هذا أكثر من ساعة حتى بدأت أول خيوط الفجر تظهر ، وخبت النيران ، بعد أن أتت على السور ، وصار مجرد أكوام من الرماد ، والأخشاب المحترقة . انتهزت فرصة الظلام ، والتراشق البعيد ، وأمرت باقامة حاجز

صغير يكون ساتراً من سهام العدو عند الهجوم المنتظر ، كما أمرت باخلاء الشاطىء من كل ما ليس له ضرورة فى القتال .

أضحى المعسكر شعلة من نشاط . فكان البعض يقيم الساتر ، وآخرون يحملون الأخشاب والآلات ، والمهمات الخاصة بالنجارة ، والحياكة وغيرها ، وينقلونها إلى السفينتين ، وفريق يوالى التراشق بالسهام مع العدو ، وآخر يحمل بعض المأكولات ، أو المياه ، إلى الرجال .

جاء الهجوم المتوقع بعد أول خيوط الفجر . فجأة اندفع من بين الأشجار عشرات من الزنوج ، لا بل مئات ، وربما آلاف . ملأوا الجو بصراخهم ، وضجيجهم . لم يكونوا من الأقزام ، بل إننى لم ألحظ قزما واحداً بينهم . اندفعوا يتخطون الرماد ، وبقايا السور المحترق ، يقفزون فوق الأخشاب المتناثرة ، وهم يلوحون بقسيهم ، ورماحهم ، وسهامهم . توقف أونى وجماعته عن رمى السهام حتى اقتربت الجماعة ثم طار سد من السهام يصد الزنوج ، ويورد عشرات منهم إلى حتفهم .

على أن هذا القتل الذريع لم يوقفهم . لم تكن ، والحق يقال تنقصهم الشجاعة . تخطوا جثث زملائهم ، واندفعوا يهاجمون . انطلقت السهام مرة ثانية تحصدهم ، لكن فئة منهم كانت قد وصلت فعلا إلى أماكن رجالى . تطايرت الرماح فى الهواء ، وارتفعت صرخات الموت من كل جانب ، ولم يعتن أونى ، ورجاله سوى بصد الأمواج المتتالية من الرجال المهاجمين ، تاركا من أفلت منهم لبقية الجند يقاتلونهم سواء بالسلاح الأبيض ، أو بالرماح أو حتى الأيدى ، والخناجر .

أشرقت الشمس ، والقتال ما يزال دائراً . تناثرت على الأرض عشرات من الجثث فى أوضاع غير طبيعية حتى أضحى المنظر رهيباً ، كئيبا . وفى السماء حلقت العقبان تنتظر دورها لتنهش من لحوم الموتى ، كما رددت الغابة أصداء أصوات الضباع . لم أضطر إلى الاشتراك فى القتال إذ أن عنخو

وسيمبا، وقفا يحولان بيني، وبين أية جماعة من الأعداء، تقترب فتركا لى فرصة إدارة دفة المعركة .

لكن لم يكن لمثل هذه المجزرة أن تدوم . رأى الزنوج أنه لا قبل لهم بالسهام، والرماح المتساقطة عليهم، كما أن جنود الفرعون كانوا أكثر من ند لهم فى القتال بالأيدى . فجأة كما بدأ الهجوم، بدأ الانسحاب . كأنما باتفاق سابق . أولونا ظهورهم، وفروا عدواً إلى حماية الأشجار .

أراد نجم آب أن يتبعهم فمنعته مذكراً إياه أن الأقزام لم يشتركوا فى القتال، وأنهم لابد منتظرون أن نرتكب مثل هذا الخطأ .

عندما توقفت المعركة بدأت من فورى عملية إحصاء القتلى، والجرحى، من جنود الفرعون . بالرغم من شراسة القتال . فاننا لم نفقد أكثر من أربعة عشر قتيلا، وسبعة وثلاثين جريحا. أصدرت أوامرى بدفن قتلانا، ونقل جرحانا إلى سفينتى، وأن تنقل باقى المؤن، والمعدات، والأخشاب إلى السفينتين .

لم أكن أستطيع أن أستغنى سوى عن عدد ضئيل نسبيا من الرجال فى عملية النقل، لهذا استمر العمل حتى قرابة الظهر . طوال هذه المدة ظل الجنود على أهبة الاستعداد، ووقفت أرقب أطراف الغابة . لم يحاول الزنوج أن يخفوا أنفسهم بل استمروا يصيحون من بين الأشجار، متحدين مهددين، كأنما يستفزوننا لمتابعتهم، بل إن جماعة منهم تركت فملاحى الغابة، وإن اعتنوا ألا يقتربوا من مرمى السهام .

عند الظهر أصدرت أوامرى بالانسحاب، وتراجع الجند نحو الشاطىء . هنا خرج الأقزام بصاحبة الزنوج من حماية الأشجار، وأخذ الجميع يتصايحون، ويلوحون بحرابهم، وسهامهم متحدين، بلغت الحماقة ببعضهم حدا جعلتهم يندفعون وراءنا أكثر مما يجب، وكان جزاؤهم سهاما استقرت فى

صدورهم العارية . بعد هذا لم يجرؤ واحد على التقدم حتى أتممنا انسحابنا دون حادث آخر .

أبحرت السفينتان ، ووقف الأهالى على الشاطىء يهددون . أنت مرت سجر لتقف إلى جوارى عند سور السفينة ترقب الشاطىء ، وسألتنى برقة :

— كان القتال شديدا ؟

لم تكن فى الواقع تستفهم إذ أنها لابد قد راقبت سير المعركة ، إلا أننى أجبتها بالإيجاب . تحولت بالحديث :

— هل لاحظت أن الشمس أضحت فوق رؤوسنا مباشرة ؟

لم أكن فى زحمة أعمالى فى الأيام الماضية قد ألقيت بالا إلى موقع الشمس ، لهذا رفعت عينى وتحققت من صحة قولها . وأجبتها :

— كلا لم ألاحظ ، وإن كنت على حق . منذ متى وهى كذلك ؟

— طوال مدة وقوفنا .

— شكراً .

— لماذا ؟ هل لهذا أهمية ؟

— أجل . معناه أننى أتوقع أن تصبح الشمس على يسارنا قريباً ، ومعناه أيضاً أننا اقتربنا من الوطن .

لاح عليها الحزن وسألت .

— متى تتوقع أن تصل .

— لست أدرى تماماً ... ربما بعد أربعة أشهر .

— وعندئذ سوف تسلمنى إلى ملكك ؟ !

لست أدرى لماذا شعرت بأنى أجرم فى حقها إلا أننى أجبتها بصوت خافت .

— أجل ... إن هذا واجبى .

شعرت بها تثبت نظرها على وجهى ، وتفاديت أن أنظر اليها ، وفى اللحظة التالية كانت قد تركتنى وذهبت إلى قمرتها .

كانت الرياح الجنوبية قد خفت إلا أننى لاحظت أن ثمة تياراً مائياً ما يزال يحمل السفينتين ويتجه بهما شمالا(١) لهذا اكتفيت بالشراع ، ولم أحمل الرجال مشقة التجديف ، بعد ما لاقوه من عناء اليوم . توالت الأيام ، والتيار يزداد شدة يحملنا إلى الشمال ، بينما خفت الرياح الجنوبية حتى أضحت مجرد نسيم لا قيمة له . كان ما يزال هنالك بعض الأعمال اللازمة لسفينة نجم آب ، وكان يلزمنى أن أختار المكان المناسب لرسو السفينتين .

مرت علينا أماكن كثيرة كان في الإمكان أن نرسو فيها ، إلا أننى أردت أن أبتعد عن منطقة الأقزام قدر الاستطاعة ، لهذا لم أحاول الرسو إلا حينما بدأ التموين يتناقص . أمرت ملاحظ الصارى أن يخطرنى عن الأماكن الصالحة للرسو على أن تكون أشجاره أبعد ما يكون على الشاطىء ، إذ أننى أردت أن أحفظ لجنودى أكبر مساحة من الأرض الفضاء يستطيعون فيها المناورة لنأمن شر هجوم مفاجىء من الأدغال .

رسونا فى مكان مثالى ، خليج يدخل فى الأرض بدرجة تكفى لحماية السفينتين من الرياح ، يحده من ناحية لسان صخرى ، وتحف به الأشجار من الأخرى ، كان يمكن من الناحية الصخرية أن نعسكر مطمئنين من أى هجوم إذ أن شرذمة صغيرة تكفى لأن تصد جيشا كاملا حيث أن الصخور كونت حاجزا طبيعيا يحمى المدافعين ، فى حين أن المسافة بينها وبين الأشجار كانت شاطئا رمليا لا يمكن أن يختبىء فيها إنسان أو حيوان . لم يكن به عيب سوى أن مكان العمل ، وهو إلى جوار الأشجار بالطبيعة ، بعيد عن المأوى الذى اعتزمت أن أقيم فيه المعسكر ، على أى الأحوال فإنه لم يكن أمامنا عمل

---

(١) تيار بنجولا .

يستغرق أكثر من خمسة أيام، أو أسبوع على الأكثر بما فى ذلك تموين السفينتين .

قسمت الرجال، بعضهم للحراسة، والبعض للعمل فى إتمام بناء سفينة نجم آب، وآخرين للتموين، وغيرهم للصيد إذ كان من المهم أن يأكل الرجال لحما طازجا . ما بزغ فجر أول يوم بعد رسونا إلا وكان المكان شعلة من نشاط طلبت مرت سجر منى أن ننتقل إلى المعسكر مقررة أنها قد سئمت الحياة على السفينة طوال المدة الماضية، وأنها تود أن تشعر بالأرض الصلبة تحت قدميها، ووافقتها على ذلك بعد أن وعدت ألا تبتعد عن منطقة المعسكر على الصخور، والشاطىء الرملى . من ناحية أخرى لم أدع لها مطلق الحرية، حتى فى هذه المنطقة فأمرت سيمبا، وعنخو أن يتناوبا حراستها، وأن يكون أحدهما دائما قريبا منها .

سار العمل على ما يرام، وبعد اليوم الأول، حينما اتخذ العمل سيره الطبيعى وجدت أن لدى من وقت الفراغ ما يسمح لى أن أنعم بصحبة مرت لفترات متفاوتة أثناء النهار، كنا نسير على الشاطىء، أو نتسلق الصخور . اكتشفنا أنها تمتد متدرجة إلى الداخل، فقد كانت نهاية جبال داخلية، كنا ننتقى الممرات بينها، ونرتقيها ببطء حتى نبتعد عن ضوضاء العمل، وجلبة الجند، بين الصخور كان السكون مطبقا حتى لكأنك قد انتقلت إلى عالم لا حياة فيه، ومع هذا فإن المرء لا يعدم أن يرى أرنبا يعدو، أو ماعزا جبليا يقفز برشاقة، وقدم ثابتة .

فى عصر اليوم الخامس صعدنا فى ممر جبلى كعادتنا . كنت سعيدا برفقتها فلم أشعر بالوقت، ولا المسافة التى قطعناها، وإن كنت قد فكرت فى أننا إبتعدنا عن المعسكر، فإننى لم أخش أن نضل طريق عودتنا إذ أن البحر كان يبين من وقت لآخر من بين الصخور، وهو علامة واضحة لا يسهل معها أن نفقد طريقنا . صعد بنا الممر بعض الوقت ثم إنحدر كاشفا جزءا من غابة

قريبة عند السفح . إلى أسفل ، عند حدود الغابة تقريبا ،على بعد حتين(٢٠٠ ذراع) رأينا ما خيل إلى أنها جماعة صغيرة من قردة ضخمة الحجم .

توقفت مرت سجر حينما شاهدت الجماعة . تصلبت فى مكانها ،وشددت يدها الضغط على يدى ، وسمعتها تهمس مرتعبة .

ــ كونجا ...

لم أفهم معنى الكلمة ، ولا عرفت سر الرعب الذى سيطر عليها ، ولما سألتها أجابت بصوت هامس :

ــ دعنا نبتعد عن هنا ، إنهم جماعة من المتوحشين نطلق عليهم كونجا ، ذوى الشعر الكث .

أنا لم أرهم قبل ذاك ، لكننى سمعت عنهم أنهم أقوى من الأسود وأشرس من الفهود .

ــ لكن هذه مجرد مجموعة من القردة ، وإن كان يخيل إلى أنها أكبر حجما .

ــ هذه هى الإناث والأطفال . إن كونجا ، الذكر، ليس بينها. هل تحب أن تعرف مدى قوتها ؟

انظر هناك عند أطراف الغابة تماما سترى مجموعة من أشجار البامبو إن هؤلاء المتوحشين يحبون أكل لبنها . تعالى نقترب حتى تستطيع أن تتبين كيف يطعمون ، لكن حذار من أية حركة أو صوت .

ببطء وحذر ، تحركنا فى حماية الصخور حتى صرنا على مسافة لا تزيد على نصف حت (٥٠ ذراعا) توقفنا مختبئين ، وأشارت الفتاة نحو الجماعة ، من وراء صخرة ضخمة تلصصنا وأمكننا أن نرى جليا . كانت مرت محقة حينما قالت إنها مجرد جماعة صغيرة من الأناث ، والأطفال ، والواقع أننى رأيت اثنين ، وثلاثة أطفال فحسب . ركزت نظرى على إحدى الاناث. أول

ما استرعى انتباهى أن حجمها أضخم كثيرا مما ظننت حينما شاهدتها عن بعد. كانت الأنثى أطول من الرجل الطويل بالرغم من عدم استقامة وقفتها. إلى جانبيها تدلى ذراعان هائلان يوحيان بقوة خارقة. إذا أضيف إلى هذا ساقان قصيرتان، ورأس صغيرة لا تتناسب مع الجسد، وشعر أسود كث يغطى جميع أجزاء الجسم سوى الصدر، فان من الممكن أن يتخيل المرء صورة عامة لما رأيته على هذا البعد(١)

لم أصدق ما رأته عيناى ببطء تحرك الجسد الهائل نحو أكمة البامبو. وامتد ذراع الانثى الوحشية لتكسر إحدى الاشجار الطويلة، ثم وقفت تهصر العود، لتستخرج منه لبه، وتأكل منه تارة، وتعطى الصغار الذين تجمعوا حولها تارة أخرى. تصورت القوة اللازمة لكسر البامبو بمثل هذه السهولة التى رأيتها. إن مثل هذه القوة تكفى ضربة واحدة منها لقتل رجل. راقبنا الجماعة لفترة قصيرة ثم تراجعنا ببطء وحذر شديدين. أثناء عودتنا قالت مرت:

— هذه هى أول مرة أرى الإنسان المتوحش. ترى ما شكل الذكر؟ لابد أنه خارق القوة. هل رأيت السهولة التى اقتلعت بها الانثى شجرة البامبو ثم كسرتها؟

سرنا فى صمت بعد هذا، ولعلها كانت تفكر فيما أفكر فيه. إننا سنبدأ رحلتنا خلال يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير، وكل يوم يقربنا من وجهتنا ولم تكن تريد ذلك. تذكرت ساحو رع ولم أملك أن أشعر بغبطة منه. إنه وجد من يحبها، وبقى معها، واتخذ موطنها موطنه، ليتنى كنت أستطيع أن أفعل ذلك؟

وجدت نفسى فى اليوم السادس فى دوامة من العمل لم أستطع معها أن

---

(١) لاشك أن القارىء قد فطن إلى أن هذه إحدى إناث الغوريلا، لكنهم لم يكونوا يعرفونها كاحدى الحيوانات، وإنما ظنوها نوعا من البشر.

أصطحب مرت سجر فى جولتنا العادية ، فاعتذرت لها قائلا إنى ربما أستطيع أن أراها قبل الغروب . أمضيت صدر النهار ، والظهر فى مراقبة نقل المؤن إلى السفينتين . تناولت طعام الغذاء مع مرت سجر ، ثم عدت إلى عملى ثانية إلا أننى بعد ساعة أو ما يزيد شعرت بأننى لا أستطيع أن أحيد بتفكيرى عن الفتاة . كان هذا هو موعد نزهتنا اليومية ، وتاقت نفسى إلى مصاحبتها .

إعتذرت لمنتوسين ، وتركته ليتولى إدارة العمل . اتجهت إلى خيمةمرت لكننى لم أجدها . بحثت عنها فى انحاء المعسكر دون فائدة . تملكنى القلق ، وبدأت أسأل عنها حتى أخبرنى أحد الجند أنه رآها متجهة إلى الصخور . سألته إن كان قد رأى أحداً معها . فأجاب بالنفى . تحول قلقى إلى خوف حقيقى ، وساورتنى الهواجس والأوهام ، تذكرت حديثها معى فى اليوم السابق ، ورغبتها فى أن ترى ما أطلقت عليه كونجا ، واستبعدت التفكير ، لا يمكن أن تكون الفتاة من الرعونة بحيث تذهب للبحث عن مثل هـــذا الوحش بمفردها ؟ أم هل فعلت ؟

اتخذت سبيلى إلى الممر الذى سلكناه فى اليوم السابق . توغلت بين الصخور دون أن أرى أثرآ لها . رفعت عقيرتى بالنداء عسى أن تكون قريبة فتسمع ، وردت الصخور الصدى . كدت أجن من التفكير أن يكون قد أصابها مكروه ، ليس فقط من الوحوش ، وإنما بمجرد الانزلاق من الصخور ورحت أعدو وأنا أتطلع فى كل اتجاه .

فجأة ارتفعت صيحة ارتج لها الجبل ، صيحة وحشية لم أسمع مثلها من قبل جمعت كل أنواع الغضب ، والتحدى ، وأعقبت ذلك صرخة لم أشك أنهـــا صدرت من مرت سجر . سقط قلبى بين ضلوعى ، واندفعت بأقصى سرعة لا أعدو فى الممرات ، وإنما قفزآ على الصخور ، أختصر الطريق إلى مصدر الصخرة . تكررت الصرخة وأنا أعدو لتدفعنى إلى مزيد من السرعة . كانت صرخات الفتاة تؤكد لى أننى أسلك الطريق الصحيح ، لكنها أيضا كانت تؤكد أنها لا شك قد وقعت فى قبضة ذلك الإنسان الوحشى .

فى دقائق قليلة وصلت . كنت أقف على صخرة عالية ، وتحتى مباشرة وقف جبل آدمى يضرب بيدين من حديد على صدر من صخر . أمامه وقف سيمبا متحديا ، ولولا الموقف لأطلقت ضحكة هازئة . كان سيمبا ذلك المارد بين الرجال ، لا يزيد على مجرد طفل صغير أمام الوحش المتحدى ، ومع هذا فقد وقف متحديا ، كطفل شجاع يجابه رجلا ناضجا . على الأرض إستلقت الفتاة تطلق صرخات الرعب ، والاستغاثة .

لست أدعى شجاعة غير عادية ، وربما لو توقفت للتفكير لم أكن فعلت ما فعلت ، لكننى وجدت نفسى أستل خنجرى... وأقفز من الصخرة لأهبط رأسا على الوحش . إننى رجل ضخم الجسم بأى المعايير ، وقفزة كهذه كان لا بد أن تلقى بأعتى الرجال على الأرض ، ومع هذا فقد وجدت أننى كأنما اصطدمت بجدار . لم يقع الوحش ، بل أكاد أن أقول إنه لم يتحرك من مكانه . ربما يكون قد اهتز نصفه الأعلى ، لكن قدميه لم تنتقلا .

تشبثت بشعره الخشن الكث حتى لا أقع على الأرض ، وطرقت أنفى رائحته الكريهة . ارتفع خنجرى يهبط على كتفيه بضربة أودعتها كل قوتى . انبثقت الدماء حارة تبللنى ، وصدرت من الوحش صرخة ألم مرعبة وثنى ذراعيه فى محاولة أن يقبض على لينزعنى عن ظهره إلا أنه من حسن حظى يبدو أن تكوينه الجسمانى لم يساعده ، وكل مافعله أن لمست أظافره ملابسى فمزقتها ، ومزقت معها بعضا من جلدى . حاول أن ينالنى من فوق كتفيه ، وربما كان يفلح لولا أننى تفاديته .

انتهز سيمبا الفرصة ، وهجم على الوحش يكيل له اللكمات ، وسرعان ماتبين خطأه . فى لحظة هبطت عليه قبضة من حديد لتطوح به أقصى المساحة الصغيرة . لم ألحظ مافعل إذ أننى كنت فى شغل عنه ، أحاول أن أتفادى الأصابع الضخمة وهى تتلمس طريقها إلى جسدى . للمرة الثانية هبط خنجرى على ظهر الوحش حاولت أن تكون الضربة فى العنق ولم أفلح . إندفعت

الدماء غزيرة لزجة تبللني . صرخ ألما ، وغير من خطته . أخذ يقفز فى الهواء ويهبط فى محاولة لأن ينفض على ظهره ، لكننى كنت أعلم أننى إن وقعت فلا أمل لثلاثتنا من النجاة .

أحسست كأنما الدنيا تزلزل زلزالها ، وبدا لى كأنما سوف أسقط حتما من ظهر الوحش ، بينما ارتجت رأسى فوق عنقى تكاد أن تنخلع من مكانها . فيما يشبه السراب ، رأيت شبحاً يتحامل على نفسه ، ويقوم من سقطته . كنت أخشى شيئا واحداً ، أن يفكر الوحش فى أن يضرب ظهره فى الصخور المتناثرة فأضطر أن أبتعد عنه حتى لا أتهشم بينه وبين الصخر ، لكنه لم يفكر فى هذا . لم أتمكن أثناء ذلك أن أطعنه ، وصرفت مجهودى جميعه فى التشبث بالشعر الكث الذى اكتسى بالدماء الغزيرة حتى أنه أضحى لزجا . من اليسير أن تنزلق أصابعى فيه .

كان سيمبا هو الذى كاد أن يقضى على . فقد الرجل عقله تماماً ، ولم يستفد من الدرس الذى تلقاه فى محاولته السابقة ، فاندفع بكل جسمه صادما معدة الوحش برأسه . ويبدو أن الأخير قد انتابه بعض الضعف من جراء ما نزف منه من دماء وكما أن الصدمة كانت من القوة بحيث كاد أن يفقد توازنه فتراجع إلى الخلف واصطدم بشدة بالجدار الصخرى وراءه ، تلقيت أنا عنه هذه الصدمة ، وشعرت بأن عظامى قد تهشمت كما دخلت النتوءات فى ظهرى . بحركة لاشعورية فقدت قبضتى وانزلقت على الأرض . كان يمكن أن يكون فى هذا نهايتنا جميعها ، الفتاة وسيمبا ، وأنا ، لكن سيمبا سرعان ما كرر فعلته الأولى . لست أدرى فيما كان يفكر سيمبا ، فلم يكن من الممكن أن يتغلب على الوحش بهذه الطريقة ، لعله كما قلت فقد عقله . فى المرة الثانية تلقى الوحش الصدمة فى معدته ، وانثنى ألما . صدرت منه زمجرة مخيفة إلا أنه مد ذراعه الطويل ، وقبض على كتف سيمبا ، وجره إليه ، وفى اللحظة التالية أطبقت اليد الأخرى على العنق .

أصابنى الذهول من جراء الصدمة العنيفة ، إلا أننى لم أفقد شعورى ، ولا زايلنى صفاء عقلى . دارت الأحداث أمامى أسرع كثيراً مما يخطها قلمى ورأيت الوحش ما يزال منحنياً وقد قبض على سيمبا يهزه كما يهز القط الفأر. أسرعت باعتلائه مرة ثانية ، ولم أبال عما إذا كنت قريباً من قبضته . ركزت كل جهدى على أن أطعنه فى رقبته الغليظة القصيرة . يبدو أنه كان قد نسينى مؤقتاً ، وهو مستغرق فى قتل رفيق لهذا لم يولنى أى اهتمام حتى هبط خنجرى صادقا فى رقبته ، وانبثقت الدماء بغزارة حتى أنها غطتنى .

صرخ الوحش صرخة عالية ، وطوح سيمبا المسكين فى الهواء ليرتطم بالصخور ، ويسقط على الأرض بلا حراك . جاءتنى صرخات مرت سجر الهسترية ، وأنا أفر أمام القبضة الحديدية التى تحمل الموت ، والتى هبطت حيثما كنت منذ ثوان . عرفت أننى أصبته فى مقتل ، وأن ما من مخلوق يستطيع أن يستمر فى الحياة بعد أن يفقد كمية الدماء التى نزفت من هذا الوحش ومع هــذا فقد رأيتــه يترنح متجها نحوى ، وقـد إكتسى وجهه الكئيب بوحشية مرعبة .

كانت مهمتى أن أفلت منه لأطول مدة ممكنة ، وأنا واثق من أنه لن يعيش لأكثر من دقائق قليلة ، لكن المرء ليدهش كم تكون الدقائق طويلة أحياناً . كانت الساحة التى يدور فيها القتال صغيرة نسبياً ، وزاد من ضيقها أننى أردت أن أبعده عن المكان الذى إستلقت فيه مرت سجر هامدة صامتة ولا بد أنها راحت فى غيبوبة من هول مارأت . لاحظت فرجة بين الصخور ولابد أنه الممر الذى أتت منه الفتاة إلى هذا المكان ، لكننى لم أكن أستعملها خشية أن أترك الفتاة تحت رحمة الوحش . تقدم الوحش يطوح بذراعيه الطويلتين فى كل اتجاه كنت أخف منه حركة بمراحل ، لكنه كان أوسع خطوة كما أن المساحة لم تعطنى حرية المناورة بدرجة كافية .

تقدم منى فى ترنحه ، ولاحظت أن إحدى ذراعيه تكاد أن تكون مشلولة ، ولا بد أن طعنانى فى كتفه بدأت تؤثر على حركتها . ركز عينيه

الخبيثتين على ، ثم ، بخفة غير متوقعة قفز ، ومد ذراعه السليمة ليقبض على . فوجئت بهذه القفزة ، ومع هذا فقد كان رد فعلى سريعاً . ما أن شعرت بتلك الأصابع تقبض على كتفى حتى أصابتنى ، بمجرد حركة غير مقصودة ، ومع هذا فقد وجدت نفسى أرتفع عن الأرض طائراً فى الهواء لأكثر من ثلاثة نيبوات (ثلاثة أمتار تقريبا) ثم أعود لأرتطم بالصخور تحتى . أفلت منى الخنجر .

كان ارتطامى بالأرض شديداً حتى الذهول للحظات ، ولعل حظى الحسن فقط هو الذى أنقذنى من الموت إذ أن الوحش وقف بدوره، مشدودا ينظر إلى الدماء المنسابة من جرح يده . قبل أن ينتبه كنت قد نهضت وعدت إلى حيث الممر ، ووقفت . كان فى استطاعتى أن أفر منه إذ وضح لى أنه لم يعد يستطيع الاستمرار فى الحركة ، إلا أننى خشيت أن يصب جام غضبه على الفتاة الفاقدة الرشد .

ازداد ترنحه ، وهو يسير حتى بدا أنه يتمايل ، ومع هذا فقد ظل تقدمه حينما ظننت أنه اقترب بدرجة كافية تراجعت ، وتقدم ، كررت الفعلة ، وأفلحت . فى المرة الثالثة توقف ، وظهر جليا أنه لن يستطيع الاستمرار ، خاصة وأن الممر كان صاعدا . رأيته يستند بيده إلى جدار الممر ، وشاهدت بركة من الدماء تتكون بسرعة تحت قدميه . توقفت بدورى أنتظر . كان يصارع الموت ، بكل جبروت الحياة .

أخيرا لم تتحمل ساقاه ثقل جسده الضخم . تراجع هابطا الخطوات التى ارتقاها فى الممر ، ثم خارت ركبتاه فسقط كالجبل دون حراك .

ما أن تأكدت من موته حتى هبطت بدورى . وتخطيت جثته، واندفعت إلى مرت سجر أطمئنها ركعت إلى جوارها ، ورفعت رأسها أخاطبها بأرق الألفاظ . لم أشعر أننى أقبلها أثناء كلامى، ولم ألحظ أننى قد بللتها بالدماء التى كانت تغطينى . أحسست فقط أنها الآن بعيدة عن كل خطر ، وإننى أحتضنها

فى صدرى . لابد أنها أفاقت من غيبوبتها أثناء ذلك ، إذ شعرت بها تبادلنى القبلات ثم فتحت عينيها ، ونظرت إلى. صدرت منها صرخة مكتومة واعتدلت فى جلستها .

— إنك جريح ! ؟ ... إن الدماء تنزف منك وتغطيك ... !

هززت رأسى مطمئنا .

— هذه دماء الوحش ، أما جروحى فطفيفة .

إحتضنتنى ثانية غير مبالية بالدماء ، وتركت رأسها على كتفى ، ثم إعتدلت مرة ثانية متسائلة :

— سيمبا ؟

— لقد مات ... لاتنظرى ، إن رأسه قد تهشم ... سأرسل من يدفنه ... هل تستطيعين النهوض ؟

أومأت برأسها بحزن ، وتحاملت على نفسى . حينئذ شعرت بالآلام فى كل جسدى خاصة ظهرى ، وكتفى . أحسست بالضعف ، يسرى فى أطرافى ، واحتجت، إلى كل إرادتى لأتفادى السقوط على الأرض ، ولأحرك ساقاى فى طريقنا نحو المعسكر .

الفصل التاسع عشر

الشعب المرجانية

لزمت الفراش ثلاثة أيام ، عادني أثناءها حما نحت ، ولم تفارقني مرت سجر . حاولت أن أتناسى ما حدث بيننا على الجبل ، ولم تشر الفتاة إليه بكلمة أو حركة ، كل ما هنالك أنها كانت شديدة العطف ، والاعتناء بي ، وفيما عدا هذا تصرفت كأن شيئاً لم يحدث ، وتملكني الإعجاب بها . في هذه الأحوال يستطيع المرء أن يفرق بين الرعاع ، والنبلاء .

في اليوم الثاني لملازمتي الفراش ، جاءني منتو سين ليخبرني أن كل شيء معد ، وأن السفينتين متأهبتان للرحيل ، أصدرت إليه أمري بالإقلاع ، وبأن يخطرني أولا بأول عن حال الجو ، والرياح ، والتيارات المائية ، والاتجاه . أقلعت السفينتان ، وشعرت وأنا في قمرتي بالحركة الرتيبة المألوفة . بعد حوالي الساعتين جاء منتو سين ليخبرني أن التيار المائي ما يزال يحملنا شمالا ، وإن كان يشك أنه ينحرف إلى الغرب قليلا .

حينما نهضت من فراشي في صباح اليوم الرابع ، وصعدت إلى السطح تأكدت من رأي منتوسين . لم يكن هنالك شك في أن التيار المائي يدفعنا شمالا مع انحراف يسير إلى الغرب . تتابعت الأيام بعد ذلك على نمط واحد ، وكنا نقف للتموين قريبا من مصب أحد الأنهار الكبيرة (النيجر) حينما لاحظت أن الشمس أضحت دائماً فوق رؤوسنا تماما . كان هنالك شيء آخر . لقد انحرف بنا التيار حتى أننا كنا نتجه إلى الغرب فحسب دون أي ميل نحو الشمال .

طالما كان إتجاهنا إلى الشمال الغربي فإنني كنت مطمئناً لما سبق أن قررته من أن البحر الأخضر (الأبيض المتوسط) واسع شمالا حين أن جنوب ليبيا ضيق ، وبهذا كان استنتاجي أننا سنتجه دائماً إلى الشمال الغربي مما يجعل القارة مثلثة ، لكن هذا الاتجاه نحو الغرب حسب بلبل أفكارى . فإن معناه احتمال أن تكون ليبيا متصلة بأرض أخرى ، ولا تحوطها الماء من كل جانب كما جاء عن الأقدمين ، وبالتالى فإننا قد لا نصل مطلقا إلى تامرى ، أو أننا سنتأخر إلى سنوات لا يعلم إلا رب الأرباب عددها .

فيما عدا هذا القلق ، الذى بدأ يساورنى ، سار كل شىء على ما يرام . فالرياح لم تكن شديدة ، والبحر هادىء فى معظم الأوقات ، والجو جميل مطير ، أمدنا بصفة دائمة تقريباً بالمياه العذبة للشراب ، وسائر احتياجاتنا . مع هذا فإننى أعترف أن قلقى تزايد كلما مضت الأيام ولم يتغير اتجاهنا عن الغرب . كان أول ما أفعله كل صباح بعد استيقاظى مباشرة أن أحدد الاتجاه ، ومضت الأيام دون أى تغيير يذكر . يبدو أن القلق استولى على سائر القواد حتى أن ثلاثتهم سألونى ، أثناء إحدى محطاتنا للتموين ، عن معنى الاستمرار فى الاتجاه نحو الغرب ، ولم أستطع أن أعطيهم إجابة شافية .

كنا فى أول الشهر الأخير من شهور شمنو (يوليو) وكان الجو حاراً رطبا يثير الأعصاب . ولاحظت أن نحم آب يتكلم بعصبية لا يبررها مجرد القلق الذى نعانيه جميعا ، وحينما وجهت نظرة إلى هذا أجابنى بحدة :

— إن لنا قرابة العامين فى رحلتنا الملعونة هذه ، ولا أرى نهاية لها . كلما نظن أننا أوشكنا على الوصول ، ظهرت لنا عقبة جديدة ، لقد قاتلنا فى البحر ، والبر ، قاتلنا قصار القامة ، وطوال القامة ، قاتلنا الوحوش ، وتعرضنا للسعات الناموس ، وسائر الهوام . تعرضنا للرياح ، والتيارات ، وأنواء البحر . نالنا العطش ، والجوع ، وابتعدنا عن أهلينا ، وعشيرتنا . أما لهذا من نهاية ؟

تركته حتى استنفد غضبه ثم سألته :

— وماذا تقترح ؟ أن نعود أدراجنا ؟ !

نقلت بصرى بين الرجال الثلاثة ، وساد الصمت برهة قطعه نجم آب .

— ولم لا ؟ إننا على الأقل أضحى لدينا بعض الخبرة عما سنلاقيه ، إن عدنا .

بهدوء أجبته :

— معنى هذا أن أمامنا سنتين أخريين لكى نعود ، فى حين أنى أعتقد أنها مسألة أشهر قليلة لنصل إلى تامرى .

— وهذا الاتجاه إلى الغرب ؟ هل تقع تامرى غربا ؟ !

— كلا إنها إلى الشمال الشرقى . لكن تذكر أن البحر الأخضر عريض جداً ، وأن ليبيا من الجنوب تكاد أن تكون مثلثة ، وهذا يعنى حتما وجوب الاتجاه إلى الغرب إلى مسافة .

— إلى أية مسافة ؟

— أنى لى أن أعرف . كل ما أود أن أقوله إنه لاداعى لكل هذا القلق ، فالسفينتان فى حالة جيدة ، والشواطىء مليئة بالخيرات ، كثيرة الخلجان ، وليس هنالك ما يضايقنا سوى هذا القلق الذى لا أرى له مبررا .

انتهت المناقشة عند هذا الحد ، لكنى رأيت أن ثلاثتهم لم يقتنعوا تماما بالرد . الواقع أنى أنا أيضا لم أكن مقتنعا . انتصف الشهر ، وما زال اتجاهنا نحو الغرب دون أى انحراف ، وراقبت التوتر يتزايد ، وينتقل من الضباط إلى البحارة ، والجنود . بقيت مرت سجر الشخص الوحيد الذى ينتابه القلق . لم تكن لها مصلحة فى الذهاب إلى تامرى ، بل العكس هو الصحيح . كانت تعلم أنها ستنتقل إلى حوزة الفرعون بمجرد وصولها ، ولم ترد هذا ، وبالتالى سرها أن تطول الرحلة . بل لعلها أرادت ألا تنتهى ، لولا أننى القائد ، وأنى المسئول عن الرجال لشاركتها فرحها .

أسبوع آخر ، ولا أثر لأى ميل نحو الشمال . استمر التيار يدفعنا غربا ، وجاءت إشارات من سفينة نجم آب إنه يريد التوقف للتشاور . أدركت من هذا معنى التمرد . كان أمامنا أربعة ، أو خمسة أيام حتى نبدأ فى التفكير

فى التموين ، ولم أر ثمة داع لأن نرسو ، وأرسلت إشارة بهذا المعنى . أملت من التأجيل أن تبدو أية علامة تشير إلى احتمال تغير الاتجاه ، ومع هذا مضى يومان دون أن يتبدل الموقف . وفى اليوم الثالث أيقظنى منتوسين من نومى قبل الفجر ليخبرنى أن هناك رياحا شمالية ، تأتى من البحر ، وأنه يعتقد أننا ننحرف إلى الشمال الغربى قليلا(١) .

أسرعت بارتداء ملابسى ، وحينما ذهبت إلى سطح السفينة تأكدت من أقواله . أخيراً إذاً انتهى اتجاهنا إلى الغرب ، وبدأنا نعود صوب الشمال الغربى . على أن الرياح كانت شمالية تقاوم اتجاهنا ، وتدفعنا نحو الجنوب ، مما اضطرنى أن أضاعف عدد المجدفين . منذ ذلك التاريخ ، أواخر الشهر الأخير من شهور شممنو ، بدأ جهاد حقيقى ضد الرياح لم يعان مثله البحارة منذ أن تركنا الوطن .

من الشهر الأول من شهور آخت (يوليو) ، وتلاه الثانى (أغسطس) ، واتضح جليا أن اتجاهنا الرئيسى هو الشمال . ربما انحرف غربا قليلا ، أو شرقا تارة لكنها لم تزد على مجرد خلجان ، أو انحرافات فى أرض ليبيا ثم لا يلبث الاتجاه أن يأخذ مساره العادى ، نحو الشمال . مررنا فى منتصف الشهر الثانى بمصب نهر كبير(٢) ورسونا عنده لنتزود بالمياه ، واللحم الطازج ، والخضروات ، والفاكهة . طوال هذه المدة الماضية استمرت الرياح الشمالية تعارضنا ، ولم يكن لنا حيلة سوى التجديف . لم نجرؤ فى أى وقت على استعمال الشراع ، وأرهق البحارة حتى أننى أمرت أن تقتصر نوبة التجديف على ساعتين فحسب ، ومع هذا فان هذه المدة القصيرة كانت كافية لإرهاقهم .

فى أواخر الشهر الثانى من شهور آخت (أغسطس) قال مراقب الصارى فى الصباح أن لون البحر قد تغير إلى اللون الأبيض ، وأنه يرى على البعد بعض التيارات المائية المتضاربة . كنا نبتعد عن الشاطىء بأكثر من عشرة

---

(١) كانوا عند رأس بالماس . (٢) نهر السنغال .

حتات (الف ذراع) وبدا ما قاله مراقب الصارى غريبا ؛ أمرت المجدفين بالتوقف وأرسلت إشارة بذلك إلى نجم آب. أمرت بقياس عمق قاع البحر ؛ ووجدت أنه يزيد على عشرة قامات .

كان كل هذا غريبا حتى أنى صعدت الصارى بنفسى لأرى ماذا يقع أمامنا كان ما قاله المراقب صحيحا . أكثر من هذا لاحظت أن المياه البيضاء تمتد إلى الغرب حتى ما بعد الأفق . تخوفت من منظر البحر ، والتيارات التى رأيتها فأصدرت أمراً بالاتجاه غربا كما أرسلت إشارة بذلك إلى نجم آب . جاء رده عنيفا . إنه لا يرى داعيا للاتجاه إلى الغرب ، فى حين أن البحر هادىء ولا توجد عوائق أمامه . أخطرته أنى أرى علامات لا أرتاح إليها ، وأخشى أن يكون الشاطىء مليئا بالشعب المرجانية ، والرمال البيضاء ، المتحركة (١) خاصة وأنه كان يمكن ملاحظة أن الأرض وراء الشاطىء صحراوية على إمتداد النظر .

اتجهت بالسفينة غربا ، ورأيت نجم آب يحتذى حذوى . طوال النهار لم يتغير لون المياه ، وطوال النهار ظل إتجاهنا غربا حتى اختفى الشاطىء وأضحى سرابا . كرر نجم آب طلبه ، أن يتجه إلى الشمال ، ورفضت . كلفت منتوسين أن يتناوب الرجال فى قياس عمق المياه طوال الليل ، وأن يخبرنى إن تغير . والواقع أن القلق إنتابنى إلى درجة أننى لم أنم جيدا فى تلك الليلة . كنا نبتعد عن الأرض فى كل ساعة تمر ، ونخوض فى بحر لا نعلم عنه ، وعن أنوائه شيئا . سألت نفسى ألا يمكن أن يكون نجم آب على حق ؟! ألا يجوز أن يكون مبالغا فى حذرى ؟

طلع على الصباح بمفاجأة ، لقد إختفت سفينة نجم آب !! أخبرنى بهذا ،

---

(١) شاطىء ارجوين ودو شاطىء شهير تسبب فى غرق الكثير من السفن ، وهلاك مئات من الأشخاص ، ولعل أشهرها غرق سفينة الأسطول الفرنسى مدوزا فى يوليو ١٨١٦ .

وأنا على مائدة الإفطار ، مع مرت سجر ، فتركت الطعام ، وهرعت إلى السطح . كانت حالة البحر كما هي دون تغيير ، المـاء الأبيض ، والتيارات المتضاربة إلى شمال السفينة ، والبحر هادىء لكن لا أثر للسفينه الأخرى . لم يـكن لهذا سوى معنى واحد . إن نجم آب قرر أن ينفذ رأيه ، ويتجه شمالا بالرغم من تحذيراتى . ولم يكن أمامى أيضا سوى حل واحد . على أن أعود أدراجى للبحث عنه ، فإما هو فى مأزق وأعاونه ، أو هو قد اخترق الحاجز الذى تصورت أنه موجود .

عادت السفينة أدراجها ، وبعد ثلاث ساعات شاهدنا السفينة الثانية . كانت واقفة وسط المياه البيضاء لا تتحرك . ساعة أخرى ، وأصبحنا حذاءها تماما ، وأمرت بأن يسبر غور المياه بصفة لا تنقطع ، وأوغلت . لم يبق عندى شك فى أننى أدخل منطقة شعب مرجانية ، ورمال بيضاء ناعمة . جاءنى صوت الرجال يسبرون الغور ، عشرة قامات . تسع قامات ، ثمانى قامات ، سبع قامات ، ست قامات ، خمس ، أربع ، هنا أمرت بالتوقف وإلقاء المرسى . هذا هو أدنى عمق أستطيع المجازفة فيه بسفينتى . لو أن عاصفة هبت الآن فقد تدفعنى إلى الشعب المرجانية ، ولا أستطيع الخلاص بدورى .

كان ما يزال بيننا وبين السفينة الثانية أكثر من ستة حبات (٦٠٠ ذراع تقريبا) وأمرت بانزال قاربى النجاة . لو أن هذين القاربين كانا من البردى ، لضمنت أن يصلا إلى السفينة دون أية عقبة تذكر ، أما وهما من الأخشاب فلم يـكن لدى حيلة سوى المجازفة ، وإن كنت أعتقد أنها مجازفة يسيرة . كان على أن أعطى نفسى أكبر فرصة مستطاعة إن أردت أن أساعد السفينة الأخرى ، لهذا تقدمت بأخذ القاربين ، وتبعنى القارب الآخر ، وربطت الاثنين بحبال من الألياف المتينة بحيث يستطيع الرجال أن يجرونا ، إذا ما غاصت مقدمة قاربنا فى الرمال الناعمة ، أو أطبقت عليها الشعب المرجانية

جدفنا بحذر شديد ، كانت المياه صافية رقراقة ، حتى أننى إستطعت بسهولة أن أرى الرمال ، والشعب المرجانية . لكننى رأيت شيئا آخر أثار الرعب فى قلبي ، كانت المياه تحتنا تعج بالحيتان . إن هذه الأسماك المفترسة القاتلة توقعت ما سوف يحدث لركاب السفينة ، وهى تنتظرهم . وصلنا بسلام ، ورفعنا رجال نجم آب إلى السطح . رأيته يقف بينهم متحديا ، لكن لم يكن وقت حساب ، كان أربعمائة شخص يلزم إنقاذهم من مصيدة الموت أولا ، سألته عن الموقف وما حاول اتخاذه من إجراءات قال :

— إن هذه الرمال اللعينة قد أحاطت بمقدمة السفينة ، والرجال كالأطفال ليس لديهم من القوة ما يكفى للتجديف وإخراجها من ورطتها .

— هل هذا هو كل ما فعلته ؟

— وماذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا ، لقد جربت الشراع فهنالك رياح شمالية كما تعلم لكن ذلك أيضا لم ينفع .

— طبعا لأنه يبدو أنك نسيت الجزر . إن السفينة تغوص أكثر ، ولا ينفعها المد حينما يأتى . كان يجب أن تخف من الأحمال ، على أى الأحوال ليس أمامك الآن فيما أتصور إلا أن تهجر السفينة .

أهجرها ؟! إنها لا عيب فيها ، بعض الرمال حولها ، هذا هو كل ما هنالك كلا ... لن أهجرها .

— ليس أمامك خيار ، إن عاصفة واحدة كفيلة بأن تحطمها ، ومع فرض عدم قيام عاصفة فسوف تموتون من الجوع ، والعطش بعد أيام قليلة حينما تفرغ المؤن

— أمجنون أنت ؟ ! أهجر سفينتى وليس بها خدش ؟ كلا .. لن أفعل

كاد صبرى أن ينفد ومع هذا فقد ظللت متمالكا أعصابي ، وقلت بهدوء :

— ليس أمامك خيار .

ـ ساعدنا على الخروج ، إن سفينتك تستطيع أن تسحب سفينتى إلى الخارج .

ـ كلا ... إن المسافة بين الاثنتين بعيدة جدا ، وليس لدينا حبال كافية وحتى إن وجدت فسوف تنقطع عند أول محاولة

ـ إذاً أدن بسفينتك

ـ كلا .. لن أجازف بها ، ورجالى أيضا ، لست أظن أن عندك وقتا طويلا ، ويستحسن أن تبدأ الآن بانزال القاربين ، وأن تشحنهما بالمؤن ، وترسلهما إلى الشاطىء ، إن ثلاث أو أربع رحلات قد تكون فيها الكفاية لتحويل المؤن ، على بحاريك أن يبدأوا الآن بعمل رمث (طوف) فهو أضمن الوسائل لنقل رجالك إلى الشاطىء ، وما معهم من بقية مؤن ، أما أنا فأظن أنى استطيع أن أنقل مائة ، أو حتى مائة وخمسين رجلا فى سفينتى . عليك أن تفعل ما أقوله لك بلا توان

ـ صاح وقد استبد به الغضب :

ـ لن أفعل شيئا من هذا !

إمتدت يدى بسرعة لتلتق قبضتى بفكه فى ضربة قوية طرحته أرضا ؛ قبل أن ينهض كان نصـــل حسامى يمس عنقه ليبقيه طريح الأرض ، التفت الى نائبه :

ـ حت إنك الآن القائد ، وعليك أن تنفذ الأوامر

تردد الرجل قليلا ثم أدى التحية العسكرية وبدأ يلقى سلسلة من الأوامر واشتعلت الحركة فى السفينة المنكودة ؛ بعد دقائق رفعت حد الحسام ؛ وتراجعت الى الخلف ، نهض ببطء ثم اعتدل بجسمه الضخم وجابهته قائلا :

ـ إنك سوف تنتقل إلى سفينتى وسأصحبك لتحاكم عـــلى عصيانك الأوامر ، وتمردك ، وأحمد الآلهة انى لم أقتلك دون محاكمة .

تحول من وحش غاضب إلى حمل يرجو .

— لا تفعل بى هذا ؛ دعنى أواجه الموت مع رجالى وسفينتى . أعدك أن يكون مصيرى كأسوأ مصير لأدنى رجل .

ترددت إن هنالك جماعة لن تسع سفينتى أن تستوعبهم دون خطر الغرق ، هؤلاء عليهم أن يستقلوا الزوارق أو الرمث إلى الشاطىء ، ثم لا يعلم مصيرهم بعد هذا سوى رب الأرباب ما على لو تركت قيادتهم له ؟ انه رجل لا يهاب الموت ، ما فى ذلك من شك ، وهو قائد رجال بالسليقة ، لماذا أدعه يجابه مصير هؤلاء الرجال ؟ أحنيت رأسى موافقا

— عليك اذاً أن تقود الجماعة التى لن أستطيع استيعابها فى سفينتى حاول أولا أن تشرح لهم وتجعل الخيرة لهم ؛ من شاء اتباعك فعل ، ومن شاء أن أصحبه أخذته إلى سفينتى .

فعل ما أمرته به ، وكانت النتيجة مذهلة إذ أن أقل من خمسين شخصا هم الذين أرادوا الإنتقال إلى السفينة الأخرى ، أما الباقون، ومنهم سنتاحت فقد آثروا صحبة نجم آب ، ربما كانوا مخلصين له ، فللرجل ميزات قيادية غير منكورة كما ذكرت ، لكن ما أهمنى هو اعتقادى أن عددا كبيرا آثر صحبته لأنه سئم حياة البحر ، وأراد أن يستقر على الأرض ... أى أرض ، جعلنى هذا أتساءل عن شعور رجالى !

ظللت فى السفينة حتى بدأ تنفيذ البرنامج الذى وضعته ، وانتقل الرجال إلى سفينتى ، ثم رأيت أنه قد آن لى أن أرتحل ، أخبرت نجم آب باعتزامى الرحيل مقررا أنى لا أستطيع التلكؤ أكثر من هذا إذ أن سفينتى تقف قريبة جدا من الشعب المرجانية ، ولو هبت عاصفة الآن فإنها تتعرض للخطر ، كما أن أى تأخير فى الرحيل إنما ينقص من المؤنة وأضفت .

— إنى لا أعلم إلى أية مسافة فى البحر تمتد هذه الشعب ، كما أنى لاحظت أن الشاطىء صحراوى ومعنى هذا أننى لا أدرى إلى أى مدى سأظل بلاتموين ... الوداع يا نجم، ارجو لك حظا سعيداً ، عند ما تصل إلى الشاطىء مع رجالك إتخذ الطريق إلى الجنوب فعلى الأقل نحن نعلم أن بعد بضعة أيام

ستجد المياه والطعام ، أما إلى الشمال فلايعلم أحد مدى إمتداد هذه الصحراء .

شد على يدى ، وتمنى لى حظا حسنا ، وكذلك فعل ستنا حت ، وعدت مع رجالى إلى السفينة . قبل أن يرخى الظلام سدوله تماما كنا قد ابتعدنا مرة ثانية عن المياه الغادرة ، وأوغلنا فى البحر متجهين نحو الغرب . سرنا طوال الليل ، وحينما حل الصباح ، رأيت أن المياه البيضاء ، مازالت مستمرة . بدأ القلق يساورنى إلى متى سنظل نتجه غربا ؟ إلى أية مسافة تمتد هذه الرمال اللعينة والشعب المرجانية ؟ هل سيكفى ما لدينا من مؤونة وماء حتى نعود ثانية إلى الشاطىء ونستطيع التموين ؟

مع أن الوقت كان مازال مبكراً لكى أزعج نفسى فى التموين إلا أننى فضلت أن أبدأ من فورى فى تحديد الحصص سواء من الطعام . كان هذا تصرفا قاسيا خاصة بالنسبة لرجال دائبين على نوبات التجديف ، إلا أننى فضلت القسوة على الموت جوعا ، وعطشا . جاءنى منتوسين ليبلغنى تذمر الرجال ، إذ هم يقررون أنهم لا يرون داعياً لنظام الحصص ، والماء ، والطعام وفيران ، وأجبته :

— دعهم يتذمرون . إننى لاأدرى متى تنتهى هذه الشعب ، ثم أنا بعد ذلك لاأدرى متى تنتهى هذه الصحراء ، ربما أخفف من القيود على المياه إذا أمطرت السماء .

ظهرت المياه الزرقاء ظهر اليوم الثالث بعد إفتراقنا عن نجم آب ، وهو الرابع بعد ابتعادنا عن الشاطئ . أمرت بالاتجاه شمالا جاعلا مسافة آمنة بيننا ، وبين المياه البيضاء . توالت الأيام بعد هذا دون أن أرى أثرا للأرض ، وهلل الرجال ، فقد أثرت فيهم أيام الإبحار المتتالية ، كما أثر فيهم نظام الحصص فى التموين ، وإعتقدوا أن ظهور الأرض فيه نهاية لكل آلامهم .

على أننا ما كدنا نقرب منها حتى خابت الآمال . كانت أرضا صحراوية لانبت فيها ، ولاشجر على طول امتداد النظر . مجرد كثبان من الرمال لانهاية

لها مع هذا أمرت بأن نرسو . أردت أن يشعر الرجال بالأرض الصلبة تحت أقدامهم ، وأن يستريحوا لليلة أو اثنين من التجديف . كنت أعلم أن فى هذا مخاطرة كبيرة ، خاصة وأن الطعام قد تناقص إلى درجة خطيرة ، إلا أننى أملت أن أعوض ببعض صيد البحر .

نظر إلينا رب الأرباب بعطف ، فلم تكن الأسماك وفيرة فحسب ، بل إن أونى شاهد غزالا وسرعان ما أرداه بسهامه . حقاً إن لحم غزال واحد لايكفى لإطعام أكثر من أربعمائة رجل ، لكنه كان خيرا من لاشىء على كل حال ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك ماصطادوه من الأسماك . قضينا ليلة جميلة على الشاطىء ، وأكل كل فرد كفايته ، وفى الصباح أقلعنا ثانية .

إستمرت الرياح الشمالية تزداد قوة ، وأضحى تقدمنا بطيئاً ، والتجديف قاسيا ، واقتصر الطعام تقريبا على الأسماك إذ أن القمح بدوره تناقص حتى أننى فكرت فى أن أتوقف لأعيد زراعته ، لكن الشاطىء ظل على حاله ، رمليا لا أثر فيه لنبات أو شجر ، وبدأ شبح المجاعة يطل علينـــا بوجهه القبيح .

نحن الآن فى أول شهور برت (نوفمبر) ولازالت الأرض صحراوية لقد عاف الرجال الإستمرار على طعام واحد ، وفضل كثير منهم أن يقضوا يومهم دون طعام ، على أن يأكل الأسماك ، والخبز . لم أعد أسمع ضحكة واحدة ، وحيثما نظرت رأيت عيونا زائغة ، ووجنات ضامرة ، وأجساما هزيلة ، وأصابع مرتعشة ، وأيد لا تقوى على التجديف . إضطررت أن أنقص الوردية إلى ساعة ونصف ، ثم إلى ساعة ، وحتى هذه المدة اليسيرة كانت عبئاً كبيرا على قدرة الرجال ، وحيويتهم .

فى صباح اليوم الخامس من أول شهور برت (نوفمبر) وقع حادث كاد أن يكون له أثره السىء على نفوس الرجال لولا أن تداركنا رب الأرباب . كنت فى مقصورتى حينما سمعت صياحا على سطح السفينة أعقبه أصوات هرج

ووقع أقدام كثيرة تعدو إلى المؤخرة ، ثم بدا لى أن حركة السفينة قد توقفت . أسرعت إلى السطح وهناك رأيت منتوسين واقفاً بين الرجال ، وقد تجمعوا عند المؤخرة يشيرون إلى شيء فى المياه . ذهبت إليهم ، وأخبرنى منتوسين أن أحد الرجال قد فقد عقله ، وألقى بنفسه فى البحر ، مفضلا الموت على الجوع . حاولوا إنقاذه ، لكنهم رأوا أسماك القرش تفترسه ، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا .

وقفت مبهوتا لثوان . لقد أوضحت لى الحادثة مدى الإضطراب النفسى الذى يعانيه الرجال. تمالكت نفسى بسرعة ، وأمرت بالاستمرار فى التجديف صائحا فيهم أنهم إن تركوا السفينة عرضة للرياح الشمالية فسوف تحملهم جميعاً حيث الصحراء ، وسيؤخرهم هذا عن الوصول إلى الأرض الطيبة التى طبقا لحساباتى لايمكن أن تكون أبعد من يومين ، أو ثلاثة . لم يبد على أحد أنه صدقنى لكن إعتيادهم على تنفيذ الأوامر هو فقط الذى دفعهم إلى العودة إلى التجديف .

أثناء عودتى إلى القمرة سمعت مراقب الصارى يصيح بأنه يعتقد أنه يرى جبالا على الشاطىء عند الأفق . هلل الرجال فرحين ، وضاعفوا من مجهودهم وبالرغم من هذا فقد حل الظلام دون أن نصل إلى الجبال ، وأن كان مراقب الصارى قد أكد الحقيقة بعد حوالى الساعتين . فى منتصف اليوم التالى ألقينا المرسى عند خليج تنتهى عنده الجبال . ولم يتوان أونى ورجاله عن القفز إلى الشاطىء ومالبثوا أن اختفوا .

كونت فريقا آخر وطلبت من حقا نخت أن يصحبه . كانت مهمة الفريق هى البحث عن الفواكه ، والخضروات ، مهمة حقا أن يستبعد ما قد يكون ساما منها . بعد أقل من ساعة عاد عشرة من رجال أونى يحملون وعلا ضخما ولست أحسبنى فى حاجة إلى وصف الإستقبال الملكى الذى لاقوه . منذ هذه اللحظة إمتلأت بطون الرجال ، وعاد إليهم مرحهم ، وابتدأت مخازن السفينة تزدحم بالمأكولات . شيء واحد كان ينقصنا ، أعنى الخبز . كان يلزم

أن أعثر على مكان أستطيع أن أزرع فيه قمحا . إن النقص فى الخبز لا أثر شديد له إذا ماتوفرت أنواع متعددة من الأطعمة الأخرى ، لكن لاشىء يعدله إذا نقصت الأطعمة ، أو إنعدمت .

بعد أيام عثرنا على مساحة شبه مسطحة من الأرض ، إلى جوار غدير ، وأقمنا معسكراً ، وبدأ تمهيد الأرض لزراعة القمح . فى أوائل الشهر الثانى من شهور برت (ديسمبر) بذرنا الحب ، وتفرغ فريق للصيد من الجبال ، والغابات القريبة . بعد ستة أشهر أى فى أواخر شمنو (يونيو) حصدناه ، وامتلأت مخازن السفينة بما يكفيها من التموين . فى منتصف الشهر أقلعنا بسفينة قوية ، ورجال أشداء لايأبهون لما يلاقون من مخاطر .

اليونانى

الرحلة تقترب من نهايتها. لقد اجتزنا منذ أيام مضيق البحر الأخضر الذى طالما سمعت عنه ، وإن كنت لم أبحر إليه قبل ذلك . ساعدتنا رياح غربية شمالية كان من اليسير أن تتلقفها الشراعات المساعدة للسفينة لتدفعنا شرقا ، وبهذا استراح الرجال نسبيا من التجديف ، بعد أشهر طويلة من العمل المضنى . على أن هذا الجزء من الرحلة فى الواقع كان أخطرها جميعا . ذلك أن غرب البحر الأخضر يقع فى منطقة نفوذ قرطاجه ، وهى مدينة أسسها الفينيقيون منذ زهاء ثلاثة قرون ، وما لبثت أن استقلت المدينة عن الدولة الأم ، مكونة دولة بحرية قوية عاثت فى البحر فساداً ، خاصة فى جزئه الغربى. هم قراصنة لم يدعوا سفينة تبحر آمنة .

منذ ثلاث سنوات تقريباً ، حينما بدأنا رحلتنا لم تكن تامرى فى حالة حرب مع قرطاجنه . لكن ثلاث سنوات مدة طويلة ، تحدث فيها أشياء ، وتتغير أحوال . بالإضافة إلى هذا فإننا كنا قد حاربنا الفينيقيين، واستولينا على أراضيهم ، وحاربتهم أنا شخصيا فى معارك بحرية ، والفينيقيون أجداد القرطاجنيون . أهم من هذا كله أن سفينتنا لم تكن تجارية ، ولا تحمل بضائع للتجارة ، بل إن بعض الأسئلة البسيطة سوف تكشف أننا لم نأت من الشرق ، فمن أين إذاً أتينا نحن التامريون ؟

إن القرطاجنيين رجال بحر ، كما ذكرت ، وهم أيضا تجار ، ولو علموا بالرحلة فسوف يدركون أهميتها ، ولن يدعونا نذهب إلى تامرى ، ومعنا مثل هذا السر . سوف يسألون على مذكراتى ويستخدمونها لأغراضهم الخاصة . ولن يعلم أحد من تامرى عنا شيئا . أكثر من هذا ، ليس من المستبعد مطلقا أن يكون قد نما إليهم بشكل ، أو آخر أنباء رحلتنا، صحيح

أننا أشعنا أننا نهدف إلى التجارة مع بلاد بونت ، لكن هذا كان منذ ثلاثة أعوام ، فإذا أضفنا إلى ذلك الاتجاه الذى أبحرنا منه ، فلن يعدو الأمر سوى مجرد استنتاج بسيط ليصلوا إلى الحقيقة .

كان يمكن أن أشعل السفينة ناراً ، وأتم رحلتى سيراً على الأقدام عن طريق البر . وقد فكرت فى هذا ، لولا أن معظم البلاد تقطنها قبائل الطومياح ، وهى فى عداء مستمر مع تامرى ، ولن يدعونا نمر بسلام ، شيء واحد فقط كان فى صالحنا ، إن السفينة بنيت على الطراز الفينيق . وهو نفس الطراز القرطاجى ، وربما ساعدنا هذا على الإفلات من التفتيش ، أو إن لم نفلت ، ربما أعطانا عامل المفاجأة .

أمرت بألا ترفع أعلام تامرى على السفينة ، وابتعدت عن الشواطىء عسى أن نفلت دون أن تتعرض لنا سفنهم التى تداوم على تفتيش البحر ، سار كل شيء على مايرام حتى تجاوزنا أكبر منطقة خطرة ، أعنى تلك التى تقابل تماماً مدينة قرطاجنه ، وبدا لى أن الآلهة حبتنا بعطفها ، وأننا سنفلت دون حادث . عندئذ ، وحينما بدأت أطمئن ، وقعت الواقعة .

مع خيوط الفجر كان مراقب الصارى يصيح أنه يرى فى الأفق سفينتين تقتربان . لم يكن هنالك أدنى شك فى أنهما قرطاجنيتين ، فما من سفن أخرى تجرؤ على اقتحام البحر الأخضر فى هذه المنطقة ، ولم يكن هنالك شك أيضا فى أنه لن تمضى سوى ساعات قلائل ، وتلحقان بنا ، فقد اعتنينا عند بناء السفن أن تكون قوية تتحمل السفر ، لا أن تكون سريعة خفيفة . لو صادفتنا هاتان السفينتان قبل الغروب مثلا ، لكان هنالك أمل فى الإفلات منهما عندما يحل المساء ، أما ونحن فى مطلع النهار فلا أمل ألبتة . الأمل الوحيد هو فى الخداع ، وعنصر المفاجأة .

انتصف النهار قبل أن تقترب السفينتان بدرجة كافية للتمكن من التعرف على قدرتهما القتالية . كانتا أصغر حجما من سفينتى . وربما تحمل كل منهما مابين مائتين وخمسين ، وثلاثمائة رجل ، لكنهما كانتا أخف وزناً ، وأسرع

حركة . وأغدر على المناورة ، ومن اليسير عليهما أن تقضيا علينا إذا ما دخلنا معركة بحرية متكافئة ، ولهـذا اتجه كل تفكيرى فى الحيلة ، مستغلا ثقل السفينة ، وعنصر المفاجأة .

أمرت منتو سين أن يصدر تعليماته بأن تحل حبال الشراع الرئيسى بحيث يستطيع الرجال نشرها فى دقائق ، وبحيث تبدو للرائى من بعيد وكأنها غير محكمة الرباط فحسب . ونظر إلى نائبى بتعجب وتساءل :

— هل تريد فرد الشراع الرئيسى ؟ إن الرياح شمالية ، وستدفعنا إلى الشاطىء ، ولن نستطيع إيقافها فى وقت مناسب .

— افعل ما أمرت وسأشرح لك خطتى .

ذهب لتنفيذ الأمر ، ثم عاد بعد قليـل ، وأخذت أشرح له الخطة . ما إن استوعبها حتى جمع ضباط ورؤسـاء الفرق ، وأشرف على توزيع الرجال ، راجعت الترتيبات ، ثم ذهبت إلى مرت سجر ، وأخبرتها بما أعتزم ، وقيدتها إلى فراشها ، وأسرعت بالعودة إلى سـطح السفينة لأعيد تقدير حساباتى .

كانت السفينتان على بعد لا يزيد على ثلاثة حتات (٣٠٠ ذراع) ، وكانتا ترسلان إشارات تأمرنا بالتوقف عن التجديف . أصدرت أوامرى بذلك ، وما لبثت السفينة أن تمهلت فى الاندفاع ، بينما راحت الرياح الشمالية القوية تدفعنا قليلا نحو الجنوب . حدث ما لم يكن فى حسبانى ، وما كاد أن يقضى على خطتى بالفشل ، استدارت الرياح الشمالية ، وما لبثت أن عصفت بالشراع الرئيسى وانحل الرباط ، ومالت السفينة بشدة على جانبها مع لطمة الرياح وكادت الدفة أن تفلت من يد قائدها . أصدرت أوامرى بأن يصعد الرجال الصوارى ، وأن يتظاهروا بربط الشراع ، وأن يتلكأوا فى ذلك . كان معنى هذا أننى قد أضحى ببعض الرجال ، لكن لم يسعفنى تفكيرى بشىء آخر .

انفصلت السفينتان القرطاجيتان ، واتخذت إحداهما الجانب الشمالى لسفينتى ، والأخرى الجانب الجنوبى ، تماما كما توقعت . أضحى العدو الآن

قريباً بدرجة كافية للحديث عن طريق البوق ، وجاءنى أسئلتهم عن هويتى ، ومن أين أبحرت ، إلى أين أقصد ، ومن صاحب السفينة ، وماذا تحمل. إننى أتكلم الفينيقية ، لكن ليس بدرجة كافية لأن أخدع فينيقيا ، لهذا تعمدت أن يكون كلامى غير واضح ، بحيث ينسبون الإدغام إلى تشويش الرياح .

أخبرتهم أننا تجار ، وأننا أبحرنا من الجزر الغربية فى طريقنا إلى فنيقيا ، وأننا نحمل بضائع مختلفة .

لا بد أنهم كانوا قد بدأوا يشكون فى أن السفن غير عادية ، وأن مظهرنا لا ينبىء عن مخبرنا ، لأنى رأيت سطح السفينتين ، وقد ظهر عليهما الجنود على أهبة الاستعداد . توقف المجدفون فيهما وحاذتنا السفينتان .

كانت هذه هى اللحظة التى أنتظرها . أصدرت الإشارة المتفق عليها . وفى ثوان كانت السفينة تعج بالحركة . حل الرجال على الصوراى الحبال ، وشدها آخرون من أسفل . قبل أن تفرد الشراعات تماما كانت قد امتلأت بالرياح الشمالية ، ومالت السفينة بشدة إلى الجنوب وساعدها قائد الدفة . شاهد من فى سفينتى الأعداء هذه الحركة ، ولعلهم للحظات لم يصدقوا ما نحن مقدمون عليه ، ثم تعالت صرخاتهم . وتساقطت سهامهم كوابل على سطح سفينتى .

حاول ربان السفينة إلى الجنوب أن يفلت من الكارثة المحققة ، وسمعت أصواتاً مختلطة من الأوامر إلى المجدفين بسرعة التجديف ، وإلى البحارة بفرد الشراعات ، وإلى قائد الدفة أن يتجه إلى الجنوب . لكن كل هذا جاء بعد فوات الأوان .

انحرفت سفينتى بشدة حتى كاد جانبها الأيمن أن يعب من ماء البحر ، واصطدمت مقدمتها بالسفينة إلى الجنوب صدمة قوية كادت أن تفقدنى توازنى مع أننى كنت متشبثاً بأحد الحواجز . رأيت الجنود ، والبحارة على سفينة العدو ، وقد طوحت بهم الصدمة فألقت ببعضهم فى البحر ، وطرحت الباقين أرضا فى خليط غريب من الأجسام ، والأخشاب ، والأسلحة ،

تعالت صرخات الرعب ، والألم مع أصوات تهشم الأخشاب، ولطم الأمواج لم أكن قد قدرت أن تكون الصدمة بمثل هذه القوة . اعتقدت أن ضيق المسافة بين السفينتين سيخفف من وقعها ، لكن شدة الرياح الفجائية ضاعفت من نتيجة الاصطدام حتى أنى رأيت ، والرعب يملأ قلبى ، أن مقدمة سفينتى قد دخل برمته وسط سفينة العدو ، مما جعلها عاجزة تماما عن الحركة . كان على أن أغير خطتى بسرعة . تركت حوالى الخمسين جنديا تحت إمرة ضابط فى الجهة الجنوبية ، من السفينة آمراً إياهم أن يقضوا على من بقى من الجنود ، والبحارة فى السفينة الغارقة كانت مهمتهم يسيرة نسبيا إذ أن الاصطدام كان قد قضى على كثير منهم ، ولم يدع فى تصورى ، واحدا من الناجين إلا وقد أصابته جروح ، وكدمات ، وكسور .

أضحت مهمتى الحقيقية الآن فى الناحية الشمالية حيث السفينة الأخرى التى لم تصب بسوء . كان رامو السهام فيها يرسلون وابلا من الموت . يممت شطر مؤخرة سفينتى ... تساقطت السهام حولى ، وأنا أنتقل بين الجرحى والقتلى ، وازداد رعبى وأنا أرى العدو يرمى بالسهام النارية ، وأن النار اشتعلت فى الشراعات كما أمسكت فى مواضع متعددة من السفينة . أصابنى أحد السهام فى كتفى إلا أنه كان سهما طائشاً هابطا من أعلى فلم يزد أثره على مجرد جرح طفيف . نزعت السهم ، وأنا أتحرك صوب المؤخرة لأرقب مايحدث فيها .

حينما وصلت تنهدت بارتياح. رأيت عشرات الكلابات تمسك فى سفينة العدو ، ووراء كل حبل عشرات الرجال يشدونها نحو سفينتنا . رحت أصرخ فى الرجال إننى لا أهدف إلى إغراق السفينة وإنما أسرها ، مقررا أن سفينتنا أضحت فى حكم المنتهية ... دفع هذا الرجال إلى مزيد من الحماس ، وطارت كلابات أخرى تتساقط على سفينة العدو، وبدأت حبال أخرى تشدها نحونا .

إذا كان العدو يمطرنا بسهامه ، فقد قام أونى ، ورجاله بدورهم أيضاً فى نشر الرعب ، والموت . كان بعض رجالى يسددون السهام مباشرة إلى رجال

العدو ، بينما خصص آخرون أنفسهم فى إمطار السفينة القرطاجينية بوابل يتساقط عليها من عل . كدت أن أقفز فرحا ، وأنا ألحظ أن أونى قد جمع عددا من أمهر الرامين ، وراحوا يقتلون من جنود العدو كل من يقترب من حبال الكلابات بغية قطعها بفأس الحرب .

كانت النيران تزداد اشتعالا فى سفينتى ، ولم يعد لدينا وقت نضيعه . شعر الرجال بهذا فضاعفوا من مجهوداتهم حتى التحمت السفينتان ، وشهرت بسيفى ، وقفزت إلى سفينة العدو ووافقنى منتوسين ، وعنخو ثم اتبعنا الرجال. توقف دور حملة الأقواس نسبياً ، ودار القتال بالسلاح . السيف والخنجر والبلطة وفأس الحرب ، بل والأيدى ، والأرجل . كان قتالا عنيفا استعملت فيه كل الوسائل ، والتحم فيه كل الرجال . لم يكن القرطاجينيون ، على شجاعتهم ، أندادا لمثل رجالى اللذين قضوا قرابة ثلاث سنوات ، ذاقوا فيها أهوالا لاتخطر على بال. وسرعان مابدأ العدو يتراجع أمام الوحوش الكاسرة التى انقضت عليه .

فجأة وأنا أقاتل ، تذكرت مرت سجر . لقد تركتها مقيدة إلى فراشها ، والنار مشتعلة فى السفينة. طارت نفسى شعاعا . عالجت خصمى بضربة قوية من سيفى قضت عليه ، ثم نظرت نحو سفينتى . كانت النيران قد أمسكت بها حتى بدا لى أن كل جزء منها قد اشتعل . كالمجنون أخذت أشق طريقى بين المقاتلين . قبل أن أصل إلى الحاجز اعترضنى اثنان من العدو .

كنت أعلم أن كل ثانية لها قيمتها ، وأننى ربما أكون قد تأخرت فعلا ، بل لعل مرت سجرت ذهبت طعماً للنيران . جن جنونى ، وقاتلت بوحشية ليس لقتل الرجلين ، وإنما للتخلص منهما ، وتخطى حاجزى السفينتين . أصابنى أحدهما فى ذراعى الأيسر ، وسقط الخنجر من يدى ، وتراجعت بعيدا عن حسام الثانى ، إنتابنى يأس مرير وأنا أقاتل ، إن حياة مرت سجر ، إن كانت ما تزال حية ، تتوقف على حياتى ، وسرعة تخلصى من الرجلين ، لم أعبأ بالجراح تصيبنى ، وهاجمتهما بوحشية ، وسقط أحدهما صريعاً .

كان الوقت يمر سريعاً ، وأنا أراقب النيران تزداد توهجاً حتى خيل إلى أن السفينة أضحت شعلة واحدة ، وبدا أن أى أمل فى إنقاذ الفتاة يخبو . صمت أذنى عن أصوات القتال ، ولم أعد أسمع أنين الجرجى ، وإنما ملأ سمعى فحيح النيران ، وطقطقة الأخشاب المحترقة . خيل إلى أننى أسمع صرخات مرت سجر ، وهى تتلظى فى النيران ، وازداد جنونى . هاجمت الرجل بشدة إلا أنه كان مبارزاً حاذقا ، ورأى تلهفى على إنهاء القتال ، ورأى الجرح من ذراعى الأيسر ينزف بشدة فراوغ مبتعداً عن سيفى .

تراجع إلى الخلف وقفز قلبى فرحا ، وأملا . ووراءه ظهر عنخو . أطبقت يداه القويتان على عنق الرجل ورفعتاه من الأرض لتطرحان به بعيدا . لم أنتظر لأرى ما حدث له . صرخت فى عنخو أن يتبعنى ، وقفزت إلى السفينة المشتعلة . كانت الرياح الشمالية تحمل الدخان ، والنيران إلى الناحية الأخرى من السفينه ، لهذا لم أجد صعوبة فى الجزء الأول من رحلتى . أخذت أعدو وأنا أقفز فوق جثث القتلى التى اعترضت طريقى .

أمامى مباشرة كان مكان القمرات ، لكن معالم السفينة تغيرت تماماً . إن من اليسير جدا على المرء أن يضل طريقه وسط النيران ، ومن اليسير جدا أن تختفى ملامح سفينة مشتعلة . سقط الصارى الأكبر فهشم جزءاً كبيرا من السطح ، والقمرات ، وسمعت لسقوطه دوياً يصم الآذان . تطايرت قطع من الأخشاب المحترقة والمتفحمة ، فى الهواء . وأصابنى بعض شظاياها ، ومع هذا فلم أتوقف .

وصلت إلى الباب الخارجى للممر المؤدى إلى القمرات ووجدته مشتعلا لم أعبأ بما قد يصيبنى ، ودفعته بأقصى قوتى . لم يكن متماسكا فسقط بسهولة ، وتخطيته إلى الداخل ، كانت النيران قد أمسكت فى كثير من الأماكن وأحسست بلهيب يلفح وجهى ، وابتدأ الدخان يملأ المكان حتى أننى شعرت بصدرى يضيق ، وانتابنى السعال ، ولولا هذه الرياح التى كانت تندفع من الكوات الضيقة لما أمكننى أن أتقدم ، ومع هذا فقد دمعت عيناى ، وشعرت بوجنتى تلتهبان ، وبأننى أكاد أن أختنق من شدة الحرارة .

تخطيت قمرتى إلى قمرة مرت سجر ، كان الباب موصدا ، حاولت أن أفتحه دون جدوى ، يبدو أن قوة الاصطدام قد حركته من مكانه ، فلم يعد فى الامكان فتحه . رميت بنفسى عليه ولم يتزحزح . إزداد سعالى ، بدأت أشعر بدوار من أثر الدخان الذى أستنشقه ، والدماء التى تنزف من ذراعى. شعرت بيد قوية تمس كتفى ، وإلتفت لأرى عنخو. كنت فى غمرة إحساساتى قد نسيته فلما ظهر عاودنى الأمل ، لم يتوان الرجل الجبار . ألقى بثقل جسده على الباب ثلاث مرات ، وفى الرابعة انفتح .

اندفعت إلى القمرة لأرى مرت سجر ما تزال مقيدة إلى الفراش هالنى منظرها حتى حسبت أنها ماتت إختناقاً ، ولكن ما أن قربت منها حتى أحسست بأنفاسها ضعيفة تتردد ، ونبضات قلبها تخفق . كان عنخو يمزق الحبال التى تقيدها. وإن هى إلا لحظات حتى كنت أحملها خارجاً . أراد العبد الأمين أن يحملها عنى إلا أنى رفضت ، وبصوت متهدج مبحوح ، طلبت منه أن يدخل قمرتى ، ويأتى بالصندوق الذى أحتفظ فيه بمذكراتى . نظر إلى دهشاً ، وهتف بكلمة واحدة .

— الذهب ؟ !

هززت رأسى نفياً ، أعدو بالفتاة خارجاً ، فلم يعد صدرى يتحمل أكثر من هذا استقبلنى هواء البحر المنعش ليرد إلى الحياة ، ويعيد ما طار من رشدى . توقفت أتمالك نفسى . وأستنشق الهواء بشدة وبدأ الدوار ينحسر عن رأسى ، والنظر يعود لعينى الكليلتين . بعد أقل من دقيقتين خرج عنخو حاملا صندوق البرديات التى سطرت فيها مذكراتى ، وملاحظاتى ، ورسوماتى عن الرحلة .

ثوان أخرى وتخطينا الحاجزين . كان القتال قد انتهى ، وجمع منتوسين الأسرى على سطح سفينة الأعداء منتظرا أوامرى فيهم . لا شك أن منظرى كان بشعاً لأنه ما أن رآنى حتى هرع إلى ومعه حقانخت وتناولا الفتاة الفاقدة الرشد من ذراعى ، هنا أحسست بمدى الاعياء الذى ينتابنى . لو أنى

تركت نفسى لأحاسيسى لسقطت على الأرض ، وفقدت الشعور إلا أننى كنت أعلم أن أمامى مهمة يجب أن تكتمل .

أصدرت أوامرى إلى الرجال بسرعة نقل جرحانا ، وقتلانا من سفينتنا السابقة إلى الحالية ، وأخطرت منتوسين بنقل أسرى العدو إلى سفينتهم الثانية على أن يتركوا وحظهم فى البحر إن استطاعوا انقاذها نجوا ، وإلا ... لم تكن النيران قد أتت عليها كما فعلت سفينتنا ، ولهذا كان ما يزال لديهم فرصة للنجاة . لم أنتظر أن أتابع تنفيذ تعليماتى ، فقد خارت ركبتاى ، ولم أعد أشعر ، وبدأ الظلام يحف بى من كل جانب .

فى أواخر شهور اخت (أكتوبر) وصلنا إلى تامرى دون حادث يذكر سوى أن حرس السواحل ظنوا فى مبدأ الأمر أننا فينيقيون يهاجمون الساحل ، وكاد أن يقع بيننا وبينهم قتال ، لكن سرعان ما تبينوا خطأهم خاصة وأن بعضهم تحقق من شخصيتى ، علمت بأن أمورا كثيرة محزنة قد حدثت فى السنوات الثلاث التى أمضيناها فى رحلتنا .

علمت أن الرب الطيب الفرعون نخاو الأول قد توفى ، وأن نجله الفرعون بسامتيك الثانى قد اعتلى العرش ، وأنه قرب إليه الأكوايوشا (اليونانيين) أكثر مما فعل أبوه ، حتى أن سلطتهم شملت كل صغيرة وكبيرة فى البلاد . أنشأ لهم مدينة خاصة بهم ، فى أخصب بقعة فى الدلتا ، واستعملهم فى التجارة ، والجيش ، والإدارة حتى أن وزيره ومستشاره الأول كان منهم . إستبعد الفرعون كل أهل تامرى ، وأحاط نفسه بهذه الطغمة من الأجانب علماً منه أنهم سوف يدافعون عنه ... لقد أثبتت الأيام فيما بعد كم هو مخطئ .

أردت أن أتوجه من فورى إلى تزان (صالحجر) حيث كان القصر الفرعونى ، إلا أن حقانخت نصحنى بالتروى وقال :

— إن الفرعون كما تعلم محاط بأولئك اليونانيين ، ولن يدعوه يعرف أهمية الرحلة ، بل وسينقلون بردياتك جميعها إلى اليونان ، إن كل من مات أو فقد من رجالنا إنما فقد فى سبيلها ، وله بذلك نصيبه فيها . أعطى أسبوعاً

واحدا ، وسأجند كل معلمى دار الحياة ، وكهنة آمون رع لعمل نسخة أخرى منها لتحفظ فى المعبد ، ربما يأتى يوم نستفيد منها .

رأيت أن فى رأيه الكثير من الوجاهة فوافقت ، وأمضيت الأسبوع مع مرت سجر فى قصرى فى نبوت نحج (منف) . كان أسبوعاً حزيناً ، كلما غربت شمس أحد أيامه تثاقل اليوم الذى يليه ، وازددنا هماً .

قبل اليوم الأخير لموعد حقانخت سألتنى :

ــ هل حقـاً سوف تسلمنى إلى فرعونك ؟ .

أجبت بحزن :

ــ أجل .

ــ لكن الفرعون الذى كنت تخدمه مات ، وهذا هو فرعون جديد ، وأخى إنما وهبنى إلى ذلك الذى مات .

ــ كلا يا مرت إن هذا وريثه ، وصاحب الحق الشرعى فيك .

ــ هل ستضحى بى من أجل شرفك وكرامتك ؟ وأنا ... ما ذنبى ؟ ألا تراعى شعورى ، وأحاسيسى؟ دعنى أقول لك إنه لن ينالنى أحد سواك .

كان قلبى يتمزق وهى تتكلم ، وصرخت :

ــ كفى يا مرت ... ! ألا ترين ما تفعلين بى ! ؟ إننى لا أستطيع أن أفعل سوى ذلك .

° ° °

إذا كنت قد ظننت أنى سأقابل الفرعون بمجرد وصولى فقد وهمت ، وقف الحرس الاكوايوشا (اليونانى) يمنعنى من الدخول ، وجاء أحـــد ضباطهم ليخبرنى أن على أن أقابل الوزير أولا ، وهو الذى سوف يقرر إن كنت سأحظى بالمقابلة السنية أم لا . لم أقبل هذه المعاملة وصرخت فى الضابط :

ــ إننى قائد فى جيش الفرعون ، وبحريته وأحد نبلاء تامرى !

ــ هذا لا يعنينى .

وضعت يدى على قبضة حسامى ، وكدت أن أصرع الوقح لولا أنى تذكرت أن أمامى مهمة على أن أقضيها أولا . تغاضيت عن الإهانة ، وطلبت أن يرشدنى إلى مقر الوزير اليونانى فأجاب بصلافة .

— إن عليك أن ترى أحد سكرتيريه ، وهو الذى سوف يحـــدد لك الموعد المناسب .

أشار إلى أحد الجند ليصحبنى . كان السكرتير بدوره يونانيا . سألنى عن اسمى ، ورتبتى ، وسبب المقابلة ولم أر بدآ من إجابته . بعد أن استمع إلى قال :

— أين البرديات التى تتكلم عنها ؟

— إنها فى قصرى هنا .

— إذآ عليك أن ترسلها إلى ، وسأرفع الأمر إلى جناب الوزير ، وربما اطلع عليها وحدد لك موعدا لمقابلته .

— متى ؟

— حينما يكون لديه فراغ كاف لقراءة البرديات ، فاذا رأى أن المسألة تستحق ، فسوف يحدد لك موعدا لمقابلته .

— إنى لا أرغب فى مقابلته إننى أود مقابلة الفرعون .

— هذا يقرره جناب الوزير . أرسل لنا البرديات ، وانتظر فى قصرك ، وسوف نرسل إليك بتحديد الموعد فيما بعد .

لم يكن أمامى إلا أن أفعل ما يريدون . أرسلت الصندوق ، وقبعت فى قصرى مع مرت فى إنتظار الموعد مع الوزير ، مر شهر كامل قبل أن يأتى رسولهم ، وحينما ذهبت أدخلنى سكرتير آخر إلى حجرة واسعة ، فاخرة الرياش ، جلس فى أقصاها رجل لم يتجاوز الأربعين . بالرغم من وجود مقاعد كثيرة لم يأذن لى بالجلوس ، ولم أر ما يدعونى إلى الاستمرار فى الوقوف أمام هذا الدخيل ، فقصدت مقعدآ جلست عليه .

استمر صامتا يرمقنى بنظرات حادة لفترة ، وأخيرا قال :

ــ إذاً أنت تدعى أنك قمت برحلة حول ليبيا ؟

ــ أنا لا أدعى ، إن كل شىء مسطور فى البرديات .

رفع أحد حاجبيه الكثيفين لكن صوته لم يتغير .

ــ ولماذا تريد مقابلة الفرعون ؟

ــ لأخبره بأن المهمة التى كلفنى بها والده العظيم قد تمت بنجاح .

ــ هل معك التكليف ؟

ــ أجل .

ــ أين هو ؟

ــ سأقدمه للفرعون شخصيا.

للمرة الثانية رفع حاجبيه :

ــ حسنا ، هل هذا هو كل شىء ؟

ــ ... كلا إن رجالى لم يقبضوا مرتباتهم أو أية مكافآت سوى عن سنة دفعت لهم مقدما ، وهم ولا شك أحق الناس بباقى أجر الثلاث سنوات ، ومكافأة إضافية أيضا .

ــ هذا إذا قرر الفرعون أنك حقا كنت مكلفا، وأنك قضيت السنوات الثلاث ، ومعك الرجال فى قضائها .

أين الذهب الذى تقول عنه إن ملك برباريا أعطاك إياها ؟

ــ إنه قد غرق مع السفينة كما سطرت فى البردية .

ــ هل تركته يغرق لتنقذ هذه البرديات فقط ؟

ــ ظننت أن تاريخ الرحلة أهم ، ولم أكن مكلفا باحضار ذهب ، وإنما بالالتفاف حول ليبيا.

ــ لماذا إذاً لم تدع الفتاة تغرق ، وتنقذ الذهب ؟

ــ إن الفتاة ملك الفرعون ، وأعتقد أن حياة بشرية أهم من الذهب .

لاح شبح إبتسامة على شفتيه وقال :

ــ لقد بقيت معك لأكثر من سنتين ونصف .. أجل لعل حياتها

بالنسبة لك أهم من الذهب ... حسنا سأخطر الفرعون لأرى إن شاء مقابلتك .

بهذا أنهى المقابلة . لم أرتح لكلامه ، ولا لبروده ، وثقته فى نفسه ، وحمدت لحقانخت ما فعله من نسخ صورة من البرديات .

مضى شهر آخر قبل أن يحددوا لى موعداً لمقابلة الفرعون ، ولم أقض الشهر خاملا . استدعيت منتوسين ، وحقانخت ، وأونى ، وعنخو ، وعقدت معهم إجتماعا . أخبرتهم بما تم ، كما قررت لهم أننى لا أتصور أن هذا اليونانى سوف يقول الحقيقة كاملة للفرعون ، أو أنه سيدفع مستحقات الجنود والضباط ، والبحارة . طلبت منهم أن يبيعوا ممتلكاتى التى تركها لى ، ويوزعوا ناتجها على الرجال .

ذهبت بعد ذلك لمقابلة الفرعون . كان جالسا على عرشه ، وإلى جانبه وقف الوزير ينظر حوله فى ملل . قبلت الأرض أمام الفرعون ، ولم أرفع رأسى حتى أذن لى . قبل أن أبدأ حديثى فاجأنى الفرعون .

— لقد عرض علينا جناب الوزير موضوعك ، وأحمد الله رب الأرباب أننا لن نقدمك إلى المحاكمة .

لم أتمالك أن رفعت رأسى دهشاً ، وفتحت فمى لأتكلم لكنه أشار بيده:

— باعترافك أنك بدأت الرحلة بأربع سفن ، وألف وخمسمائة رجل ، وكل المؤن ، والأموال التى طلبها رئيسك . فقدت كل السفن ، ولم تعد إلا بسبعة وعشرين وثلاثمائة ، رجل أى أنك فقدت كل شىء . بالإضافة إلى أكثر من ألف ومائة وسبعين رجلا . ليس هذا فحسب بل إنك باعترافك قد أودعت لديك هدية من ملك بارباريا ، صندوق ملىء بالذهب ، وفقدته . اذهب إلى منزلك ياكين إيم حتب ، واشكر طالعك السعيد أننا لا نود أن نقدمك إلى المحاكمة .

وقفت مذهولا لا أتصور أن مثل هذه العقلية ، تحكم تامرى ، وتتحكم ، فى مصائر شعبها ، ومع ذلك فقد رأيت أن من واجبى أن أحاول أن أفعل

شيئاً ، على الأقل لامحو تلك الإبتسامة التى ظلت مرتسمة طوال الوقت على وجه اليونانى . تجرأت قائلا .

ـــ أيها الفوعون لك الحياة والصحة والقوة إن هذه البرديات التى قدمت بها إنما تمثل آفاقا جديدة واسعة ، يمكن أن يستفيد من خبرتها الفرعون ، وشعبه ، لتعود تامرى أقوى دولة فى العالم .

بدا التردد على الفرعون . أطرق يفكر ثم رفع رأسه ليتكلم . قبل أن يقول شيئا تدخل اليونانى .

ـــ وماذا تريدنا أن نفعل ؟ أنرسل ، ونجهز رحلة أخرى لنتأكد من صدق ماورد فى برديتك ؟ إنك لم تعد بدليل واحد يقنع الفرعون بصحة ماذكرت . وربما كان كل هذا مجرد أوهام تخيلتها ، وقصة بالغت فيها لتبرر أفعالك ، وعلى أي الأحوال فإن ميزانية تامرى لا تتحمل مصاريف تجهيز رحلة أخرى ، حتى إن كنت صادقا ، ثم أنه يبدو أنك نسيت أن الفرعون قد تكلم .

كنت أرقب الفرعون ، ووزيره اليونانى يتكلم . رأيت ملامحه تتغير ، وظهرت شخصيته الضعيفة واضحة أمامى . إذاً فقد كانت الرحلة جميعها وذهبت حياة الأشخاص الذين ماتوا ، أو قتلوا ، أو فقدوا هباء . بقيت نقطة أخيرة . سألت باقتضاب :

ـــ والفتاة ؟

ورد اليونانى :

ماذا ؟ تلك السمراء من بونت خذها لك هدية ، لدينا مئات من أمثالها ولا أعتقد أن الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة يهتم بأن تكون فى حاشيته فتاة قضت مع أحد رعاياه أكثر من سنتين ونصف .

فهمت أن الخبيث لا يريد أن يكون أحدا ممن قاموا بالرحلة قريبا من الفرعون . حتى المصادفة أراد استبعادها ... إنحنيت ، وتراجعت بظهرى تاركا الفرعون ووزيره ... وذهبت إلى مرت سجر .

فهرست

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٧٠ / ١٩٨٠

مطبعة الأمانة ٣ ش جزيرة بدران — القاهرة

كتب أخرى للمؤلف

1. القوى الخفية نظرات فى تاريخ السحر.
2. النسر والصقر بداية الصراع.
3. عباقرة الأسلاف.
4. المرتد.
5. قصص أخرى.
6. قصص وأساطير فرعونية
7. أول الرواد.
8. الرب والله وجوجو «ترجمة»

الناشر

مؤسسة المصرى للكتاب

الثمن ١٧٥ قرشا